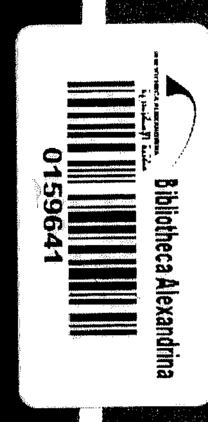
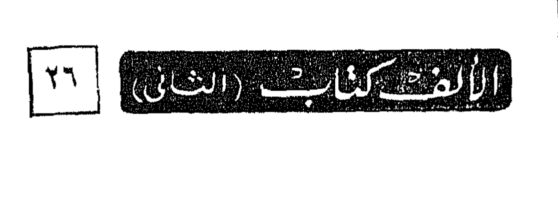
الألف كتاب (الثانى) ٢٦

رسائل وأحاديث من المنفى

تأليف : فكتور هوجو

ترجمة : أحمد رضا محمد رضا





رسائل وأحاديث من المنفى

رسائل وأحاديث من المنفى

تأليف : ڤيكتور هوجو

ترجمة : أحمد رضا محمد رضا

مراجعة : محمود خليل النحاس



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

تصميم الغلاف : محمد قطب

الاخراج الفنى : مراد نسيم

الاشراف الفنى : عفاف توفيق

ما هية المنفى

١

القانون المجسد ، هو المواطن ، أما القانون المتوج فهو المشرع ٠ وكانت الجمهوريات القديمة تتمثل القانون متربعا على مقعد من قبيل مقاعد القضاة الرومان العاجية ، وفى يده صولجان ، هو القانون ، ومشتملا بالنوب القرمزى ، رمز السلطة ٠ وكانت هذه الصورة صادقة ، لا يختلف المثل الأعلى فى الوقت الحاضر عنها فى شيء ٠ ولابد لكل مجتمع منظم من قانون مقدس ومسلح ، مقدس بالعدالة ، ومسلح بالحرية ٠

لم تذكر لفظة القوة فيما قلناه آنفا ٠ ومع ذلك فالقوة موجودة ، وانما لا وجود لها خارج القانون ، بل وجودها فى داخله ٠

القانون قوة ٠٠

فماذا هناك خارج القانون ؟

العنف ٠٠

وليس هناك سوى ضرورة واحدة ، تلك هى الحقيقة ٠ ومن ثم فليس هناك غير قوة واحدة ، هى القانون ٠ والنجاح فى خارج الحقيقة والقانون انما هو نجاح ظاهرى ، ينخدع فيه الطغاة بنظرهم القصير ، فيخالون الكمين الناجح نصرا ، ولكنه نصر ملؤه الرماد والأجداث ٠ ويعتقد المجرم أن جريمته عون له ، ولكنه مخطىء ، فجريمته هى مؤدبته ٠ فالقاتل يقطع جسده دائما بسكينه ، والخيانة تفضح دائما كل خائن ، والجريمة شبح خفى يطبق على أعناق المجرمين دون أن يدركوا ذلك ٠ والعمل السيىء لا يطلق سراح مقترفه ٠ وتنتهى أحداث الثامن عشر من شهر « برومير » بالكبار فى واترلو ، كما تنتهى أحداث الثانى من ديسمبر بالصغار فى سيدان ، يتم كل ذلك بصورة حتمية ، فى طريق قاس لا يرحم يؤدى الى

مستنقعات الدم من أجل المجد ، والى مهاوى الأوحال التى يغوص فيها العار ٠

وعندما يقدم أصحاب العنف والخونة على تجريد القـانون ونزع سلطانه ، فانهم لا يعرفون عندئذ ما يصنعون ٠

٣

النفى هو تجريد القـانون ، وليس ثمـة شيء أفظع منه ٠ ولكن بالنسبة لمن هو فظيع ؟ بالنسبة للمحكوم عليه بالنفى ؟ كلا ، انه فظيع بالنسبة الى من قضى به ٠ فالقصاص ينقلب على الجلاد فينهشه ٠

وليس ثمة ما هو أشد ارهابا لنفوس الأشرار المتوجين من رجل حالم ينجول وحيدا على ساحل رملى ، ومن صحراء تحيط بمفكر ، ورأس هرم هادىء تحوم حوله طيور العواصف دهشة حائرة ، ومثابرة فيلسوف على مشاهدة بزوغ الفجر المهدىء للنفوس ، والاله الذى يستشهد الناس به من وقت لآخر أمام الصخور أو الأشجار ، ورجل هزيل لا يفكر فحسب، بل أيضا يتأمل ، وشعرات تتحول فى العزلة من سوداء الى شهباء ، ومن شهباء الى بيضاء ، ورجل يشعر بأنه يتحول الى شبح بمرور الأيام ، وكر السنوات الطوال على ذلك الغائب الذى لم يزل مع ذلك على قيد الحياة ، وهيبة ذلك الانسان المحروم ، وحنين ذلك البرىء الى الأوطان ٠

ومهما فعل أصحاب السلطة المطلقة المؤقتون ، فان القاعدة الأبدية تناهضـهم ، فليس لهم من شيء سـوى الصفحة السطحية من الحقيقة الثابتة ، أما الباطن فانه من شأن المفكرين ٠ أنتم تنفون رجلا ٠ فليكن ٠ ثم ماذا ؟ تستطيعون أنتم أن تنتزعوا الشجرة من جذورها ولكنكم لن تستطيعوا أبدا أن تطفئوا نور السماء ٠ ان الفجر آت عن قريب ٠

ومع ذلك فلنكن عدلا مع الذين قضوا بالنفى ، فهم منطقيون ، كملة ، بغيضون ، يفعلون كل ما فى استطاعتهم لاهلاك المنفى ٠

فهل ينالون مأربهم ؟ هل ينجحون ؟ لا ريب فى ذلك ٠

هاكم رجلا تحطم حتى لم يعد يملك سوى شرفه ، وتجرد من كل شيء حتى لم يعد له سوى ضميره ، وانعزل عن الدنيا حتى لم يبق بالقرب منه سوى العدالة ، وأنكره الناس حتى لم يبق معه سوى الحقيقة ،وألقى به فى الظلمات حتى لم يبق له سوى الشمس ٠ ذلك هو رجل المنفى ٠

٣

النفى ليس شيئا ماديا ، انه شيء معنوى ، كل أركان الأرض عنده سواء • ضاحكة ، تناسبه كل الأحلام • على أن يكون فى ركن مظلم ، وأفق فسيح •

وأرخبيل المانش رائع فتان بصفة خاصة ، قريب الشبه من الوطن ، فرنسا • وجيرسيى وجيرنسيى قطعتان من بلاد الغال ، قطعهما البحر عنها فى القرن الثامن • وكانت جيرسيى أكثر فتنة ودلالا من جيرنسيى ، وانما أقل منها جمالا • فى جيرسيى تحولت الغابات الى حدائق ، أما فى جيرنسيى فقد ظلت الصخور ضخمة ماردة • هنا مزيد من الجمـال ، وهناك مزيد من الجلال • الانسان فى جيرسيى كأنه فى نورماندى ، أما فى جيرنسيى فهو فى بريتانى • جيرسيى باقة شاسعة كمدينة لندن ، كل ما فيها عطر ونور وابتسام ، وهى مع ذلك فى مهب العواصف • وصف كاتب هذه الصفحات جيرسيى فى موضع ما بأنها « أنشودة فى قلب البحر » • كانت جيرسيى فى العصور الوثنية أكثر ما تكون رومانية ، أما جيرنسيى فكانت فى الأغلب كلتية • فى جيرسيى يشعر الانسان بوجود جوبيتر ، أما فى جيرنسيى فانه يشعر بوجود « توتاتيس » (١) • وفى جيرنسيى اختفت الشراسة ، وانما بقيت الوحشية • من كان فى جيرنسيى فى الزمان الماضى درويديا (٢) أصبح اليوم من الهيجونوت (٣) ولم يعد ثمة مولوخ (٤) ، بل كلفن • والكنيسة باردة ، والمنظر الطبيعى فيه احتشام وحياء ، والدين فيه سماحة • وبالاجمال فان الجزيرتين فاتنتان : احداهما لطيفة والثانية نفور ••

وذات يوم قدمت ملكة انجلترا ، أو بالأحرى دوقة نورماندى التى يقدسها الناس ستة أيام كل أسبوع ، قدمت لزيارة جيرنسيى ، فاستقبلت بطلقات المدافع والدخان والصخب والاحتفال • وكان ذلك فى يوم أحد ، وهو اليوم الوحيد فى الأسبوع الذى لا تقدس فيه الملكة ، ومن ثم أصبحت فى ذاك اليوم امرأة عادية ، ولكنها نقصت راحتها المقدسة ، ونزلت على رصيف الميناء وسط الجمهور الصامت • ولم يكشف لها أحد عن رأسه •

---

(١) كبير الآلهة فى بلاد الغال ، وكان الأهالى فى ذلك الوقت من الكلت — المترجم

(٢) الدرويديون ، كهنة الشعوب الكلتية ورجال الطب فيها ، وبخاصة فى بلاد الغال وبريطانيا — المترجم •

(٣) بروتستانت فرنسا المعتنقون مذهب كلفن — المترجم ••

(٤) اله الحرب عند قرطاجة ، وكان يطلب التضحية بالبشر — المترجم •

ولكن رجلا واحدا فقط هو الذى حياها ، ذلك هو المنفى الذى يتحدث ها هنا ·

ولكنه لم يحى ملكة ، وانما حيا امرأة ·

وكانت الجزيرة الوفية قاسية جافة · ولهذه الصرامة فى الخلق ما لها من عظمة ·

ولم تترك جيرنسيى للمنفى سوى ذكريات طيبة · ولكن للنفى وجود فى خارج المنفى · ويمكن القول اجمالا انه ليس ثمة نفى جميل ·

المنفى هو البلد القاسى ،الأشياء فيه كلها مقلوبة ،لا تصلح للسكنى، متهدمه ، جامدة ، فيما عدا الواجب ، فهو وحده القائم الذى يبدو كقبة الكنيسة فى بلدة متهدمة ، أعلى من كل الأنقاض التى تحيط بها ·

المنفى مكان القصاص ··

القصاص ممن ؟

من الطاغية ؟

ولكن الطاغية يذود عن نفسه ·

٤

عليك أيها المنفى أن تتوقع كل شىء · انهم يلقون بك فى مكان قصى ، ولكنهم لا يدعونك وشأنك · فالذى نفاك رجل فضولى ، يحكم رقابته عليك · انه يدبر لك زيارات بارعة ومتنوعة · فثمة قس بروتستانتى مبجل يجلس فى دارك · هذا البروتستانتى يتناول مرتبا من خزانة « تروتسان ـ دوميرسان » · وثمة أمير أجنبى ، فى لسانه رطانة أجنبية ، يتقدم اليك · انه « فيدوك » أتى ليراك · ترى هل هو أمير حقيقى ؟ نعم ، انه من دم ملكى ، ومن رجال الشرطة أيضا · ويطرق دارك أستاذ متعمق فى مبادئه ، واذا بك تفجأه وهو يسترق النظر الى أوراقك · كل شىء ضدك مباح ، فأنت خارج على القانون ، أى خارج العدالة والمنطق والكرامة والحقيقة · وثمة من يقول ان لديه تصريحا منك بنشر أحاديثك ، واذا هو يهتم بجعل هذه الأحاديث سخيفة · وينسب اليك البعض كلاما لم تقله قط ، ورسائل لم تكتبها بالمرة ، وأفعالا لم تقترفها · يقتربون منك ليحسنوا اختيار الموضع الذى سوف يطعنونك عنده · ما أشبه المنفى بالمنور ، ينظر الانسان فيه وكأنه ينظر فى جحر حيوان ، فأنت به معزول ومراقب · لا تكتب الى أصدقائك فى فرنسا ، فخطاباتك مباح فتحها ، بتصريح من محكمة النقض · احترز من علاقاتك بالناس فى المنفى فانها تؤدى الى أمور غاضبة ؟ فالرجل الذى يبتسم لك فى جيرسيى يثلبك فى باريس · وثمة من يكتب فى جيرسيى نفسها ضد

أهل المنفى صفحات جديرة بأن يهدى الى رجال الامبراطوريه . ولكنه يبررها فيكتب اهداءها الى أصحاب بنك « بيرير » • واعلم أن كل هذه الأمور بسيطة فأنت في الحجر الصحي « الكورنتينه » • واذا جاءك انسان سريف ليراك فالويل له ، الحدود في انتظاره وعندها الامبراطور في ثوب الشرطة • ولسوف يجردون النساء من ثيابهن بحثا عن كتاب لك يخفينه • فاذا قاومن واحتججن قيل لهن : لا نقصد من هذا مشاهدة مفاتنكن » •

أما السيد ، وهو أيضا الخائن ، فانه يحيطك بمن ساء من الناس • فالحاكم يستطيع أن يستغل شخصية المنفى ، يضفيها على عملائه ، فليس ثمة أمان • احترس اذا تحدثت الى وجه انسان ، لأن وجه المستمع انما هو قناع • منفاك يسكنه شبح ، هو الجاسوس •

وثمة رجل مجهول شديد الغموض يأتيك فيهمس في أذنك ، ويصرح لك بأنه على استعداد لأن يقتل الامبراطور اذا شئت • انه بونابرت ، يعرض عليك أن يقتل بونابرت • وفي مآدبك التي تقيمها للاخوان ، يصيح بعضهم في ركن من الأركان : « يحيا مارا ! يحيا هيبير ! تحيا الجيوتين ! » (١) فاذا انتبهت اليه قليلا عرفت فيه صوت « كارلييه » • وتجد أحيانا الجاسوس يستجدي الناس ، فالامبراطور يسألك الاحسان عن طريق « بييتري » • وتعطيه صدقة فيضحك كما يضحك الجلاد • وتدفع الديون الخاصة بنفقات سكنى ذلك المنفى • انه من عمال الحكومة • وتدفع نفقات رحلة ذلك اللاجيء : انه شرطي • وتمر في الشارع فتسمع من يقول : « هذا هو الطاغية الحقيقي ! » ، انه يتكلم عنك ، وتدير رأسك ناحيته وتتساءل من عساه يكون هذا الرجل ، فيجيبك بعضهم : انه من المنفيين • كلا ، انه موظف جلف ، قبض أجره ، وهو جمهوري يوقع باسم « موباس » ، « كوكو » يتنكر في ثوب « شيكفولا » •

أما الابتكارات ، والخدع ، والدناءات ، فعليك أن تتقبلها . انها قذائف الامبراطورية •

وعليك بنوع خاص ألا تطالب بشيء فسوف تقابل بالسخرية • بعد المطالبة تبدأ الاهانة ، وهي نفس الاهانة ، لا يهتم أحد بتنويعها اذ ما الفائدة من تغيير الأسلوب ، فأسلوب الأمس حسن • ولسوف تستمر الاهانات كل يوم دون انقطاع ، بذلك الهدوء المستقر والضمير المرتاح الذى تتمتع به العجلة التي تدور والذمة الخربة التي تكذب • وليس ثمة ثأر •

---

(١) المقصلة ـ آلة اعدام ، تقطع رأس الانسان بسكين ـ اخترعها دكتور جيوتين ـ وكانت سائعة الاستعمال في فرنسا ابان الثورة الفرنسيه ـ المترجم •

أما الاهانة فانها تندعم بالدناءة · الحشرة حقيرة ، تنقذها حقارتها من الهلاك ، اذ يستحيل سحق الشيء الذي يساوي الصفر · أما النميمة التى تعرف قطعا أنها فى حصانة من العقاب ، فانها تستشرى وتستمتع ، وتهبط الى دناءات حقيرة لدرجة أن فى انكارها حطة أسد من الغثيان الذى يصيب الانسان الذى يعانيها ·

والقادحون يوجهون سبابهم الى جمهور المغفلين ، وهذا أمر جد مضحك ·

نخلص من ذلك انه من العجيب انك لا ترى الافتراء عليك أمرا طبيعيا · ألست هناك من أجل ذلك ؟ ايه لك أيها الرجل الساذج ، أنت هدف لذلك · فثمة شخص أصبح عضوا بالأكاديمية لأنه أهانك ، وآخر ظفر بوسام الصليب لمثل هذا العمل الباسل ، فقد منحه الامبراطور هذا الوسام فى ميدان الشرف ، ميدان النميمة · وثمة شخص آخر تحلى أيضا باهانات صارخة ، فعين من أجلها حاكما · اهانتك عمل مربح · ومن الضرورى أن يعيش الناس · يا للعجب ، لماذا نفيت ؟ كن عاقلا ، فأنت مخطىء · من حملك اذن على الحكم بان الانقلاب السياسى أمر سيىء ؟ ترى أية فكرة دفعتك الى الكفاح فى سبيل الحق ؟ وأية نزوة اعتملت فى نفسك فجعلتك تثور دفاعا عن القانون ؟ هل يدافع الانسان عن الحق وعن القانون حين لا يكون فى صفهما أحد ؟ هاكم الزعماء المضللون ، من العبث مصابرتهم ومعاندتهم ومناهضتهم · فثمة رجل واحد يطعن الحق ويغتال القانون · ومن المحتمل أن يكون له حججه وأعذاره · فلتكن مع هذا الرجل ، فالنجاح يكسبه الحق · ولتكن مع النجاح ، لأن النجاح يصبح هو الحق · ولسوف يحمدك الناس على ذلك · ولسوف تثنى عليك · وسوف تغدو عضوا فى مجلس الشيوخ بدلا من أن تكون منفيا ، ولن تبدو أبله فى عيون الناس ·

هل نجرؤ على التشكك فى حق هذا الرجل ؟ ولكنك ترى جيدا أنه قد أفلح ! وتعلم تمام العلم أن القضاة الذين اتهموه يقسمون له يمين الولاء ! وتشهد أن القساوسة والجنود والأساقفة وقادة الجيوش كلهم معه ! أتعتقد أنك تملك من الفضائل أكثر من كل هذا ؟ أتريد أن تقاوم كل هذا ؟ على رسلك يا هذا ! انك لتجد فى صفه كل ما هو محترم وجدير بالاحترام ، وكل ما هو موقر وجدير بالتوقير ، ثم تجد نفسك فى الجانب الآخر · انه لأمر سخيف ، وانا لنسخر بك ، وحسبنا نفعل · الكذب ضد الأخرق شيء مباح · الأشراف كلهم ضدك ، ونحن أهل الوشاية والنميمة مع الأشراف · هيا ، فكر ، واعرف نفسك · لابد من انقاذ

المجتمع · ممن ؟ منك · بأى شىء كنت تهدد هذا المجتمع ؟ بالغاء الحروب والشنق وعقوبة الاعدام ، وبالتعليم الالزامى المجانى ، فيعرف الناس كلهم القراءة ! انه لشىء فظيع · كم من أنظمة خيالية مثالية كريهة ! المرأة القاصر تصبح رشيدة ، وهذا النصف من الجنس البشرى يشترك فى الانتخابات العامة ، والزواج يتحرر بالطلاق ، والطفل الفقير يتعلم كما يتعلم الطفل الغنى ، فتتم المساواة بفضل التعليم . وتنخفض الضرائب أولا ثم تلغى بهدم الوساطات الطفيليه ، وتأجير المنشئات الأهليه ، وتحويل مياه المجارى الى أسمدة ، وتوزيع الأموال العامة ، واستصلاح الأراضى البور ، واستغلال الفائض الاجتماعى · وترخص المعيشة ، بتربية الأسماك فى الأنهار ، وزوال الطبقات والحدود والقيود وقيام الجمهورية الأوربيه ، وتوحيد النقد فى القارة الأوروبية ، وتداول الأموال والثروات ومضاعفتها: يا لكل ذلك من حماقات ! لابد من الاحتراز ضد كل هذا ! عجبا ! أيستقر السلام بين الناس كلهم ، فلا يكون ثمة جيوش ولا خدمة عسكرية ! كيف ! أنزرع أرض فرنسا بكيفية يمكن معها اطعام مائتين وخمسين مليونا من الأنفس ، ولا تكون ثمة ضرائب ، فتعيش فرنسا من ايراداتها الخاصة ! كيف ! أتعطى المرأة صوتها فى الانتخاب ، ويصير للولد حقوقا قبل أبيه ، ولا تكون الأم فى أسرتها خادمة ذليلة ، ولا يملك الزوج حق قتل زوجته ! كيف ! ألن يكون القس هو السيد ! كيف ! ألن تكون هناك معارك أو جنود أو جلادون ، ولا مشانق ، أو جيوتين ! ولكن هذا شىء رهيب ! لابد من انقاذنا · لقد فعل الرئيس ذلك ، فليحيا الامبراطور ! أنت تناضله ، فلنقطعك اربا ، وسنكتب عنك أمورا شتى · انا نعلم تمام العلم أن ما نقوله هذا غير صحيح ، ولكنا نحمى المجتمع ، والنميمة التى تحمى المجتمع شىء فى الصالح العام · وطالما كان القضاء مع الانقلاب السياسى ، فان العدالة هى أيضا معه · وطالما كان الكهنوت مع الانقلاب ، فالدين أيضا معه · والدين والعدالة وجهان طاهران ومقدسان ، وكذلك شأن النميمة التى تخدم الدين والعدالة ، فهى تقاسمهما الشرف والجدارة· انها — أى النميمة — امرأة عاهرة · فلتكن كذلك ، ولكنها تخدم عذراوات طاهرات ، ومن ثم نحترمها ·

وعلى هذا النحو يتعلل السبابون ··

وأفضل ما يفعله المنفى أن يفكر فى شىء آخر ··

٥

ما دام هو على شاطىء البحر ، فليستفد من ذلك · ولتمنحه تلك الحركة الدائبة تحت الفضاء اللانهائى الحكمة · العقل · وليتأمل فى توائب

الأمواج على الساحل دواما ، واعتداء الفرية على الحقيقة · ضروب القدح والتشهير لا طائل من ورائها · فليتأمل الموجة وهى تبصق على الصخرة ، ويتساءل ماذا نجنى من وراء ذلك ، وماذا يخسر الجرانيت بسبب ذلك ·

كلا ، لا سر ضد الاهانة ، ولا تبدد مشاعرك ، ولا تطلب الثأر ، واخلد الى هدوء صارم · الصخرة تقطر ماء ولكنها لا تتحرك · انها تلمع أحيانا بما يسيل عليها من ماء · والنميمة تتلألأ في النهاية كالثريا · واذ يلمح الانسان شريطا فضيا على الوردة ، يدرك أن دودة قد مرت عليها ·

ما أروع البصقة على جبين المسيح !

وثمة قسيس يدعى سيجور ، قال عن جاريبالدى انه جبان ، وأردف بتشبيه بارع : « كالقمر » — جاريبالدى جبان كالقمر ! يا لها من متعة للذهن ! ويتفرع من ذلك بعض النتائج · فأشيل جبان ، اذن ثيرسيت شجاع ، وفولتير غبى ، اذن سيجور ذكى ·

فليؤد المنفى واجبه ، وليترك القذف والتشهير يعملان عملهما ، وليصمت المنفى المطارد المفضوح المهزأ الذى يسبه الناس وينهشون عرضه ·

يا لعظمة الصمت !

ومن ثم فان محاولة اخماد الاهانة انما تزيدها اشتعالا ، وكل ما يلقيه الانسان على الفرية يصير لها وقودا · الاهانة تستغل كل ما تحويه من عار ، ومقاومتها انما تؤدى الى ارضائها · الفرية فى الأصل تقدر المفترى عليه كل التقدير ، ولكنها تعانى وتموت اذا احتقرها الانسان · انها تصبو الى شرف التكذيب ، فلا تكذبها حتى لا تمنحها هذا الشرف · واذا صمعت كان ذلك دليلا على أن الناس قد انتبهوا اليها ، فتكشف عن وجهها المتقد وتقول : « اذن فأنا حية أرزق ! » ·

٦

وفضلا عن ذلك فمم يشكو المنفيون ؟ تأمل فى التاريخ كله تجد العظماء قد أهينوا أكثر من المنفيين ·

الاهانة عادة قديمة فى الانسان ، ورمى الأحجار متعة الأيدى الخاملة . والويل لكل من يتعدى الحدود السوية : فمن طبيعة الذرا أن ترمى الصواعق من عليائها ، وتستثير الرجم بالأحجار من أسفل · تلك هى غلطة الذرا ، فلم كانت كذلك ؟ انها تشد اليها الأنظار والاهانات ·

والرجل الحسود لا ينقطع مسيره فى الطريق ، ووظيفته الحقد ، ونحن نلقاه دواما ، قميئا ، ثائرا ، فى ظلال الصروح العالية .

أمام الأخصائيين دراسات يجرونها بحثا عن أسباب الأرق الذى يصيب العظماء . فهوميروس ينام ملء جفنيه ، ولكن يؤرقه زويلى . أما ايسخولوس فيحس على جلده بلسعة يوبوليس وكراتينوس . ومثل هذه المخلوقات الحقيرة كثيرة ، فميفبوس يتهجم على فيرجيل ، وليسيليوس على هوراس ، وكوردروس على جوفينال ، وتشيكى على دانتى ، وجرين على شكسبير ، وسكوديرى على روترو ، والأكاديمية على كورنيى ، ودونو دو فيزيه على موليير ، وديفونتين على مونتسكيو ، ولابوميل على بوفون ، وباليسو على جان جاك روسو ، ونونوت على ديديرو ، وفريرون على فولتير . المجد سرير مذهب ملء بالبق .

المنفى ليس هو المجد ، ولكنه يشترك مع المجد فى شىء واحد ، ذلك هو الحشرة . والناس لا يتركون المصائب وشأنها . فرؤية المنفى وهو نائم نوما عميقا يغيظ جامعى فتات الخبز من تحت موائد نيرون وتيبير . يا للعجب ، كيف ينام ؟ انه اذن سعيد ، فلنقرصه !

الرجل المجندل ، المطرود من الديار ، الذى يفترش الغبراء (وهذا شىء ميسور اذا كان الصنم المعبود هو فيتيليوس ، والدنس هو جوفينال)، والمنفى ، والمحروم من الارث والمهزوم ، كل هؤلاء محسودون. الشىء العجيب أن للمنفيين حسادا . وهذا شىء فهمه ميسور خاصة لدى أصحاب الفضائل السامية حين يغارون من المصائب الكبيرة . مثل كاتـون حين يحسد ريجولوس ، وثرازياس حين يحسد بروتوس ، وراب حين يحسد باربيس ، ولكن الأمر ليس كذلك . ان الأوغاد هم الذين يوغلون فى الغيرة من أصحاب العظمة والهيبة . ان من يتضرر من احتجاج المهزوم المترفع هو الشخص التافه الدنىء . فجوستاف بلانش يغار من لوى بلان ، وباكولار يغار من ميلتون ، وجوكريس يغار من ايسخولوس .

السباب فى الزمان الماضى لا يسير الا خلف مركبة المنتصر ، أما السباب فى الوقت الحاضر فانه يسير فى أعقاب المهزوم . والمهزوم تنزف دماؤه ، ويضيف السبابون وحلهم على هذه الدماء . فليكن ، ولتكن لهم هذه المتعة . وتبدو هذه المتعة حقيقة واقعة حتى ان الرئيس لا يمقتها ، وهى تنال عادة أجرا لها .

وتتكشف مكنونات القلوب عن فضائح علنية . وللطغاة فى حربهم ضد المنفيين تابعان : **أولهما** : الحسد . **وثانيهما** : الرشوة والافساد .

وعندما يتحدث الانســـان عن ماهية النفى ، لابد أن يذكر قليلا بعض التفاصيل • ويدخل فى هذا الموضوع الاشارة الى بعض الحيوانات القارضة ، وكان يحدر بنا أن نطرق علم الحشرات •

٧

تلك هى الجوانب الصغيرة فى موضوع المنفى ، واليكم الآن الجوانب الكبيرة • التأمل ، والتفكر ، والمعاناة •

أن يكون الانسان وحيدا ، ويشعر مع ذلك بأنه مع الجميع ، أن يلعن نجاح الشر ، ولكن يرنى لسعادة الشرير ، أن يؤكد ذاته كمواطن ، وتتطهر نفسه كفيلسوف ، أن يكون فقيرا ، ثم يرمى حطامه بعمله ، أن يفكر ويتدبر : يفكر فى الخير ، ويتدبر أفضل الأشياء ، لا يغضب الا مع جمهور الناس ، ويتجاهل الأحقاد الشخصية ، ويستنشق الهواء المنعش الفسيح ، هواء الوحدة والعزلة ، ويسبح فى الحلم المطلق الشاسع ، وينظر الى ما فى الأعالى دون أن تفوته رؤية ما فى الأسافل ، ولا يبالغ فى تأمل المثل العليا الى حد نسيان الطاغية ، ويدرك فى ذاته ذلك المزيج الرائع من السخط النامى والتهـــدئة المتزايدة ، وأن تكون له نفســـان : ذاته والوطن •

وثمة شيء عذب رقيق ، ذلك هو الشفقة الحاضرة : من ذلك أن يتزود المرء بالرحمة والحنان نحو المذنب حـين يقع صريعا ويركع على ركبتيه ، ويعاهد نفسه ألا يرد أبدا يدين متوسلتين • ان الانسان ليشعر ببهجة عظيمة حين يقدم لأولئك الذين يتوقع هزيمتهم فى المستقبل وعدا بالكرم والضيافة • وقد اعتاد رفاق كاتب هذه السطور فى المنفى أن يسمعوه وهو يقول : « اذا حدث ذات يوم ، فى غداة انقلاب سياسى ، أن هرب بونابرت وجاء يطرق بابى ويسألنى اللجوء والحماية ، فلن تسقط شعرة واحدة من رأسه » •

هذه التأملات التى تختلط بنوائب الدهر كلها ، ترضى ضمير المنفى، ولكنها لا تمنعه من أداء واجبه ، بل انها على العكس من ذلك تشجعه على أداء هذا الواجب • فلتكن اليوم قاسيا ، بقدر ما تكون فى الغد رحيما ، ولتبعث الرهبة فى قلب الشديد الجبار حتى يأتى اليوم الذى تأخذ فيه بيد الذليل المتضرع • وفى المستقبل ، لن تقرن بعفوك الشامل غير شرط واحد : التوبة • أما اليوم ، فانك تواجه الجريمة الناجحة • فلتضرب •

الجهد العظيم والحلم الكبير هو أن تحفر الهاوية للعدو المنتصر ،

ونعد المأوى للعدو المنهزم ، وتقاتل بأمل أن تعفو · أضف الى ذلك بذله النفس للتخفيف من آلام الناس · والمنفى يمنع بلون جليل من القناعة ، القناعة بأن يكون انسانا نافعا · واذا كان هو نفسه جريحا تنزف منه الدماء ، فهو ينكر ذاته ، ويبذل غاية جهده فى تضميد جراح البشر · وقد يتبادر الى الذهن أنه يعيش فى الأحلام ، ولكنه انما يبحث عن الحقيقة ، بل نقول انه يعسر عليها · انه يتجول فى الصحراء ، ويفكر فى المدن ، والهرج والمرج ، والزحام ، وفى ألوان البؤس ، وفى كل الأعمال ، يفكر فى الفكر ، والمحراث ، والابرة وأنامل العاملة الحمراء وهى فى حجرتها العلويه الباردة الخالية من النار والوقود ، يفكر فى الشر الذى ينمو حيث لا يبذر الخير ، فى بطالة الأب ، وجهل الطفل ، ونمو الأعشاب الضارة فى العقول التى حرمت من التثقيف ، يفكر فى الشوارع فى المساء ، والمصابيح الشاحبة ، وما يصنعه الجوع فى المارة بالطرقات ، والحاجات الاجتماعية المتطرفة ، والفتاة التعسة التى تصير عاهرة بخطيئتنا نحن الرجال · بحوث مؤلمة ولكنها مفيدة · احتضن المشكلة بقوة ، ينبجس الحل ، المنفى ـ يحلم على الدوام · خطواته التى يخطوها على شاطىء البحر لا تضيع سدى ، انه يتآخى مع تلك القدرة الهائلة ، مع الهوة ، وينظر الى اللانهاية ، وينصت الى صوت المجهول · الصوت الكبير الغامض يحدثه · الطبيعة كلهـا بعناصرها تهب نفسها لهذا الوحيد · والأشياء المماثلة تماثلا صارما نعلمه وننصحه · هذا المنحوس ، المضطهد المشغول الفكر ، يجد أمامه الغمائم والنسمات والنسور ، ويتأكد اله أن مصيره مرعد ومظلم كالغيوم ، وأن مضطهديه تافهون كالنسائم . وأن روحه حرة طليقة كالنسور ·

المنفى انسان خير ، يحب الورود ، وأعشاش الطيور ، وتجوال الفراشات · فى الصيف ينشرح صدره ابتهاجا بالحياة الحلوة · فى قلبه ايمان لا يتزعزع بالطيبة الخفية اللانهائية ، الطيبة الساذجة التى تصل الى درجة الايمان بالله · يتخذ من الربيع دارا له · أما الأغصان المتشابكة المليئة بالفجوات الخضر البديعة الجذابة ، فانها مأوى لروحه · يعيش حياته فى شهر أبريل ، فيسكن الطبيعة ويتأمل الحدائق والمراعى ، وتشيع فى نفسه الانفعالات العميقة · ويتربص بالأسرار التى تستبطنها حزمة من العشب · ويدرس تلك الجمهوريات ، جمهوريات النمل والنحل ، ويقارن بين الألحان المنوعة التى تتدافع فى أذن « فيرجيل » (١) خفى فى

---

(١) أعظم شعراء الرومان (٧٠ ـ ١٩ ق.م) ـ اشتهر بأشعاره الرعوية وديوانه عن الزراعة ـ أما ملحمته « الأنيادة » فهى أروع مؤلفاته الأدبيـــة ، قلد فيها الالياذة والأوديسا ـ المترجم ·

قصيدة الغابات . وكثيرا ما ترف أحاسيسه حتى تسيل منه الدموع لأن الطبيعة جميلة . ويجتذبه الأدغال بطابعها الوحشى ، ولكنه يخرج منها وجلا فى رفق . وتشغله أشكال الصخور . ويلمح خلال أحلامه بنات صغيرات فى الثالثة من العمر يجرين على الساحل الرملى ، وأقدامهن عارية تخوض فى ماء البحر ، وقد رفعن أزرهن بأيديهن ، كاشفات عن بطونهن الطاهرة أمام الطبيعة الخصبة الفسيحة . وفى الشتاء يلقى للطيور بفتات الخبز على الثلج . ويكتب لها بعضهم من وقت لآخر : ألغيت عقوبة كذا ، ولن تقطع رأس فلان . ويرفع يديه الى السماء .

٨

وتتبادل الحكومات المعونة ضد هذا الرجل الخطر ، وتتفق فيما بينها على اضطهاد المنفيين ، وعلى السجن والطرد ، بل وتتفق أحيانا على تسليم المجرمين . تسليم المجرمين ! نعم تسليمهم . وكاد أن يحدث مثل هذا الأمر فى جيرسيى عام ١٨٥٥ ، اذ شهد المنفيون فى يوم ١٨ أكتوبر السفينة « آرييل » من سفن البحرية الامبراطورية راسية على رصيف ميناء سان هيلييه ، **وكانت قد قدمت لتأخذهم ، اذ سلمت فيكتوريا** المنفيين لنابليون ، فالتيجان تتبادل مثل هذه المجاملات .

ولم يتم تسليم الهدية . كانت الصحافة الملكية الانجليزية قد هللت لها . ولكن شعب لندن نظر اليها بعين السخط ، وبدأ يزمجر . تلك هى طبيعة هذا الشعب . قد تكون حكومته كالكلب الصغير ، ولكنه هو شبيه بالكلب « الدوج » الكبير ، و « الدوج » هذا سبع فى جسم كلب . جلال مع الأمانة : ذلك هو الشعب الانجليزى .

لقد كشر هذا الشعب عن أنيابه . واضطر بالمرستون وبونابرت أن يكتفيا بابعاد المنفيين . وتأثر المنفيون بعض الشىء ، وتسلموا باسمين الاخطـار الرسمى المحرر بلغـة ركيكة وقالوا : فليكن « الابعاد » ، وارتضـوه .

واذا كان هناك فى تلك الآونة تواطؤ بين الحكومات وبين القاضى على النفى ، فقد كان من الملموس وجود مشاركة رائعة بين المنفيين وبين الشعوب . وكان هذا التضامن الذى سوف يتمخض عنه المستقبل يتبدى بجميع الأشكال ، وسوف نجد له دلالات فى كل صفحة من صفحات هذا الكتاب . ويتجلى هـذا التضامن ساطعا فى كل مناسبة يمر فيهـا أى شخص ، أو انسان منفرد ، أو مسافر تعرف شخصيته فى الطريق ،

وهذه وقائع غير محسوسة بالطبع ، وقليلة الأهمية ، ولكن لها دلالتها ٠ واليكم واقعة منها ، لعلها تستحق الذكر ٠

٩

في صيف عام ١٨٦٧ ، كان لوى بونابرت قد بلغ أقصى درجات المجد الذى يمكن أن تبلغه الجريمة ٠ كان فى الذروة ، اذ وصـل الى أسمى درجات الخزى والعار ، ولم تعد ثمة عقبة نعترضه ٠ كان رذيلا ، وكان عظيما ، ولم يكن هناك نصر أتم من نصره ، اذ يبدو أنه قد انتصر على الضمائر ٠ كان أصحاب الجلالة وأصحاب الفخامة كلهم عند قدميه أو بين ذراعيه ٠ كانت قصور وندسور والكريملين وشـوينبرن (١) ، وبوتسدام (٢) تتواعد للقاء فى التويلبرى ٠ كان يملك كل شىء : المجد السياسى فى شخص السيد روهير ، والمجد العسكرى فى شخص السيد بازين ، والمجد الأدبى فى شخص السيد نيزار ٠ واحتفت به شخصيات عظيمة مثل السادة فيبار وميريميه ٠ كانت حركة ٢ ديسمبر قد طال عليها الأمد ، كالخمس عشرة سنة من عهد « تاسيت » (٣) ، والامبراطورية فى أوج نصرها واشراقها واتساعها ٠ كان الناس يسخرون من هوميروس على منصات المسارح ، ومن شكسبير فى الأكاديمية ، وأساتذة التاريخ يؤكدون أن ليونيداس وجويوم تيل لم يكن لهما وجود بالمرة ٠ كانت الأمور كلها متوافقة ، وليس هناك ما يشذ عن سواء السبيل ، وهناك توافق بين ضحالة الأفكار واستسلام الناس ، وانحطاط المذاهب ، يعادل تفاخر الشخصيات ، والدناءة هى القانون ٠ كان هناك نمط من فرنسا الانجليزية يجمع بين بونابرت وفيكتوريا ، يتشكل من الحرية كما يراها بالمرستون (٤) والامبراطورية كما يراها ترولون ، ومعهما تحالف ، كأنه قبلة ٠ ويصدر القاضى الأكبر بانجلترا أحكاما من قبيل المجاملة ، وتعلن الحكومة البريطانية أنها من أنصار الحكومة الامبراطورية ، وتثبت لها تبعيتها كما رأينا منذ قليل ، بأحكام الابعاد ، والقضايا ، والتهديد بقانون الأجانب ، واضطهادات خفيفة من الطراز الانجليزى وهذا اللون من فرنسا الانجليزية يقضى بالنفى على فرنسا وبالاهانة على انجلترا ، ولكنه يسود ،

---

(١) القصر الملكى فى فيينا ــ المترجم

(٢) القصر الملكى فى بروسيا ــ المترجم

(٣) امبراطور رومانى (٢٠٠ ــ ٢٧٤) ــ كان صالحا وصارما ــ مات مقتولا ــ المترجم

(٤) لورد بالمرستون (١٧٨٤ ــ ١٨٦٥) ــ سياسى انجليزى ــ كان وزيرا للحربية ، ثم وزيرا للخارجية ــ ثم عين رئيسا للوزارة مرتين ــ كانت دبلوماسيته تميل الى الاندفاع بل التهور ، ولكنها رفعت من مقام انجلترا بين الدول ــ المترجم

فرنسا كالعبد ، وانجلترا كالخادم ، وهذا هو الموقف · أما المستقبل فهو محجوب عن الأنظار ، وأما الحاضر فهو العار بوجه مكشوف ، وانه لشيء رائع باعتراف الجميع · وفى باريس يتلألأ المعرض العالمى ويبهر أوروبا ، وفيه عجائب ، من بينها مدفع كروب المرفوع على قاعدة · وقد هنأ امبراطور الفرنسيين ملك بروسيا ·

كانت هذه هى لحظة الازدهار العظيمة ·

ولم يكن المنفيون ينظر اليهم من قبل بنظرة أسوأ من النظرة التى يتلقونها فى هذه اللحظة · وأطلقت عليهم بعض الصحف الانجليزية اسم « المتمردين » ·

وفى هذا الصيف ، فى يوم من أيام شهر يوليه ، كان مسافر يعبر البحر ، من جيرنسيى الى ساوثامبتون · كان واحدا من أولئك «المتمردين» الذين تحدثنا عنهم · كان أحد ممثلى الشعب فى عام ١٨٥١ ، ونفى فى ٢ ديسمبر · هذا المسافر ــ ولا داعى لذكر اسمه فى هذا المجال لأنه ليس أكثر من مناسبة للواقعة التىسوف نحكيها ــ ركب سفينة البريد « نورماندى » فى ميناء سان بيير · وتستغرق الرحلة من جيرنسيى الى ساوثامبتون سبع أو ثمانى ساعات · كان هذا فى الوقت الذى قدم فيه الخديو ليحيى فيكتوريا بعد أن حيا نابليون · وفى ذلك اليوم نفسه عرضت ملكة انجلترا على خديوى مصر مشهد الأسطول الانجليزى فى خليج شيرنيس المجاور لساوثامبتون ·

كان المسافر الذى نتحدث عنه رجلا أشيب ، هادئا ، مهتما بالبحر ، يقف بالقرب من قائد الدفة ·

كانت النورماندى قد أقلعت من جيرنسيى فى الساعة العاشرة صباحا، والساعة وقتئذ حوالى الثالثة بعد الظهر ، والسفينة تقترب من « نيدلز » فى الطرف الجنوبى لجزيرة « وايت » · وبدت للأنظار تلك العمــارة الوحشية فى البحر ، وتلك القمم الطباشيرية السامقة البارزة من المحيط كأنها أبراج كاتدرائية عجيبة غارقة · وشرعت السفينة تدخل فى نهر ساوثامبتون ، وبدأ قائد الدفة يحركها يسارا ·

وكان المسافر يرقب دنو « الايجوييى » حين سمع فجأة من يناديه باسمه ، فاستدار ، واذا بربان السفينة واقف أمامه ·

كان القبطان فى مثل سنه تقريبا ، اسمه هارفى ، قوى الكتفين ، بلحية بيضاء كثيفة ، ووجه فخور لفحته الشمس ، وعين مرحة · قال القبطان :

ـ أحقا يا سيدى أنكم ترغبون فى رؤية الأسطول الانجليزى ؟

لم يكن المسافر قد أبدى هذه الرغبة ، ولكنه سمع بعض النسوة من حوله يبدينها بحماسة ٠

واكتفى بالاجابة قائلا :

ـ ولكن أيها القبطان ، ليس هذا طريقكم ٠

ـ سوف يكون طريقى اذا شئتم ٠

وأبدى المسافر حركة تنم عن الدهشة :

ـ تغير طريقك ؟

ـ نعـــم ٠

ـ ارضاء لخاطرى ؟

ـ نعـــم ٠

ـ لا تفعل سفينة فرنسية ذلك من أجلى !

فقال القبطان :

ـ ما لا تفعله سفينة فرنسية من أجلكم ، تفعله سفينة انجليزية ٠

وأردف :

ـ فقط ، ومن أجل مسئوليتى أمام رؤسائى ، أرجو أن تدونوا رغبتكم فى دفترى ٠

وقدم دفتر يومية السفينة الى المسافر ، فكتب هذا حسب املائه : « أرغب فى رؤية الأسطول الانجليزى » ووقع بامضائه ٠

وبعـد لحظة ، انحرفت البـاخرة يمينا ، وتركت الى يسـارها « الايجويبى » ونهر ساوثامبتون ، ودخلت فى خليج شيرنيس ٠

كان المنظر فى الحقيقة بديعا ٠ وجعلت بطاريات المدفعيـة كلها تخلط دخانها بهديرها ٠ واصطفت أطياف البوارج المدرعة الضخمة الواحدة خلف الأخرى ، يلفها ضباب ضارب الى الحمرة ، فهى خليط هائل من الصوارى التى تظهر وتختفى ٠ ومرت النورماندى وسط هذه الأشباح السامقة ، تحييها الهتافات ٠ واستمرت هذه المسيرة خـلال الأسطول الانجليزى أكثر من ساعتين ٠

وفى حوال السابعة ، وصلت النورماندى الى ساوثامبتون مزدانة بالأعلام ٠

وكان السيد راسكول ، مدير صحيفة « رسالة أوروبا » ومن أصدقاء الكابتن هارفى فى انتظاره على الميناء ، فدهش من منظر السفينة المزينة بالأعلام ٠

ــ لمن اذن رفعت الأعلام يا كابتن ؟ للخديوى ؟

فأجاب الكابتن :

ــ للمنفى ٠

للمنفى ٠٠ بل قل لفرنسا ٠

ولم نكن لنروى هذه الواقعة اذا لم تكن خليقة بأن تسبغ مجـدا فريدا على الكابتن هارفى فى أواخر أيامه ٠

واليكم هذه النهاية ٠

مرت سنوات ثلاث على استعراض شيربيس هذا ، وفى ليلة ١٧ مارس عام ١٨٧٠ ، بعد أن سلم الكابتن هارفى الى مسافر شهر يولية ١٨٦٧ رسالة من بحارة المانش بوقت قليل ، كان الكابتن هارفى يؤدى مسيرته العادية من ساوثامبتون الى جيرنسيى ، والضباب يغطى البحر ، وكان واقفا على معبر الباخرة ، يقودها بحذر بسبب ظلام الليل والضباب ، أما الركاب فكانوا نائمين ٠

كانت النورماندى سفينة كبيرة للغاية ، ولعلها أجمل سفن البريد فى بحر المانش ، حمولتها ستمائة طن ، وطولها مائتان وعشرون قدما انجليزيا ، وعرضها خمسة وعشرون ٠ كانت « فتية » كما يقول البحارة ، فلم يكن لها من العمر سبع سنوات ، اذ تم بناؤها فى عام ١٨٦٣ ٠

واشتدت كثافة الضباب ، وكانت السفينة قد خرجت من نهـر ساوثامبتون ، وأصبحت فى عرض البحر على مسافة حوالى خمسة عشر ميلا فيما بعد « الايجويبى » ٠ كانت تتقدم ببطء والساعة الرابعة صباحا٠

الظلام شديد الحلوكة ٠ وثمة شيء كالسقف الخفيض يلف السفينة٠ ولم تكن أطراف الصوارى ترى الا بصعوبة ٠

وليس ثمة شيء أفظع من تلك السفن العشواء التى تسير فى جنح الليل ٠

وفجأة انبثق سواد من داخل الضباب ، شبح أو جبل يجرى على اليم ويخرق الظلمات ٠ كان ذلك هو الباخرة الكبيرة ذات الرفاص ، الباخرة « مارى » قادمة من أوديسا الى جريمسبى وعليها شحنة من القمح

وزنها خمسمائة طن ، والباخرة ثقيلة الوزن ، تسير بسرعة كبيرة في اتجاه النورماندى مباشرة •

لم تكن هناك وسيلة لتجنب الصدام ، فأشباح السفن هذه تنتصب سريعا في الضباب ، وهى لا تدنو ، انما تصدم • ويموت الانسان قبل أن يتم له رؤيتها •

كانت « مارى » منطلقة بأقصى سرعتها فصدمت النورماندى بعرضها وشقت بطنها • ووقفت « مارى » على أثر الصدمة ، وقد أصيبت بعطب •

كان على ظهر النورماندى ثمانية وعشرون رجلا من طاقم السفينة ، وخادمة ، وواحد وثلاثون مسافرا منهم اثنتا عشرة امرأة •

وحدثت رجة مخيفة • وفى لحظة واحـدة كان الجميع على ظهر السفينة ، رجالا ونساء وأطفـالا ، نصف عـرايا ، يجرون ويصيحون ويبكون • ودخلت المياه هادرة • وجعل فرن الآلة يحشرج بعد أن أصابته الأمواج •

ولم يكن بالسفينة حواجز صماء ، ولم تكن بها أحزمة الانقاذ • وكان الكابتن هارفى واقفا معتدل القامة على منصة القيادة ، وصاح :

ـ اسكتوا جميعا وانتبهوا ! لتنزل القوارب الى البحر • النسـاء أولا ، ثم المسافرون وبعدهم أفراد الطاقم • هناك ستون شخصا يجب انقاذهم •

كان هناك واحد وستون ، ولكنه تناسى نفسه •

وفكت القوارب واندفع الجميع فيها • وكان من المحتمل أن تؤدى هذه العجلة الى قلب الزوارق • وسيطر الملازم أوكلفورد ورؤساء البحارة الثلاثة جودوين ، وبنيت ، وديست على هذا الحشد المذعور • فالنوم ، ثم الموت المفاجىء السريع ، شىء رهيب •

وفى هذه الأثناء كان صوت القبطان يسمع رزينا ، فوق الصيحات والجلبة والضوضاء ، وجرى هذا الحوار الموجز خلال الظلمات :

ـ الميكانيكى لوكس ؟

ـ نعم يا كابتن ؟

ـ كيف حال الفرن ؟

ـ غرقت •

ـ والنـار ؟

ــ انطفأت ٠

ــ الآلة ؟

ــ انتهت ٠

وصاح القبطان :

ــ الملازم أوكلفورد ؟

فأجاب الملازم :

ــ حاضــــر ٠

وأردف القبطان :

ــ كم دقيقة أمامنا ؟

ــ عشرون ٠

ــ تكفى ٠ فليركب كل منكم فى القوارب بدوره ٠ الملازم أوكلفورد ، هل معك غدارتك ؟

ــ نعم يا كابتن ٠

ــ أطلقها على رأس كل رجل يحاول أن يمر قبل امرأة ٠

وصمت الجميع ، ولم يبد أحد أية مقاومة ، فقد كان هذا الحشد يشعر فوقه بتلك الروح العظيمة ٠

وكانت « مارى » من جانبها قد أنزلت قواربها فى البحر ، وبادرت الى النجدة فى هذا الحادث الذى كانت السبب فيه ٠

وجرت عملية الانقاذ بنظام ، دون جدل أو خلاف ٠ وكانت هناك ، كما يحدث دائما ، بعض التصرفات التى تتسم بالأنانية المؤسفة ، وكذا بعض التضحيات المؤثرة ٠

وكان هارفى فى مركز القبطان ، جامد الاحساس ، يأمر ، ويسيطر ، ويدير الأمور ، ويهتم بكل شىء وبالجميع ، ويتحكم بهدوء فى هذا الكرب ، ويبدو وكأنه يصدر الأوامر الى الرزية نفسها ٠ ولعلنا نقول ان الغرق نفسه كان يطيع أوامره ٠

وفى لحظة من اللحظات صاح :

ــ انقذوا كليمان ٠

وكليمان هذا صبى بحار ، كان طفلا ٠

وجعلت السفينة تتناقص رويدا فى الماء العميق ٠

وازدادت سرعة القوارب في ذهابها وعودتها بين النورماندى ومارى ٠ وجعل القبطان يصيح : أسرعوا ٠

وفى الدقيقة العشرين ، غرقت السفينة ، فغطست المقدمة أولا ، ثم المؤخرة ٠

وكان الكابتن هارفى واقفا على القنطرة ، ولم يتحرك ، ولم ينبس ببنت شفة ، ودخل جامدا فى اللجة ٠ وشوهد خلال الضباب كتمثال أسود يغوص فى البحر ٠

وهكذا انتهى الكابتن هارفى ٠

وليتلق من ها هنا وداع المنفى ٠

لم يكن ثمة بحار فى المانش يماثله ٠ فرض على نفسه طول حياته واجبه كرجل ، ثم استعمل وهو يموت حقه فى أن يكون بطلا ٠

١٠

ترى هل يكره المنفى نافيه ؟ كلا ، انه يحاربه ٠ هذا كل ما هنالك ٠ يحاربه بمنتهى الشدة ؟ نعم ، وباعتباره عدوا عاما ، لا ، عدوا شخصيا ٠ فالرجل الشريف اذا غضب لا يتعدى فى غضبه الحد الضرورى ٠ والمنفى يمقت الطاغية ويتجاهل شخصية النافى ، واذا عرفه فانه لا يهاجمه الا فى حدود الواجب ٠

والمنفى يراعى العدل عند اللزوم مع النافى ٠ فاذا كان النافى مثلا كاتبا بنوع ما ، له بعض الأعمال الأدبية ، سلم له المنفى بذلك عن طيب خاطر ٠ وليس من شك ، بهذه المناسبة ، فى أن نابليون الثالث كان أكاديميا مناسبا ، فقد هبطت الأكاديمية فى العهد الامبراطورى بمستواها ، من باب اللياقة ولا شك ، حتى تضم الامبراطور الى عضويتها ٠ ولابد أن الامبراطور قد اعتقد بأنه جدير بمكانه فيها بين أقرانه من الأدباء ، ولم يمس جلالته مكانة الأعضاء الأربعين الآخرين ٠

وفى الوقت الذى أعلن فيه ترشيح الامبراطور لمقعد شاغر فى الأكاديمية ، أراد أحد الأعضاء من معارفنا أن يعترف بمكانة مؤرخ قيصر ، ورجل حركة ديسمبر ، **فكتب سلفا فى بطاقة انتخابه** : « أعطى صوتى مؤيدا قبول السيد لوى بونابرت فى الأكاديمية وفى الليمان » ٠

وهكذا ترون أن المنفى يسلم بكل التنازلات الممكنة ٠ وهو لا يبدو ثابتا الا فى المبادىء ، فهنا تبدأ صلابته ، فلا يكون « رجلا عمليا » كما

يقال فى لغة السياسة · ومن ثم نلمس استسلامه لكل شىء ، للعنف ، والاهانة ، والدمار ، والنفى · فماذا تريدونه أن يفعل ؟ على لسانه الحقيقة التى تتحدث عند الضرورة رغما عنه ·

سعادته وفخاره أن يتحدث بالحقيقة ، ومن أجل الحقيقة ·

الحقيقة لها اسمان : فالفلاسفة يسمونها المثـل الأعلى ، ورجال السياسة يسمونها الوهم ·

فهل رجال السياسة على صواب ؟ لا نظن ذلك · فكل النصائح التى يستطيع المنفى أن يقدمها « أوهام » على حد قولهم ·

ويقولون ــ أى رجال السياسة ــ انه حتى مع التسليم بأن الحقيقة الى جانب هذه النصائح ، فالواقع ضدها ·

ولنبحث ذلك ·

المنفى رجل خيالى · فليكن · انه مبصر وأعمى ، مبصر على الاطلاق، وأعمى نسبيا ، يمارس فلسفة جيدة ، وسياسة رديئة · من يستمع اليه يسقط فى الهاوية · نصائحه تجرى فى الأمانة وفى الضياع · المبادىء تقول انه على صواب ، ولكن الوقائع تخطئه ·

فلننظر فى الوقائع ·

انهزم جون براون فى « هاربرز فيرى » · وقال رجال السياسة : اشنقوه **أما المنفى فيقول :** احترموه · وشنق جون براون · وانفصم الاتحاد ، وانفجرت حرب الجنوب · فلو أخلى سبيل جون براون ، لخلصت أمريكا من الويلات ·

من اذن المصيب من حيث الواقع ، رجال السياسة أم رجل الأوهام؟

الواقعة الثانية : قبض على ماكسيميليان فى كويريتارو · يقول الرجال العمليون : اضربوه بالرصاص ، ويقول رجل الأوهام : اعفوا عنه · وضرب ماكسيميليان بالرصاص · وكان فى هذا ما يكفى لتحقير أمر عظيم · وفقد كفاح المكسيك البطولى رونقه الباهر ، وفقد الرحمة السامية · فلو صـدر العفو عن ماكسيميليان لأصبحت المكسيك منذ اليوم فى حصن حصين ، وأصبحت أمة حققت بالحرب استقلالها ، ومن ثم تحقق بالمدنية سيادتها ، وأصبح التاج على جبين هذا الشعب بعد الخوذة ·

وفى هذه المرة أيضا كانت نظرة رجل الأوهام صائبة ·

الواقعة الثالثة : خلعت ايزابيلا من العرش · فماذا يكون مصير اسبانيا ؟ جمهورية أم ملكية ؟ يقول رجال السياسة : لتكن ملكية · ويقول المنفى : لتكن جمهورية · ولم يستمع أحد لرجل الأوهام ، فقد تغلب عليه الرجال العمليون · وتصبح اسبانيا ملكية ، وتنحدر من ايزابيلا الى اميدى ، ومن اميدى الى ألفونس ، فى انتظار كارلوس · هذا شأن أسبانيا ، يخصها وحدها · ولكن اليكم ما يهم العالم · فهذه الملكية التى تبحث عن ملك ، تقوم ذريعة لآل هوهنز ولرن ، ومن ثم التربص ببروسيا ، وتذبيح فرنسا ، ومعركة سيدان ، والعار والظلام ·

فلو افترضنا أن اسبانيا جمهورية ، فلن نكون هناك حجة للغدر ، ولا فرصة لواحد من آل هوهنز ولرن ، ولا كوارث ·

ومن ثم كانت نصيحة المنفى حكيمة ·

ولعل بعضهم يكتشف صدفة أن هذا الشىء الغريب المسمى «الحقيقة» ليس سخيفا ، وأن فى روح الرحمة والخلاص جانبا طيبا ، وأن الرجل القوى هو الرجل المستقيم ، وأن العقل هو الصواب !

واليوم ، وسط الكوارث ، وبعد الحرب الأجنبية والحرب الأهلية ، ومع المسئوليات الملقاة على الطرفين ، يفكر المنفى القديم فى منفيى الوقت الحاضر ، وينعطف ناحية المنفى · لقد أراد أن ينقذ جون براون ، وينقذ ماكسيميليان ، وينقذ فرنسا ، وهذا الماضى يضىء له المستقبل ، وهو يريد أن يغلق جرح الوطن ، فهو يطلب العفو الشامل ·

هل هو أعمى ؟ أم هو مبصر ؟

١١

فى ديسمبر ١٨٥١ ، عندما وصل كاتب هذه السطور الى خارج فرنسا ، كانت الحياة فى البداية على شىء من القسوة · ففى المنفى خاصة يتبدى الشعور بأهمية الأشياء الصغيرة المنزلية ·

ولن تكون هذه النبذة الموجزة عن « ماهية المنفى » كاملة ، اذا لم يذكر فى سياقها ، بالقدر المعتدل المناسب ، ذلك الجانب المادى من حياة المنفى ·

لم يبق من كل ما كان يمتلكه هذا المنفى سوى دخل سنوى يبلغ سبعة آلاف وخمسمائة فرنك · أما مسرحه الذى كان يأتيه بدخل سنوى يبلغ ستين ألف فرنك فقد ألغى · ونتج من بيع أثاثه بطريق الدلالة بيعا عاجلا مبلغ أقل بقليل من ثلاثة عشر ألف فرنك · وكان ملتزما بالانفاق

على تسعة أشخاص ، وعليه أن يتكفل بالانتقالات والأسفار واعداد المساكن الجديدة وتحركات جماعة هو في مركزها ، وكل المفاجآت غير المتوقعة في حياة أصبحت من ذلك الحين منفصلة عن الأرض الثابتة ، وهائمة تحت رحمة الأقدار • المنفى هو انسان اجتثت جذوره ، ولابد له أن يحافظ على كرامته في الحياة ، ويدبر أموره بحيث لا يتألم أحد ممن حوله •

ومن ثم كانت الضرورة العاجلة للعمل •

نقول ان أول دار له في المنفى ، وهى « مارين نيراس » كانت مؤجرة له بمبلغ معتدل للغاية ، قدره ألف وخمسمائة فرنك في السنة •

كانت السوق الفرنسية مغلقة بالنسبة الى نشر أعماله • وطبع أوائل ناشريه البلجيكيين كل كتبه دون أن يقدموا له أى حساب • ومن هـذه الكتب ، « مجمـوعة خطب » بجزأيه ، باستثناء كتاب « نابليون الصغير » فقط • أما كتاب « العقوبات » ، فانه كلف المؤلف مبلغ ألفين وخمسمائة فرنك دفعه للناشر « صمويل » ولم يسترده أبدا • وصادر الناشرون الأجانب المبلغ الاجمالى الناتج من طبعات كتاب « العقوبات » كلها لمدة ثمانية عشر عاما •

ونفخت الجرائد الملكيـة الانجليزية أبواقها بتمجيد كرم الضيافة الانجليزية المقترن على ما نذكر بحملات ليلية واجراءات طرد وابعاد ، وهى ضيافة قريبة الشبه على أية حال بالضيافة البلجيكية • وأفضل شيء في الضيافة الانجليزية هو عطفها على كتب المنفيين ، فأعادت طبع هذه الكتب ونشرتها وباعتها بأكثر ما يمكن من الهمة والمودة لصالح الناشرين الانجليز• وبلغت شدة الاحتفاء بالكتاب حد نسيان المؤلف نفسه • ويسمح القانون الانجليزى الذى يشارك كرم الضيافة البريطانية بهذا اللون من النسيان • فمن واجب الكتاب أن يترك مؤلفه يموت جوعا ، كما جرى لشاترتون ، في حين يثرى الناشر • وقد بيع كتاب « العقوبات » في انجلترا ولم يزل يباع هناك الى الآن لصالح الكتبى « جيفس » وحده • ولم يكن احتفاء المسرح الانجليزى بالمسرحيات الفرنسية بأقل من احتفاء المكتبة الانجليزية بالكتب الفرنسية • ولم يدفع أى مبلغ مستحق عن حقوق المؤلف لمسرحية « روى بلاس » التى عرضت أكثر من مائتى مرة في انجلترا •

وهكذا نرى أن الصحافة الملكية البونابرتية بلندن لم تعتب بلا سبب على المنفيين سوء استغلالهم لكرم الضيافة الانجليزية •

وكثيرا ما أطلقت هـذه الصحافة على كاتب هـذه السطور اسـم « البخيل » ، وأسمته أيضا « السكير » •

هذه التفاصيل هى بعض من المنفى •

١٢

هذا الرجل المنفى لا يشكو شيئا • لقد عمل ، وأعاد بناء حياته لنفسه ولأهله • وكل شيء على ما يرام •

فهل هناك فضل فى أن يكون الانسان منفيا ؟ كلا • وهذا يدعونا الى التساؤل عما اذا كان هناك فضل فى أن يكون الانسان شريفا • المنفى رجل شريف يستمر شريفا • وهذا كل ما هنالك •

وهناك فترات يندر فيها هذا الاستمرار • فليكن • وهذه الندرة تسلب هذه الفترات بعض الأشياء ، ولكنها لا تضيف شيئا الى الرجل الشريف •

الشرف ، كالبكارة ، له وجود فى خارج الثناء والمديح • فأنت نقى الذيل لأنك نقى الذيل • ولا فضل للسور فى بياض لونه •

لقد أدى النائب المنفى من أجل الشعب عملا أمينا • وعد وحافظ على وعده • وهو يحافظ على وعده الى مدى أبعد من نطاق الوعد نفسه ، كما هو واجب كل رجل ذى ضمير حى • ومن ثم فلا فائدة من الوكالة الآمرة ، لأنها تخطىء اذ تضع كلمة مهينة لشىء نبيل هو قبول الواجب ، وهى فوق ذلك تهمل الشيء الجوهرى وهو التضحية ، التضحية التى لابد من بذلها ، ويستحيل فرضها • والحقيقة هى الالتزام المتبادل بين الطرفين ، فتكون يد المنتخب فى يد الناخب ، ويتبادل الموكل العهد مع الوكيل ، فيتعهد الوكيل بالدفاع عن الموكل ، ويتعهد الموكل بتأييد الوكيل ـ حقان وقوتان ممتزجتان • فاذا كان الأمر كذلك ، فعلى النائب أن يؤدى واجبه ، وعلى الشعب أن يؤدى واجبه • ذلك هو ما يدين به الضمير ، ويوفى به الجانبان • ولكن هل يبلغ الاخلاص حدا يؤدى بصاحبه الى النفى ؟ لا ريب فى ذلك • الى هذا الحد والأمر بديع وبسيط • وكل ما يمكن قوله عن النائب المنفى انه لم يخطىء فى صفة الشيء الموعود به • فالوكالة عقد • وليس ثمة أى فخار فى أن يمتنع الانسان عن البيع بأثقال زائفة •

النائب الشريف ينفذ العقد ، ولابد له أن يمضى الى آخر حدود الشرف والضمير • وانه ليفعل ذلك • وهناك يجد الهاوية • فليكن • ويسقط فى الهاوية دون شك • فهل يموت فيها ؟ لا ، بل يعيش •

١٣

فلنجمل ما قلنـــاه ٠

الواضح لنا أن هذا اللون من المعيشة متعدد المظاهر ٠

هذه الحياة ، المضطربة اذا نظر اليها من ناحية المصير ، الهادئة اذا نظر اليها من الناحية الروحية ، عاشها من عام ١٨٥١ الى عام ١٨٧٠ ، من ٢ ديسمبر الى ٤ سبتمبر ، ذلك الغائب الذى يقدم اليوم لبلده حسابا عن غيبته ٠ بنشره هذا الكتاب ٠ لقد طال هذا الغياب تسع عشرة سنة وتسعة شهور ٠ فماذا صنع خلال هذه السنوات الطوال ؟ اجتهد ألا يكون عقيما ٠ والشيء الوحيد الجميل فى هذه الغيبة هو أن ضروب التعاسة قد أتته تبحث عنه ، وهو الانسان التعس ، والغرقى يطلبون النجدة من هذا الغريق ٠ قصده الجميع ، لا الأفراد وحدهم ، وانما أيضا الشعوب ، ولا الشعوب وحدها ، وانما أيضا الضمائر ، ولا الضمائر وحدها وانما أيضا الحقائق ٠ وقدر له أن يمد يده من أعلى صخرته الى المثل الأعلى الذى سقط فى الهاوية ٠ وخيل اليه فى بعض اللحظات أن المستقبل المحفوف بالشدائد يحاول أن يدنو من صخرته ٠ ومع ذلك فمن عساه يكون ؟ شيء تافه ٠ جهد يعيش ٠ ما هى الارادة بين قوى الشر المتألبة المنتصرة ؟ انها لا شيء اذا كانت تمثل الأنانية ، وهى كل شيء اذا كانت تمثل الحق ٠

ان أشد المواقف مناعة ذلك الذى يتكون من أعمق الانهيارات ٠ ويكفى أن يكون الرجل المتهدم رجلا عدلا ٠ ونؤكد أنه اذا كان هذا الرجل على صواب ، فمن الأفضل أن يكون مثقلا بالأعباء ، مهدما ، مسلوبا ، مبعدا عن وطنه ، مهزءا ، مهينا ، مجهلا ، مفترى عليه ، وأن يجمع فى شخصه كل أشكال الهزيمة والضعف ٠ عند هذا فهو قادر على كل شيء ٠ وهو لا يروض ، لأن فى طبعه استقامة ، وهو منيع لأن الحقيقة معه ٠ فما هى قوته هذه ؟ قوته ألا يكون شيئا ، وألا يملك أى شيء ، أو يكون معه شيء ، فتلك هى أنسب الظروف للكفاح ٠ التجرد من الدروع هو الذى يثبت مناعة الانسان ٠ وليس ثمة موقف أسمى من موقف الانسان الذى يسقط من أجل العدالة ٠ المنفى يتصدى للامبراطور ٠ الامبراطور يلعن والمنفى يحكم بالادانة ٠ أحدهما يملك القوانين والآخر يملك الحقائق ٠ نعم من الخير أن يكون الانسان قد انهار ٠ ان انهيار ما كان رخاء فى الماضى ، يجعل للانسان سلطانا ٠ وكثيرا ما تكون قدرتك وثروتك عقبة فى طريقك ٠ وحالما تزول عنك هذه الأشياء ، تزول متاعبك ، وتحس بحريتك وسيادتك ، فلا يضايقك شيء بعد ذلك ٠ فعندما يسحبون منك

زيادة في الشرف . والموقف الحاضر حسن . ومن الأفضل أن يقطع من فرنسا جزء من أجزائها بالقوة الغاشمة بدلا من تتصاغر بالخزى والعار . هذا هو الفرق بين الجرح وبين الميكروب ، فالانسان يبرأ من جرحه ، ولكنه يموت من الطاعون . وقد تحتضر فرنسا بسبب الامبراطورية ، ولكنها تموت اذا شربت كأس العار . أما اليوم فانها لفظت العار ، ومن ثم سوف تعيش . ولم يعد لدى الشعب ذاته الا كل ما هو قوى وسليم ، بعد أن بصق أنظمة ١٨ برومير ، و ٢ ديسمبر .

كانت مشاغل المنفى في عزلته التى كان يملؤها بالتأمل فى المستقبل قاسية ولكنها رصينة . وكان يأسه ممزوجا بالآمال . كان يستشعر كما رأينا منذ قليل الحزن من أجل مصائب الناس ، ويستشعر فى الوقت نفسه الفرح مع الشموخ لأنه منفى . فالمنفى بالنسبة لهذا الرجل بهجة ، لأنه قوة . وثمة منشور بابوى حكم على لوثر بالحرمان ولكنه عجز عن ترويضه . والمقابلة صحيحة ، يدركها المنفى الذى يتحدث ها هنا . وفوق السكون الذى يعم فرنسا ، والمنبر المهدوم ، والصحافة المكممة ، استطاع المنفى ، وهو حر مثل شيطان الحقيقة أمام يهوذا الباطل ، أن يخطب ، وخطب بالفعل ، ودافع عن الانتخاب العام ضد الاستفتاء الشعبى ، وعن الشعب ضد الحشود ، وعن المجد ضد ذلك الانسان الفظ ، وعن العدالة ضد القاضى ، وعن الشعلة ضد النار التى تحرق فيها الأجساد ، وعن الله ضد القسيس . ومن ثم كانت تلك الصيحة الطويلة التى تملأ هذا الكتاب . وقد ذكرنا آنفا ، وسوف نرى فيما بعد أن المحن أقبلت تخاطبه من جميع الجهات ، وهى تعلم أنه لن يتراجع أمام أى واجب . ورأى فيه المظلومون مدعيا عاما للجريمة الشاملة . ويكفى لقبول هذه الرسالة أن يكون الانسان روحا حية ، ويكفى للنهوض بهذه الوظيفة أن يكون له صوت ، روح صالحة ، وصوت حر . وكان له ذلك . كان يسمع عند الأفق نداءات ، يرد عليها من أعماق وحدته . ذلك ما سوف تطالعونه . وهاجمته كل اضطهادات السادة . وكان هناك ولم يزل على اسمه تركيز من الحقد لا يمكن التعبير عنه . ولكن ما جدوى كل هذا وما أهميته ؟ كان مع هذا فخورا وسعيدا بأن يكون منفيا لعشرين سنة ، وأن يناضل الجموع كلها وهو وحيد ، والكتائب كلها ، وهو أعزل من السلاح ، والقتلة كلهم وهو الحالم ، والطغاة كلهم ، وهو المطارد ، والعمالقة كلهم ، وهو الذرة ، ليس له سوى تلك القوة الوحيدة وهى شعاع من نور .

ذلك النور هو الحق كما قلنا ، الحق الأبدى .

وهو يشكر الله ، فقد عاش حياة أبية زمنا كافيا لكى يهرم جبين رجل فى الأربعين قيصير فى الستين . كان ذلك المنفى المطرود المطارد ،

زيادة في الشرف . والموقف الحاضر حسن . ومن الأفضل أن يقطع من فرنسا جزء من أجزائها بالقوة الغاشمة بدلا من تتصاغر بالخزى والعار . هذا هو الفرق بين الجرح وبين الميكروب ، فالانسان يبرأ من جرحه ، ولكنه يموت من الطاعون . وقد تحتضر فرنسا بسبب الامبراطورية ، ولكنها تموت اذا شربت كأس العار . أما اليوم فانها لفظت العار ، ومن ثم سوف تعيش . ولم يعد لدى الشعب ذاته الا كل ما هو قوى وسليم ، بعد أن بصق أنظمة ١٨ برومير ، و ٢ ديسمبر .

كانت مشاغل المنفى فى عزلته التى كان يملؤها بالتأمل فى المستقبل قاسية ولكنها رصينة . وكان يأسه ممزوجا بالآمال . كان يستشعر كما رأينا منذ قليل الحزن من أجل مصائب الناس ، ويستشعر فى الوقت نفسه الفرح مع الشموخ لأنه منفى . فالمنفى بالنسبة لهذا الرجل بهجة ، لأنه قوة . وثمة منشور بابوى حكم على لوثر بالحرمان ولكنه عجز عن ترويضه . والمقابلة صحيحة ، يدركها المنفى الذى يتحدث ها هنا . وفوق السكون الذى يعم فرنسا ، والمنبر المهدوم ، والصحافة المكممة ، استطاع المنفى ، وهو حر مثل شيطان الحقيقة أمام يهوذا الباطل ، أن يخطب ، وخطب بالفعل ، ودافع عن الانتخاب العام ضد الاستفتاء الشعبى ، وعن الشعب ضد الحشود ، وعن المجد ضد ذلك الانسان الفظ ، وعن العدالة ضد القاضى ، وعن الشعلة ضد النار التى تحرق فيها الأجساد ، وعن الله ضد القسيس . ومن ثم كانت تلك الصيحة الطويلة التى تملأ هذا الكتاب . وقد ذكرنا آنفا ، وسوف نرى فيما بعد أن المحن أقبلت تخاطبه من جميع الجهات ، وهى تعلم أنه لن يتراجع أمام أى واجب . ورأى فيه المظلومون مدعيا عاما للجريمة الشاملة . ويكفى لقبول هذه الرسالة أن يكون الانسان روحا حية ، ويكفى للنهوض بهذه الوظيفة أن يكون له صوت ، روح صالحة ، وصوت حر . وكان له ذلك . كان يسمع عند الأفق نداءات ، يرد عليها من أعماق وحدته . ذلك ما سوف تطالعونه . وهاجمته كل اضطهادات السادة . وكان هناك ولم يزل على اسمه تركيز من الحقد لا يمكن التعبير عنه . ولكن ما جدوى كل هذا وما أهميته ؟ كان مع هذا فخورا وسعيدا بأن يكون منفيا لعشرين سنة ، وأن يناضل الجموع كلها وهو وحيد ، والكتائب كلها ، وهو أعزل من السلاح ، والقتلة كلهم وهو الحالم ، والطغاة كلهم ، وهو المطارد ، والعمالقة كلهم ، وهو الذرة ، ليس له سوى تلك القوة الوحيدة وهى شعاع من نور .

ذلك النور هو الحق كما قلنا ، الحق الأبدى .

وهو يشكر الله ، فقد عاش حياة أبية زمنا كافيا لكى يهرم جبين رجل فى الأربعين قيصير فى الستين . كان ذلك المنفى المطرود المطارد ،

قد أهمله الجميع ، ولم يهمل أحدا • وعرف فضل الصحراء ، ففى الصحراء يتردد الصدى • هناك يسمع الانسان صخب الشعوب • وفى حين كان الطغاة يعملون فى الشر تحت أنظاره النابتة ، كان هو يسعى الى عمل الخير • وترك جميع الطغاة يحركون الصواعق فوق رأسه ، فلم يكن عنده ما يشغل باله سوى الكوارث العامة • وعاش على صخرة ، وحلم ، وتأمل ، وتفكر ، هادئا تحت غمامة من الغضب والتهديد • وأبان عن رضاه ، فمم يشكو ما دام معه وبالقرب منه طوال عشرين سنة ، العدالة والفعل والضمير والحقيقة والحق ، والبحر بضوضائه الهائلة ؟ •

وكان فى هذا الظل كله محبوبا • ولم تكن الكراهية وحدها تثقل عليه ، فقد كان ثمة شعاع من حب صامت يصل اليه فى وحدته وشعر بالحرارة العميقــة ، حرارة شعب رقيق حزين • وتفتحت القلوب من ناحيته ، ومن ثم كان يشكر النفس البشرية العظيمة • كان محبوبا من بعد ومن قرب • وكان حوله نفر من زملاء المحنة الشجعان ، الأشداء فى أداء الواجب ، المتمسكين بالحق والعدل ، المناضلين الغاضبين الباسمين ، منهم فاكيرى الشهير ، وبول موريس الذى يستحق الاعجاب ، وسكولشير القوى العزيمة ، وريبير ذل ، ودولاك ، وكيسلر ، هؤلاء الشجعان ، وأنت يا ولدى شارل ، وأنت يا ولدى فيكتور ــ وهنا أتوقف ، فدعونى ريثما أتذكر •

١٥

رؤية هذه المدينة وهى تعيش ، ومشاهدة هذا الجلال ، شعور حاد يضطرب فى النفس ، فليس ثمة بيئة أكثر منها اتساعات ، وليس ثمة مشهد أشد اقلاقا للنفس وأكثر سموا • ان أولئك الذين دفعتهم مصادفات الحياة أيا كانت الى الانتقال من منظر باريس الى منظر المحيط ، لم يشعروا مع هذا التغيير بأى ارتفاع فى اللانهاية ، وفضلا عن ذلك فان الانتقال من أفق الناس الى أفق الأشياء لا يمحو شيئا • وذلك الحلم المرتد الى الوراء ، الذى تلح عليه الذاكرة ، يحلق كالغمام ، ولكنه أشــد منه تماسـكا ، فالفضاء لا يصنع به ما يشاء • والرياح التى تهب ليل نهار ، والأعاصير الأربعة التى تتوالى على الدوام ، والرياح الشمالية الباردة ، والزوابع والعواصف ، لا تحمل معها جسمى البرجين التوءمين ، ولا تشتت قوس النصر ، أو قبة أجراس الكنيسة الغوطية ، أو مجموعة العمد العالية التى تحف بالقبة الجليلة (قبة الأنفاليد) • وخلف أطراف الهاوية السحيقة ، وفوق تقلبات اللجج والبواخر ، ووسط الأشعة والغمائم والنسمات يتبدى داخل الضباب شبح هائل ، شبح المدينة الجامدة • وانها لرؤيا جليلة

فى نظر المنفى • ولما كانت باريس فكرة كما هى مدينة ، فان لها قدرة التواجد فى أكثر من مكان • باريس للباريسيين ، وباريس أيضا للدنيا كلها • ومهما أردت الخروج منها ، فلن تستطيع • ان الانسان ليستنشقها مع الهواء • انها حية فى نفس كل من يعيش ، حتى ولو لم يشعر بها ، فهى حية بالأولى فى نفس كل من عرفوها • وتختلط متاهة المحيط الوحشية بتلك الذكرى التى تماثل العواصف • ومهما كان البحر عاصفا ، فان لباريس أحداث عام ١٧٩٣ (١) •

وتثور الذكرى من نفسها ، فتبدو السقوف وكأنها تبرز من بين الأمواج ، وتتشكل المدينة ثانية فى تلك اللجة كلها ، بالاضافة الى تلك الرجفة الأبدية • ويخيل الى الانسان أنه يسمع فى ضجيج الأمواج هدير الشوارع المتشابكة • انه لسحر وحشى • ينظر الانسان الى البحر فيبصر باريس • ولا تتعارض مع هذه الرؤيا ألوان السلام الكبيرة التى تضمها هذه الرحاب • ولا أثر فى ذلك للمجاهل الشاسعة التى تحيط بك ، فالفكر يصل الى نطاق السكينة ، ولكنها سكينة تبيح هذا الاضطراب • ويسمح غلاف الظلمات السميك بمرور الضوء الآتى من وراء الأفق ، من باريس • ويفكر الانسان فى باريس ، ومن ثم فهو يمتلكها • وتختلط باريس بصورة غير واضحة باشعاعات الفكر الصامتة • ولا تكفى ما تخلقه السماء المرصعة بالنجوم من هدوء وسكينة سامية لاذابة هذه الصورة الكبيرة للمدينة العظيمة فى أغوار النفس • وكل هذه الآثار ، والتاريخ ، والشعب العامل ، والنسوة اللواتى هن أمهات ، والأطفال الذين هم أبطال، والثورات التى تبدأ بالغضب وتنتهى بالعمل الرائع ، وتلك القوة الهائلة المقدسة الكامنة فى اعصار من العقول الذكية ، وتلك الأمثلة الصاخبة ، وتلك الحياة ، وهذا الشباب ، كل ذلك حاضر فى ذهن الغائب • وتبقى باريس ، لا تنسى أبدا ، ولا تمحى ، ولا تغوص فى الأعماق ، حتى بالنسبة الى الرجل الغارق فى الظلال الذى يقضى لياليه فى التأمل أمام الصفاء الأبدى ، ويشيع فى روحه الذهول العميق أمام روعة الكواكب •

---

(١) السنة التى اضطرمت فيها مراجل الثورة الفرنسية ، وساد فيها الارهاب وكثر الاعدام ، واعدم فيها لويس السادس عشر – المترجم •

فى المنفى ـ ١٨٥٢

عند مغادرة بلجيكا
انفرس فى أول أغسطس سنة ١٨٥٢

١

فى ديسمبر ١٨٥١ كان فيكتور هوجو واحدا من خمسة من ممثلى الشعب الذى انتخبهم اليسار لقيادة المقاومة وكفاح الانقلاب السياسى · وواصلت هذه اللجنة الخماسية الصراع من ٢ ديسمبر حتى ٦ منه ، واضطرت الى تغيير مأواها سبعا وعشرين مرة · وأكدت مذبحة « البولفار » فى يوم الخميس ٤ منه انتصار الجريمة ، وانتزعت من حماة القانون كل فرصة للنجاح · وكان فيكتور هوجو مختبئا فى مدينة باريس ، وعلى اتصال بالأعضاء الرئيسيين فى الضواحى ، يبغى بذلك أن يبقى أطول مدة ممكنة تحت تصرف الشعب ويستغل آخر فرصة ممكنة للمقاومة · وفى اليوم الحادى عشر ، تبدد آخر أمل : ولم يبرح فيكتور هوجو باريس الا فى هذا اليوم ، ومضى الى بروكسل حيث كتب « قصة جريمة » ، و « نابليون الصغير » الذى حمل حكومة بلجيكا على سن قانون «فيديه» · هذا القانون الذى وضع خصيصا من أجل فيكتور هوجو ، نص على عقوبات ضد الفكر الحر ، وقرر أن أشخاص الأمراء كلهم ، وما يرتكبونه من جرائم ، مقدسة ، تتمتع بحصانة · وحمل القانون اسم منشئه ، فيديه · وكان فيديه هذا على ما يبدو قاضيا · وكان لزاما على فيكتور هوجو أن يبحث عن ملجأ آخر · وفى أول أغسطس ركب السفينة فى أنفرس قاصدا انجلترا · وقدم المنفيون الفرنسيون اللاجئون الى بلجيكا لمصاحبته حتى يركب البحر · وانضم الصفوة من البلجيكيين الأحرار الى المنفيين الفرنسيين · وكان الفراق مهيبا بين هؤلاء الرجال الذين قدر للكثير منهم أن يموتوا فى المنفى · **ووجه بعضهم الى فيكتور هوجو بعض عبارات الوداع ، أجاب عليها بالكلمة الآتية :**

اخوانى المنفيون ، أصدقائى البلجيكيون ··

ردا على مثـل هذا القدر من الكلمات الودية الموجهة الى شخصى ، أرجو معافاتى من الحديث عن نفسى ، وأن تسمحوا لى بأن أتناسى ذاتى . فما أهمية ما يحـدث لى ! لقد نفيت من فرنسـا لأننى كافحت مؤامرة ديسمبر وصارعت الخيانة . ونفيت من بلجيكا لأننى كتبت « نابليون الصغير » . وهكذا نفيت مرتين ! طاردنى السيد بونابرت فى باريس ، ثم يطاردنى الى بروكسل . الأمر بسيط ، والجريمة تدافع عن نفسها . لقد أديت واجبى ، وسوف أواصل أداءه . فلندع الحديث عن ذلك . انى أتألم حقا من فراقكم ، ولكن ألم نخلق لنتألم ! قلبى يدمى ، فلندعه يدمى . ألسنا نسمى بالضحايا ؟

اسمحوا لى اذن أن أترك جانبا ما يمس شخصى ، وأقدم شكرى لماديه مونجو لتصريحاته القلبية الكريمة ، وشارا لكلماته الجميلة العظيمة، وديشانيل لفصاحته النبيلة الساحرة ، وديسوب ، وأجريكول بيرديجييه لوداعهما المؤثر ، وأشكركم أيها الأصدقاء البلجيكيون لمشاعركم الودية الأخوية التى عبرتم عنها بقوة وثبات . ولست أعرف ، فى لحظة الرحيل عن هذه الأرض الكريمة المضيافة ، ولعله رحيل الى غير رجعة ، الا أن ألعن لآخر مـرة لوى بونابرت ، **وأهتف للجمهورية لآخر مـرة : فلتحيا** الجمهورية أيها الأصدقاء !

(**يصـيح الجميع من كل الأنحاء :** لتحيا الجمهورية ! ويسترسل الخطيب) .

هناك أناس يقولون : ماتت الجمهورية . حسن ، اذا كانت قد ماتت ، فانا نهيب بالعالم المستغرق فى هذه الساعة فى الاستمتاع العنيف باشباع المصالح المادية ، أن يدير رأسه لحظة واحدة ، ويشهد المنفى وهو يحيى المقبرة .

أيها المنفيون ، اذا كانت الجمهورية قد ماتت ، فلنسهر على جثتها ! ولنشغل أرواحنا وندعها تحترق كما تحترق الشموع حول النعش ، ولنبق منحنين أمام الفكرة الميتة ، ولنكن كهنتها لندفنها ، بعد أن كنا جنودها المدافعين عنها .

ولكن لا ، الجمهورية لم تمت !

أيها المواطنون ، أعلن لكم أنها لم تكن من قبل أقوى حياة مما هى عليه اليوم . انها فى السراديب السفلى وهذا شىء طيب . ان الذين يعتقدون أنها ماتت هم وحدهم الذين يظنون السراديب قبورا . السرداب ليس قبرا ، وانما هو المهد . لقد خرجت المسيحية من السراديب والتاج على رأسها ، ولسوف تخرج الجمهورية منهـا وأكاليل الغـار على جبينها .

الجمهوريه ميتة ! عجبا يا الهى ، بل انها خالدة ! وفي آية لحظة يقال هذا ؟ فى اللحظة التى لها فى فرنسا وحدها ألفان من القتلى ، ومائتان وألف أعدموا ، وعشرة آلاف أبعدوا ، وأربعون ألفا نفوا ! الجمهورية ميتة ! ولكن ارسلوا الطرف حولكم · أرض المنفى ، والجسور العائمة ، والسجون ، و « بيل ايل » (١) و « مازاس » (٢) ، وأفريقيا ، و « كايين » (٣) ، وخنادق « شان دو مارس » ، وجبانة مونمارتر ، كل هؤلاء ملأى بحياة الجمهورية · أيها المواطنون ، ديننا الديموقراطية والحرية والجمهورية · حسن ، اسمحوا لى بهذه العبارة : الشهداء هم وقود الأديان· وكلما زاد عددهم فى الأتون ، ارتفعت الشعلة ، وعظمت الفكرة ، وأضاءت الحقيقة · وأكرر لكم أيها المنفيون أن الجمهورية فى هذه الساعة أقوى حياة وأشد تألقا من أى وقت مضى ، فانها قد صنعت بهاءها من ألوان تعاستكم كلها ·

ولن ألتمس لذلك برهانا ، اذا اقتضى الأمر ، سوى هذا النور الذى يضيء وجوهكم أيها المنفيون الذين تلتفون حولى ، النور الذى لا يعلم الا الله من أين ينبع · ماذا يوجد بحق الله فى عيونكم وعلى جباهكم ؟ الفرحة · فرحة الضحايا المقدسة · وفى قلب كل منكم ، خلاف بلدته الأصلية التى تلاشت صورتها من ذهنه ، والثروة المفقودة ، والعمل المحطم ، والخبز الناقص ، والعادات التى انقطعت ، والدار التى انهدمت ، فى قلبه أب وأم واخوة وأطفال ، كان لابد من فراقهم ، وزوجة محبوبة مهجورة ، أو حب منسحق ودام · انكم تقاسون ، وتتلوون فوق هذه الجمرات الملتهبة ، ولكنكم ترفعون الرؤوس ، وعيونكم تقول : اننا راضون · ذلك لأنكم تعلمون أن الجمهورية موضع ايمانكم ، وفكرتكم عن الوطن انما تستمد حياة جديدة من عذابكم · آية ذلك آلامكم · الحطب يشتعل ، والشهيد يتألق ، فلتحيا الجمهورية أيها المواطنون !

(ترتفع صيحة ، لتحيا الجمهورية ! وثمة صوت يقول : كلمة للأصدقاء البلجيكيين ! ويواصل فيكتور هوجو الحديث) :

سمعت الآن صوتا ينادينى قائلا : · كلمة للأصدقاء البلجيكيين !

---

(١) مضيق بيل ايل Bell-Isle ذراع البحر يفصل لبرادور الشماليه من جزيره نيوفوندلاند والملاحة فيها عسيرة فى الغالب ـ المترجم

(٢) مازاس سجن ، بغرف انفرادية ، بنى فى باريس عام ١٨٤٥ ـ ١٨٥٠ فى حى مازا (اليوم ديديرو) ـ هدم عام ١٨٩٨ ـ

(٣) كايين ـ جزيرة فى المحيط الأطلسى ـ قاعدة جيانا الفرنسية (أمريكا الجنوبية) كانت منفى ترسل اليه السلطات الفرنسية المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ـ المترجم ·

هل خطر لكم حقا أنني سأنساهم ؟ (لا ! لا !) · أ أنساهم فى هـذا الوداع ! وهم الذين جاءوا فى أعقابنا الى هذا المكان ، ويلتفون حولنا فى هذه الساعة بجموعهم الذكية الودودة · أولئك الذين يعتبون بشدة على ضعف حكومتهم · كيف أنساهم ؟ أبدا ! انهم أمة صغيرة تسلك سلوك شعب عظيم · تتذكرون أيها المنفيون أنهم قد بادروا لاستقبالنا حين وصلنا الى حدودهم بعـد يوم ٢ ديسمبر ، منفيين ، مطرودين ، ومطاردين ، والعرق على جباهنا ، ولم تزل آذاننا تدوى بعجيج المعركة ، ووحل المتاريس المجيد عالق بنيابنا · ولم يخافوا من عدوانا · المجد لهم · لقد أنزلوا فى ديارهم ، ببساطة ورحابة ذلك النوع من الموبوئين بالطاعون الذين يطلق عليهم اسم المقهورين ·

أصل عندكم اذن مباشرة ، أيها الأصدقاء البلجيكيون ، دون أن تكون بلادكم مجرد معبر فى طريقى · فأنتم مضيفونا ، أى اخواننا · وليس الانسان فى حاجة الى المرور من أرض الى أخرى لكى يمد يده الى اخوانه ·

ومنذ هنيهة ، برهن أحدكم ، ذلك الشجاع لوى لابار ، على وطنيتكم بعبارات بليغة ، حين أقسم أن يموت دفاعا عن الوطن · هذا شىء طيب أؤيده ، ونؤيده نحن الفرنسيين الموجودين هنا ·

نعم · اذا جاء السيد بونابرت ، اذا غزاكم السيد بونابرت ، اذا قدم ذات ليلة ــ فالليل وقته المفضل ــ يضرب حدودكم ، وهو يجر فى أعقابه ، أو بعبارة أصح ، يسوق أمامه ــ فليس من طبعه أن يسير فى المقدمة ــ يسوق أمامه ما يسميه اليوم فرنسا ، ذلك الجيش الذى أصبح اليـوم فاقد الجنسـية ، بفرقه التى جعلها عصـابات ، ورجال الحرس الامبراطورى الذين انتهكوا حرمة الجمعيـة الوطنية ، وأولئك الجنـود « الأنكشارية » الذين طعنوا الدستور بسيوفهم ، وجنود شارع مونمارتر الذين كانوا خليقين بأن يصبحوا أبطالا ، ولكنه جعل منهم لصوصا ، اذا وصل هذا الرجل الى حدودكم ، معلنا أن بلجيكا ولاية نابعة له ، جالبا لكم العار ، أنتم الأشراف ، والعبودية ، أنتم أهل الحرية ، جالبا لكم النهب والسلب ، أنتم الأمناء ··· أوه ، عندئذ انهضوا أيها البلجيكيون ! انهضوا جميعا ! استقبلوا لوى بونابرت كما استقبل أجدادكم النرفيون (بلجيكو بلاد الغال) كاليجولا ! أسرعوا الى المدرات والحجارة والمناجل وأسلحة المحاريث ، وخذوا سكاكينكم وبنادقكم وغداراتكم ، واقفزوا على سيف ارتيفيلد القديم ، وعلى هراوة كوبينول القديمة ، ضعوا اذا لزم الأمر كرات من الرخام فى مدفع جاند القديم الضخم ، وسوف تجدون كراته الرخامية فى نوتردام دو هال ! نادوا بالسلاح ! فليس الذى عند

الأبواب هو هانيبال ، انما هو شنيدر هانز (١) اقرعوا أجراس الخطر ، ودقوا الطبول لحشد الجيوش ، واضرموا نار الحرب ، حرب السهول والأسوار والأدغال ، وقاتلوا العدو شبرا شبرا ، ودافعوا عن أنفسكم ، واضربوا وموتوا ، وتذكروا آباءكم الذين أرادوا أن يورثوكم المجد ، تذكروا أطفالكم الذين يجب أن تورثوهم الحرية ! استعبروا من واترلو صيحتها المفجعة : تموت بلجيكا ولا تسلم !

اذا جاءكم بونابرت فافعلوا هذا !

ولكن أيها البلجيكيون ، اذا جاءتكم فرنسا ذات يوم ، فرنسا الحقيقية ، وجبينها يتألق بالنور ، وهى تحرك فى ريح الثورات البهيجه علما ذا لون واحد ، تطالعون عليه عبارة : أخاء الشعوب ، الولايات المتحدة الأوروبية ـ جاءتكم عظيمة حرة فخورة رقيقة رائقة ، فى يديها سنابل القمح وأكاليل الغار ، آه ، انهضوا هذه المرة أيضا أيها البلجيكيون ، وانما استبدلوا بالهراوة المكسوة بالحديد غصنا مزهرا • انهضوا ، وانما لتستقبلوا فرنسا وتقولوا لها : مرحبا !

انهضوا لتمدوا أيديكم اليها ، وهى أمنا ، كما نمد نحن أولادها أيدينا اليكم ، ولتفتحوا لها أذرعكم ، كما نفتحها لكم • ذلك لأن فرنسا تلك لن تكون هذه المرة فرنسا الغازية ، وانما المرشدة ، لن تكون فرنسا القاهرة المذلة ، وانما فرنسا المخلصة ، لن تكون فرنسا البونابرتية ، وانما فرنسا الأمم !

استقبلوها صديقة عظيمة • رحبوا بها منتصرة ، كما رحبتم بها منفية ، فهى التى تهنفون لها فى هذه اللحظة ، لأنها فرنسا الحاضرة ها هنا • هى التى يضطهدها حكامكم أحيانا ، وتقومون أنتم دواما بانهاضها ومواساتها • انها تبكى على أبواب مدائنكم ، تحت قميص العامل أو بذلة الفلاح المنفى •

أصدقائى ، اليوم يوم الاضطهاد والألم ، أما الغد فللولايات المتحدة الأوروبية والشعوب الشقيقة ، غدا لا محيد عنه لأعدائنا ، محتوم بالنسبة الينا • أيها الأصدقاء ، مهما كانت مخاوف اللحظة الحاضرة وقسوتها ، فعلينا أن نركز فكرنا فى هذا الغد الباهر الذى يتبدى له منذ الآن ، وهذا المستقبل الشاسع الذى تنتهى اليه الحرية والأخوة • وانكم لتستمدون سكينتكم من هذه التأملات ، يا منفيى فرنسا • لقد ذكرت لكم منذ هنيهة

---

(١) يقصد لوى نابليون بونابرت ـ المترجم

أن الانسان ليدهش حين يرى فى عيونكم ، فى الظلام المفجع الذى يحف بكم ، نورا ساطعا · هذا النور هو ضياء المستقبل الذى يغمركم ·

أيها المواطنون الفرنسيون والبلجيكيون ، لنرفع القوميات عالية فى وجـه الطغـاة ، ونحنيها أمام الديموقراطية · الديموقراطية هى الوطن الأكبر · الجمهورية العالمية هى الوطن العالمى · وعندما يحين الأوان ، يجب على القوميات والأوطان أن تطلق صيحة الحرب ضد الطغاة · فاذا تم هذا العمل . فان الوحدة ، الوحدة الانسانية المقدسة ، سوف تضع على جبين الأمم كلها قبلة السلام · لنصعد من درجة الى درجة ، ومن علم الى علم ، ومن ألم الى ألم ، ومن شقوة الى شقوة ، الى القوالب الكبرى · ولتوسع كل درجة نجتازها دائرة الأفق · هناك من هو أعلى من الألمانى والبلجيكى والايطالى والانجليزى والفرنسى ، انه المواطن ·· وهناك من هو أسمى من المواطن ، انه الانسان · الوحدة هى نهاية الأمم ، كما ان الجذور هى نهاية الشجر ، والسماء نهاية الرياح ، والبحر نهاية الأنهار · أما الشعوب ، فليس هناك غير شعب واحد · لتحيا الجمهورية العالمية !

الوصول الى جيرسيى
فى ٥ أغسطس ١٨٥٢

٢

اكتفى فيكتور هوجو باجتياز انجلترا · وفى ٥ أغسطس نزل من البحر الى جيرسيى ، واستقبله عند وصوله جماعة المنفيين الفرنسيين الذين كانوا فى انتظاره على رصيف سانت هيلييه ·

أيها المواطنون ··

أشكركم على حفاوتكم الأخوية ، وانى لألمس فيها شبها بالوداع الرقيق الذى أداه أصدقاؤنا فى بلجيكا · لقد غادرت فرنسا على رصيف أنفيرس ، وهأنذا ألقاها ثانية على رصيف سانت هيلييه ·

أصدقائى ، رأيت فى بلجيكا مشهدا مؤثرا ، رأيت الاختلافات كلها وقد نسيت ، والفوارق الجمهورية كلها وقد أصلح ما بينها ، وجدت توافقا عميقا ، وقد ضمت الأنظمة كلها الى راية الفكر ، وتقارب المنفيون بعضهم من بعض فى أحضان الأسى · رأيت كل انسان يبحث عن خصمه ليجعل منه صديقا له ، ويبحث عن عدوه ليجعل منه أخا له ، رأيت الأحقاد كلها وقد تلاشت فى بسمة الشقاء المعذبة الأبية · رأيت هذا ، وتحدثت عنه ، وامتلأ قلبى به ، وانه لشيء جميل · نعم ، الأيدى كلها تتلاقى · ولم يعد الديموقراطيون والاشتراكيون كلهم يشكلون سوى شخصية جمهورية واحدة · وليس ثمة نظرة شرسة واحدة ، ولا جبهة منعزلة واحدة ، ولا مجافاة · الأشياء الشريفة الماضية تتراخى ، والمحن كلها تتآخى ، والطبائع الشديدة التشعب تتوافق ، الكل من المجاهدين الى الفلاسفة ، من « شارا » المحارب الى « اجريكول بيرديجييه » رجل السلام ، من أولئك الذين كانوا أطفالا لجماعة « الفكر » فأسعدهم الحظ بأن يولدوا ويكبروا فى أحضان العقيدة الجمهورية ، حتى أولئك الذين ولدوا مثلى فى مراتب أخرى ، فارتقوا من تقدم الى تقدم ، ومن أفق الى أفق ، ومن تضحية الى تضحية ، الى الديموقراطية الصافية !

أكرر لكم أنى رأيت هذا ، وعلينا نحن القادمين الجدد أن نهنىء به الجمهورية ٠

أقول « القادمين الجدد » لأننا نحن الجمهوريين ، حسب (انقلاب) فبراير (١٨٤٨) ، نحن ــ كما أعلم ــ وأؤكد ــ عمال الساعة الأخيرة ، ولنا أن نفخر بذلك ، فقد كانت تلك الساعة الأخيرة هى ساعة الاضطهاد ، والدموع ، والدم ، والقتال ، والنفى ٠

رأيت فى بلجيكا مشهدا رائعا ، مشهد المعاناة التى يعانيها الناس فى هدوء وثبات ، مشهدهم وهم يشتركون فى مرارة المحنة وكأنهم يشتركون فى وليمة عامة ، متحابين مؤمنين ٠ أنتم يا من تكونون اخوة لهم ، دعونى أمدها هنا فى بصور أخير ، تحية الوداع التى أديتها لهم ! دعونى أمجد هؤلاء الرجال الذين يقاسون كما يجب أن تكون المأساة ، هؤلاء العمال الذين انتزعوا من المدينة التى كانت تغذى أبدانهم وتضىء قريحتهم ، وهؤلاء الفلاحين الذين اجتثوا من الحقول التى ولدوا فى رحابها ، وغيرهم الذين لا يقلون عنهم جدارة ، من متعلمين ، وأساتذة ، وفنانين ، ومحامين ، وموثقى عقود ، وأطبـاء ، فالمهن كلها قد أبدت كل ضروب الشجاعة ٠ دعونى أمجد هؤلاء المنفيين المطرودين المضطهدين ، ومن بين الجميع ممثلو الشعب الذين كافحوا ثلاث سنوات على المنبر ضد تحزب الرجعيات والخيانات والأحقاد ، ثم قاتلوا بعد ذلك فى الشوارع أربعة أيام ضد جيش بأكمله ! لقد عرفت هؤلاء النواب ، انهم أصدقائى ، فدعونى أحدثكم عنهم ، واسمحوا لى بأن أكاشفكم بما فى صدرى : لقد رأيتهم فى المعارك ، وشهدتهم على مشارف الكوارث ، ولمست هدوءهم خلف المتاريس٠ رأيت ما هو أندر من الشجاعة العسكرية ، رأيت جبينهم الباسـل فى المعارك البرلمانية ، حين كان المستقبل الغامض يتهددهم ، وكانت ثورات الغضب المنبعثة من الأغلبية تتساقط على رءوسهم ، وكانت الصحافة الملكية ، أى الفوضوية تهينهم ، والصحف البونابرتية التى اشتركت فى ترتيبات الاليزيه المشئومة تتعمد أن تصب عليهم الأوحال ، والسباب والافتراء يجعلهم جديرين بالنفى ٠

رأيتهم بعد ذلك ، بعد الانهيار ، فى العناء والمحنة الكبرى ، على رأس طابور الضحايا المشئوم المتجه الى صحارى النفى ٠ لقد أعجبت بهم ، أنا الذى أحبهم ٠

هذا ما شهدته فى بلجيكا ، وهذا ما أعرف أننى سوف أشهده ثانية ها هنا ٠ ذلك لأن هذا المثل العظيم للتوافق بين المنفيين ، التوافق الذى تحتاج اليه فرنسا ، هذا المشهد البديع للاخاء الذى تنهار أمامه الافتراءات،

لا تنفرد بلجيكا باعطائه ، بل انا نجده على سائر أرماث « الميدوز » (١) ، على سائر البقاع التي اجتمع فيها الغرقى المنفيون ، ونجده بصفة خاصة في جيرسبي · وأشكركم أيها الأصدقاء باسم شقائنا ·

آه ! فلنقو هذا التوافق وندعمه ! ولننبذ كل انشقاق وخلاف في الرأي ! وطالما أنه لم يبق لرايتنا سوى لون واحد ، وهو الأرجواني ، فعلينا ألا نبقى في نفوسنا سوى شعور واحد ، وهو الاخاء ! وأكرر لكم أن فرنسا في حاجة الى أن ترانا متحدين · فلنكن متحدين حتى نكون أقوياء ولنكن متحدين حتى نكون سعداء ·

سعداء ! يا لها من كلمة ! وهل في الوسع التلفظ بها مع الأسف ، والوطن بعيد ، والحرية ميتة ؟ نعم ، يمكن ذلك ، اذا أحببنا ، فالحب المتبادل في المحنة ، هو هناء التعساء ·

وكيف لا نتحاب ؟ هل هناك ألم لم نقتسمه جميعا فيما بيننا ؟ اننا نشترك في شقاء واحد وأمل واحد · سماء واحدة تعلو رءوسنا ، ومنفى واحد يضمنا ، ما تبكونه أبكيه ، وما تأسفون عليه آسف عليه ، وماتأملونه أنتظره · نحن متماثلون في المصير ، فلم لا نكون اخوة بالروح · الدمع الذي في عيوننا اسمه فرنسا ، والشعاع الذي في فكرنا اسمه الجمهورية· فلنحب بعضنا بعضا ! ومعاناتنا المشتركة هي بالفعل حب بيننا والمحنة التي قطعت قلوبنا بسيف واحد جمعت بين قلوبنا في الوقت ذاته بحب واحـــد ·

لنتحاب من أجل الوطن الغائب ، ومن أجل الجمهورية المذبوحة ! لنتحاب ضد العدو المشترك !

هدفنا شعب واحد ، ومنطلقنا لابد أن يكون روحا واحدة · لنرسم الوحدة بالاتحاد ·

أيها المواطنون ، لتحيا الجمهورية ! أيها المنفيون ، لتحيا فرنسا !

---

(١) غرق الميدوز ــ حادث مفجع مشهور ، جرى في يولية ١٨١٦ ــ على ساحل ارجوين (موريتانيا ــ غرب أفريقيا) على بعد ٤٠ فرسخا من الشاطىء ــ المترجم ·

تصريح فى موضوع الامبراطورية
جيرسيى فى ٣١ أكتوبر ١٨٥٢

٣

الى الشعب

أيها المواطنون ..

سوف نتشكل الامبراطورية . هل علينا أن نعطى أصواتنا ، أم علينا أن نستمر ممتنعين عن ذلك ؟ هذا هو السؤال الموجه الينا .

فى مقاطعة السين عدد من الجمهوريين من بين أولئك الذين امتنعوا الى اليوم – كما يجب عليهم أن يفعلوا – عن الاشتراك بأية صورة كانت فى أعمال حكومة السيد بونابرت ، يبدو أنهم يظنون اليوم أنه من المفيد ، بمناسبة قيام الامبراطورية ، تنظيم مظاهرة مضادة فى مدينة باريس عن طريق الاقتراع ، وأن الوقت ربما قد حان للتدخل فى التصويت . ويضيفون الى ذلك أن الانتخاب قد يكون فى جميع الأحوال وسيلة لاحصاء الحزب الجمهورى ، فبفضل التصويت يمكن معرفة تعداده .

وهم يطلبون رأينا .

جوابنا بسيط . وما عسانا أن نقوله عن باريس ، يصح قوله عن سائر المقاطعات .

ولن نتريث حتى نبين لكم أن السيد بونابرت لم يقرر المناداة بنفسه امبراطورا دون أن يحدد أولا مع أعوانه عدد الأصوات التى ينبغى أن يتجاوز بها الى ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ صوت التى حصل عليها فى ٢٠ ديسمبر . وقد حدد رقمه فى الوقت الحاضر ، سواء أكان ثمانية ملايين أم تسعة ملايين أم عشرة ملايين ، ولن يغير الانتخاب منذلك شيئا . ولست فى حاجة الى أن أذكركم بماهيـة « الانتخاب العام » الذى يجريه السـيد

بونابرت ، وماهية انتخابات السيد بونابرت · مظاهرة مدينة باريس ، أو مدينة ليون ، احصاء الحزب الجمهورى ، هل هذا شيء ممكن ؟ أين ضمانات الانتخاب ؟ أين الرقابة ؟ أين الرقباء ؟ أين الحرية ؟ فكروا فى كل هذه المهازل · ماذا يخرج من صندوق الانتخاب ؟ ارادة السيد بونابرت لا غير · ففى يد السيد بونابرت مفاتيح الصناديق ، فى يده بطاقات نعم و لا ، فى يده التصويت · فبعد أن ينجز المديرون والعمد أعمالهم ، ينفرد هذا الحاكم المستبد بصناديق الانتخاب ويجردها من محتوياتها · وما أسهل عنده من اضافة بعض الأصوات أو حذف البعض الآخر ، أو تزوير محضر أو ابتكار مجموع ، أو اصطناع رقم · الكذب عنده أمر ضئيل ، والتزوير عنده لا شيء على الاطلاق ·

لنتمسك أيها المواطنون بالمبادىء · واليكم قولنا فى ذلك ·

يرى السيد بونابرت أنه قد آن الأوان لأن يسمى نفسه صاحب الجلالة · وهو لم يرجع للبابا سلطانه ليتركه بعد ذلك دون عمل ، فقد اعتزم تكليفه بأن يكرسه ويتوجه · كان له منذ ٢ ديسمبر السلطة الفعلية والطغيان ، أما الآن فهو يريد الاسم ، يريد الامبراطورية · فليكن ·

أما نحن الجمهوريين ، فما هى وظيفتنا ؟ ماذا يجب أن يكون عليه موقفنا ؟

أيها المواطنون ، لوى بونابرت خارج على القانون ، لوى بونابرت خارج على الانسانية · هذا الشرير يحكم البلاد منذ عشرة شهور ، ولم يزل الحق فى الثورة قائما ومسيطرا على الموقف كله · وفى اللحظة التى نمر بها ، تتوطد فى أعماق الضمائر دعوة دائمة الى حمل السلاح · ولكن علينا أن نلزم الهدوء ، فان ما ينور فى جميع الضمائر سوف يؤدى سريعا الى تسليح السواعد كلها ·

أيها الأصدقاء والاخوان ! فى وجود هذه الحكومة الرذيلة المنافية لكل المبادىء الأخلاقية ، المعرقلة لكل تقدم اجتماعى ، فى وجود هذه الحكومة ، قاتلة الشعب ، سفاكة الجمهورية ، المعتدية على القوانين ، هذه الحكومة التى ولدت من القوة ، والتى لابد أن تموت بالقوة ، الحكومة التى أقامتها الجريمة والتى يجب أن يصرعها القانون ، فى وجود هذه الحكومة لا يعرف الفرنسى الجدير بلقب المواطن ولا يريد أن يعرف ما اذا كان هناك شيء شبيه بالانتخاب ومهازل الانتخاب ، ومساخر دعوة الأمة ، ولا يستفسر عما اذا كان هناك رجال يعطون أصواتهم ، ورجال يحملون غيرهم على التصويت ، وعما اذا كان هناك قطيع يسمى مجلس الشيوخ ،

يتداول ، وقطيع آخر يسمى الشعب . عليه أن يطيع ، ولا يستفسر عما اذا كان البابا سيتوج فى الهيكل الرئيسى لكنيسة نوتردام الرجل الذى سوف يدقه الجلاد على خشبة الاعدام ـ وهو أمر لا ريب فيه ، المستقبل الذى لا مفر منه . فى حضـور السيد بونابرت وحكومته ، لا يفعل المواطن الجدير بهذا النعت الا شيئا واحدا : أن يحشو بندقيته ، ويترقب الساعة .

وليمة بولندية

٤

الذكرى السنوية لثورة بولندا

٢٩ نوفمبر ١٨٥٢

ايها المنفيون البولنديون ..

نطقتم باسمى وسط هذه الحفلة المقامة لتمجيد كفاحكم العظيم ، ودعوتمونى ، فهأنذا أقف .

هذا الاحتفال عزيز على ، وذلك لسببين ، فهل تعرفون لماذا أيها المواطنــون ؟ ليس فقط لأنه يثير فى نفوسنا ذكرى صحوتكم البطولية فى عام ١٨٣٠ ، وانما أيضا وعلى الأخص لأنه يمجد الثورة ، فى اليوم ، بل وفى الساعة التى ينتخب فيها الأذلاء الامبراطورية .

نعم ، هذا يسرنى ويرضينى . هذه الوحدة التى أشهدها ، الوحدة بين فرنسا المنفية وبولندا المنفية فى ذكرى مجيدة ، ويوم تاريخى مشهود ، لها سمة عظيمة ، سمة الايمان . نعم أيها المواطنون ، يجب دعم الحياة فى نفس اللحظة التى يبدو فيها أن النعوش تغلق .

هنا اليوم ، فى هذه الجزيرة ، فى اللحظة التى ينادى فيها الناس فى فرنسا بمجرم ٢ ديسمبر امبراطورا ، أهيب بأصــواتكم الكريمة ، وأحاديثكم الملهمة ، وأناشيدكم الوطنية أن تجيب كصدى للضمير الانسانى على تلك الهتافات المشينة !

والآن ، اسمحوا لى أن أقف خاشعا أمام هذا اليوم التاريخى الذى يجمعنا ، والذى أراه مدونا على هذا الحائط .

بولندا ! ۲۹ نوفمبر ۱۸۳۰ ! يا لها من أمة ! ويا لها من ذكرى سنوية ! أيها المواطنون ، اليوم ، خلال تلك الأكوام الهائلة من العقود الكريهة التى تشكل ما تسميه مكاتب المبعوثين السياسيين بالقانون العام الفعلى لأوروبا ، وفى وسط هذه التجارة التى نتناول بالبيع والشراء الأراضى والأقاليم ، وعمليات شراء الشعوب ، وبيع الأمم ، وهذه الأكوام الكريهة من الوثائق الممهورة بكل الأختام الامبراطورية والملكية التى تتشكل صفحتها الأولى من معاهدة التقسيم العام ۱۷۷۲ وصفحتها الأخيرة من معاهدة التقسيم لعام ۱۸۱٥ ، يرى الانسان ثغرة عميقة رهيبة خطرة ، جرحا فاغرا يخترق الحزمة من جانب الى جانب ٠ هذه الثغرة من يا ترى قد صنعها ؟ سيف بولندا ٠ وبكم ضربة صنعها ؟ بضربة واحدة ٠ وفى أى يوم ؟ فى ۲۹ نوفمبر ۱۸۳۰ ٠

فى ۲۹ نوفمبر ۱۸۳۰ ، شعرت بولندا بأن اللحظة قد حانت لمنع سقوط قوميتها بالتقادم ، وفى ذلك اليوم ضربت بالسيف ضربتها الرهيبة ٠

ومن ذاك الحين ، تهشم السيف ، وقيلت تلك العبارة البشعة : لقد استتب النظام فى وارسو ! هذا الشعب الذى كان بطلا من الأبطال ، عاد فأصبح مستعبدا ، وارتدى ثانية أسمال المساجين ٠ لقد قيد بعض الأمراء الذين يستحقون الليمان هذا المسجون الجدير بأكاليل الفخار وشدوه بالسلاسل ٠

أوه ، أيها البولنديون ، انكم على حق فى اتجاهكم الينا ، نحن أبناء أوروبا ، وفى نفوسكم مرارة ٠ وان قلبى لينقبض حين أفكر فيكم ٠ معاهدة ۱۷۷۲ التى أعدت ونفذت فى مواجهة فرنسا ، فى أنوار الفلسفة والحضارة ، فى ذلك الضوء الساطع الذى أرسله على العالم فولتير وروسو ، هذه المعاهدة ، معاهدة ۱۷۷۲ هى وصمة القرن الثامن عشر الكبرى ، كما أن ۲ ديسمبر هى عار القرن التاسع عشر الأكبر ٠ وخلال فترة تاريخية طويلة ــ ولم أتريث حتى يومنا هذا لأقول هذا الكلام ، فقد سبق لى أن ذكرت به فى يوم ۱۷ مارس عام ۱۸٤٦ المجلس السياسى الذى كنت عضوا به ــ أقول انه منذ السنوات الأولى لعهد هنرى الثامن حتى السنوات الأخيرة لعهد لويس الرابع عشر ، غطت بولندا القارة (الأوروبية) التى كان الرعب يغشاها من حين الى حين بسبب طغيان الأتراك الهائل ٠ وعاشت أوروبا ونمت ، وفكرت ، وتطورت ، وكانت سعيدة ، وأصبحت أوروبا بحق خلف هذا الطريق الكبير (يقصد بولندا) ٠ وهاجت البربرية وماجت ، كالمد الصاعد على بولندا ، كما يهدر المحيط على الساحل

الصخرى ، وقالت بولندا للبربرية ، مثلما تقول الصخور للمحيط : لن تمضى أبعد من هذا • واستمر الأمر كذلك ثلاثمائة سنة •

فماذا كان الجزاء ؟ ذات يوم أقدمت أوروبا التى أنقذتها بولندا من تركيا على تسليم بولندا الى روسيا • ولم تدرك أوروبا وهى ترتكب هذه الجريمة أنها ترتكب فى الوقت نفسه حماقة ، وأن فى ذلك عمى هو لون من العقاب • وتغير الموقف فى القارة • ولم يعد الخطر آتيا من الجانب نفسه • واتسم القرن الثامن عشر الذى كان اعدادا فى كل الأمور للقرن التاسع عشر ، اتسم بتضاؤل السلطان (التركى) ونمو نفوذ قيصر (روسيا) • ولم تدرك أوروبا هذه الظاهرة • وكان بطرس الأول ومربيه الصارم شارل الثانى عشر قد غيرا اسم موسكوفيا الى روسيا • وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كانت تركيا تنسحب والروسيا تتقدم • ولم تعد الفوهة الفاغرة هى تركيا ، وانما أصبحت الروسيا • ولم يعد الهدير الأصم الذى يقرع أسماع الناس آتيا من اسطانبول . وانما راح يأتى من بطرسبرج • وتغير موضع الخطر ، ولكن بقيت بولندا فى مكانها • والشىء المدهش أن العناية الالهية قد أهلتها لمقاومة الروس . وصد الأتراك • فماذا صنعت أوروبا فى عام ١٧٧٢ ازاء هذا الموقف ؟ كانت بولندا هى الحارسة ، فسلمتها أوروبا ، لمن ؟ للعدو •

ومن الذى فعل هـذا الشىء الذى لا اسـم له ؟ الدبلوماسيون ، الرءوس السياسية المفكرة فى ذاك الحين ، القادة السياسيون المحترفون • ولم يكن هذا عقوقا فحسب ، وانما كان أيضا غباء ، ولم يكن عارا فحسب، وانما كان فوق ذلك حماقة •

واليوم تقاسى أوروبا من عقوبة الجرم • وجاء دور بولندا الميتة لتسلم أوروبا الى الروسيا •

الروسيا ، أيها المواطنون ، تشكل خطرا أعظم من تركيا • والاثنتان آسيويتان ، ولكن تركيا كانت آسيا الساخنة ، الملونة ، المتقدة ، اللهيب الذى يضرم النار ، وانما يستطيع الاخصاب • أما روسيا فهى آسيا الباردة ، آسيا الشاحبة المتلجة ، آسيا الميتة ، حجر الضريح الذى يقع فلا يرفعه أحد • لم تكن تركيا سوى الاسلام ، ضارية من غير تنظيم • أما روسيا فهى شىء أشد هولا ، انه الماضى القاتم الذى يصر على البقاء والحياة ويقترن بالحاضر ، عضة الفهد أهون من عناق الشبح • ولم تهاجم تركيا الا شكلا من أشكال الحضارة ، هو المسيحية ، وهو شكل قد زال وجهه الكاثوليكى من قبل • أما الروسيا فانها تريد خنق الحضارة كلها مع الديموقراطية بضربة واحـــدة • تريد أن تقتل الثورة والحضـــارة

والمستقبل . ويبدو أن الاستبداد الروسى قال لنفسه : عدوى هو الروح الانسانية . ألخص هذا فى عبارة واحدة : عاشت اليونان بعد الأتراك ، أما أوروبا فانها لن تعيش بعد الروس .

أوه ، أيها البولنديون ، أقول لكم من أعماق نفسى ، انى معجب بكم . أنتم أقدم من اضطهد منا . وانا لنجد فى كأس المرارة التى نشربها اليوم آثار شفاهكم . أنتم تحملون دعائم المنفى ، واخوانكم منفيون فى سيبيريا ، كما أن لنا اخوانا منفيين فى أفريقيا . أيها المنفيون من بولندا ، ان منفيى فرنسا يحيونكم .

نحيى تاريخك أيها الشعب البولندى الطيب! ارفع الرأس فى محنتك . أنت عظيم ، ترقد على أقذار الروس . آه لك يا أيوب الأمم ، ان جروحك أمجاد .

نحيى تاريخك ، وتاريخ كل الشعوب التى قاست وكافحت . هذا الاجتماع . وذاك التاريخ الجليل ، ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ يبعث أمام أنظارنا الذكريات الثورية العظيمة ، وكل الرجال العظام محررى الشعوب . ونحن ، فى اعترافنـــا الدينى العميق بأفضـــال الرجال ، ندعو كوتشيسكو ، وواشنجتون ، وبوليفار ، وبوتزاريس ، وكل المناضلين الشجعان فى سبيل التقدم ، وكل الشهداء الأمجاد فى سبيل الفكر ، ندعوهم الى هذه الولائم المقدسة فى المنفى . ألا يخيل اليكم ، كما يخيل الى ، أننا نراهم فى هذه القاعة فوق رءوسنا ؟ ألا يوجد حول هذا اليوم التاريخى الجليل شىء أشبه بالغمام الساطع يتجلى لنا عنده هؤلاء المنتصرون ، أجدادنا الحقيقيون ، وهم لنا يبتسمون ؟ انظروا اليهم ، وقد تغيرت ملامحهم ، تأملوهم كما أفعل ، لقد قاسوا هم أيضا . فى الضوء الغامض الذى يخرج من القبر ، يتحول أولئك الذين لم يكونوا سوى آدميين ، فيصيرون أنصاف آلهة ، وتتغير أكاليل الأشواك التى سفحت الدماء على جبين الأحياء الى أكاليل من الغار تنير جبين الأشباح .

أيها المواطنون ، هنا ممثلو خمس أمم : بولندا والمجر وألمانيا وايطاليا وفرنسا ، خمس أمم مجيدة أمام الجنس البشرى ، ترقد اليوم فى الهوة .

ويرتجف رجال الحكم الاستبدادى المطلق فرحـا لذلك . ولكنهم مخطئون فى فرحهم هذا . ولن أكف أبدا عن القول ان هذه الأمم رغم اغتيالها لم تمت أبدا . ولا يعرف الطغاة الذين لا روح لهم أن الشعوب لها روح .

ترى ماذا فعل الطغاة حين أحكموا غلق حجر المقبرة فوق شعب من

الشعوب ؟ يعتقدون أنهم قد سجنوا أمة فى القبر ، انما هم قد سجنوا فيه فكرة . ولكن القبر لا يفعل شيئا بمن لا يموت ، والفكرة خالده لا تموت . أيها المواطنون ، ليس الشعب لحما ، انما الشعب فكرة !
ما هى بولندا ؟ انها الاستقلال . ما هى ألمانيا ؟ انها الفضيله . ما هى المجر ؟ انها البطولة . ما هى ايطاليا ؟ انها المجد . ما هى فرنسا ؟ انها الحرية . أيها المواطنون . فى اليوم الذى يموت فيه الاستقلال والفضيلة والبطوله والمجد والحرية . فى هذا اليوم فقط تموت بولندا وألمانيا والمجر وايطاليا وفرنسا .

فى هذا اليوم أيها المواطنون . تختفى روح العالم . ولكن روح العالم هى الله .

أيها المواطنون ، لنشرب نخب الفكرة التى لا تموت . لنشرب نخب الشعوب التى تبعث .

على قبر جان بوسكيه
فى جبانة سان جان بجيرسيى
٢٠ أبريل ١٨٥٣

١

أقام فيكتور هوجو معتكفا فى دار تسمى «مارين تيراس» على شاطىء البحـر ٠

وفى هذه الأثناء بدأ المنفيون يموتون ٠ ولم يكن من الجائز دفن انسان فى القبر دون أن تقال عنه كلمة تنتقل منه الى الله ٠ وأقبل المنفيون على فيكتور هوجو ، وطلبوا اليه أن يتكلم باسمهم ، **فألقى هذه الكلمة :**

أيها المواطنون ٠٠

هذا الرجل الذى جئنا لنودعه الوداع الأخير ، جان بوسكيه ، من مقاطعة تارن ــ ايه ــ جارون ، كان جنديا نشيطا من جنود الديموقراطية ٠ رأيناه منفيا لا تلين له قناة ، يذوى بيننا بصورة مؤلمة ٠ لقد أضناه المرض ، وكان يشعر فى أناة بالتسمم من ذكرى كل ما خلفه وراءه ٠ كان باستطاعته أن يرى الغائبين ، والأماكن المحبوبة ، بلدته وداره ، يرى فرنسا ثانية ٠ كان يستطيع ذلك بكلمة ينطق بها ، فقد عرض عليه ذلك الهوان الممقوت الذى يسميه السيد بونابرت العفو الشامل ، ولكنه رفضه ٠ ومات وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ٠ وها هو ذا الآن (ويشير الخطيب الى الحفرة) ٠ ولن أضيف مديحا الى هذه الحياة البسيطة ، وهذه الميتة العظيمة ٠ فليسترح فى سلام ، فى هذه الحفرة المظلمة التى سوف يغطيه فيها التراب والتى مضت روحه فيها لتلتقى بأمانى القبر الأبدية !

فلينم هنا ، هذا الجمهورى ، وليعلم الشعب أنه لم تزل هناك قلوب طاهرة أبية مخلصـة لقضيته ! ولتعلم الجمهورية أن النـاس يموتون ولا يتخلون عنها ! ولتعلم فرنسا أن هناك من يموت لأنه لم يعد يراها !

فلنسم هذا الوطنى فى بلد أجنبى ! ونحن ، زملاءه فى الكفاح وفى المحنة ، نحن الذين أغلقنا عينيه ، سوف نرد على أفراد أسرته وعلى أصدقائه اذا سألونا : أين هو ؟ فنقول : مات فى المنفى ! كما أجاب الجنود عند ذكر اسم « لانور دى فيرنى » : مات فى ساحة الشرف !

أيها المواطنون ! المرتدون عن مبادئهم فرحون · وتشهد الارض القديمة ، أرض ١٤ يولية ، و ١٠ أغسطس ازدهار الخسة بصورة بشعة . ومسيرة النصر التى يسيرها الخونة · وليس ثمة دناءة لم تفز المحال بمكافأتها · فذلك العمدة قد خالف القانون · ومن ثم يعين محافظا ، وذلك الجندى قد دنس العلم ، ومن ثم يرقى جنرالا ، وذلك القس قد باع الدين ، ومن ثم ينصب أسقفا ، وذلك القاضى دنس العدالة ، ومن ثم يجعل عضوا بمجلس الشيوخ ، وذلك الأمير المغامر قد اقترف كل الجرائم، من الدناءات التى لا يرتكبها النصاب ، الى الأعمال الشنيعة التى تحجم عن اقترافها القاتل ، ومن ثم يصير امبراطورا · وكل ما حول هؤلاء الرجال ، موسيقات وولائم ورقصات وخطب وتصفيق وركوع · ضروب العبودية تأتى لتهنىء ألوان المخازى ·

أيها المواطنون ، لهؤلاء الرجال أعيادهم ! ولنا أيضا أعيادنا · وحين ينهار أحد زملائنا فى المنفى ويموت وقد أضناه الحنين الى الوطن ، وأنهكته الحمى البطيئة ، حمى العادات التى انقطعت ، والعواصف التى تحطمت ، بعد أن شرب حتى الثمالة كل أشجان المنفى ، نسير خلف نعشه المغطى بملاءة سوداء ، ونصل الى حافة الحفرة ، ونركع نحن أيضا على ركبنا ، لا أمام النجاح ، وانما أمام القبر ، وننحنى أمام أخينا المدفون ونقول له : أيها الصديق ، نهنئك لأنك كنت شجاعا ، وكنت كريما وجريئا ، نهنئك لأنك كنت مخلصا ، ولأنك ضحيت فى سبيل مبدئك حتى آخر أنفاسك ، وآخر خفقة فى قلبك ، ولأنك قاسيت ، نهنئك لأنك مت ! ثم نرفع رءوسنا ونصرف وقلوبنا ملؤها بهجة قاتمة · تلك هى أعياد المنفى ·

تلك هى الفكرة الرصينة الصارمة القائمة فى أعماق نفوسنا كلها · ونحن ، أمام هذا القبر ، وهذه الهاوية التى يبدو أنها قد ابتلعت الرجل ، أمام هذه الظاهرة ، ظاهرة العدم المفجع ، نشعر بأننا معززون فى مبادئنا ومعتقداتنا · ولا ترسخ قدم المؤمن بأشد ما ترسخ الا على تربة القبر المتحركة · ونحن المؤمنين الراسخين فى الايمان ، نثبت أبصارنا على هذا الميت ، هذا الكائن الفانى ، هذا الشبح الذى مر وانقضى ، ونمجد الحرية التى لا تموت ، ونمجد الاله السرمدى ·

نعم ، الله ! لا يجوز أبدا أن ينغلق قبر قبل أن تلفظ هذه الكلمة

الجليلة ، الحية ، فالموتى يلتمسونها ، ولسنا نحن الذين نحرمهم منها . فليفهم الشعب الحر المتدين الذى نعيش بين ظهرانيه فهما جيدا أن الرجال المتقدمين ، رجال الديموقراطية ، رجال الثورة يعرفون أن للروح مصيرين ، ويدل نكران الذات الذى يظهرونه فى هذه الحياة على أنهم يعتمدون على المصير الأخروى . وان ايمانهم بهذا المستقبل الغامض العظيم ليقاوم ذلك المشهد الكريه الذى يصوره لنا منذ ٢ ديسمبر الكهنوت الكاثوليكى المستعبد . والبابوية الرومانية تفزع الضمير الانسانى فى هذه اللحظة . آه ! أقول ذلك والقلب مفعم بالمرارة حين أفكر فى كل هذه الخسة وهذا العار ، فى هؤلاء القساوسة الذين يباركون ويمجدون الزور والبهتان والقتل والخيانة من أجل القصور والتيجان والصولجانات ، وحبا فى متاع الدنيا ، وتلك الكنائس التى ينشدون فيها التسابيح من أجل الجريمة المتوجة . نعم ، فى تلك الكنائس . وفى هؤلاء القساوسة ما يكفى لزعزعة أرسخ العقائد فى أعمق النفوس ، اذا لم يبصر الانسان السماء فوق الكنيسة ، ولم ير الله فوق القس !

وهنا ، أيها المواطنون ، على عتبة هذا القبر المفتوح ، وفى وسط هذا الجمع الخاشع الذى يحف حول هذه الحفرة ، قد حانت اللحظة التى ينبغى فيها أن نبذر حديثا جديا مهيبا حتى ينبت فى كل الضمائر .

أيها المواطنون ، فى اللحظة التى نمر بها ، وهى لحظة مشئومة سوف تتذكرها الأجيال القادمة ، يسود أوروبا كلها مبدأ الحكم المطلق ، ذلك المبدأ القديم ، وينتصر كما يحلو له أن ينتصر ، بالسيف والبلطة والحبل والنطع والمذابح والاعدام بالرصاص ، وضروب التعذيب . ويحتفل الاستبداد ، فى صورة الاله « مولوخ » (١) المحاط بعظام الموتى ، يحتفل بأسراره المخبفة ، فى وجه الشمس تحت سلطان الكهنوت الدموى ، من أمثال هينو وبونابرت ، وراديتسكى . مشانق فى البحر ، مشانق فى لومبارديا ، مشانق فى سيسيليا وفى فرنسا ، الجيوتين والنفى . وفى أملاك البابا وحدها ، البابا الملقب « بملك الرقة » ، أعدم منذ ثلاث سنوات ألفا وستمائة وأربعة وأربعين وطنيا ، وهذا رقم رسمى صحيح ، أعدموا شنقا أو رميا بالرصاص ، بالاضافة الى الكثيرين من الموتى الذين دفنوا أحياء فى السجون الضيقة المظلمة . وفى اللحظة التى أتحدث فيها ، تعج القارة ، كما كانت تعج فى أبشع عهود التاريخ بالمشانق والجثث . وفى اليوم الذى نعتزم فيه الثورة أن تتخذ علما من أكفان الضحايا كلها ،

---

(١) اله العمونيين ، كانوا يقدمون له الأطفال فى النار قربانا ، ويمثل فى صورة رجل له وجه ثور — المترجم .

سوف يغطى ظل هذا العلم أوروبا كلها • هذا الدم ، كل هذا الدم الذى يسيل غزيرا فى حداول من كل مكان ، دم ديموقراطى ، دمكم •

أيها المواطنون ، فى وجود هذا الفيض من التذبيح والتقتيل . ومع هذه المحاكم المرذولة التى يجلس فيها قتلة فى ثوب القضاة ، وهذا العنصر المفجع الشرس الذى فازت به الرجعيــات ، وكل هــذه الجثث العزيزه المقدسه ، أعلنها صريحة ، باسم المنفيين فى جرسيى الذين فوضونى فى التحدث عنهم — وأضيف اليهم المنفيين الجمهوريين كلهم ، فلن يكذبنى صوت واحد جمهورى حقيقى موثوق بكلمته — أعلن أمام هذا النعش الذى يضم واحدا من المنفيين ، وهو ثانى منفى ننزله الى القبر منذ عشرة أيام أننا ، نحن المنفيين ، الضحايا ، نجحد ، فى اليوم القريب الذى لا مفر منه ، يوم الخاتمة الثورية ، نجحد كل ارادة ، وكل شعور ، وكل فكرة عن الأعمال الثأرية الدموية •

ولسوف يعاقب المذنبون كلهم بالتأكيد عقابا قاسيا ، ولابد من ذلك • ولكن لن يسقط منهم رأس واحد ، ولن تدنس قطرة دم واحده ، أو بقعه فى مشنقة ثوب جمهورية فبراير الطاهر • بل ان التقدم الثورى سوف يحمى رأس مجرم ديسمبر نفسه ، رغم بشاعته • وسوف يجعل الثورة من هــذا الرجل أمثــولة كبرى ، فتستبدل بثوبه الامبراطورى الأرجوانى سترة المسجون نزيل الليمان • كلا ، لن نرد على المشنقة بمشنقة أخرى • وســوف نرفض القانون القديم الأخــرف قانون العين بالعين والسن بالسن ، فهذا القانون ، لنظام الحكم الملكى ، بعض من الزمان الماضى ، ونحن نترك الماضى • وعقوبة الاعدام التى ألغتها الجمهورية فى عام ١٨٤٨ بصورة باهرة ، وأعادها لوى بونابرت بصورة شنيعة ، لم تزل ملغاة بالنسبة الينا ، ملغاة الى الأبد • ولقد حملنا معا فى المنفى أمانة التقدم المقدسة ، ولسوف نحملها معنا ثانية باخلاص الى فرنسا • وما نطلبه الى المستقبل ، وما نريده من هذا المستقبل ، هو العدالة ، لا الانتقام • وكما أنه كان يكفى لأهل اسبرطة أن يشهدوا العبيد وهم سكارى من شرب النبيذ حتى يشمئزوا دواما من حفلات اللهو والعربدة ، فانه يكفينا نحن الجمهوريين أن نشهد الملوك سكارى من شرب الدماء حتى تشمئز نفوسنا الى الأبد من آلات الاعدام •

نعم ، نعلنها ، ونشهد على ذلك هذا البحر الذى يربط جيرسى بفرنسا ، وهذه الحقول ، وهذه الطبيعة الهادئة التى تحيط بنا ، وانجلترا الحرة التى تنصت الينا ، نعلن أن رجال الثورة سوف يعودون الى فرنسا رغم ما تقوله الافتراءات البونابرتية ، يعودون لا سفاحين وانما اخوانا !

وانا لنشهد على أقوالنا هذه السماء المقدسة التى تتألق فوق رءوسنا ، والتى لا تصب فى أرواحنا الا أفكار الائتلاف والسلام ! ونستشهد بهذا الميت الراقد فى هذه الحفرة ، والذى يتمتم فى كفنه بصوت خفيض ، بينما أنا أتكلم ، فيقول : نعم أيها الاخوان ، اطردوا الموت ! لقد قبلته لنفسى . ولكنى لا أريده لغيرى ·

الجمهورية هى الاتحاد ، والوحدة ، والتوافق ، والنور ، والعمل الذى يخلق الرفاهية ، ومحو المنازعات بين الناس وبين الأمم ، ونهاية الاستغلال المنافى للانسانية ، والغاء قانون الاعدام ، واقامة قانون الحياة ·

أيها المواطنون ، هذه الفكرة موجودة فى نفوسكم ، ولست الا معبرا عنها · لقد انقضى عهد الضرورات الثورية الدموية الرهيبة · أما فيما يبقى لنا عمله . فان فى قانون التقدم الوطيد ما يكفى · ثم لتهدأ نفوسنا ، فأمامنا كفاح سوف يلازمنا فى المعارك الكبيرة التى سنخوضها ، معارك لا تعمر ضرورتها الجلية من صفاء عقول المفكرين ، معارك سوف تكون فيها الطاقة الثورية ندا لتعصب الملكية ، معارك سوف تصرع فيها القوة المتحدة مع الحق العنف المقترن بالاغتصاب ، معارك رائعة مجيدة حماسية حاسمة . لا ريب فى نهايتها ، معارك ستكون ديموقراطية مثل معارك دولساك وهبستنجز وأوسترلينز ·

أيها المواطنون : لقد حان وقت القضاء على العالم القديم · لقد أدان القانون الالهى ضروب الاستبداد القديمة . فالزمن — هذا اللحاء المنحنى فى الظلال — يتكفل بدفنها ، وكل يوم ينقضى ، يغوص بها أكثر فأكثر فى الفراغ والعدم . والله يلقى بالسنين على التيجان مثلما نلقى التراب بالجاروف على النعوش ·

والآن أيها الاخــوان ، فى لحظة الفراق ، علينا أن نطلق صيحة النصر . صيحة اليقظة ، كما قلت لكم منذ شهور فى مناسبة حفل بولندا ، انه يجب الحديث عن البعث فوق القبور · وأكرر لكم القول ان المستقبل، وهو مستقبل قريب بلا شك ، يعدنا بانتصار الرأى الاجتماعى · ولكنه يعدنا أيضا بأكثر من ذلك . يعدنا فى كل الأجواء ، وتحت كل الشموس، وفى كل القارات ، فى أمريكا وفى أوروبا ، يعدنا بنهاية كل ضروب القهر والعبودية · وليس ما يلزمنا بعد المحن الشديدة التى عانيناها تحرير طبقة أو أخرى من الطبقات التى قاست طويلا ، أو الغاء امتياز ، أو تدعيم حق فحسب . فكل ذلك سوف نحظى به ، ولكنه لن يكفينا · ان ما نريده وما سوف نحصل عليه بلا ريب . وما آمل فيه من الآن أيها المواطنون ببريق الفرح فى أعماق هذه الليلة القاتمة فى المنفى ، وما أطمح اليه ،

انما هو خلاص الشعوب كلها وتحرير الناس كلهم ! أيها الأصدقاء · ان آلامنا تلزم الله ، فهو مدين لنا بثمنها ، وهو صادق أمين يوفى بالدين · فليكن لنا ايمان قوى ، ولننجز تضحيتنا بحماس · أيها المقهورون من كل الأمم ، قدموا جروحكم ، أيها البولنديون قدموا تعاستكم ، أيها المجريون قدموا مشانقكم ، أيها الايطاليون قدموا صليبكم ، أيها الاخوان الأبطال المنفيون فى « كايين » ، وفى أفريقيا ، قدموا أغلالكم ، أيها المنفيون ، قدموا نفيكم وأنت أيها الشهيد ، قدم موتك هبة لحرية الجنس البشرى ·

على قبر لويز جوليان
جبانة سان جان
٢٦ يولية ١٨٥٣

٢

أيها المواطنون ..

ثلاثة نعوش فى أربعة شهور . الموت مستعجل . والله يسلمنا الواحد بعد الآخر . ونحن يا الهى لا نتهمك وانما نشكرك . نشكرك أيها الاله القدير الذى نفتح لنا من جديد . نحن المنفيين أبواب الأبدية .

أما المخلوق العزيز الميت الذى نأتى به الى القبر فى هذه المرة فانه سيدة .

ففى يوم ٢١ يناير الماضى قبض على امرأة فى دارها . قبض عليها السيد بودرو من مأمورى الشرطة فى باريس . وأرسلت المرأة ـ وكانت وقتئذ فى ريعان شبابها . فى الخامسة والثلاثين . ولكنها كسيحة ـ أرسلت الى مركز الشرطة وسجنت فى الزنزانة رقم (١) فى السجن المسمى سجن « الاختبار » هذه الزنزانة . وهى أشبه شىء بقفص مساحته من سبع الى ثمانى أقدام مربعة تقريبا ، لا هواء فيها ولا نور ، وصفتها السجينة التعسة بكلمة واحدة ، اذ سمتها «حجرة القبر» ، وقالت الكلمات الآتية . انبشها بحدافيرها : « فى حجرة القبر هذه أمضيت أنا الكسيحة المقعدة واحدا وعشرين يوما ألصق شفتى من ساعة لأخرى على شبكة النافذة لأستنشق الهواء الضرورى حتى لا أموت » . وفى نهاية اليوم الواحد والعشرين ، أى فى ١٤ فبراير ، أخرجت حكومة ديسمبر هذه المرأة من سجنها وطردتها من البلاد . ألقت بها خارج السجن وخارج الوطن فى وقت واحد . وخرجت المنفية من سجن الاختبار وفى جسمها جراثيم السل . وغادرت فرنسا ودخلت بلجيكا . واضطرتها الفاقة الى السفر وهى تسعل وتبصق دما ، ورئتاها عليلتان فى صميم الشتاء ، فى الشمال تحت المطر والثلج . فى تلك العربات المكشوفة المخبفة التى تعتبر عارا على مشروعات السكك الحديدية الغنية . ووصلت الى أوستند . كانت

مطرودة من فرنسا ، فطردتها بلجيكا ، ومرت بانجلترا · وما كادت تنزل في لندن حتى لازمت الفراش ، وأصبح المرض الذى أصيبت به في السجن والذى استفحل خلال رحلة النفي الجبرية يتهددها بالخطر ·

وبقيت المنفية أو بالأحرى المحكوم عليها بالاعدام ، طريحة الفراش شهرين ونصف شهر · ثم قدمت الى جيرسيي وهي تطمح في القليل من جو الربيع وأشعة الشمس · وما زلنا نذكر أننا رأيناها تصل ذات صباح بارد ممطر في ضباب البحر ، وهي ترتجف وترتجف داخل ثوبها الميلى الرخيص المبتل · وانقضت بضعة أيام على يوم وصولها ، رقدت بعدها ، ولم تنهض أبدا ·

لقد ماتت منذ ثلاثة أيام ·

وتسألونني عن هذه المرأة وعما فعلته حتى نعامل هذه المعاملة · وهأنذا أحدثكم عن ذلك ·

اشتهرت هذه المرأة في ضواحي باريس باسم لوير جوليان ، وهو الاسم الذى عرفها به الشعب وحياها ، اشتهرت بالأغاني الوطنية والأحاديث اللطيفة الودية ، والاعمال الطيبة الوطنيه · اشتغلت عامله فتعهدت بالغذاء أمها العليلة ، وتولت رعايتها والمحافظه عليها سنوات عشرا · وفي أيام الصراع الأهلي ، كانت تضع الضمادات ، وتركب عربات نقل المصابين ، وهي عرجاء تجر قدميها ، وتسعف الجرحى من كل الأحزاب · كانت امرأة الشعب هذه شاعره ، وعقلا مفكرا ، تترنم بمديح الجمهورية ، وتحب الحرية ، وتنادى في حرارة بالمستقبل الأخوى لكل الأمم وكل الناس ، وتؤمن بالله وبالشعب والتقدم ، وبفرنسا ، وتسكب حولها ، كالاناء ، في نفوس عامة الشعب (البروليتاريا) قلبها الكبير المفعم بالحب والايمان · هذا ما كانت تفعله هذه المرأة · لقد قتلها السيد بونابرت ·

آه ، مثل هذا القبر ليس أخرس ، انه ملء بالرفرات والتأوهات والصيحات ·

أيهـــا المواطنـــون ، ان الشعوب ، في اعتزازها الشرعي بحقها وسلطانها ، تشيد بالجرانيت والرخام عمائر مدوية ، وأسوارا فخمة ، ومنابر جليلة يتحدث من فوقها عباقرتهم ، وتفيض من أعلاها بغزارة على النفوس ، كلمات بليغة مقدسة في حب الوطن والتقدم والحرية · وتتخيل الشعوب أنه يكفيها أن تكون صاحبة سيادة لكي تكون منيعة لا تقهر ، وتعتقد أن قلاع الكلمة ، والحصون المقدسة ، هي حصون الذكاء البشرى والحضارة ، وتقول : المنبر شيء لا يمكن هدمه · ولكنها مخطئة · فهذه

المنابر يمكن قلبها · فثمة خائن يأتى ، وجنود يقدمون ، وشرذمة من اللصوص يتآمرون ، ويكشفون النقاب عن وجوههم ، ويضرمون النار ، فاذا الهيكل المقدس قد سقط ، وتبعثر الحجر والرخام ، وانهار القصر والمعبد الذى كانت الأمة تتحدث فيه الى الدنيا · ويهلل الطاغية الدنس المنتصر ، ويصفق ويقول : انتهى الأمر ، ولن يتكلم أحد ، ولن يرتفع صوت بعد الآن · ها قد ساد الهدوء ·

أيها المواطنون ! لقد أخطأ الطاغية بدوره ، فالله لا يريد الهدوء أن يسود · الله لا يريد أن تصمت الحرية ، فالحرية صوت الله · أيهـــا المواطنون ، فى اللحظة التى بطش فيها الطغاة المنتصرون أنهم قد انتزعوا الكلمة من الأفكار الى الأبد ، يعيد الله الكلمة الى الأفكار ، ويعيد بناء المنبر الذى تهدم ، لا فى وسط الميدان العام ، ولا بالرخام والجرانيت ، فلا حاجة به الى ذلك ، انما يبنيه فى الوحدة ، فى عشب الجبانة ، بظل شجر السرو ، بالرابية المشئومة التى تكون من النعوش المختفية تحت سطح الارض · أتعلمون أيها المواطنون ما الذى يخرج من هذه الوحدة ، وهذا العشـــب ، وهذا السرو ، وهذه النعوش المدفونة ؟ تخرج منها صيحة الانسانية المؤلمة ، يخرج منها فضح الجريمة والاشهاد عليها ، يخرج الاتهام القاسى الذى يمتقع له وجه المتهم الموج ، يخرج احتجاج الموتى القوى ، يخرج صوت الانتقام ، الصوت الذى لا يخمد ولا يسكت ! آه ! لقد أسكت السيد بونابرت المنبر · حسن ، والآن فليحاول أن يسكت صوت القبر !

لن يستطيع هو وأمثاله أن يفعلوا شيئا طالما صدر تنهد من القبر ، أو شوهدت دمعة تجرى فى العيون الجليلة ، عيون الرحمة ·

الرحمة ! ··· خرجت هذه الكلمة التى نطقت بها لفورى من أعماق جوارحى أمام هذا النعش ، نعش امرأة ، نعش أخت ، نعش شهيدة · بولين رولان فى أفريقيا ، لويز جوليان فى جيرسيى ، فرانشيسكا مادير سباخ فى نمسسوار ، بلانكا نيلبكى فى ببشت ، وكثيرات غيرهن ، روزالى جـوبر ، أوجينى جيبمو ، أوجستين بيان ، بلانش كلوار ، جـوزيفين برابيى ، اليزابيت بارلبه ، مارى راينيل ، كلودين هيبردى ، آن سانجلا ، الأرملة كومبيسكر ، أرماتين هودى ، وكثيرات غيرهن أيضا ، أخوات وأمهات وبنات وزوجات ، منفيات ومبعدات ومعذبات ومصلوبات ، ايه لكن أينها النساء ! يا له من موضوع ملؤه الدموع الغزيرة ، والشفقة التى لا يمكن التعبير عنها ! منهن ضعيفات ومتألمات ومريضات ، منهن من انتزعن من أسرهن وأزواجهن وآبائهن ، منهن عجائز حطمهن كبر السن ، كل هؤلاء بطلات ، بل وأبطالا · أوه ! ان فكرى ليغوص فى هذه اللحظة

فى هذا القبر ، ويلتم قدمى هده المينة الباردنين فى نعشها ! ليست امرأة معينة بالذات هى التى أوقرها فى شخص لويز جوليان ، وانما المرأة عامة ! المرأة فى عصرنا ، المرأة الجديرة بأن تصبح مواطنة ، المرأة كما نراها حولنا ، فى كامل اخلاصها ورقتها وتضحيتها وجلالها ! أيهـــا الأصدقاء ، سوف يكون دور المرأة كبيرا فى مستقبل الأيام ، فى تلك الجمهورية الاشتراكية الجميله الهادئة الرقيقة الأخوية ، جمهورية المستقبل. ولكن يا له من تمهيد بديع لهذا الدور ، يتمثل فى هؤلاء الشهيدات اللواتى قاسين المحن بمثل هذه الشجاعة ! أيها الرجال المواطنون ، قلنا أكثر من مرة بفخار : أعلن القرن الثامن عشر حق الانسان ، وسوف يعلن القرن التاسع عشر حق المرأة . ولكن يجب علينا أيها المواطنون أن نعترف بأننا لم نتسرع أبدا فى هذا الموضوع . لقد استوقفنا الكثير من الاعتبارات التى أسلم بأنها شديدة الأهميه ، وأنها تطلبت الكثير من التمحيص . وفى هذه اللحظة التى أتحدث فيها ، فى الوقت الذى أدركنا فيه التقدم ، نجد الكثير من أصحاب العقول الممتازة ، من بين أحسن الجمهوريين ، وأكثر الديمـــوقراطيين صـــدقا وصفاء ، ما زالوا يترددون فى التسليم بمساواة النفس البشرية عند كل من الرجل والمرأة ، ومن ثم التسليم بالتشابه بينهما ، ان لم يكن التماثل التام ، فى الحقوق المدنية . ولنقل جهارا أيها المواطنون ، انه طالما استمر الرخاء ، وطالما كانت الجمهورية قائمة ، فان النساء اللواتى نسيناهن ، سوف ينسين أنفسهن ، ويقتصرن على الاشعاع كالنور ، وتدفئة الأرواح ، وترقيق القلوب ، وايقاظ الحماسة ، واظهار الناس على الطيبة والعدل والعظمة والحق . ولم يكن يطمعن فى أكثر من ذلك ، وهن فى بعض اللحظات صـــورة الوطن الحى ، وكان باستطاعتهن أن يصرن روح المدينة ، ولكنهن ظللن روح الأسرة فحسب . ولكن فى ساعة المحنة ، تغير سلوكهن ، ولم يعدن متواضعات . قلن فى ساعة المحنة : لا نعلم اذا كان لنا الحق فيما لكم من سلطة وحرية ومجد ، ولكننا نعلم أن لنا الحق فى تعاستكم ، حق المرأة الذى نطالب به هو أن تقاسمكم المعاناة والكد والفاقة والكرب والتنازلات والنفى ، والحرمان من المأوى ، والجوع اذا افتقدتم الخبز . أوه يا اخوانى ، ها هن اللـــواتى يتبعننا فى الكفاح ، ويرافقننا فى المنفى ، ويسبقننا الى القبر !

أيها المواطنون ، طالما أنكم أردتمونى أن أتكلم هذه المرة أيضـــا باسمكم ، وطالما أن تفويضكم قد أكسب صوتى القوة التى تفتقدها الكلمة المنعزلة ، فان الصيحة الأخيرة التى أود أن أطلقها على قبر لويز جوليان ، مثلما فعلت منذ ثلاثة شهور على قبر جان بوسكيه ، هى صيحة الشجاعة والثورة والأمل !

نعم ، ان نعوشا مثل نعش هذه المرأة النبيلة الموجود ها هنا ، تنبئ بسقوط الجلادين عما قريب ، وانهيار الطغيان والطغاة انهيارا لا مفر منه . يموت المنفيون الواحد بعد الآخر ، ويحفر الحاكم المستبد قبرهم ، ولكن سوف يأتى اليوم الذى تجذب فيه الحفرة اليها اللحاد وتبتلعه .

ايه لكم أيها الموتى الذين تحيطون بى وتستمعون الى . اللعنة على لوى بونابرت ! يا أيها الموتى . فلتخسأ هذا الرجل ! ولن تكون هناك مشانق حين يأتى النصر ، وانما كفارة طويلة ومخرية لهذا التعس ! اللعنة تحت كل السماوات . وفى كل الأجواء . فى فرنسا والنمسا ولومبارديا وصقلية وروما وبولندة والمجر . اللعنة على المعتدين على حقوق الانسان والقانون الالهى ! اللعنـــة على ممولى سفن تعذيب المساجين ، ومشيدى المشانق ، وهادمي الأسر ، ومعذبى الشعوب ! اللعنة على الذين ينفون الآباء والأمهات والأطفال ! اللعنة على من يجلدون النساء بالسياط ! أيها المنفيون . فلنكن صارمين فى هذه المطالب المهيبة المقدسة فى سبيل الحق والانسانية . والجنس البشرى فى حاجة الى هذه الصيحات الرهيبة ، والضمير العالمى فى حاجة الى هذه الفورات من السخط من أجل الرحمة . مقت الجلادين عزاء للضحايا ، ولعن الطغاة مباركة للامم .

الذكرى السنوية الثالثة والعشرون
للثورة البولندية
٢٩ نوفمبر ١٨٥٣ فى جيرسيى

٣

اخوانى المنفيون ..

كل شىء يسير ويتقدم ويقترب ، وأقول لكم بفرحه عميقة ان بشائر الحدث العظيم قد بدأت بالفعل تتجلى وتظهر للعيان . نعم ، افرحوا أيها المنفيون من جميع الأمم ، أو بالأحرى من الأمة العظيمه الوحيدة ، تلك الأمة التى ستكون أمة الجنس البشرى ، وتسمى الجمهورية العالمية . افرحوا ! فى العام الماضى لم نكن نستطيع أن نفعل شيئا أكثر من الدعاء بالأمل ، أما فى هذا العام ، ففى مقدورنا أن نلمس الحقيقة الواقعه . فى مثل هذا الوقت وهذا اليوم من العام الماضى ، اكتفينا بالقول بأن الفكرة سوف تبعث ! أما هذا العام ففى مقدورنا أن نقول : الفكرة تبعث !

كيف تبعث ؟ وبأية صورة ؟ ومن يبعثها ؟ هذا هو الشىء الذى لابد أن نعجب له .

أيها المواطنون ، فى أوروبا رجل يثقل عليها ، رجل هو فى شخص واحد أمير روحانى ، وسيد دنيوى ، وطاغ ، وحاكم مطلق ، أمره مطاع فى المعسكر ، ومقدس فى الدير ، صاحب الاوامر والعقائد ، يحرك فى سبيل سحق الحريات فى القارة امبراطورية تعدادها ستون مليونا من الرجال . انه يقبض بيده على هؤلاء الملايين الستين ، لا باعتبارهم رجالا ، وانما مخلوقات فظة ، ولا باعتبارهم أرواحا ، وانما آلات . وهو بصفته المزدوجة ، الكنسية والعسكرية ، يلبس أرواحهم وأبدانهم ثوبا موحد الزى . يقول : سيروا ! فيجب عليهم السير . ويقول : آمنوا ! فلابد من الايمان . هذا الرجل يسمونه فى السياسة « الحاكم المطلق » ، وفى الدين « الأرثوذكسى » . هو التعبير الاسمى للقدرة البشرية المطلقة . يعذب كما يحلو له ، يعذب شعوبا بأسرها ، وما عليه الا أن يومىء ، فيفرغ بولندا فى سيبيريا . وهو يشبك ويخلط ويعقد كل خيوط المؤامرة الكبرى

التي يسجها الأمراء ضد الرجال · كان في روما ، فأعطى بصمته البابا اليوناني قبلة التحالف للبابا اللاتيني · يفرض سلطانه في برلين وميونيخ ودرسدن وسنوبجارت وفيينا كما يفرضه في سان بطرسبرج · هو روح امبراطور النمسا وارادة ملك بروسيا · ولم تعد ألمانيا القديمة سوى تابع له · انه شيء شبيه بملك الملوك في قديم الزمان ، انه «أجاممنون» في حرب طروادة التي يضرمها رجال الزمان الماضي ضد رجال المستقبل · انه الخطر الوحشي الذي ينهدد به الظل النور ، من الشمال الى الجنوب · حدثتكم عن هذا الجبار صاحب السلطة المطلقة ، وسألخص لكم الحديث في كلمة واحدة : هو امبراطور مثل شارل كنت ، وبابا مثل جريجوري السابع ، يمسك بيديه صليبا ينتهي بسيف وصولجانا ينتهي بسوط ·

هذا الأمير ، هذا العاهل ، ما دامت الشعوب تسمح لبعض الرجال أن يتخذوا لأنفسهم هذا الاسم ، هذا الذي يسمونه نيقولا الروسيا ، هو في الوقت الحاضر رجل الطغيان الحقيقي ، انه رأس الطغيان ، وليس لوي بونابرت الا قناعه ·

وفي هذه القضية المعقدة التي لها كل ما للأقدار من قوة واقتدار ، قضية « أوروبا الجمهورية » أو أوروبا « القوزاقية » ، يتجسد نيقولا الروسيا أو أوروبا القوزاقية · نيقولا روسيا هو الوجه المضاد للثورة ·

أيها المواطنون ، هنا يجب اعمال الفكر ، فالأشياء الضرورية تحدث دائما ، وانما بأية طريقة ؟ هذا هو الشيء العجيب · واني أوجه أنظاركم اليـــه ·

بدا أن نيقولا روسيا قد انتصر ، وسيطر الاستبداد ـــ وهو نظام قديم أعيد بناؤه ـــ سيطر على أوروبا من جديد بصورة أقوى في الظاهر من أي وقت مضى ، على أساس قتل عشر أمم ، وتوج بجريمة بونابرت · وكانت فرنســا التي يسميها شكسبير شاعر الانجليز « جنـــدى الله » مجندلة ، منزوعة السلاح ، مقيدة بالأغلال ، مهزومة · كان يبدو أنه لم يبق سوى الاستمتاع بالنصر · غير أنه لم يكن للقياصرة منذ بطرس ، سوى فكرتين : الحكم المطلق ، والغزو · وحينما تحققت الفكرة الأولى ، فكر نيقولا في الثانية · وكان الى جانبه ظله ، بل كدت أقول كان عند قدميه أمير مصغر ، امبراطورية تشيخ ، شعب ضعف بسبب التصاقه بالحضارة الأوروبية · وقال لنفسه : لقد حانت اللحظة · وبسط ذراعه نحو القسطنطينية ، ومد مخلبه الى فريسته · ونسي كل كرامة ، وكل حياء ، وكل احترام لنفسه ولغيره ، وأظهر فجأة لأوروبا أشد ألوان الطموح فجورا وعريا ، وألقى ذلك الجبار بحمله وثقله على حطام ، وانقض على

ما كان يسقط ، وقال لنفسه مسرورا . فلنأخذ القسطنطينية ، انه لأمر ميسور . غير عادل ولكنه مفيد .

فماذا حدث أيها المواطنون ؟

نهض السلطان ..

لقد اتخذ نيقولا بدهائه وقوته من اليأس ، تلك القوة العظيمة ، خصما له . وكانت هناك الثورة ، تلك الصاعقة الخالدة . ولكن اسمعوا هذا ، فانه شيء عظيم : لقد حدث أن هذا التركى ـ هذا الأمير الهزيل العليل المشرف على الموت ، هذا الشبح الذى كان يكفى القيصر أن ينفخ فيه ، هذا السلطان الصغير الذى صفعه مينشيكوف وجلده جورتشاكوف ، حدث أنه ، وقد مست مشاعره ، وأهين ، وفجع ، ونفد صبره ، ألقى بنفسه على الصاعقة فقبض عليها ، وهو الآن يمسك بها ويهزها فوق رأسه . وتغيرت الأوضاع . وها هو ذا نيقولا يرتجف ! وها هى العروش تتزعزع ، وها هم سفراء النمسا وبروسيا يبرحون القسطنطينية ، وها هى الفرق البولندية والمجرية والايطالية تشكل ، وها هى رومانيا وترنسيلفانيا والمجر ترتعد ، وبلاد الشركس تنهض ، وبولندا ترتجف . ذلك لأن الشعوب كلها والملوك كلهم قد عرفوا ذلك الشيء الساطع الذى يبرق ويضيء فى الشرق ، ويعلمون كل العلم أن ما يتلألأ فى هذه اللحظة فى يد تركيا اليائسة ، ليس هو السيف القديم المثلوم ، سيف عثمان . وانما هو بريق الثورات الفاخر !

نعم ، أيها المواطنون ، انها الثورة التى اجتازت الدانوب منذ هنيهة ! وارتجفت منها أنهار الراين والتيبر والشتول والسين .

أيها المنفيون ، المقاتلون فى كل الأزمان ، والشهداء فى كل الصراعات ، صفقوا بأيديكم لهذا الحدث الخطير الذى بدأ منذ قليل ولن يوقفه شيء الآن . وكل الأمم التى اعتقد الناس أنها ماتت ترفع فى هذه اللحظة رأسها . يقظة الشعوب ، هى يقظة السبوع .

لقد اندلعت هذه الحرب بسبب جدث كانت الدنيا تريد مفاتيحه . أى جدث وأية مفاتيح ؟ هذا هو الأمر الذى يجهله الملوك كلهم . هذا القبر أيها المواطنون هو القبر الكبير الذى سجنت فيه الجمهورية ، الجمهورية التى تقف فى الظلمات على أهبة الخروج . فى أية أيدى سوف تقع تلك المفاتيح التى ستفتح هذا القبر ؟ أيها الأصدقاء ، الملوك هم الذين يتخاطفونها ، ولكن الشعب هو الذى سيحصل عليها .

انتهى الأمر ، وأؤكد ذلك . ومنذ اليوم لن تستطيع المفاوضات أو

المذكرات ، أو البروتوكولات ، أو الانذارات النهائية ، أو الهدنات ، أو دعامات السلم نفسها أن تصنع شيئا فى هذا الصدد · فما جرى قد جرى . وما بدىء فيه سوف يتم · ولجأ السلطان فى يأسه الى الثورة ، والثورة أمسكته · ولم يعد فى مقدوره اليوم أن يتخلص من العون الرهيب الذى تلقاه · لقد اراد ما ليس فى طاقته · وحين يستنجد الانسان بأحد الملائكة ويتخذه معينا له ، يحمله الملاك على أجنحته ·

انه لامر مدهش ! وربما قدر للسلطان أن يعمل على انهيار العروش (صوت ينادى : بما فيها عرشه) ·

هـذا العمل الذى يجبر السلطان على القيـام به ، عمل استساره القيصر ! وسـوف يكون قيصر هو المتسبب فى انهيار العروش الذى سيترتب عليه تآلف « الشعوب المتحدة » ، ولا أقول انه هو الذى أراده · ولسوف نكون أوروبا القوزاقية مصدرا لبزوغ أوروبا الجمهورية · الرجل الثورى الأكبر فى أوروبا حاليا ، أيها المواطنون ، هو نيقولا روسيا ·

ألست محقا حين أقول لكم : تعجبوا من الكيفية التى تتصرف بها العناية الربانية ؟

نعم ، ان العناية الالهية تسير بنا الى المستقبل فى طيات الظلام · انظروا واسمعوا ، ألا ترون أن الحركة الشاملة قد بدأت تصير هائلة ؟ عجيج الحكم المطلق المتشوم يمر كشبح فى دجى الليل ، وصفوف المشانق تترنح فى الافق ، والجبانات التى نلمحها تظهر وتختفى ، وتنهض الحفر التى تضم الشهداء ، وكل شىء يسرع فى دوامة الظلمات هذه · ويبدو أننا نسمع هذه الصيحة الغامضة « مرحا مرحا ! الملوك يمضون سريعا ! » ·

أيها المنفيون ، فلننتظر الساعة فسوف تدق عما قريب ، ولنتأهب · سوف تدق الساعة من أجل الأمم ، ومن أجلنا · عندئذ لن يتخاذل قلب · عندئذ نخرج نحن أيضا من هذا القبر الذى نسميه المنفى ، ونحرك كل الذكريات الدموية المقدسة · وفى أعمق الأعماق تنهض الحشود ضد الطغاة . وينتصر الحق والعدالة والتقدم · ان أكثر الأعلام جلالا ورهبة هو الكفن الذى حاول الملوك أن يدفنوا فيه الحرية ·

أيها المواطنون ، انا نهتف من أعماق هذه المحنة التى ما زلنا فيها · ولنحى — وراء كل هذه الاضطرابات وكل هذه الحروب — لنحى الفجر المبارك ، فجر الولايات المتحدة الأوروبية ! آه ، سوف يكون هذا انجازا عظيما ! لن تكون هناك بعد ذلك حدود ، أو جمارك ، أو حروب ، أو جيـوش ، أو بروليتاريا ، أو جهل ، أو تعاسـة · سـوف تلغى كل

الاستغلالات الأثيمة . وسمحى كل ضروب الاغتصاب ، وتتضاعف الثروة ، ويحل العلم مشكلة الرخاء ، ويكون العمل والحق والواجب ، والوئام بين الشعوب ، والحب بين النـــاس ، والعقاب وقد زال بفضل التربية والتعليم ، والسيف وقد انكسر هو وكل سلاح ، والحقوق كلها وقد أعلنت وصينت : حق الانسان فى السيادة ، وحق المرأة فى المساواة ، وحق الطفل فى النور ، ويصير الفكر هو المحرك الوحيد ، وتصير المادة هى الآلة المسخرة الوحيدة ، وتصير الحكومة نتاج تراكب قوانين المجتمع وقوانين الطبيعة ، أى لا تكون ثمة حكومة خلاف حق الانسان ـ وهكذا أيها المواطنون ستكون على ما يحتمل اوروبا الغد ، وهذه الصورة التى تجعلكم تهتزون طربا هى رسم مقتضب سريع • أيها المنفيون ، لنبارك آباءنا فى قبورهم ، ولنبارك هذه التواريخ المجيدة التى تسطع على هذه الجدران ، ولنبارك المسيرة المباركة التى تتخذها الأفكار • الماضى ينتمى الى الأمراء ، ويسمى « الهمجية » ، أما المستقبل فينتمى الى الشعوب ، ويسمى « الانسان » !

١٨٥٤

الى سكان جيرنسيى
ينـاير ١٨٥٤

١

صـــدر الحـكم بالاعدام فى جزر بحر المانش • وتصـــدى له فيكتور هوجو •

أيا شعب جيرنسيى ••

هذا الذى يأتى اليكم هو واحد من المنفيين ••

منفى هو ، ذلك الذى يتحدث اليكم فى شأن انسان محكوم عليه • الرجل المنفى يمد يده للرجل الذى فى القبرة ، فلا تستهجنوه واستمعوا اليـه •

فى يوم الثلاثاء ١٨ أكتوبر ١٨٥٣ ، فى جيرنسيى ، دخل رجل يدعى جون شارل تابنر ليلا فى منزل امرأة تدعى مدام سوجون وقتلها ، ثم سرقها وأشعل النار فى جثتها وفى المنزل بأمل أن تضيع معالم الجريمة الأولى فى دخان الثانية • ولكنه كان مخطئا ، فالجريمة لا تحابى أحدا • وأبى الحريق أن يخفى جريمة القتل • والعناية الالهية لا تخفى الجرائم ، ومن ثم سلمت القاتل •

وألقت الدعوى التى أقيمت ضد تابنر ضوءا بشعا على الكثير من الجرائم الأخرى • فمنذ بعض الوقت ، أشعلت بعض الأيدى النار فى منازل مختلفة بالجزيرة ، ثم اختفت على الأثر • وتجمعت القرائن ضد تابنر ، وبدا على الراجح أن كل الحرائق السابقة لابد أن تكون ذات صلة بالحريق الدموى الذى وقع فى ١٨ أكتوبر •

وحوكم الرجل ، حوكم بنزاهة وتمحيص بشرف قضائكم الحر العادل • وانعقدت ثلاث عشرة جلسة استخدمت بروية فى فحص الوقائع وتكوين عقيدة القضاة • وفى ٣ يناير صدر الحكم بالاجماع • ففى الساعة التاسعة مساء ، انعقدت جلسة علنية مهيبة ، أعلن فيها رئيس قضاتكم

الموقر ، عمدة جيرنسيى ، بصوت مرتج مستغلق ، يرتجف بانفعال أحسده عليه ، أعلن للمتهم أنه بمقتضى « القانون الذى يقضى على القاتل بالاعدام » فعليه ، جون شارل تابنر أن يستعد للموت ، وأنه سوف يشنق فى يوم ٢٧ يناير القادم ، فى نفس مكان جريمته ، ويعدم فى الموضع الذى ارتكب فيه جريمة القتل •

وهكذا فهناك فى اللحظة التى تمر بنا ، بينكم وبيننا يا سكان هذه الجزر ، رجل يبصر بوضوح ساعته الأخيرة ، فى هذا المستقبل الملىء بالساعات المظلمة بالنسبة الى غيره من الناس • هناك فى هذه اللحظة التى نتنفس فيها بحرية ، ونذهب فيها ونجىء ، ونتكلم ونبتسم ، هناك على بعد خطوات منا ــ والقلب ينبض لدى هذه الفكرة ــ فى سجن ، على حصير حقير ، رجل تعس يرتجف ، يعيش وعينه مثبتة على يوم من أيام هذا الشهر ، يوم ٢٧ يناير ، يوم كالشبح ، يتضخم ويقترب • يوم ٢٧ يناير المحجوب عنا جميعا كغيره من الأيام التى تنتظرنا ، لا يظهر وجهه الا لهذا الرجل ، ذلك الوجه المشئوم ، وجه الموت •

يا أهالى جيرنسيى • لقد حكم على تابنر بالاعدام ، بمقتضى النصوص القانونية ، وأدى قضاؤكم واجبه ، ووفى بالتزامه « حسب تعبير كبار القضاة ، ولكن كونوا على حذر ، فهذا هو قانون « العين بالعين » • قتلت ، فسوف تقتل • هذا عدل أمام القانون البشرى ، ولكنه شىء مخيف أمام القانون الالهى •

أيا شعب جيرنسيى • ليس ثمة شىء صغير فى موضوع الحصانة البشرية • ان العالم المتحضر ليطالبكم بالحفاظ على حياة هذا الرجل •

من أكون ؟ لا شىء • ولكن هل من حاجة لأن يكون الانسان شيئا ما لكى يحق له أن يتوسل ؟ هل من الضرورى أن يكون الانسان عظيما لكى يلتمس العفو ؟ أيا رجال جزائر بحر المانش ، نحن المنفيين من فرنسا ، نعيش بينكم ونحبكم • اننا نشهد مراكبكم الشراعية وهى تمر عند الأفق فى أوقات الغسق ، خلال العواصف ؟ ونرسل اليكم بركاتنا وأدعيتنا • نحن اخوانكم ، نقدركم ونبجلكم ونقدس عندكم العمل ، والشجاعة ، والليالى التى تقضونها فى البحر لتوفير الغذاء للزوجة والأطفال ، وأيدى الملاح الخشنة ، وجبين الفلاح الذى لفحته الشمس ، نقدس فرنسا التى نحن أبناؤها ، وأنتم أحفادها ، وانجلترا التى أنتم مواطنوها ، ونحن ضيوفها •

اسمحوا لنا اذن أن نوجه اليكم الخطاب ، ما دمنا جالسين فى عقر

داركم ، وأن نرد لكم ضيافكم بقلوبنا ، وأن نأسى من أجل كل ما يمكن أن يكدر بلدكم اللطيف .

الغطاس ينزل الى أعماق البحر ليأتي بحفنة من الحصى . أما نحن الذين نقاسي ، والذين عانينا ، نحن المفكرين ، أو اذا شئتم الحالمين ، فاننا نغوص في أعماق الأشياء ، ونحاول أن نلمس الله ، ونعود بحفنة من الحقائق .

واليكم أولى هذه الحقائق ، انك لن تقتل .

هذا كلام مطلق ، قيل للقانون كما قيل للفرد .

أيا أهالي جيرنسيي ، اسمعوا هذا :

هناك آلهة مخيفة ، مفجعة ، ممقوتة ، وثنية . كانت هذه الآلهة تسمى عند العبريين « مولوخ » ، وعند الكليتين « توفانيس » ، وتسمى الآن عقوبة الاعدام . كان كهنتها فيما مضى « المنجمين » في الشرق ، و « الدرويد » في الغرب . أما قسيسه اليوم فهو الجلاد . وحل القتل الشرعي محل القتل المقدس . وقد ملأت هذه الآلهة فيما مضى جزيرتكم بالضحايا البشرية ، وتركت منها آثارا في كل مكان ، تلك الأحجار المفجعة وعليها صدأ القرون وقد محا صدأ الدماء ، نجدها نصف مطمورة في العشب على قمم تلالكم ، وعليها يصفر العوسج في ريح المساء . واليوم ، وفي هذه السنة ، يعود المعبود البشع ، فيظهر بينكم ، ويرعب فجر أيامكم ، وينذركم بطاعته ، ويدعوكم للحضور في يوم معلوم للاحتفال بطقوسه كما كان في الماضي ، ويطالبكم ، أنتم الذين قرأتم الانجيل ، وتنظرون الى الصليب المرفوع ، يطالبكم بضحية بشرية ! فهل تطيعونه ؟ هل تعودون من جديد وثنيين ، لساعتين ، في يوم ٢٧ يناير ١٨٥٤ ؟ وثنيين لتقتلوا رجلا ! وثنيين لتنقذوا روحا ! وثنيين لتبتروا مصير مجرم بأن تقطعوا عنه فترة التوبة ! أستفعلون ذلك ؟ أهذا هو التقدم ؟ أي حالة صار اليها الناس اذا كانت التضحية البشرية ما زالت ممكنة ؟ أما زلتم في جيرنسيي تعبدون الصنم ، صنم الماضي القديم الذي يزهق النفوس في حضرة الاله الخلاق ؟ ما جدوى ازالة الصنم اذا استبدلت به المشنقة ؟

عجبا ! أمن العسير اذن تخفيف العقوبة ، ومنح المذنب فرصة للندم والصلاح ، واستبدال الغفران الجميل بالتضحية البشرية ، وعدم قتل الانسان ؟ هل السفينة في خطر شديد حتى يصبح رجل واحد عبئا زائدا عليها ؟ هل اذن يثقل على المجتمع الانساني الى هذا الحد مجرم تائب ،

لدرجة أنه يتعين التعجيل بالقاء هذا المخلوق من على ظهر السفينة الى ظلام الهاوية ؟

أيا أهالى جيرنسيى ! اليوم تتراجع عقوبة الاعدام فى كل مكان ، وتخسر أرضا لها كل يوم . انها ترحل أمام الشعور الانسانى . فى عام ١٨٣٠ ، طالب مجلس النواب الفرنسى ، بالهتاف الاجماعى ، بالغاء هذه العقوبة . وقد ألغتها الجمعية التأسيسية فى فرانكفورت من القوانين فى عام ١٨٤٨ ، وألغتها الجمعية التأسيسية فى روما عام ١٨٤٩ ، ولم تبق عليها جمعيتنا التأسيسية فى باريس الا بأغلبية غير محسوسة . أقول أكثر من ذلك ان توسكانيا وهى كاثوليكية قد ألغتها ، وروسيا وهى همجية قد ألغتها ، وأوناهيتى المتوحشة قد ألغتها . ويبدو أن الظلمات نفسها لم نعد لها رغبة فيها . فهل ترغبون فيها ، أنتم يا أهالى هـذا البلد الطيب ؟

فى أيديكم الغاء عقوبة الاعدام الغاء فعليا فى جيرنسيى . فى أيديكم ألا « يشنق رجل حتى يموت » فى ٢٧ من يناير . فى أيديكم ألا يكون عندكم هذا المشهد المخيف الذى سوف يترك لطخة سوداء على سمائكم الجميلة .

دستوركم الحر يضع فى متناولكم كل الوسائل الخليقة بانجاز هذا العمل الدينى المقدس . اجمعوا شملكم طبقا للقانون . حركوا الآراء والضمائر حركة سلمية . فى مقدور الجزيرة كلها ، بل ومن واجبها أن تتدخل . على الزوجات أن يضغطن على الأزواج ، على الأبناء أن يرققوا قلوب الآباء ، وعلى الرجال أن يوقعوا على الطلبات والالتماسات . خاطبوا حكامكم وقضاتكم فى حدود القانون . طالبوا بوقف تنفيذ الحكم . طالبوا بتخفيف العقـوبة وسوف تحصلون على ذلك . انهضـوا ، أسرعوا ، لا تضيعوا ساعة ، لا تضيعوا لحظة . اجعلوا نصب أعينكم دائما هذا اليوم المشئوم ، يوم ٢٧ يناير . ولتحص الجزيرة كلها الدقائق كمـا يحصيها هذا الرجل .

فكروا فى هذا جيـدا ، ان الصوت الذى تسـمعونه الآن فى كل ساعاتكم الحائطية ، منذ أن صدر حكم الاعدام هذا ، هو خفقات قلب هذا التعس .

أمن الضرورى أن تكون هناك سابقة ؟ اليكم واحدة منها . فى عام ١٨٥١ ، قتل رجل فى جيرسيى رجلا آخر . فثمة رجل يدعى جاك فوكيه أطلق رصاصة من بندقية على رجل يدعى ديربيشاير ، وصدر قرار هيئتى

التحكيم على التوالى بأن جاك فوكيه مذنب • وفى ٢٧ أغسطس حكمت عليه المحكمة بالاعدام • واضطربت مشاعر الجزيرة مع دنو موعد تنفيذ الحكم • وانعقد اجتماع كبير حضره ألف وستمائة شخص ، تحدث خلاله بعض الفرنسيين ، وصفق لهم شعب جيرسيى الكريم • ووقعت عريضة • وفى ٢٣ سبتمبر وصل قرار العفو عن فوكيه •

والآن ، ماذا حدث لفوكيه ؟ سأقول لكم ماذا حدث له •

فوكيه يعيش ، فوكيه يتندم (١) •

ما رد المشنقة على هذا ؟

يا أهالى جيرنسيى ، ما فعلته جيرسيى ، تستطيع أن تفعله جيرنسيى • وما حصلت عليه جيرسيى سوف تحصل عليه جيرنسيى •

أيقال ان الاعدام يبدو عدلا فى هـذه الجريمة التى ارتكبت فى ١٨ أكتوبر ، أما جريمة تابنر فانها شىء فظيع ؟ كلما ازدادت خطورة الجريمة كان من الواجب اطالة الوقت اللازم للندم •

عجبا ! امرأة قتلت ، قتلت بنذالة ، نعم بنذالة ! ومنزل نهب ، واغتصب ، وأحرق ، جريمة قتل ارتكبت • ويعتقد الناس أن حول هذا القتل قد جرت مجموعة أخرى من الأعمال الشريرة ، فجرى اعتداء ، لا بل الكثير من الاعتداءات التى تتطلب اصلاحا جديا طويلا ، ثم القصاص المصحوب بالتفكير ، وافتداء الشر بالتوبة والندم ، وركوع المجرم تحت وطأة الجريمة ، والمحكوم عليه تحت وطأة العقوبة ، وحياة بأسرها مفعمة بالألم والتطهير • ومع كل ذلك يصير كل شىء على ما يرام لمجرد أنه ذات صباح فى يوم محدد ، يوم الجمعة ٢٧ يناير ، ستدق مشنقة فى الأرض فى لحظات قلائل ، ثم يضغط حبل على رقبة رجل ، وتفلت روح من جسد تعس ، مصحوبة بولولة المسكين الهالك !

يا لها من عدالة انسانية هزيلة مقتضبة !

---

(١) جاك فوكيه ــ تاكد لنا أن جاك فوكيه المحكوم عليه بالاعدام من قبل محكمتنا **الملكية باعتباره مذنبا** فى جريمة قتل فريدريك ديربيشاير ، والذى خففت صاحبة الجلالة **عقوبته فاستبدل بها النفى المؤبد** ، قد نقل منذ ستة أشهر من سجن ميلبانك الذى كان **مقيما فيه الى دارتمور** • وقد شفى تماما من العلة التى كان يشكو منها فى رقبته • وكان سلوكه فى **ميلبانك** باعثا لمحافظ هذا السجن أن يعتقد أنه من الأرجح أن نخفف عقوبته **من جديد ، وينفى الى** المتلكات الانجليزية •

(كرونيك دوجيرسى ، فى ٧ يناير ١٨٥٤) •

آه ! نحن القرن التاسع عشر ، نحن الشعب الجديد ، الشعب المفكر ، الرصين ، الحر ، الذكي ، المجد ، صاحب السيادة ، نحن أفضل أجيال البشرية ، عصر التقدم ،، والفن ، والعلم ، والحب ، والأمل ، والأخوة، والمشانق ! ماذا تريدون منا يا آلات الموت البشعة ، يا هياكل الفناء القبيحة ، يا أطياف الماضي : أنت يا من تمسك بيديك السكين المثلثة ، وأنت يا من تهز هيكلا عظيما في طرف حبل ، بأي حق تعودون للظهور في وضح النهار ، ونور الشمس • وفي قلب القرن التاسع عشر ، وصميم الحياة ؟ أنتم أشباح • أنتم متاع الليل فعودوا الى الليل • هل تخدم الظلمات النور ؟ انصرفوا ، عندنا ما هو أفضل منكم ، لتهذيب الانسان ، واصلاح المذنب ، وانارة الضمير ، وانبات الندم في هجعة الجريمة ، عنـدنا الفكر ، والتعليم ، والتربية المتأنية ، والمثـل الديني ، والضياء العلوي ، والتجربة السفلية ، والتقشف ، والعمل ، والرحمة • عجبا ! أفي مدينـــة السيادة ، مركز الجنس البشري ، مدينـــة ١٤ يولية ، و ١٠ اغسطس ، المدينة التي يرقد فيها روسو وفولتير ، عاصمة الثورات، مهد الفكر ، نجد ميدان « جريف » (١) ، وبوابة سان جان ، و (سجن) لاروكيت ! ومع ذلك لا يكفي هذا التناقض الفظيع ، وقليل هو هذا المنطق المعكوس ، فلابد اذن أن تنتصب المشنقة ، وترتفع ، وتؤكد حقها ، وتسود ، هنا في هذه الجزر ، بين الصخور والأشجار والأزهار ، في ظل الغمائم الكبيرة التي تأتي من القطب ! هنا في عجيج الرياح ، في هدير الأمواج الدائم ، في وحدة الهاوية ، وجلال الطبيعة ! هيا ، انصرفوا ، اختفوا ! ماذا جئت تفعل ، أنت أيها الجيوتين ، في قلب باريس ، وأنت أيتها المشنقة ، في وجه المحيط ؟

يا شعب الصيادين ، يا رجال البحر الشجعان الطيبين ، لاتتركوا هذا الرجل يموت • لا تلقوا ظل المشنقة على جزيرتكم الجميلة المباركة • لا تدخلوا في مغامراتكم البحرية البطولية الخطرة عنصر الفجيعة الغامض هذا • لا تقبلوا التضامن الرهيب الذي يتجلى في تعدي القوة البشرية على القدرة الالهية • من ذا الذي عنده العلم والمعرفة ؟ من ذا الذي كشف اللغز ؟ هناك أسرار خفية في أفعال الانسان ، مثل الدوامات في اللجج • فكروا في الأيام العاصفة ، وليالي الشتاء ، وفي القوى الخانقة الغامضة التي تســيطر عليــكم في بعض اللحظات • فكروا في وعارة شــاطيء « سيرك » ، وفي أعماق « مانكييه » ، ورداءة صخور « باتير نوستير » • لا تنفخوا ريح القبر في شراع مراكبكم • لا تنسوا أيهـا الملاحون ، لا تنسوا أيها الصيادون ، لا تنسوا أيها البحارة ، أنه ليس هناك سوى

---

(١) ميدان في باريس ، كانت تنفذ فيه أحكام الاعدام في الزمان الماضي — المترجم •

لوحة واحدة بينكم وبين الأبدية ، وأنكم نحت رحمه الأمواج التى لا يعرف لها قرار ، والأقدار المجهولة ، وأنه قد توجد هناك ارادة فيما تحسبونه نزوة ، وأنكم تصارعون البحر والزمن بلا هوادة ، وأنكم أيها الناس الذين لا تعرفون إلا القليل جدا ، ولا حول لكم ولا قوة ، تواجهون دائما اللانهاية والمجهول ·

المجهول واللانهاية ، هما القبر ·

لا تفتحوا بأيديكم قبرا بين ظهرانيكم ·

لعمرى ، ألا تقول لنا أصوات هذا المجهول شيئا ؟ ألا تحدثنا كل هذه الأسرار الغامضة بعضها عن البعض الآخر ؟ ألا يتطلب جلال المحيط قداسة القبر ؟

فى العاصفة ، وفى الزوبعة ، وفى أوقات الاعتدال الشمسى ، حينما تهز نسائم الليل ذلك الرجل الميت المعلق على دعائم المشنقة ، ألا نجد هذا الهيكل البشرى شيئا مخيفا ، وهو يلعن هذه الجزيرة وسط الفضاء الشاسع ؟

ألم تفكروا وأنتم ترتجفون - وألح عليكم أن تفعلوا ذلك - فى أن هذه الريح التى سوف تأتى وتلفح أدوات مراكبكم ، قد قابلت فى طريقها هذا الحبل ، وتلك الجثة ، وأن هذا الحبل وتلك الجثة قد تحدثا اليه ؟

لا ! لا اعدام بعد اليوم · لم نعد ، نحن رجال هذا الجيل العظيم نريد شيئا من ذلك · لا نريد تعذيبا للمذنب أو لغير المذنب · وأكرر القول بأن الجريمة يكفر عنها بالندم لا بضربة من بلطة أو بحبل المشنقة ، وأن الدم يغسل بالدموع لا بالدم · لا ، لا تكلفوا الجلاد عملا بعد اليوم · وليكن هـذا ماثلا فى أذهانكم . وليتأمل ضمير القاضى الأمين المتدين فيما يتفق مع ضميرنا · وفضلا عن الاعتداء على حصانة الحياة البشرية ، ذلك الاعتداء الواقع على المجرم الذى يعدم ، والبطل الذى يعاقب بالقتل ، فان أدوات الاعدام كلها قد ارتكبت جرائم · قانون الاعدام رجل شرير يلبس قناعك أيتها العدالة ، يقتل ويذبح دون أن يناله عقاب · وتحمل أدوات الاعدام كلها أسماء الأبرياء والشهداء · لا ، لا نريد اعداما بعد الآن · والجيوتين تسمى عندنا « ليزورك » (١) وعجلة التعذيب تسمى « كالاس » (٢) ، ونار الاحراق تسمى جان دارك ، وآلة التعذيب تسمى

---

(١) متهم ، اعدم فى فرنسا بالجيوتين ، ثم ثبتت براءته - المترجم ·
(٢) أحد ضحايا عجلة التعذيب الأبرياء - المترجم ·

« كامبانيللا » ، والنطع يسمى « توماس مورس » ، والقتل بالسم يسمى سقراط ، والصليب يسمى يسوع المسيح !

أوه ! اذا كان هناك شيء من الجلال فى تعاليم الأخوة هذه ، ومبادىء الرحمة والحب هذه ، التى تصيح بها كل الأفواه التى تنادى بالدين ، وكل الألسنة التى تتشدق بالديموقراطية ، وكل أصوات انجيل العهد القديم وانجيل العهد الجديد وتنشرها فى جميع أركان العالم ، البعض باسم « الانسان الاله » ، والبعض الآخر باسم « الانسان الشعب » ، اذا كانت كل هذه المبادىء عادلة ، وهذه الآراء صادقة ، اذا كان الحى أخا للحى ، وحياة الانسان موقرة ، ولوحة خالدة ، واذا كان الله هو وحده صاحب الحق فى أن يسترد ما سبق أن كان له القدرة فى اعطائه ، واذا كانت الأم التى تحس بالطفل وهو ينحرك فى أحشائها مخلوقا مباركا ، وكان المهد شيئا مكرسا ، والقبر شيئا مقدسا ، اذا كان كل ذلك كذلك . فيا أهالى جزيرة جيرنسيى ، لا تقتلوا هذا الرجل !

أقول : لا تقتلوه ، فاعلموا أنه اذا كان فى الامكان الحيلولة دون الموت ، فان ترك الانسان يموت يعنى قتله .

لا تدهشوا من هذا الالحاح فى كلامى . أقول لكم ، دعوا المنفى يتشفع من أجل المحكوم عليه . لا تقولوا : ماذا يريد منا هذا الأجنبى ؟ لا تقولوا للمنفى : فيم تتدخل ؟ ليس هذا شأنك . اننى أتدخل فى أمور التعس والشقاء ، وهذا حقى ، ما دمت أنا أقاسى . سوء الحظ يشفق على التعاسة ، والألم يحنو على اليأس .

ثم ألسنا نعانى ، أنا وهذا الرجل ، آلاما متشابهة ؟ ألا يمد كل منا ذراعيه نحو هذا الشيء الذى يفلت منا ؟ ألسنا نستدير ، نحن الاثنين صوب نورنا ، أنا المنفى صوب الوطن ، وهو المحكوم عليه صوب الحياة ؟ ثم يتعين علينا أن نفكر فى هذا الأمر — وهو أن ذلك المخلوق الذى ينفى ويصدر الأحكام أعمى ، شديد العمى ، وأن الظلمة على وجه الأرض كثيفة لدرجة أننا نضرب ، نحن منفيى فرنسا ، لأننا أدينا واجبنا ، مثلما يضرب هذا الرجل لأنه ارتكب الجريمة . فالعدالة والظلم يتعاونان فى داخل الظلمــات .

ولكن لا أهمية لذلك ! فهذا القاتل لم يعد فى نظرى قاتلا ، ولم يعد مشعل الحرائق هذا مشعلا للحرائق ، ولم يعد هذا اللص لصا ، انه مخلوق يرتجف ، وسوف يموت بعد قليل . التعاسة تجعل منه أخا لى . وأنا أدافع عنه .

وللمحنة التى نبلوها فى بعض الأحيان ، الى جانب المعاناة ، منافع غير متوقعة • وقد تتخذ أحكام النفى ، اذا ما فسرت بالأشياء التى تفيد فيها ، معانى غير متوقعة ، ومواسية •

فاذا سمع صوتى ، ولم يذهب هباء فى هدير الأمواج والزوابع ، ولم يضع فى الرياح العاصفة التى تفصل بين الجزيرتين ، واذا أنبتت بذور الرحمة التى ألقيتها الى ريح البحر فى القلوب وأثمرت ، واذا كان لحديثى الغامض الذى يقوله المغلوب على أمره ذلك الشرف الرفيع ، شرف استثارة الحركة الطيبة التى سوف تؤدى الى تخفيف العقوبة ، وتوبة المجرم ، واذا أتيح لى أنا المنفى الملقى به ها هنا ، الذى لا فائدة منه ، أن أضع نفسى فى عرض مقبرة تفتح ، وأسد الطريق دون الموت ، وأنقذ رأس انسان ، لو كنت حبة الرمل الساقطة من يد الصدفة ، والتى تميل كفة الميزان ، وترجح كفة الحياة على الموت ، اذا كان نفيى مفيدا على هذا النحو ، اذا كان هو الهدف الغامض لم أقاس شيئا ، وأشكر الله وأحمده وأرفع يدى الى السـماء • وفى هذه المناسبة التى تتفجر فيهـا الارادة الربانية ، يكون النصر لك يا الهى اذ جعلت فرنسا تبارك جيرنسيى ، وجعلت الحضارة كلها تبارك هذا الشعب الذى يكاد يكون بدائيا ، والرجل الذى قتل يحمد الرجال الذين لا يقتلون أبدا ، والقاتل يحمد قانون الرحمة والحياة ، والرجل المنفى يبارك المنفى !

أيا أهالى جيرنسيى ، ليس من يخاطبـكم فى هذه اللحظة مجـرد شخصى ، لست سوى البـذرة التى حملتها ريح الشـدائد فى ليلة من الليالى • أقول لكم ان من يخاطبكم اليوم ، هو الحضارة بأسرها ، الحضارة التى نمد اليكم أيديها الموقرة • لو كان بيكاريا منفيا بينكم لقال لكم : عقوبة الاعدام كفر ، ولو عاش فرانكلين مقصيا فى داركم لقال لكم : القانون الذى يعـدم قانون مشئوم ، ولو عاش فيلانجييرى لاجئا تحت سقفكم ، وفيكو منفيا ، وتيرجو مطرودا ، ومونتسكيو مطاردا لقالوا لكم : المشنقة ملعونة ، ولو طرق يسوع المسيح جزيرتكم هاربا من قيافا (أو قايفى) (١) لقال لكم : لا تضربوا بالسلاح ، ترى هل تردون بكلمة لا على مونتسكيو ، وتيرجو ، وفيكو ، وفيلانجييرى ، وبيكاريا ، وفرانكلين وهم ينادونكم قائلين : الرحمـــة ! وعلى يسوع المسيح وهو يناديكم : الرحمـــة !

لا ، هذه الكلمة جواب الشر ، لا ! انها جواب العدم • الرجل الحر المؤمن انما يؤكد الحياة ، ويؤكد الشفقة والحنان والعفو ، ويؤيد الروح

(١) رئيس كهنة اليهود ، أصدر حكم الاعدام على يسوع المسيح ــ المترجم •

الاجتماعية بسماحة القانون ، ولا يجيب بلا الا على الخزى والاستبداد والمـــوت •

كلمة أخيرة انتهى بها •

فى هذه الساعة الحتمية من ساعات التاريخ التى تمر بنا ــ فمهما عظم شأن جيل من الأجيال ، ومهما كان جمال نجم من النجوم ، فلكل من هؤلاء خسوف ــ فى هذه اللحظة المشئومة التى نجتازها ، ليكن هناك على الأقل مكان على وجه الأرض يلوذ به ، وينجو من الغرق ، السمدم الملطخ بالقروح ، الملقى فى وجه الروابع ، المقهور ، المكدود ، المحتضر • أيا جزر بحر المانش ، فلتكونوا الطوق الذى يلوذ به هذا الغريق الجليل ! وفى الوقت الذى يتصادم فيه الشرق مع الغرب ارضاء لمزاج الأمراء ، ولا تعرض القارات على الأنظار فى كل مكان شيئا غير الخديعة والعنف والمكر والطموح، وفى حين تبسط الامبراطوريات الكبيرة الميول المنحطة ، عليكم أيتها البلاد الصغيرة أن تعطوا المثل العظيمة • أريحوا أنظار الجنس البشرى •

نعم ، فى هذه اللحظة التى تجرى فيها دماء الرجال كالجداول بسبب رجل واحد ، فى هذه اللحظة التى تشهد فيها أوروبا احتضار الأتراك البطولى تحت نعال قيصر ، ذلك المظفر الذى ينتظره القصاص ، فى هذه اللحظة التى تتصاعد فيها فى كل مكان نيران الحرب التى أضرمتها نزوة امبراطور ، ببشاعتها وجرائمها ، لنشهد هنا ، على الأقل ، فى هذا الركن من العالم ، فى هذه الجمهورية ، جمهورية البحارة والفلاحين ، هذا المنظر الجميل ، منظر شعب يحطم المشنقة ! فلتكن الحرب فى كل مكان ، وهنا السلم ! ولتكن الهمجية فى كل مكان ، وهنا المدنية ! وليكن الموت فى كل مكان ، ما دام الأمراء يريدون ذلك ، ولتكن هنا الحياة ! وبينما الملوك الذين أصابتهم لوثة يجعلون من أوروبا ملعبا يحل فيه النـــاس محل النمور ، فيلتهم بعضهم بعضا ، فانا نهيب بشعب جيرنسيى ، وهو مطوق بمصائب العالم وزوابع السماء ، أن يجعل صخرته ركيزة ومذبحا ، ركيزة للانسانية ، ومذبحا للاله !

جيرسيى ، مارين تيراس ، ١٠ يناير ١٨٥٤ •

الى لورد بالمرستون
وزير داخلية انجلترا

٢

أثارت الرسالة السالفة مشاعر الناس فى جزيرة جيرنسيى ، وجرت مقابلات وقع الحاضرون فيها على التماس موجه للملكة ، ونشرت الصحف الانجليزية طلب فيكتور هوجو الخاص بالعفو عن تابنر وأيدت هذا الطلب . وكانت الحكومة الانجليزية قد وافقت ثلاث مرات متتالية على تأجيل تنفيذ الحكم . واعتقد الناس أن الحكم لن ينفذ . وفجأة سرت اشاعة بأن سفير فرنسا ، السيد فالفيسكى قد ذهب لمقابلة لورد بالمرستون . وبعد يومين أعدم تابنر . نفذ الاعدام فى يوم ١٠ فبراير ، وفى يوم ١١ كتب فيكتور هوجو الى لورد بالمرستون الرسالة التى نطالعها فيما يلى :

سـيدى ..

أضع تحت أنظاركم مجموعة من الوقائع التى جرت فى جيرسيى فى السنوات الأخيرة .

فمنذ خمس عشرة سنة صدر الحكم باعدام القاتل « كاليو » ، ثم صدر العفو عنه . ومنذ ثمانى سنوات ، صدر الحكم باعدام القاتل « نوماس نيكول » ثم صدر العفو عنه . ومنذ ثلاث سنوات ، عام ١٨٥١ صدر الحكم باعدام القاتل « جاك فوكيه » ثم صدر العفو عنه . وقد خففت عقوبة الاعدام بالنسبة الى كل هؤلاء المجرمين فاستبدل بها النفى . وكانت عريضة سكان الجزيرة كافية للحصول على قرارات العفو هذه .

أضيف الى ذلك انه اكتفى أيضا ، فى عام ١٨٥١ ، بنفى ادوارد كارلتون الذى قتل زوجته فى ظروف شنيعة .

هذا ما حدث منذ خمس عشرة سنة فى الجزيرة التى أكتب لكم منها .

وفى أعقاب كل هذه الأحداث ذات الدلالة الكبيرة ، محيت أختام المشنقة من فوق « مون باتيبيولير فى ميناء سان هيليبيه » القديم ، ولم يعد ثمة جلاد فى جيرسيى ·

ولنترك الآن جيرسيى وننتقل الى جيرنسيى ·

حكم بالاعدام على تابنر القاتل ومشعل الحريق واللص · لقد ألغيت عقوبة الاعدام يا سيدى فى الوقت الحاضر فى كل الضمائر الصحيحة السوية ، وفى الحقائق التى ذكرتها آنفا ما يكفى لاثبات ذلك اذا لزم الأمر · وعندما حكم على تابنر بالاعدام ، ارتفعت صيحة ، وكثرت العرائض ، فمنها ما يستند بشدة الى مبدأ حصانة الحياة البشرية ، ووقع على هذه العرائض ستمائة من أنبه سكان الجزيرة · وننوه هنا بأنه من بين المذاهب المسيحية العديدة التى تتقاسم سكان جيرسيى البالغ عددهم أربعون ألف نسمة ، لم يوقع على العرائض غير ثلاثة من القساوسة (١) · أما الآخرون فقد رفضوا جميعا التوقيع عليها · وأغلب الظن أن هؤلاء الرجال يجهلون أن الصليب هو مشنقة · صاح الشعب : العفو ! بينما صاح القس : الموت ! رثاؤنا للقس · ولننتقل الى غيره · سلمت العرائض اليك يا سيدى · ووافقت على تأجيل تنفيذ الحكم · والتأجيل فى مثل هذه القضية يعنى التخفيف · وتتنفس الجزيرة الصعداء ، فلن تقام المشنقة · لا ، المشنقة قائمة ، وتابنر أعدم !

ونفكر . ثم نتساءل : لماذا ؟

لماذا يرفض فى جيرنسيى الشيء الذى منح مرارا فى جيرسيى ؟ لماذا السماح فى جزيرة والقصاص العلنى فى جزيرة أخرى ؟ لماذا العفو هنا ، والجلاد هناك ؟ لم هذه التفرقة حيث كانت المماثلة ؟ ما معنى هذا التأجيل الذى انتهى الى تشديد ؟ أهناك سر غامض ؟ ماذا كانت فائدة التفكير ؟

هناك يا سيدى أشياء تقال ، أشيح عنها وجهى · لا ، ان ما يقال غير صحيح · عجبا ! ألا يستطيع صوت ، من أكثر الأصوات غموضا ، صوت رجل منفى ، أن يلتمس العفو ، فى ركن مغمور فى أوروبا دون أن يسمعه السيد بونابرت ، ودون أن يتدخل السيد بونابرت ، ويقر النظام ؟ عجبا ! السيد بونابرت الذى عنده جيوتين «بيلى» ، وجيوتين «دارجينيان» ، وجيوتين «مونبيلييه» لا يقنع بكل ذلك ، ويشتهى مشنقة فى جيرنسيى ! عجبا ! أتخشى يا سيدى فى هذه القضية أن تعكر مزاج الرجل الذى ينفى

---

(١) السادة بيرس ، وكاريى ، وكوكبيرن ·

الناس ، اذا أيدت رأى المنفى ، ومن ثم تجعل من المشنوق مرضاة له ، ومن المشنقة مجاملة له وتفعل ذلك من أجل « دعم الصداقه » ! لا ، لا ، لا ، لا أصدق ذلك ، ولا أستطيع أن أصدقه • لا أستطيع أن اسلم بهذه الفكرة ، مع أنها تبعث فى نفسى القشعريرة •

أمام الأمة البريطانية العظيمة الكريمة ، تتمتع ملكتكم بحق العفو ، كما يتمتع السيد بونابرت بحق الاعتراض (الفينو) ! وبينما هناك اله قدير فى السماء ، نجد سلطانا قديرا على الأرض ! لا !

على أنه لم يكن فى استطاعة صحف فرنسا أن تتحدث عن تابنر • وأنا أقرر الواقع ، ولكنى لا أستخلص منه شيئا • وعلى أية حال ، فقد أصدرت الأمر بأن « تأخذ العدالة مجراها » حسب ما ورد فى برقيتك • وانتهى كل شىء • وشنق تابنر أمس العاشر من شهر فبراير ، بعد ثلاثة تأجيلات ، وثلاث مراجعات • واليك يا سيدى النشرة الخاصة بذلك اليوم — مع ما لعله قد ورد بها من أحداث صحيحة لا أستطيع مع ذلك أن أصدقها • ولك فى هذه الحالة أن ترسل هذه النشرة الى قصر التويلرى • وليس فى هذه التفاصيل ما من شأنه أن يكدر امبراطورية ٢ ديسمبر التى سوف تبتهج لهذا النصر • انها نسر بمشانق !

فمنذ بضعة أيام ، كان المحكوم عليه مرتجف الأوصال • وفى يوم الاثنين ٦ فبراير سمع هذا الحديث بينه وبين زائر :

— كيف حالك ؟

— خائف من الموت أكثر من أى وقت مضى •

— أخائف أنت من عذاب الموت ؟

— لا ، ليس من ذلك •••• ولكن من فراق أطفالى •

وجعل يبكى • ثم أردف قائلا :

— لم لا يتيحون لى الوقت للتوبة ؟

وفى الليلة الأخيرة طالع المزمور ٥١ عـدة مرات • وبعد أن استلقى دقيقة على فراشه ، ركع على ركبتيه • واقترب منه أحد المساعدين وقال له : أتشعر بحاجة الى الغفران ؟ فأجاب : نعم • واسترسل الشخص نفسه قائلا : لمن تصلى ؟ فقال المحكوم عليه : لأطفالى • ثم رفع رأسه ، وشوهد وجهه غارقا فى الدموع ، وبقى جاثيا على ركبتيه • وعندما سمع الساعة تدق الرابعة صباحا ، استدار وقال للحارس : أمامى أربع ساعات ، ولكن الى أين ستذهب روحى ؟

وبدأت التجهيزات ، وأصلح من سأن الرجل كما يجب • ولم يكن جلاد جيرنسيى يزاول حرفته الا فى القليل النادر • وقال المحكوم عليه بصوت خفيض لنائب العمدة : أيستطيع هذا الرجل أن يؤدى عمله جيدا ؟ فأجابه نائب العمدة : اطمئن •• ودخل وكيل النيابة ومد اليه المحكوم عليه يده ، وكان الصبح قد انبلج • ونظر الرجل من نافذة السجن التى صارت بيضاء وتمتم قائلا : أطفالى! وجعل يطالع كتابا بعنوان : «آمنوا وعيشوا» •

ومنذ ارتفاع النهار ، تجمع فى مجاورات السجن حشــد كبير من النـــاس •

وكان بجانب السجن حديقة أقيمت فيها المشنقة • وفى الجدار ثغرة جعلت ليمر منها المحكوم عليه • وفى الساعة الثامنة صباحا ظهر الرجل عند الثغرة ، وكان الجمهور قد ملأ الشوارع المجاورة ، واحتل الحديقة مائتان من المتفرجين السعيدى الحظ • كان مرفوع الجبين ، ثابت الخطو ، ممتقع الوجه ، وحول عينيه دائرتان حمراوان من الأرق • لقد أضاف الشهر الذى مر به أخيرا عشرين سنة الى عمره ، وبدا ذلك الرجل الذى كان فى الثلاثين وكأنه فى الخمسين • ويقول شاهد عيان (١) : « كانت طاقية من القطن الأبيض غائرة فى رأسه ، ومرفوعة على جبينه ، ويرتدى الردنجوت البنى الذى كان يرتديه أثناء المحاكمة ، وفى قدميه خفان قديمان « • وجال بقسم من الحديقة على ممشى مغطى خصيصا بالرمل ، يحف حوله بعض المزارعين والعمدة ونائب العمدة ووكيل النيابة وكاتب المحكمة والجاويش• وكانت يداه موثوقتين بشكل ردىء كما سوف ترى • ومع ذلك ففى حين كانت يداه متقاطعتين تشدهما أربطة فوق الصدر ، كان ثمة حبل يشد المرفقين خلف الظهر ، حسب العادات الانجليزية • كان يسير وبصره عالق بالمشنقة،ويقول بصوت خفيض : آه، يا أطفالى المساكين ! والى جواره كانالقس بوفيرى الذى رفض أن يوقع على طلب العفو ، يبكى • وكان الممشى المغطى بالرمل يؤدى الى السلم ، وعقدة الحبل مدلاة • وصعد تابنر ، وكان الجلاد يرتعد ، فالجلادون يتأثرون أحيانا • ووقف تابنر بنفسه تحت الأنشوطة وأدخل فيها رقبته • ولما كانت يداه غير مشدودتين كما ينبغى ، ورأى الجلاد مرتبكا ، فانه جعل يساعده على أداء عمله • ويقول نفس الشاهد : واذ حدثه قلبه بما سوف يجرى بعد ذلك ، فانه قال للجلاد : « اربط يدى جيدا » • فرد عليه هذا قائلا : « لا فائدة من ذلك • وهكذا كان تابنر واقفا تحت الأنشوطة ، وقدماه فوق « الطبلية » ، فأسدل الجلاد الطاقية على وجهه ، ولم يعد يظهر من هذا الوجه الشاحب سوى فم يصلى • وكانت

---

(١) اعدام ج• ك• تابنر (طبع فى مكتب « ستار » بجيرنسيى) •

مساحة الطبلية المهيأة للانفتاح تحته حوالى قدمين مربعين • وبعد بضع ثوان ، الزمن اللازم للاستدارة ، ضغط الرجل « منفذ أحكام الاعدام » لولب الطبلية • وانفتحت حفرة تحت المحكوم عليه ، سقط فيها فجأة ، وشد الحبل ، واستدار الجسم ، واعتقد الناس أن الرجل قد مات • ويقول الشاهد : « ظننا أن تابنر قد قضي للحال بانفصال النخاع الشوكى » • وسقط الرجل بكل ثقله من ارتفاع أربع أقدام ، وكان طويل القامة • ويضيف الشاهد قائلا : « ولم تستمر الراحة التى نزلت بالنفوس المكروبة سوى دقيقتين » • وفجأة تحرك الرجل الذى لم يصبح جثة هامدة بعد ، وانما كان شيئا شبيها بالأشباح ، وارتفعت ساقاه وانخفضتا ، الواحدة بعد الأخرى ، كأنهما تحاولان ارتقاء الدرجات فى الفضاء • وكان المنظر الذى يلمحه الانسـان من الأمام شيئا رهيبا ، فاليدان شبه المفكوكتين تقتربان احداهما من الأخرى « كما لو كانت تطلبان المعونة » كما يقول الشاهد • وانقطع رباط المرفقين عندما سقط الجسم • وراح الحبل يهتز مع هذه الحركات التشنجية • واصطدم مرفقا التعس بحافة الطبلية ، وتشبثت يداه بهذه الحافة ، واتكأت عليها الركبة اليمنى ، ونهض الجسم ، ومال المشنوق ناحية الجمهور المحتشد ، ثم سقط ثانية ، ثم جعل يميل مرتين ، كما يقول الشاهد • وفى المرة الثانية نهض لارتفاع قدم واحدة ، وراخى الحبل دقيقة واحـدة • ثم رفع طافيته وأبصر النـاس وجهه • واستغرقت هذه الحال على ما يبدو مدة طويلة ، وكان لابد من انهائها • وصعد الجلاد ثانية بعد أن كان قد نزل ، ويقول فى ذلك شاهد العيان « وأرخى الحبل عن المحكوم عليه » • وكان الحبل قد انحرف عن موضعه ، وأصبح تحت الذقن ، فأعاده الجلاد تحت الأذن ، ثم ضغط على الكتفين(١)، واصطرع الجلاد والشبح لحظة ، وتغلب الجلاد • ثم نزل الجلاد التعس، فقد كان هو الآخر يقاسى كالمحكوم عليه ، نزل فى الحفرة التى كان تابنر معلقا فيها ، وضغط على ركبتيه ، ثم تعلق من قدميه • وتأرجح الحبل لحظة حاملا المحكوم عليه والجلاد ، الجريمة والقانون • وأخيرا تخلى الجلاد عن قبضته وانتهى الأمر ، ومات الرجل •

وهكذا ترى يا سيدى أن الأمور سارت على ما يرام ، وكان العمل كاملا • واذا كان المراد انطلاق صيحة فزع فقد تم المراد • ولما كانت المدينة مشيدة على شكل مدرج دائرى فقد رؤى هذا المشهد من كل النوافذ، واتجهت الأنظار كلها الى الحديقة •

وصاح الجمع الحاشد : يا للعار ، يا للعار ! وسقط بعض النسوة فاقدات الوعى •

(١) صحيفة جازيت دو جبرنسيى ، ١١ فبراير •

وفي هذه الأثناء ، كان فوكيه الذي أعفي عنه في عام ١٨٥١ بنوب · لقد جعل الجلاد من تابنر جثة هامدة ، أما الرحمه فقد أصلحت من شأن فوكيه وجعلت منه انسانا ·

أمـر أخـير ··

بين اللحظة التي سقط فيها تابنر في حفرة المشنقة واللحظة التي تخلى فيها الجلاد عن قدميه حينما لم يعد يحس بأية رجفة ، انقضت اثنتا عشرة دقيقة · ولنحسب مقدار هذا الزمن ، اذا عرفنا الساعة التي يمكن أن تحسب بها دقائق الاحتضار !

هاك يا سيدي الكيفية التي مات بها تابنر ·

وقد تكلف هذا الاعدام خمسين ألف فرنك وانه لبذخ شديد (١) ·

ويقول بعض أنصار عقوبة الاعدام انه كان في الامكان تنفيذ عملية الخنق هذه بخمسة وعشرين جنيها استرلينيا · ولكن لم التقتير ؟ خمسون ألف فرنك ؟ ليس هذا بالشيء الغالي · وهناك الكثير من التفاصيل في هذا الموضوع ·

ان الانسان ليشهد في لندن في فصل الشتاء جماعات من المخلوقات قابعة في زوايا الشوارع وأركان الأبواب ، تقضي على هذا النحو الليالي والأيام ، مبتلة ، جائعة ، مثلجة ، بلا مأوى أو ملابس أو أحذية ، تحت المطر والصقيع · ومعظم هذه المخلوقات ، شيوخا وأطفالا ونساء ، من الايرلنديين ، مملك يا سيدي · وهم يواجهون الشتاء بالشارع ، ويواجهون الثلج بالعري ، ويواجهون الجوع بأكوام الزبالة الموجودة بالقرب منهم ، ومن ألوان الفاقة والبؤس هذه تستخلص الخزانة الخمسين ألف فرنك لتدفعها للجلاد روكس · بهذا المبلغ يمكن اعالة مائة أسرة من هذه الأسر سنة واحدة · ولكن الأفضل قتل انسان ·

ويبدو أن أولئك الذين يعتقدون أن الجلاد روكس لم يحسن أداء عمله قد أخطأوا التقدير ، فلم يكن اعدام تابنر الا شيئا بسيطا ، ويجب أن يجري شنقه على هذا المنوال · فقد شنق أخيرا رجل يدعى « تاول » بيدي جلاد لندن الذي تصفه رسالة تحت ناظري بأنه « سيد الجلادين ،

---

(١) كلف الجلاد « روكس » الخزانة حوالي ألفي جنيه استرليني (جازيت دوجيرنسيي في ١١ فبراير) ، ولم يكن روكس قد شنق أحدا من قبل ، وكان تابنر أول تجربة له ، ويرجع آخر مشنقة شهدتها جيرنسي الى أربع وعشرين سنة مضت ، وكانت قد أقيمت من أجل قاتل يدعى « بياس » أعدم في ٣ نوفمبر ١٨٣٠ ·

الذى اكتسب شهرة لا نظير لها فى حرفته التى لا يحسد عليها » • حسن ، ان ما حدث لتابنر حدث بالمثل لتاول (١) •

ولعله من الخطأ القول انه لم تتخذ أيةاحتياطات بالنسبة لتابنر • ففى يوم الخميس ٩ منه ، قام بعض المتحمسين لعقوبة الاعدام بزيارة المشنقة التى كانت مجهزة فى الحديقة • ولما كانوا على الم بهذا الموضوع ، فقد لاحظوا أن « الحبل سميك كابهام اليد ، والأنشوطة فى ثخانة قبضة اليد » • وأخطر وكيل النائب العام بذلك ، ومن ثم استبدل بالحبل السميك حبلا رفيعا • فمم الشكوى ؟

لقد ظل تابنر ساعة فى المشنقة • ولما انقضت الساعة انتزع منها • وفى الساعة الثامنة مساء دفن فى الجبانة المعروفة • بجبانة الأجانب ، الى جوار بياس الذى أعدم فى عام ١٨٣٠ •

وهناك أيضا مخلوق آخر مقضى عليه بالهلاك ، تلك هى زوجة تابنر ، فقد أغمى عليها مرتين وهى تودعه • واستمرت الاغماءة الثانية نصف الساعة ، وظن الناس أنها ماتت •

هاك يا سيدى ، مرة ثانية ، الكيفية التى مات بها تابنر • وثمة حقيقة لا أستطيع أن أصمت عنها دونك ، ذلك أن الصحف المحلية قد أجمعت على النقطة الآتية : انه لن يكون هناك اعدام بعد الآن فى هذا البلد ، ولن يحتمل انسان المشنقة بعد اليوم •

وتضيف صحيفة « كرونيك دى جرسيى » فى ١١ فبراير أن « الاعدام كان أشد فظاعة من الجريمة » •

وانى لأرتاب فى أنك ربما قد ألغيت عقوبة الاعدام فى جيرنسيى دون أن تقصد ذلك •

ثم انى أعرض ذلك على قريحتك هذه الفقرة من رسالة كتبها الى واحد من كبار أهالى الجزيرة اذ قال : « كان السخط على أشده ، ولو شهد الجمع ما جرى تحت المشنقة لحدث أمر خطير ، ولحاول بعضهم انقاذ ذلك الانسان الجارى تعذيبه » •

---

(١) « سقطت الطبلية ، واعتور الرجل التعس تشنجات عنيفة ، وارتعش جسمه كله وتقلصت الذراعان والساقان ، ثم سقطتا ثم تقلصتا ثانية ، ثم سقطتا ، ثم تقلصتا ، ولم يهمد جسد المشنوق الا بعد هذه المرة الثالثة » (اعدام تاول • دار ثورن للطباعة — شارع شارلز) •

وانى لأنقل لك هـذه الصـيحات المترددة المحتجة وأعهـد اليك بأمرها ٠

ولنعد الى تابنر ٠

لقد تم ارضاء نظرية العدوة ٠ ولكن الفيلسوف هو وحده الحزين ، ويتساءل عما اذا كان هذا الشيء هو ما يسمونه العدالة « التى تتخذ مجراها » ٠

لابد من الاعتقاد بأن الفيلسوف مخطىء ٠ كان الاعدام رهيبا ، ولكن الجريمة شنعاء ٠ ولابد أن يدافع المجتمع عن نفسه ، أليس كذلك ؟ فماذا يحدث لنا اذا ٠٠٠ الخ ، الخ ؟ فلن يكون هناك حدود لجرأة الأشرار ٠ ولن يشهد الانسان سوى الآثام الشنيعة ، وكمائن الشر ٠ القصـاص ضرورى ٠ وأخيرا فهذا هو رأيك يا سيدى ، أن أمثال تابنر يجب أن يشنقوا ، اللهم الا اذا كانوا أباطرة ٠

فلتكن مشيئة رجال الدولة !

المفكرون والحالمون والعقول الغريبة الضاربة فى الأوهام التى تدرك الخير والشر لا تستطيع أن تسبر أغوار بعض جوانب مشكلة القدر دون أن ترتبك ٠

لماذا لم يقتل تابنر ثلاثمائة نفس بدلا من امرأة واحدة فقط ، فيضيف اليها بضع مئات من العجائز والأطفال ؟ لماذا لم يحنث بقسمه بدلا من أن يحطم بابا ؟ لماذا لم يسرق خمسة وعشرين مليون شلن بدلا من بضعة شلنات ؟ لماذا لم يضرب مدينة باريس برصاص المدافع الرشاشة بدلا من أن يحرق منزل سوجون ؟ اذا فعل هذا كان له سفير فى لندن ٠

غير أنه ربما كان من الأفضل التوصل الى تحديد النقطة التى لا يكون تابنر بعدها مجرما ، والتى يبدأ عندها شنيدر هانز فى أن يكون من رجال السياسة ٠

عجبا يا سيدى ، انه لشيء رهيب ٠ اننا نقطن أنا وأنت هذا العالم المتناهى الصغر ٠ أما أنا فلست سوى رجل منفى ، وأما أنت فلست سوى وزير ، أنا رماد وأنت تراب ، الذرة تستطيع أن تتحدث الى الذرة ٠ ويستطيع الناس أن يتبادلوا ذكر الحقائق من عدم الى عدم ٠ حسن ، فلتعلم أنه مهما كان جلال سياستك الحالية ، ومهما كان المجد والفخار فى حلفك مع السيد بونابرت ، ومهما كان الشرف الذى تحظى به من وضع رأسك بجانب رأسه فى القلنسوة التي يرتديها ، ومهما كانت يا سيدى

اصطاراتكم المشتركة فى المسألة التركيه رائعة ومدوية ، فان هذا الحبل الذى ينعقد حول رقبة انسان ، وتلك الطبلية التى تنفتح تحت قدميه ، وهذا الأمل فى أن ينكسر عموده الفقرى وهو يسقط ، وهذا الوجه الذى يستحيل أزرق خلف نقاب المشنقة المفجع ، وعيناه الداميتان اللتان تبرزان فجأة من محجرهما ، وهذا اللسان الذى يخرج من الحلق ، وتلك الحشرجة. حشرجة المكروب التى تخنقها عقدة الحبل ، وتلك الروح الذاهلة التى ترتطم فى الجمجمة فلا تستطيع الخروج ، وتلكم الركبتان المرتجفتان اللتان تبحثان عن نقطة ارتكاز ، واليدان الموثقتان الساكنتان اللتان تنضمان احداهما الى الأخرى وتطلبان النجدة ، وذلك الرجل الآخر ، رجل الأشباح الذى يتشبث بساقى المشنوف التعس ويتعلق بجسده ، انه لشىء مرعب يا سيدى • ولو كانت الظنون التى استبعدها صادقة ، لو كان الرجل الذى تشبث بقدمى تابنر هو السيد بونابرت ، لكان ذلك أمرا فظيعا • غير انى أكرر القول انى لا أظن ذلك • انك لم تخضع لأى تأثير • قلت : فلتأخذ العدالة مجراها ، وأصدرت هذا الأمر مثل سواه من الأوامر ، والثرثرة فى مسألة الاعدام شىء لا يمسك الا قليلا • شنق انسان ، كشرب كوب ماء • انك لم تشهد خطورة العمل • استهتار من رجل السياسة ، لا أكثر من ذلك • سيدى ، احتفظ برعونتك للأرض ، لا توجهها للأبدية • صدقنى ، لا تلعب بتلك الأعماق ، لا تلق فيها شيئا من ذاتك • ان فى ذلك قلة تبصر • انى أقرب منك الى تلك الأعماق ، فأنا أراها • فالرجل المنفى أشبه بالميت • وأنا أحدثك من داخل القبر •

آه ! لا أهمية لذلك ! رجل شنق ، ثم ماذا ؟ خيط نلفه ، وهيكل نفكه ، وجثة ندفنها ، أمر بسيط ، ستنطلق المدافع ، قليل من الدخان فى الشرق ، وتنتهى رواية القصة كلها • جيرنسيى ، تابنر ، لابد من مجهر لرؤية هذين الشيئين • أيها السادة ، هذا الخيط ، وهذه الكتلة الخشبية، وهذه الجثة ، وهذه المشنقة الشريرة الضئيلة التى لا يدركها الحس ، وهذا الشتاء ، هذا هو الفضاء الشاسع ، انها المسألة الاجتماعية ، وهى أعلى قدرا من المسألة السياسية •

الأمر أكثر من ذلك ، انه الشىء الذى لم يعد من شئون الأرض • الشىء القليل الأهمية هو مدفعكم وسياستكم ودخانكم • أما الشىء الرهيب فهو أن يصبح القاتل بين عشية وضحاها مقتولا • روح تطير وتحمل معها طرف حبل المشنقة ، شىء فظيع بين وجبتى عشاء • أيا رجال الدولة ، انكم ، بين حفلتين رسميتين (بروتوكولين) ، وبين بسمتين ، تضغطون بأصابعكم المغطاة بقفاز أبيض ، دون اكتراث ، على لولب المشنقة ، فتسقط الطبلية تحت قدمى المشنوق • أتعلمون ما هى الطبلية ؟ انها الأبدية التى

تنكشف ، انها المجهول الذى لا يسبر أغواره ، انها الظلام الشاسع الذى ينفتح بعنف بصورة مفزعه تحت حقارة شأنكم ٠

استمروا ، انه لشئ طيب ، ولنشهد رجال العالم القديم وهم يعملون ٠ وما دام الماضى يتشبث ببقائه ، فلننظر اليه ٠ ولننظر على التوالى الى كل تلك الأشكال ، الى الخازوق فى تونس ، والسوط عند قيصر ، وآلة الضغط على الجسم عند البابا ، والجيوتين فى فرنسا ، والمشنقة فى انجلترا ، وسوق العبيد فى آسيا وأمريكا ٠ آه ، سوف يتلاشى كل ذلك ٠ نحن الفوضويين ، والنظريين ، وشاربى الدماء (١) ، نعلنها لكم أنتم المحافظين ، أن حرية الانسان شئ جليل ، وذكاء الانسان مقدس ، والحياة البشرية مقدسة ، والروح البشرية ربانية ٠ هيا اشنقوا اذن !

ولكن حذار ! فالمستقبل يقترب ٠ تظنون الميت حيا ، وتظنون الحى ميتا ٠ أقول لكم ان المجتمع القديم قائم ولكنه ميت ٠ أنتم مخطئون ٠ لقد وضعتم أيديكم فى الظلمات على الشبح واتخذتموه خطيبة لكم ٠ وتديرون ظهوركم للحياة ، ولكن الحياة سوف ترتفع من خلفكم عما قريب ٠

ونحن عندما ننطق بهذه الكلمات : التقدم ، الثورة ، الحرية ، الانسانية ، تبتسمون أيها التعساء ، وتشيرون الى الليل الذى نحن فيه ، وأنتم فيه ٠ أتعرفون حقا ما هو هذا الليل ؟ فلتعرفوه ، فسوف تخرج منه عما قريب الأفكار هائلة مشرقة ٠ الديموقراطية ، كانت بالامس فرنسا ، وسوف تكون فى الغد أوروبا ٠ والخسوف الحالى انما يحجب تضخم النجم بصورة غامضة ٠

وأنا يا سيدى خادمكم ٠٠

فيكتور هوجو

مارين نيراس ، فى ١١ فبراير ١٨٥٤

(١) يقصد المؤلف بهذه الصفات ما ينعته بها أعداؤه وأعداء الثوره — المترجم ٠

الذكرى السنوية السادسة
ليوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨

٣

أيها المواطنون . .

اليوم التاريخي ، فكرة تتخذ صورة رقم ، نصر يتكشف ويتبلور في رقم مضيء ، ويشتعل أبد الآباد في ذاكرة الناس .

احتفلتم منذ هنيهة بذكرى يوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨ ، ومجدتم التاريخ، فاسمحوا لي أن أدير وجهي صوب المستقبل . اسمحوا لي أن أستدير ناحية ذلك اليوم الذي لم يزل مجهولا ، وهو أخ ليوم ٢٤ فبراير ، والذي سوف يمنح اسمه للثورة القادمة ويكون نظيرا لها .

اسمحوا لي أن أرسل الى التاريخ المقبل كل ما في روحي من آمال. وليكن لهذا التاريخ ما كان لنظيره في الماضي من عظمة ، وليكن له قدر أكبر من السعادة !

وليكن الرجال الذين سوف يشرق لهم (التاريخ المقبل) حازمين ، أصفياء ، وليكونوا طيبين وعظماء ، عادلين ، نافعين ، منصورين ، ولينالوا جزاء آخر خلاف النفي !

وليكن مصيرهم أفضل من مصيرنا !

أيها المواطنون ! ليكن التاريخ المقبل تاريخا حاسما ! ليكن استمرارا لعمل التاريخ الماضي ، على أن ينجزه !

ليكن ، كيوم ٢٤ فبراير الماضي ، ساطعا ، وانما أخويا ، ليكن يوما حربيا ، يمضي قدما نحو الهدف ! لينظر الى أوروبا بالكيفية التي كان دانتون ينظر بها اليها !

وليقم ، مثلما فعل يوم ٢٤ فبراير بالغاء الملكية فى فرنسا ، وانما عليه أن يلغيها أيضا فى القارة (الأوروبية) ! وعليه ألا يخيب فيه الآمال. ليستبدل القانون الانسانى فى كل مكان بالقانون الالهى ! وليناد فى القوميات : انهضى ، انهضى يا ايطاليا ، انهضى يا بولندا ، انهضى يا مجر ، انهضى يا ألمانيا ، انهضى أيتها الشعوب . من أجل الحرية ! وليضع فى فمه نفير المصباح . وليعلن عن انبلاج نور الفجر ! ولتدق أجراس الشعوب فى تلك الفترة الليلية التى ترقد فيها الأمم المخدرة بنوع من النعـاس المتشئوم .

آه ! اللحظة تتقدم ! قلت لكم من قبل ، أيها المواطنون ، وأصر على أن أقولها لكم ، انه بمجرد أن تقع الاصطدامات الحاسمة ، بمجرد أن تتصل فرنسا مباشرة بروسيا والنمسا وتصارعهما جسدا لجسد ، وتبدأ الحرب العالمية الكبرى ، فانكم سوف تشهدون الثورة وهى تبرق وسوف يكون من اختصاص الثورة أن تضرب ملوك القارة الأوروبية . الامبراطورية هى الغمد ، والجمهورية هى السيف .

فلنهتف اذن للتاريخ المقبل ! لنهتف للثورة القادمة ! لنرحب بذلك الصديق الغامض المسمى « بالغد » ! ليكن التاريخ المقبل باهرا ، ولتكن الثورة القادمة منيعة لا تقهر ! ولتنشأ الولايات المتحدة الأوروبية !

ولتكن مثل شهر فبراير ، فتفتح المستقبل على مصراعيه ، وتغلق الى الأبد باب الماضى الكريه ! ولتصنع من كل السلاسل التى تقيد الشعوب قفلا لهذا الباب ! وليكن هذا القفل شديد الضخامة كما كان الارهاب ! لتكن مثل شهر فبراير فترفع الدعامة الثلاثية السامية : الحرية والاخاء والمساواة ، وتضعها على المذبح ، على أن توقد فوق هذه الأثافية شعلة الانسانية الكبيرة بكيفية تنير بها الأرض كلها ! ولتبهر بها المفكرين ، وتغشى أبصار المستبدين !

لتفعل مثلما فعل شهر فبراير ، فتقلب المقصلة السياسية التى أقامتها حـركة بونابرت فى شـهر ديسمبر ، ولتقلب أيضـا المقصلة الاجتماعية ! وعلينا أيها المواطنون ألا ننسى أن المقصلة الاجتماعية انما تعلق سكينها فوق رأس البروليتاريا . لا خبز فى الأسرة ، ولا نور فى العقل ، ومن ثم يكون الخطأ والسقوط والجريمة .

اقتربت ذات مساء ، على مشارف الليل ، من الجيوتين الذى كان منذ قليل فى ميدان « جريف » . وكان هناك دعامتان تسندان السكين التى ما زالت دخناء . سألت الدعامة الأولى : ما اسمك ؟ أجابتنى : الفاقة. وسألت الثانية : ما اسمك ؟ فأجابتنى : الجهل .

فلتقتلع الثورة القادمة والتاريخ المقبل هاتين الدعامتين ، وتهدم هذه المفصلة !

ولتفعل كما فعل شهر فبراير ، فتؤكد حق الانسان ، ولتعلن أيضا حق المرأة ، وتقرر حق الطفل ، أى المساواة للأولى ، والتربية والتعليم للثـــانى !

لتفعل كما فعل شهر فبراير ، فتلغى المصادرة والعنف ، فلا يجرد الانسان من ماله . وتعطى المال كل انسان ، عليها ألا تكون ضد الأغنياء ، وانما مع الفقراء ! نعم ، فلتصنع الرخاء المادى والعقلى والخلقى وتمنحه للدنيا بأسرها، وذلك بالاصلاح الاقتصادى الشاسع، واستيعاب حق العمل بصورة أفضل ، وانظمة كبيرة للخصم والائتمان ، بالبطالة وقد أصبحت مستحيلة ، وبالغاء الجمارك وازالة الحدود ، بالمواصلات وقد ضوعفت عشر مرات ، بالغاء الجيوش الدائمة التى تكلف أوروبا أربعة مليارات فى السنة بالاضافة الى ما تتكلفه الحروب ، باستغلال التربة استغلالا كاملا ، وموازنة الانتاج والاستهلاك على أفضل الوجوه ، والانتاج والاستهلاك هما نبض الشريان الاجتماعى ، بالمقايضة ، وهى نبع الحياة المتدفق ، بالثورة النقدية ، وهى الرافعة القادرة على رفع كل ضروب الفاقة ، وأخيرا بخلق ثروات جديدة كل الجدة ، على نطاق هائل ، ثروات يلحظها العلم منذ الآن ويؤكدها .

ولتسحق كل الأنظمة القديمة المخزية ، وتهشمها وتمحها . تلك هى رسالتها السياسية . ولكن عليها أيضا أن تدفع الى الأمام رسالتها الاجتماعية . لتقدم خبزا للعمال ! ولتحفظ النفوس الصغيرة من التعليم — كلا لقد أخطأت — وانما أقصد أن تحفظها من التسمم الجزويتى والكهنوتى. فعليها أن تبنى التعليم المجانى والالزامى على أساس ضخم ! أتعلمون أيها المواطنون ما يلزم الحضارة حتى تصبح توافقا وانسجاما ؟ يلزمها مصانع ومصانع ، ومدارس ومدارس ! المصنع والمدرسة هما المعمل المزدوج الذى تخرج منه الحياة المزدوجة ، حياة الجسد وحياة الفكر . ولا تكون هناك بعد ذلك أفواه جائعة ، ولا عقول مظلمة ! ولتختف هاتان العبارتان المخزيتان ، المتداولتان ، والجاريتان تقريبا مجرى الأمثال ، واللتان نطقنا كلنا بهما فى حياتنا أكثر من مـرة ، وهما : « هـذا الرجل لا يملك ما يأكله » ، و « هذا الرجل لا يعرف القراءة » . لتختف هاتان العبارتان اللتان هما مظهران من مظاهر التعس القديم الأزلى .

وأخيرا فليخط التاريخ المقبل العظيم ، أى الثورة المقبلة ، على غرار يوم ٢٤ فبراير ، فى كل الاتجاهات خطوات الى الأمام ، ولا يخط خطوة

واحدة الى الوراء ! عليه ألا يتقاعد قبل أن ينتهي من سعيه ! ولنكن كلمته الأخيرة : الانتخاب العام ، والرخاء العام ، والسلم العام ، والمعرفة العامة !

وعندما يسألنا بعضهم عما نقصده بكلمه « جمهورية عالمية » نجيب بأننا نقصد ما ذكرناه · فمن ينمى ذلك ؟ (صيحة اجتماعيه : الجميع) ·

والآن أيها الأصدقاء ، هذا التاريخ الذى أناديه ، التاريخ الذى اذا انضم الى يوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨ العظيم ، و ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ الهائل ، يشكل شيئا شبيها بمثلث الثورة النارى ، هذا التاريخ الثالث ، التاريخ الأعظم ، متى يأتى ؟ متى يظهر ، فى أية سنه وأى شهر وأى يوم ؟ بأى رقم يتكون ، فى سلسلة الأعداد المظلمة ؟ هل هى بعيدة منا أم قريبة ، تلك الأرقام التى لم تزل غامضه والتى تنتمى الى نور رائع ؟ أيها المواطنون، هذه الأرقام مكتوبه فى صفحه من صفحات التاريخ ، مكتوبة بالفعل فى الآونة الحاضرة ، فى هذه الساعة التى أتحدث فيها · ولكن تلك الصفحة لم تطوها اصبع الاله بعد · نحن لا نعلم عنها شيئا ، ولكننا نتأمل وننتظر · وكل ما نستطيع أن نقوله ونردده انه يبدو لنا أن ساعة التحرير تقترب ·

نحن لا نميز الرقم ، ولكننا نرى الاشعاع ·

أيها المنفيون ! ارفعوا جباهكم حتى تضيئها هذه الأشعة !

ارفعوا جباهكم حتى اذا ما تساءل الشعب قائلا : ما الذى يبيض بهذه الصورة جبين هـؤلاء الرجال ؟ أمكن اجابتهم : هذا ضياء الثورة القـادمة !

لندفع جباهنا ، نحن المنفيين ، ولنحى المستقبل كما فعلنا كثيرا من قبل بايماننا الورع ·

للمستقبل أسماء كثيرة ·

اسمه المستحيل عند الضعفاء ، والمجهول عند المخبولين ، والمثل الأعلى عند المفكرين والشجعان ·

المستحيل ! المجهول !

لعمرى ، ألن يصيب الانسان شقاء بعد الآن ؟ ألن يكون بغاء بين النساء ، وجهل بين الأطفال ؟ هذا هو المستحيل !

عجبا ! الولايات المتحدة الأوروبية ، كل ولاية فيها حرة ذات سيادة ، تحركها وتربط بينها جمعية مركزية ، تتصل عبر البحار بالولايات المتحدة الأمريكية ؟ هذا هو الشيء المجهول ·

ماذا ! أيكون ما أراده عيسى المسيح هو المستحيل !

ماذا ! أيكون ما صنعه واشنجتون هو المجهول !

ولكن يقال لنا : وفورة الانفعال ، وآلام الولادة ، وزوبعة الانتقال من العالم القديم الى العالم الجديد ! قارة تتحول ! قارة تتناسخ ! أنتصورون هذا الشيء الرهيب ؟ ومقاومة العروش البائســة ، وغضب الطوائف ، وسخط الجيوش . الملك يدافع عن روانبه ، والقس يدافع عن ايراده الكنسى ، والقاضى يدافع عن مرتبه ، والمرابى يدافع عن قائمة حساباته ، والمستغل يدافع عن امتيازه ، يا لها من عصب ! ويا لها من صراعات ، وأعاصير ، ومعارك ، وعقبات ! هيئوا عيونكم لسكب الدموع ، وشرايينكم لاراقة الدماء ! قفوا ، ارجعوا الى الوراء !..فليصمت الضعفاء والخجولون. أما المستحيل ، ذلك القضيب الحديدى الأحمر ، فسوف نعضه بالنواجذ . وأما المجهول ، تلك الظلمات ، فسوف نغوص فيها ، وسوف نظفر بك ، أيها المثل الأعلى !

فلتحى ثورة المستقبل !

نداء الى المواطنين العالميين

١٤ يونية ١٨٥٤

٤

أصبحت الضرورة الملحة تقضى برفع الصوت وتنبيه النفوس الكريمه الوفية · وليتذكر من هم فى داخل البلاد غيرهم من الموجودين خارجها · ونحن المكافحين فى المنفى ، محاطون بمحن بطولية لم يسمع بمثلها أحد · فالفلاح يعانى بعيدا عن حقله ، والعامل يعانى بعيدا عن مصنعه · لا عمل ، ولا ثياب ، ولا أحذيه ، ولا خبز · ووسط كل هذا نساء وأطفال · تلك هى حالة جماعة من المنفيين · زملاؤنا لا يشكون ، ولكننا نشكو من أجلهم · وقد أدى الطغاة ، وعلى رأسهم السيد بونابرت ، ما يجب عليه أداؤه ، من زور وبهتان ، بمعونه السرطه ، وبالاذلال ، لمنع وصول النجدة الى هؤلاء الصامدين المؤمنين بالديموقراطية والحريه · كانوا يأملون ترويضهم باجاعتهم · أوهام ! سوف يسقطون فى مكانهم · والى أن يأتى ذلك الأوان ، فالوقت يمر ، والأحوال تزداد سوءا ، وما كان شفاء فحسب ، أصبح احتضارا · الفاقة ، والحنين الى الوطن ، والجوع ، كل ذلك قضى على المنفى · لقد مات الكبرون الى الآن · آلا مناص من أن يموت الآخرون ؟

أيا مواطنى الجمهورية العالمية ، نجدة الانسان الذى يقاسى هو أمر واجب ، ونجدة الانسان الذى يقاسى فى سبيل الانسان هو أكثر من واجب ·

وأنتم جميعا ، يا من بقيتم فى أوطانكم ، ويا من تملكون على الأقل هذين الشيئين اللذين يحفظان حياة الانسان : الخبز ، وهواء الوطن ، حولوا أبصاركم نحو هذه الأسرة ، أسرة المنفى التى تناضل من أجل الجميع ، والتى ترتسم وسط الآلام والمحن صورة الأسرة الكبيرة ، أسرة الشعوب ·

فليعط كل منكم ما يستطيع اعطاءه · انا ندعو الاخوان الى نجدة اخواننـــا ·

على قبر فيلكس بونى
٢٧ سبتمبر ١٨٥٤

٥

أيها المواطنون ..

هذا مواطن آخر حكم عليه بالموت نفيا ، ونفذت فيه العقوبة منذ قليل . انسان آخر يموت فى ميعة الصبا ، مثل هيلان ، وبوسكيه ، ولويز جوليان ، وجافنى ، وايزديبسكى ، وكوفيه ! انه فيلكس بونى الموجود فى هذا النعش والذى يبلغ من العمر التاسعة والعشرين .

الشىء المؤلم أن الأطفال أيضا يسقطون ! وقبل أن نصل الى هذا العبر ، بوقت قليل ، نوقفنا أمام حفرة أخرى ، فتحت أخيرا مثل هذه الحفرة ، وأودعنا فيها ابن زميلنا فى المنفى أوجين بوفيه ، وهو طفل مسكين مات بعد أن ولدته أمه ، مات للأسف ولم تكد عيناه تكتحلان بنور الحيـــاة .

وهكذا ففى المرحله الأليمة التى نمر بنا ، ينطوى الفتى والطفل مختلطين فى الظلام تحت أقدامنا .

كان فيلكس بونى جنديا ، وكابد ذلك القانون البشع ، قانون الدم الذى يسمونه « الخدمة العسكرية » والذى ينتزع الرجل من محراثه ويسلمه للسلاح .

كان عاملا ، اجتاز مع البطالة ، والمرض ، والعمل بالأجر الزهيد ، والاستغلال ، والمســاومة ، والتطفل ، والتعاسة ، اجتــاز دوائر جحيم البروليتاريا السبع . وهكذا نرون أن هذا الرجل الذى لم يزل فى فجر العمر ، قد ألمت به المحن من جميع الجهات ، ووجدته صروف الدهر قوى الشكيمة .

ومنذ ٢ ديسمبر أصبح منفيا . لماذا ؟ ولأية جريمة ؟

كانت جريمته جريمتي . أنا الذى أحدثكم ، وجريمتكم أنتم الذين تستمعون الى · كان جمهوريا فى جمهورية ، يؤمن بأن من يؤدى قسما لابد أن يفى بقسمه ، وأنه اذا كان الانسان أميرا ، أو يعتقد فى نفسه أنه أمير ، فان اعتقاده هذا لا يعفيه من أن يكون رجلا شريفا ، وأن على الجنود أن يطيعوا الدساتير ، وعلى القضاة أن يحترموا القوانين · كان عنده تلك الآراء الغريبة ، ونهض ليؤيدها · وحمل السلاح كما حملناه للدفاع عن القوانين ، وجعل من صدره درعا للدستور · قصارى القول انه أدى واجبه · ومن أجل ذلك نزلت به النازلة ، من أجل ذلك نفى ؟ من أجل ذلك « حكم بادانته » كما يقول القضاة الفاجرون الذين يصدرون الأحكام باسم المتهم لوى بونابرت ·

مات ، مات حنينا الى الوطن ، مثل غيره الذين سبقوه الى هذا المكان، مات من انحطاط القوى · مات بعيدا عن أمه العجوز ، بعيدا عن طفله الصغير · احتضر ، فالاحتضار يبدأ مع النفى ، وظل يحتضر ثلاث سنوات، ولم تلن قناته ساعة واحدة · لقد عرفتموه كلكم ، وتذكرونه · آه ، انه كان ثابت الفؤاد شجاعا !

فليخلد الى الراحة فى ذلك الهدوء القاسى ! وليجد على الأقل فى هذا القبر تحقيقا رصينا لما كان يتخذه مثلا أعلى له فى حياته · الموت هو الاخاء الأكبر ·

أيها المنفيون ، طالما أن هذا الصديق قد مات حقا ، وأن هنا أيضا واحدا منا قد غاب عن الدنيا فى نعشه ، فلننادِ الحاضرين فى صفوفنا ، ولنتكاتف أمام الموت كما يفعل الجنود أمام المدفع الرشاش · هذى لحظة البكاء كما هى لحظة الابتسام · هنا عيد الفصح الأكبر · فلنقو ضميرنا الجمهورى ، ولنقو ايماننا بالله وبالتقدم فى هذه الظلمات التى ربما ننزل فيها جميعا الواحد بعد الآخر قبل أن نرى ثانية أرض الوطن العزيز · لنجلس جنبا الى جنب مع موتانا فى هذا اللون من العشاء الربانى المقدس، من أجل الشرف والاخلاص والتضحية · لنقم العشاء الربانى للمقبر ·

وهكذا فان هواء المنفى يقتل الناس · الناس هنا يموتون ، ويموتون بكثرة واستمرار · والمنفى يكافح ، ويقاوم ، ويصمد ، ويجلس على شاطىء البحر ، وينظر ناحية فرنسا ، ويموت ويواصل غيره النضال بعده · غير أن فجوة المنفى قد بدأت تزدحم بجثث الموتى ·

كل شىء حسن · وهذا (يشير الى الحفرة) يفتدى ذاك (يمد الخطيب ذراعه ناحية فرنسا) · وبينما هناك الكثير من الرجال الذين فى استطاعتهم اذا شاءوا أن يكونوا أقوياء ، ولكنهم مع ذلك يقبلون العبودية ، ويحتملون انتصار الغدر والخيانة ، والأثقال تطبق على أعناقهم·

انصار دنيء ، وخضوع دنيء ، وبينما توغل الحشود في العار ، يمضى المنفيون داخل القبر • وكل هذا حسن •

آه يا أصدقائى ، ما أسد الألم !

أه ، أنا لنهيب على الأقل بالشعوب ، فى انتظار اليوم الذى تنهض فيه ، وتصحو ، وتشمئز ، نهيب بالشعوب الملقاة الآن على الأرض ، بعضها مشدود الوثاق ، والبعض مخبول ، فى حالة أسوء من غيرها ، وشعوب أخرى راكعة ذليلة ، فحالتها هى أيضا أسوأ من غيرها ، نهيب بهذه الشعوب أن تنظر الى ذلك الطابور الفخور من المنفيين وهم يمرون وجباههم شامخة فى الظلمات ، يتوغلون ساكنين فى صحراء المنفى ، ويمضون صوب المستقبل ، وفى مقدمة طابورهم نعوش !

المستقبل • لقد واتتنى هذه الكلمة ، فهل تعلمون لماذا ؟ لأنها تصدر بصورة طبيعية عن الفكر فى هذا المكان الغامض الذى نحن فيه • ذلك لأن حافة القبر مكان مناسب ينظر الانسان منه الى المستقبل • ومن هذا المرتفع يبصر الانسان بعيدا فى الأعماق الالهية ، بعيدا فى الآفاق البشرية• اليوم ، حبت الحرية والحقيقة والعدالة مشدودة الأيدى خلف الظهور ، تضرب بالعصا ، وتجلد فى الساحة العامة ، الحرية يضربها الجنود ، والحقيقة يضربها القساوسة ، والعدالة يضربها القضاة ، اليوم ، والفكرة الآتية من عند الله ، تعذب ، والله على أفق الانسانية ، الله يجلد فى الساحة العامة ، ولنا أن نقول ، نعم نستطيع أن نقول انه يتعذب معنا وينزف الدماء • من حق الانسان اذن أن يسبر الجرح البشرى فى هذا المكان الذى ينتمى الى الشئون الأبدية • ثم ان الناس لا يزعجون القبر ، وخاصة قبور الشهداء بالحديث عن الأمل • حسن ! أقول لكم اننا نبصر الأمل بوضوح ، وخاصة من أعلى هذا المنحدر الجنازى • وهناك فى كل مكان ضوء فى دجى الليل ، ضوء فى اسبانيا ، وضوء فى ايطاليا ، ونور فى الشرق ، يقول قصار النظر فى السياسة ان هذه الأضواء حريق ، أما أنا فأقول انها الفجر !

هذا النور ، نور الشرق الذى لم يزل بعد ضعيفا ، هو المجهول ، السر الغامض • لا ترفعوا عنه أبصاركم أيها المنفيون لحظة واحدة ، فعنده سوف يشرق المستقبل •

اتركونى ، مع الوقار اللائق فى حفرة هذا المستمع الجنازى (يشير الخطيب الى النعش) ، دعونى أتحدث اليكم عن الأحداث الجارية ، والأحداث التى تتهيأ ، أتحدث بحرية وصراحة ، وبالكيفية الملائمة لأولئك الواثقين بالمستقبل لأنهم واثقون بالحق • يقال لنا أحيانا ، احترسوا فأحاديثكم

حريثة أكثر مما ينبغي ، وينقصكم الحرص ـ وهل الحرص هو الشيء المطلوب في هذه الآونة ؟ انما المطلوب هو الشجاعة • المجد ، في ساعات النضال الشديد ، لأصحاب الكلام الصادر دون احتراز ، والسيوف المسلولة من الأغماد •

وفضلا عن ذلك فالملوك مدربون • فاهدأوا بالا •

هناك حدثان في الموقف الحاضر ، حلف ، وحرب •

الحلف ؟ أقر بأننا ننظر في هذه اللحظة دون حماسة الى تلك الألفة الظاهرية بين فونتنوا وواترلو ، التي يبدو أنه قد خرج منها نوع من فرنسا الانجليزية • ونحن المتفرجين على هذا المشهد في صمت وبرود ، نترك الجوقة المبتذلة التي تتبع كل المواكب وتتجمع على أبواب النجاح ، نتركها تغني على جانبي المانش ، وتتراشق القصائد بين لندن وباريس ، هذا الحلف البديع الذي بفضله يتنزه في ضوء الشمس جندي فانسين (من فرنسا) في صحبة جندي الحرس الانجليزي ، والبحار الفرنسي في صحبة البحـار الانجليزي ، والمعطف الأزرق (الذي كان يلبسـه الفرنسيون) في صحبة الرداء الأحمر ، وأيضا ، وبلا شك ، نابليون في صحبة « هدسون لو » (١) ، في اللحد •

اننا هادئون أمام هذا الأمر ، على ألا يخطيء أحد في فهم ما نفكر فيه • فنحن أهل فرنسا نحب أهل انجلترا ، والخطوط الصفراء أو الخضراء التي تلطخ بها الخرائط لا وجود لها عندنا • ونحن الجمهوريين الديموقراطيين الاشتراكيين نرفض اقامة الحواجز بين طائفة وأخرى ، كما نرفض الأحكام المسبقة من شعب عن شعب آخر والتي انبثقت من أحلك ظلمات البشرية القديمة العشواء • وانا لنبجل بصفة خاصة تلك الأمة الانجليزية النبيلة الحرة التي تؤدي عملا رائعا في الجهد الحضاري المشـترك ، ونعلم قيمة هـذا الشعب الذي أنجب شكسبير وكرومويل ونيوتون ، وقد أقمنا في موطنه راضين ، دون أن نلتزم قبله بشيء ، فانا نمضي فيه الى أبعد مما تحلم به كل الدبلوماسيات ، فنحن لا نريد فقط الاتحاد بين فرنسا وانجلترا ، وانما نريد أيضا اتحاد أوروبا مع نفسها ، واتحاد أوروبا مع أمريكا ، واتحاد العالم مع العالم ! نحن أعداء الحرب • نحن المسخرين في سبيل الاخاء • نحن الذين نحرك النور والحياة • نحن نكافح الموت الذي يشيد أجهزة الاعدام ، والظلام الذي يرسم الحدود• وليس في مفهومنا منذ الآن سوى شعب واحد ، كما أنه لن يكون هناك

---

(١) جنرال انجليزي ، كان سجان نابليون في سانت هيلين ـ المترجم •

فى المستقبل سوى انسان واحد · اننا نريد التوافق الشامل فى الاستماع الشامل · ونحن كلنا الموجودين هنا ، على استعداد لبذل دمائنا بسرور لكى نعجل بمقدار ساعة قدوم اليوم الذى سوف تعطى فيه قبلة السلام السامية بين الأمم ·

لذلك ، فعلى أصدقاء الحلف الانجليزى الفرنسى ألا يخطئوا فى مدلول كلامى · وأؤكد ، أكثر من أى انسان آخر ، أننا نحن الجمهوريين نريد هذه الأحلاف ، وأكرر القول ان السبب فى ذلك هو أن شعارنا الاتحاد بين الشعوب ، وبدرجة أكبر ، الوحدة بين البشر · ولكنا نريد هذه الاتحادات صافية ألفة عميقة خصبة ، نريدها أخلاقية حتى تكون حقيقة ، ونريدها حتى تكون مستديمة ، نريدها قائمة على المصالح دون شك ، ولكنا نريدها قائمة أكثر من ذلك على كل أشكال الاخاء فى مجال التقدم والحرية · نريدها أن تكون نوع ما نتيجة المسيرة الودية فى النور ، خالية من الاذلال من جهة ، ومن التنازلات من جهة أخرى ، ومن المقاصد المستترة من ناحية المستقبل ، ومن أشباح الماضى · ونجد أن الاحتقار بين الحكومات ، حتى ولو كان مستترا ، عنصر سيىء من ناحية تعزيز الاحترام بين الأمم · قصارى القول اننا نريد أن تقوم على الواجهات المشرقة لهذه الأحلاف بين الشعوب تماثيل من الرخام ، لا مخلوقات من طين ·

نريد اتحادات جديرة بتوقيع (الجنرال) واشنجتون ، ولا نريد وثائق من جنس تحمل امضاء بونابرت ·

أما الأحلاف التى نشهدها فى هذه الآونة ، فانا نعتقد أنها سيئة بالنسبة الى الطرفين ، وبالنسبة الى الشعبين اللذين نعجب بهما ونحبهما ، والحكومتين اللتين لا نهتم بهما كثيرا · فهل يعلم أحد تمام العلم ما يراد عمله هنا ، وما سوف يعمل هناك ؟ نقول ان كلا من الطرفين فى الواقع يرتاب قليلا فى الطرف الآخر ، ولبسا مخطئين فى ذلك · نقول لهؤلاء ان للتاجر دائما شئونه التجارية ، ونقول للآخرين ان الخيانة تكون دائما الى جانب الخائن ·

أتفهمون الآن ؟

وكما أننا لا نكترث بالحلف الواهى ، فان الحرب المعلقة تثير اهتمامنا · نعم ، اننا ننظر بمزيج عجيب من الأمل والضيق الى المغامرة الأخيرة التى قامت بها الملكيات ، هذا العمل الطائش من أجل مفتاح تكلف حتى الآن الملايين من الذهب وآلاف الرجال · انها حرب مؤامرات أكثر منها حرب معارك ، تزداد فيها بطولة الأتراك باطراد ، وتزداد فيها دولة

٢ ديسمبر جبنا باطراد ، وتصير فيها النمسا روسية أكثر فأكثر ، حرب طاحنة ، لا ينطلق فيها المدفع ، يموت فيها جنودنا البواسل ، بناء المصنع والكوخ ، ميتة تعسة مع الأسف ، بل ولا تخرج من جنتهم البائسة هالة المعارك المفجعة ، حرب لا منتصر فيها غير الوباء ، حرب كان التيفوس فيها هو الوحيد الذى استطاع أن ينشر بياناته ، ولم يكن فيها معركة شبيهة بأوستر ليتز سوى معركة الكوليرا ، حرب حالكة ، سوداء ، مقلقة ، مقهقرة ، مهلكة ، غامضة ، لا يفهمها أولئك الذين صنعوها ، لأنها عامرة بالمشيئة الالهية ، لغز رهيب صنعه الملوك بصورة عشوائية ، لا يعرف سره الا النورة وحدها ٠

وفى هذه الساعة التى تمر بنا ، واللحظة التى أتحدث فيها ، فى هذه اللحظة بالذات ، أيها المواطنون ، تتم أحداث هذا الصراع الكئيب ٠ ويبدو أن الفشل فى البلطيق قد وجد نظيرا له من العار فى البحر الأسود٠ ولما كانت شعوب مثل شعبى فرنسا وانجلترا لا يمكن بعد كل شىء أن تستمر دواما دون عواقب سيئة ذليلة فى جيوشها ، فانها نجازف بانهاء المشكلة ، وتقدم على هذه المحاولة ٠ أيها المواطنون ، هذه الحرب التى أخفت سرها أمام كرونستات ، هل تكشف يا ترى عن نفسها أمام سيباستبول ؟ من الذى سيسقط ؟ لمن الحمد والشكر ؟ لا أحد يعرف ذلك حتى الآن ٠ غير أنه مهما جرى أيها المنفيون ، مهما كانت الأحداث ، فان الطغيان هو الذى ينهار ، على رأس نيقولا ، أو على رأس بونابرت ٠ وأعيد ما قلته منذ عام ، انه عذاب أوروبا الذى ينتهى ٠ أما الضربة الواقعة فى هذه الدقيقة بالذات فانها سوف تسقط حتما ، وفى زمن معين ، اما امبراطور سيبيريا واما امبراطور « كايين » (١) ، بل سوف تسقط الاثنين معا ، ذلك لأن أيا من دعامتى مشنقة الشعوب هذه لا يمكن أن يسقط دون أن يجر معه الدعامة الأخرى ٠

ترى ماذا يفعل الطاغيتان فى أثناء ذلك ؟ انهما يبتسمان ، بذلك الهدوء السخيف الذى يتسم به الطغيان الانسانى الحقير ، يبتسمان للمستقبل الرهيب ! انهما ينامان فى أتم سلطانهما المطلق المشوه البشع، ولكنهما لا يتمتعان بنزوة الأمجاد الشخصية الكئيبة ، أمجاد الحروب التى يفوز بها الأمراء بسهولة ، ولا يأبهان لآلام الجموع المعذبة التى يقولان عنها انها جيوشهما ٠ وفى حين يحتضر الألوف من الرجال ، من أجلهما ، ومن جرائمهما ، على النقالات ، وحصر الكوليرا ، وتحترق فارنا ، وترتفع

(١) أى امبراطور فرنسا ــ وكايين جزيرة فى المحيط الأطلسى ، قاعدة جيانا الفرنسية (أمريكا الجنوبية) وكانت منفى ترسل اليه السلطات الفرنسية المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ــ المترجم ٠

الأدخنة من أوديسا تحت طلقات المدافع ، وتحترق « كولا » فى الشمال ، و « سولبنا » فى الجنوب ، وسحق « سبليسندرى » تحت كرات المدافع والقنابل ، وترد الأعمال الوحشية فى « بورماسوند » على الأعمال الضارية فى « سينوب » ، وتتفجر الأبراج ، وتشتعل السفن الحربية وتغرق ، وتغص « مستودعات الجنث » فى المستشفيات الروسية بالجثث ، وفى المسيرات الاضطرارية فى دوبروجا ، ونكبات كوستينجى ، وفى حين تذوب فرق بأسرها وتتلاشى فى معسكر كارفاليك المفجع ، ماذا يفعل القيصران فى هذه الأثناء ! يستمتع أحدهما بالنسيم العليل فى قصره الصيفى ، ويستمتع الآخر بحمامات البحر فى بياريتز ·

فلنعكر صفو هذه المسرات ·

أيتهـا الشعوب ، فوق التدبيرات والمؤامرات والاتفـاقيات ، فوق الدبلوماسيات والحروب،فوق كل المسائل،التركية واليونانية والروسية، فوق كل ما تفعله الملكيات أو تحلم به ، تحلق الجرائم ·

علينا ألا ندع الاحتجاج الثأرى يسقط بمضى المدة ، وعلينا ألا نحيد عن الهدف العظيم · فى الامكان أن نقول فى كل زمان : « نيرون موجود » · يدعى البعض أن الأجيال تنسى · حسن ! من أجل قدسية الحق ، ومن أجل شرف الضمير الانسانى ، يطلب الينا الضحايا ، ويصيح بنا الشهداء من أعماق قبورهم أن ننعش الذكريات ، وأن نجعل من كل الذاكرات جروحا وقروحا دائمة ·

أيتها الشعوب ، علينـا ألا نمل من ترديد صحيفة الاتهـام المفجعة المتهددة ! فى هذه اللحظة ينتصر الحـكام المسـتبدون والطغاة بالقارة الأوروبية · لقد أطلقوا المدافع الرشاشة فى باليرمو وبريشيا وبرلين وفيينا وباريس ، وأطلقوا على الناس الرصاص فى آنكونا وبولونيا وروما وأراد وفانسين وشان دومارس ، وأقاموا المشنقة فى بيشت ، وآلة ضغط الجسم فى ميلانو ، والمقصلة فى بيليى ، وشحنوا الجسور العائمة ، وملأوا السجون الضيقة ، وحشدوا الناس فى الاستحكامات المسقوفة ، وفتحوا الجباب · لقد جعلوا الصحراء ليمانا ، واستعانوا بتوبولسك وثلوجها ، ولامبيسا وحياتها ، وجزيرة « الأم » الصغيرة وتيفوسها ، وصادروا وهدموا وحبسوا وحجزوا وسلبوا وطردوا وأقصوا ونفوا · وعندما وضعوا أقدامهم على رقبة الانسانية ، وسمعوا حشرجتها الأخيرة ، قالوا فرحين : انتهى ! وها هم الآن فى قاعة الوليمة ، ها هم هناك منتصرين ، ثملين ، قادرين على كل شىء ، التاج على رءوسهم ، وأكاليل الغار على هاماتهم · تلك هى وليمة الزفاف الأكبر · ذلك هو اقتران النظام الملكى بالغدر ، والملكية بالاغتيال ،

والقانون الالهى باليمين الكاذبة ، وكل ما يسمونه جليلا بكل ما نسميه نحن مشينا ، زواج فاخر وبشع ، ونحت أقدامهم تصدح الموسيقات ، وكل ضروب الخيانة والنذالة نتغنى بمديح العروسين • نعم ، الطغاة ينتصرون ، نعم ، الطغاة يتألقون ، نعم ، هم وشرطتهم وشركاؤهم وحاشيتهم فخورون وسعداء وراضون ومفعمون وشباع وماجدون • ولكن ما شأن كل ذلك بالعدالة الأبدية ! أيتها الأمم المقهورة ، الساعة تقترب • انظروا جيدا الى هذا الحفل ، القناديل والثريا مضاءة ، والموسيقى لا تكف عن العزف ، والرياش والذهب والماسات تتلألأ ، وجماعات الخدم فى أزيائهم الرسمية، أو ثيابهم الكهنوتية ، أو أرديتهم الفضفاضة يركعون ، والأمراء فى ثيابهم الأرجوانية يضحكون ويتبادلون التهانى • ولكنى أقول لكم ان الساعة سوف تدق ، والظل يغشى القاعة • انظروا فى هذا الظل الهائل ، تروا الثورة مغطاة بالجروح والقروح ، ولكنها حية ، مكممة ولكنها رهيبة ، تنتصب خلفهم ، وعيونها مثبتة عليكم أيتها الشعوب ، تلوح بيديها الداميتين فوق رؤوسهم حفنتين من الخرق البالية المنزوعة من أكفان الموتى !

حرب الشرق

٢٩ نوفمبر ١٨٥٤

٦

أيها المنفيون ..

ان الذكرى السنوية المجيدة التى نحتفل بها فى هذه اللحظة (١) ، نعيد الى الأذهان ذكرى بولندة ، ويعيدها الموقف الأوروبى الى مجرى الأحداث . كيف ! سأحاول أن أقول لكم ذلك .

ولكن لنفحص الموقف أولا .

من المهم تحديد الوقائع بالنسبة الى النقطة التى استقر عندها الموقف، الى جانب أمور حاسمة يجرى الاعداد لها .

ولنبدأ بتصحيح خطأ يكاد يكون عاما .

فبفضل بعض الغمائم التى ألقتها الحكومة الفرنسية بدهاء على مصدر هذه القضية ، وكثفتها الحكومة الانجليزية من باب المجاملة ، ينسب الناس اليوم عادة ، فى انجلترا وفرنسا ، حرب الشرق ، هذه الكارثة القارية ، الى الامبراطور نيقولا . ولكنهم مخطئون ، فحرب الشرق جريمة ، ولكنها ليست بالمرة جريمة نيقولا ، فليس لنا أن ننسبها الى هذا الرجل الملىء . ولنثبت الحقيقة . ثم نستخلص بالتالى النتيجة .

أيها المواطنون ، فى ٢ ديسمبر ١٨٥١ ـ ذلك لأنه يجب دائما الرجوع الى هذا التاريخ ، وطالما كان السيد بونابرت قائما فى مكانه ، فان الأحداث كلها سوف تخرج من هذا الينبوع الرهيب ، وكل الأحداث ، مهما كان شأنها ، والتى يجرى هذا السم فى عروقها ، سوف تكون سامة وتقرح سريعا ـ فى ٢ ديسمبر اذن ، فعل السيد بونابرت ما تعرفونه ، ارتكب جريمة ، وأقام من هذه الجريمة عرشا جلس عليه . وأعلن شنيدر هانز

(١) الثورة البولندية فى عام ١٨٣٠ .

نفسه قيصرا · ولكن لابد لقيصر من « بطرس » (البابا) · وعندما يكون الانسان امبراطورا ، فان كلمة « نعم » التى يقولها الشعب ليست ذات أهمية ، وانما المهم هو كلمة « نعم » التي يقولها البابا · ولا يكفى أبدا أن يكون (الامبراطور) حانثا لليمين وخائنا وقاتلا ، انما يجب أيضـا أن يكرس · لقد كرس بونابرت الأكبر امبراطورا · وأراد بونابرت « الأصغر » أن يكون كذلك ·

تلك هى المسألة ·

هل يوافق البابا على ذلك !

وبعث ياور للامبراطور ، يدعى « دوكوت » وهو من رجال الدين فى ذلك الوقت ، الى « أنطونيللى » المعروفة حاليا باسم « كونسالفى » ، فلم يوفق فى مهمته · لقد كرس البابا بيوس السابع « مارينجو » (١) · أما بيوس التاسع فانه تردد فى تكريس « شدع مونمارتر » · كان مزج هذا الدم وهذا الوحل الزيت الرومانى القديم أمرا خطيرا · وأظهر البابا تقززه· وتحير السيد بونابرت · فما العمل ! وما هى الوسيلة التى يمكن بها اقناع بيوس التاسع ! كيف يمكن اقناع فتاة ! كيف يمكن اقناع بابا ! بهدية · تلك هى القصة ·

ـ أحد المنفيين (المواطن بيانكى) : تلك عادات كهنونية ·

ـ فيكتور هوجو (قاطعا حديثه) : الحق معك · منذ زمان بعيد ، صاح ارميا (٢) فى أورشليم · كما صاح لوثر فى روما ، قائلا : عاهرة ! (يواصل حديثه) · قرر السـيد بونابرت اذن أن يقـدم هدية للسيد ماستاى ·

أية هدية ؟ هذى هى المغامرة الحاضرة كلها ·

أيها المواطنون : هناك فى الوقت الحاضر بابوان : البابا اللاتينى ، والبابا اليونانى · أما البابا اليونانى الذى يدعى أيضا « قيصر » فانه جاثم على كاهل السلطان بكل أثقال البلاد الروسية · ولما كان السلطان يمتلك أرض يهوذا ، فهو بالتالى يملك قبر المسيح · انتبهوا الى ما يأتى · فمنذ عدة قرون ، كان المطمح الأكبر للمذهب الكاثوليكى ، اليونانى واللاتينى ، أن يتمكن الاثنان من النفاذ بحرية فى هذه المقبرة واقامة الشعائر بها ، لا جنبا الى جنب ، ولكن بأن يقصى أحدهما الآخر ، أى أن تقصى الكاثوليكية

---

(١) قرية بايطاليا ، مشهورة بانتصار الفرنسيين عندها ، بقيـاده بونابرت على النمساويين (١٤ يونية ١٨٠٠) ـ المترجم ·

(٢) أحد أنبياء اسرائيل الأربعة الكبار (حوالى ٦٥٠ ـ ٥٩٠ قبل الميلاد) ـ المترجم ·

اللاتينية اليونانية ، أو تفصى اليونانية اللاتينية • فماذا فعل الاسلام بين هذين المطلبين المتضادين ! لقد احتفظ بالميزان سويا ، أى احتفظ بالباب مغلقا ، ولم يسمح بدخول المقبرة ، لا للصليب اليونانى ، ولا للصليب اللاتينى ، لا لموسكو ولا لروما • وأضرم ذلك على الأخص قلب البابا اللاتينى الذى يدعى السيادة • اذن فعلى وجه العموم ، وبصرف النظر عن السيد بونابرت ، ما هى الهدية الواجب تقديمها للبابا لحمله على تكريس أى وغد أثيم وتتويجه ! اذا ألقى هذا السؤال على ماكيافيل لأجاب « ما أسهل ذلك : أن ترجح كفة روما فى أورشليم ، ونحطم تلك المساواة المهينة بين الصليبين أمام قبر المسيح ، وتوضع الكنيسة الشرقية تحت أقدام الكنيسة الغربية ، ويفتح الباب المقدس أمام احداهما ويغلق فى وجه الأخرى ، ويحقر البابا اليونانى ، وباختصار يعطى البابا اللاتينى مفتاح القبر » • هذا ما سوف يجيب به ماكيافيل : وهذا ما فهمه السيد بونابرت وما فعله • وتذكرون أن هذه المسألة سميت مسألة « الأماكن المقدسة » •

وانعقدت المؤامرة ، فى سرية أول الأمر • وطلب وكيل السيد بونابرت فى القسطنطينية الى السيد لافاليت باسم سيده مفتاح قبر المسيح من السلطان لبابا روما • ولما كان السلطان واهنا مرتبكا ، فى رأسه دوار العهد الأخير من دولة الاسلام ، مشدودا فى اتجاهين متضادين ، فهو يخشى نيقولا ، ويخشى بونابرت ، لا يعرف لأى من الامبراطورين يستمع ، فانه أرخى العنان وسلم المفتاح • وشكره بونابرت ، وغضب نيقولا • وأرسل البابا اليونانى الى السراى قاصده الرسولى منتشيكوف ، وفى يده سوط ، وطالب ، فى مقابل المفتاح المعطى الى السيد بونابرت ، من أجل بابا روما أشياء أكثر صلابة وثباتا ، هى بوجه التقريب كل ما قد يكون قد بقى للسلطان من سيادة • ورفض السلطان • وأيدت فرنسا وانجلترا السلطان• وتعرفون الباقى • واندلعت حرب الشرق •

هذى هى الوقائع ••

لنعط ما لقيصر لقيصر ، ولا نعطى لنيقولا ما تملكه حكومة ٢ ديسمبر • لقد صنع مطمع بونابرت فى التكريس كل شىء • مسألة الأراضى المقدسة والمفتاح هى الأصل فى كل شىء •

والآن اليكم ما خرج من هذا المفتاح •

ففى الساعة التى نمر بها ، تشهد آسيا الصغرى ، وجزر آلاند ، والدانوب ، وتشيرنايا ، والبحر الأبيض ، والبحر الأسود ، والجنوب مدنا كانت منذ بضعة شهور مزدهرة ، أصبحت رمادا ودخانا • فى الساعة الحاضرة تحترق سينوب ، وبومارسوند ، وسلسترا ، وفارنا ، وكولا ، وسباستبول • فى الساعة الحاضرة يذبح الانجليز والفرنسيون والأتراك

والروس بعضهم بعضا فى الشرق أمام تل من الخرائب • ويأتى العربى من النيل ليقتله التتارى الآتى من الفولجا ، ويأتى القوزاقى من البرارى ليقتله الاسكتلندى الآتى من الهضـاب • المدفعيات تصعق المدفعيات ، ومستودعات البارود تنفجر ، والاستحكامات البارزة تنهدم ، والمتاريس تنهار ، وكرات المدافع تخرق السفن الحربية ، والخنادق تنهال عليها القنابل ، والمعسكرات المتنقلة تنهمر عليها الأمطار ، والتيفوس والطاعون والكوليرا تنقض مع المدافع الرشاشة على المحاصرين والمحصورين • وعلى المعسكرات والسفن الحربية ، والحامية ، والمدينة التى يحتضر فيها السكان من نسوة وأطفال وشيوخ • القنابل تدك المستشفيات • وهناك بيان يقول ان أحد المستشفيات قد اشتعل به النار فتكلس (١) به ألفان من المرضى • ويختلط العاصفة بكل ذلك ، فهذا هو فصل العواصف • وتغرق الفرقاطة التركية « بهيرة » وهى مبحرة ، وتغرق السفينة المصرية ذات الطابقين « عباد الجهاد » بالقرب من اينيادا وبها سبعمائة رجل • وتخلع الرياح العاصفة صوارى السفن الحربية ، وتغرق البارجة ذات الرفاص « لويرانس » ، والفرقاطة « حورية البحار » • وأربع سفن بخارية حربية أخرى ، وتتحطم السفن « لوصان باربى » و « سانسون » و « أجاممنون » فى مياه قليلة العمق بفعل الاعصار ، ولا تنجو « لاربتريبسميون » من الهلاك الا بعد أن ألقت مدافعها فى البحر ، وتهلك الباخرة « هنرى الرابع » ذات مائة المدفع بالقرب من « أوباتوريا » ، وتتلف سفينة المراسلة ذات العجلات الرفاصية « لوبليتون » ، وتجنح ثلاثة وعشرون مركب نقل محملا بالرجال وتهلك • وعلى البر ، تزداد المعارك ضراوة يوما بعد يوم • ويجهز الروس على الجرحى بكعوب بنادقهم • وفى آخر كل يوم ، تعوق أكداس الموتى والمحتضرين الجنود المشاة من اجراء مناوراتهم • وفى المساء ، تثير ميادين القتال القشعريرة فى أوصال قادة الجيوش • وهناك تختلط جثث الانجليز والفرنسيين والروس وكأنها تعض بعضها بعضا • لقد صاح اللورد « راجلان » العجوز الذى حضر معركة واترلو قائلا « لم أشهد قط شيئا مثل هذا » • ومع ذلك فسوف يمضى القوم الى أبعد من هذا ، اذ يعلن البعض أنه سوف يستخدم ضد المدينة التعسة الوسائل « الجديدة » التى احتفظ بها بصفة « احتياطية » والتى تقشعر لها الأبدان • الابادة ، هى الصيحة التى نطلقها هذه الحرب • والخندق وحده يكلف ضحايا تقدر بمائة رجل كل يوم • أنهار من الدماء البشرية تسيل ، نهر من الدم فى آلما ، ونهر من الدم فى بالاكلافا ، ونهر من الدم فى اينكرمان • خمسة آلاف رجل قتلوا يوم ٢٠ سبتمبر ، وستة آلاف يوم ٢٥ أكتوبر ، وخمسة

---

(١) أى تحول الى حبر من شدة الاحتراق ـ المترجم •

عشر ألفا يوم ٥ نوفمبر • وكل هـذا انما هو بداية • جيـوش ترسل وتذوب • هذا جميل • هيا ، أرسلوا غيرها • ويردد لوى بونابرت للجنرال السابق كاتروبير تلك الكلمة السخيفة التى قالها فيليب الرابع لسبينولا : أيها المركيز ، استول على بريدا » • كانت سباستيول بالأمس جرحا ، فأصبحت اليـوم قرحة • وستكون فى الغد سرطانا ، وهـذا السرطان سيلتهم فرنسا وانجلترا وتركيا وروسيا • هذى هى أوروبا الملوك • يأيها المستقبل ، متى تعطينا أوروبا الشعوب ؟

أواصل الحديث ••

على البواخر ، بعد كل عملية ، شحنات من الجرحى تثير الرعب • أذكر لكم الأرقام التى أعرفها فقط ، وأنا لا أعرف أكثر من عشر الحقيقة • أربعمائة جريح على السفينة « باناما » ، وأربعمائة وتسعة وأربعون على « كولومبو » التى كانت تقطر ناقلتين محملتين أيضا بالجرحى ، ولا أعرف عدد من كان بهما ، وأربعمائة وسبعون على « فولكان » ، وألف وخمسمائة على « كانجورو » • يجرح الجنـــدى فى القـرم ، وتضـمد جراحه فى القسطنطينية • مائتا فرسخ فى البحر ، ثمانية أيام بين الجرح والتضميد• وفى الطريق ، أثناء العبور ، تصبح الجروح المهملة مخيفة • أما الذين بترت أطرافهم ونقلوا دون اسعاف ودون مساعدة ، فانهم يكدسون بصورة بشعة بعضهم فوق بعض ، ويرون ديدان الأرض ، تلك الحشرات التى تعيش فى القبور ، وهى تخرج من سيقانهم المهشمة وضلوعهم الغائرة ، وجماجمهم المشروخة ، وبطونهم المبقورة ، ويتعفنون تحت هذه التكدسات البشعة قبل أن يموتوا بين معابر بواخر نقل المصابين الموبوءة التى هى مقابر عامة شاسعة ملأى بالأحياء الذين تأكلهم الديدان (وهنا يتوقف فيكتور هوجو) — أنا لا أبالغ بالمرة — هاكم الصحف الانجليزية ، الصحف الوزارية ، اقرأوها بأنفسكم (يلوح الخطيب بربطة من الجرائد) • نعم ، أؤكد أنه لا توجد أية اسعافات • أربعة من الجراحين على ظهر السفينة « فولكان » ، وأربعة جراحين على « كولومبو » فى مقابل تسعمائة وتسعة عشر شخصا يحتضر ! أما الأتراك ، فان جروحهم لا تضمد على الاطلاق ، فهم تحت رحمة الأقدار • أعلم أنى رجل نظرى فحسب ، ومن شاربى الدماء ، ولكنى أفضل أن يكون عندى عدد أقل من صناديق الأوسمة المقدسة فى معسكر بولونى، وعدد أكبر من الأطباء فى معسكر القرم •

ولنواصل الحديث ••

رد الفعل فى أوروبا وانجلترا وفرنسا رهيب • الافلاسات تتوالى ، والمبادلات كلها تتوقف ، والتجارة تحتضر ، والصناعة تموت • حماقات

الحرب تستعرض نفسها ، والغنائم تقدم كشوفها • فاذا حسبنا ما أنفق فى حملة البلطيق وحدها ، وجدنا أن كل واحد من الألفى أسير روسى الذين جىء بهم من بومارسوند قد كلف فرنسا وانجلترا ثلاثمائة وستة وثلاثين ألف فرنك • البؤس فى فرنسا ، فالفلاح يبيع بقرته ليسدد الضريبة ، ويعطى ابنه ليغذى الحرب ـ ابنه ، لحمه ! وأنتم تعرفون اسم هذا اللحم ، لقد عمده العم • وكل نظام من أنظمة الحكم ينظر الى الانسان من وجهته الخاصة • فالجمهورية تقول « لحم الشعب » • والامبراطورية تقول « لحم للمدفع » ـ والمجاعة تكمل البؤس • ولما كان القتال يجرى ضد الروسيا ، فانه لم يعد ثمة قمح يأتى من أوديسا ، ويشح الخبز • وما حدث فى بوزانسيى ينتشر فى الطبقات الشعبية ، ويلقى بشراره هنا وهناك •

وفى بولونيا يثير الجوع شغبا يقمعه رجال الشرطة • وفى سان بريوك تشد النسوة شعورهن ويشققن أكياس الحبوب بالمقصات • ضرائب تجبى فوق ضرائب ، قروض فوق قروض •

ويجند مائة وأربعون ألف شخص هذا العام فقط ، كبداية ، وتغوص الملايين وراء الفرق العسكرية وتغرق الميزانية مع الأساطيل • هذا هو الموقف •

كل هذا ثمرة ٢ ديسمبر •

أما نحن المنفيين الذين تدمى قلوبنا بكل جراح الوطن ، وبكل الآلام البشرية ، فانا نفكر فى تلك الحالة التى يرثى لها بمزيد من الضيق والعذاب •

كل هذا ثمرة ٢ ديسمبر ، أؤكد لكم ذلك ، وأكرره ، وأنادى به ، ليعلمه الجميع ، ولا ينساه أحد بعد الآن ، ولقد أوضحته والوقائع فى يدى ، وانه أمر لا نزاع فيه ، سوف يحكيه التاريخ ، وأتحدى أى انسان أن ينكره •

لو انتزعتم المؤامرة المسماة بمسألة الأماكن المقدسة ، وانتزعتم المفتاح ، والرغبة فى التكريس ، والهدية المطلوب تقديمها للبابا ، لو انتزعتم حكومة ٢ ديسمبر ، وانتزعتم السيد بونابرت نفسه ، فلن تكون هناك حرب الشرق •

نعم ، لقد أهينت تلك الأساطيل وحقرت ، وهى أبدع الأساطيل الموجودة فى العالم • نعم ، لقد أبيدت الخيالة الانجليزية الشجاعة • نعم ، أولئك الاسكتلنديون الشهب ، أسود الجبل ، نعم ، جنودنا الزواويون ،

وفرساننا المغـــاربة (السباهيون) ، وجنودنا فى فانسين ، وكتائبنا الافريقيه البديعة التى ليس لها نظير ، كل هؤلاء قد ضربوا بالسيوف والبلطات وأبيدوا عن آخرهم • نعم ، كل تلك الشعوب البريئة ، ونحن اخوة لها ، اذ ليس ثمة غرباء بالنسبة الينا ، قد سحقت • نعم ، هذا الجنرال العجوز كانكارت ، وهذا الكابتن تولان الشاب ، فخر الرداء الانجليزى الرسمى ، قد ضحى بهم ، بين الكثيرين غيرهم • نعم ، الأحشاء التى انتزعتها المدافع الرشاشة وبعثرتها ، تتدلى من العليق فى بالاكلافا أو ترتطم بحوائط سباستيول • نعم ، فى الليل ، تولول ميادين القتال الملأى بالمحتضرين كما تولول الوحـوش الضارية • نعم ، القمر يضىء مستودع الجثث الرهيب فى اينكرمان حيث يتجول بعض النسوة وفى أيديهن المصـــابيح ، هنا وهناك بين المـوتى ، يبحثن عن اخوتهن أو أزواجهن ، تماما كما فعل أولئك النسوة الأخريات اللواتى كن منذ سنوات ثلاث ، فى ليلة ٤ ديسمبر ينظرن الواحدة بعد الأخرى فى جثث شارع مونمارتر • نعم هذه الكوارث تجتاح أوروبا ، وهذا الدم ، كل هذا الدم يسيل فى القرم • نعم ، هؤلاء الأرامل يبكين ، وهؤلاء الأمهات يلوين الأذرع — كل ذلك لأن السيد بونابرت ، سفاح باريس ، قد نزعت به أهـواؤه الى أن يطلب البـركة والتكريس على يدى السـيد فاستاى ، خانق روما !

والآن ، فلنتفكر لحظة ، فالأمر يستحق التفكير •

حقا ، اذا كان هناك بين الفرق العسكرية الفرنسية الباسلة التى تقاتل جنبا الى جنب مع الجيش الانجليزى الشجاع أمام سباستيبول ضد القوة الروسية بأسرها ، وبين المحاربين الأبطال عدد من هؤلاء الجنود الأرذال الذين ساقهم قواد مفضوحون فى ديسمبر ١٨٥١ فأطاعوا أوامر الغدر المفجعة ، اذا كان الأمر كذلك فان الدموع تنسكب فى مآقينا ، وترتج أونار قلوبنا الفرنسية الهرمة ، فهؤلاء أولاد الفلاحين ، وأولاد العمال • ونصيح طالبين الرحمة ، ونقول : كانوا ثمالى ، وعميانا ، وجهلة ، لا يعرفون ما يعملون ، ونرفع الأيدى الى السماء ونتضرع الى الله من أجل هؤلاء التعساء • الجندى هو الطفل ، تجعل الحماسة منه بطلا ، وقد تجعل الطاعة السلبية منه لصا أثيما • فان كان بطلا ، سلبه الغير مجده ، وان كان لصا فليأخذ غيره أيضا خطيئته • نعم ، أمام القصاص الغامض الذى بدأ ينفذ ، رحمـاك يا الهى بالجنـود ، أما القادة ، فلينفذ فيهم قصاصك ، ولتنفذ ارادتك •

نعم ، أيها المنفيون ، فلنترك الأمر للقاضى يبت فيه • وانظروا ! ذكرتكم منذ هنيهة بأن حـرب الشرق من صنع حـكومة ٢ ديسمبر ،

أنجزتها خطوة خطوة ، ونحولا بعد تحول حتى وصلت بها الى نتيجتها المنطقية ، وهى احتراق أوروبا · فيا لهول الكفارة ! ان ٢ ديسمبر تدور حول نفسها ، وها هى ذى تعود بعد أن قتلت رجالنا ، لتجهز على رجالها · كانت تسمى منذ سنوات ثلاث انقلابا سياسيا ، واغتالت بومان ، وهى اليوم تسمى حرب الشرف ، وتعدم سانت أرنو · الرصاصة التى قتلت « ديسوب » فى ليلة ٤ ديسمبر أمام حاجز « مونتورجيى » بناء على أمر لورميل ، نرند فى الظلمات ، حسب قانون جبار مجهول ، فتصيب لورمبل فى القرم · وليس لنا أن نهتم لهـذا الأمر ، فتلك هى ومضـات البرق المشئومة ، انها الشبح الذى يضرب ، انها الله ·

العدالة ، نظرية · والعقاب صارم مثل أوقليدس (١) ، وللجريمة زوايا سقوط وزوايا انعكاس · ونحن الرجال نرتجف حين نلمح فى دجنة الأقدار الانسانية خطوط وأشكال هذه الهندسة الضخمة التى يسميها جمهور الناس « المصادفة » ويسميها المفكر « العناية الالهية » ·

نقول بهذه المناسبة ، انه من العجيب ان هذا المفتاح عديم الفائدة · فالبابا يرى تردد النمسا ، بالاضافة الى أن نفسه تحدثه بلا شك بالسقوط الوسيك ، ومن ثم فانه يصر على التراجع أمام السيد بونابرت · أما السيد بونابرت فانه لا يريد أن يقع من السيد ماسناى الى السيد سيبور ، ويترتب على ذلك أنه لا يكرس ، ولن يكرس ، ذلك لأن العناية الالهية تضحك أثناء كل ذلك ضحكتها الرهيبة ·

هأنذا قد استعرضت الموقف أيها المواطنون · وفى الوقت الحاضر ـ وبهذا أريد أن أنهى الحديث ، وهو ما يعيدنى الى الموضوع الخاص بهذا الاجتماع الموقر ـ هذا الموقف الخطير بالنسبة الى الشعبين الكبيرين ـ لأن انجلترا تخاطر فيه بتجارتها وبالشرق ، وفرنسا تخاطر فيه بشرفها وحياتها ـ هذا الموقف الرهيب ، كيف يتأتى الخروج منه ؟ لفرنسا وسيلة لذلك : أن تخلص نفسها ، وتطـرد الكابوس ، وتزعزع الامبراطـورية الجاثمة على صدرها ، وتعود لترتقى مدارج النصر ، والقوة ، والرفعة ، عن طريق الحرية · ولانجلترا وسيلة أخرى : أن تنتهى بما كان يجب عليها أن تبدأ به ، وألا تضرب القيصر فى كعب حذائه كما تفعل فى هذه اللحظة ، بل تضربه فى القلب ، أن تستنهض بولندا · وتذكرون أننى قدمت لانجلترا هذه النصيحة ، هنا ، فى هذا المكان نفسه ، فى هذا اليوم نفسه منذ سنة كاملة · وفى هذه المناسبة وصفتنى الصحف البريطانية

(١) عالم اغريقى فى الهندسة (٣٠٦ ـ ٢٨٣ قبل الميلاد) ـ مؤلف « العناصر » التى تشكل أساس الهندسة السطحية ـ المترجم ·

التى تساند الوزارة الانجليزية بأننى « خطيب خيالى » وهاكم الأحداث تؤيد كلامى · الحرب فى القرم تحمل القيصر على الابتسام ، أما الحرب فى بولندا فانها سوف تجعله يرتعد · ولكن هل الحرب فى بولندا ثورة ؟ لا شك فى ذلك · فماذا يهم انجلترا ؟ ماذا يهم انجلترا العظيمة التليدة ؟ انها لا تخشى الثورات لأن عندها الحرية · نعم ، ولكن السيد بونابرت يخشاها لأنه الطغيان بعينه ، فهو لن يقبلها · ومن ثم تضحى انجلترا بجيوشها وأساطيلها وأموالها ومستقبلها ، وبالهند ، والشرق ومصالحها كلها من أجل السيد بونابرت ومن أجل خوفه الشخصى من الثورات · أكنت مخطئا عندما قلت هذا من شهرين ؟ الحلف مع السيد بونابرت ليس خسارة أدبية فحسب ، بالنسبة الى انجلترا ، انما هو كارثة ·

ان الحلف مع السيد بونابرت هو الذى يسىء الى المصالح الانجليزية كلها فى حرب الشرق منذ سنة مضت · ولولا حلف السيد بونابرت لحصلت انجلترا اليوم على نجاح فى بولندا بدلا من الهزيمة وربما النكبة فى القرم ·

مهما يكن من شىء فان الأمور لابد أن تنتهى الى اخواتها · والمواقف لها منطقها الذى ينتهى دائما بفرض كلمته الأخيرة · ان الحرب فى بولندا ، وهى أسلوب من الاعتداء ، قارى محض على حسب التعبير الشفاف الذى استخدمه مجلس الوزراء الانجليزى ، أصبحت من الآن شيئا حتميا لا مفر له · انها المستقبل العاجل · وفى هذه اللحظة التى أتحدث فيها ، يتحدث لورد بالمرستون فى قصر التويلرى مع السيد بونابرت فى هذا الصدد · واليكم كلمتى الأخيرة أيها المواطنون : ان الحرب فى بولندا هى الثورة فى أوروبا · آه فلينفذ القدر !

آه لتقع مصائب الدهر على رءوس هؤلاء الرجال · هؤلاء الجلادين ، الطغاة ، الذين انتزعوا الكثير من الشعوب ، الشعوب النبيلة ، سعاراتها القومية · الشعارات ، لا بل الحياة · علة ذلك أيها المنفيون ، العلة التى لابد من ترديدها دواما لارهاب النذالات ، وبث روح الشجاعة ، أن الموت الظاهرى للشعوب ، مهما كان كئيبا ، ومهما بدا شديد البرودة كالثلج ، انما هو مرحلة تحول ، يستبطن سر تجسد جديد · بولندا فى الجدث ، ولكن فى يدها البرق · والمجر تحت الكفن ، ولكن فى قبضتها السيف ، وايطاليا فى القبر ، ولكن فى قلبها الشعلة ، وفرنسا فى الحفرة ، ولكن على جبينها النجم · وتدل الدلائل كلها يا أصدقائى ، على أنه فى الربيع القادم ، فى ساعة البعث ـ كما ان الصباح ساعة الصحو ـ سوف ترتجف الأرض كلها انبهارا وغبطة ، حين تنهض هذه الجثث العظيمة فجأة وتفتح للفور أجنحتها العريضة ·

٧

أثارت كلمات فيكتور هوجو المشاعر فى البرلمان · ودعا أحد أعضاء الأغلبية ، وهو من المترددين على قصر التويلرى ، دعا الحكومة الانجليزية الى فض « النزاع الشخصى » بين السيد لوى بونابرت والسيد فيكتور هوجو · وشعر فيكتور هوجو بأنه من الضرورى أن يضع الامبراطور فى مكانه المناسب ، وأن يعيد الى السيد بونابرت الشعور بوضعه الحقيقى ، ومن ثم نشر فى الصحف الانجليزية الآتية :

(تنبيـــه)

أنبه السيد بونابرت الى أننى أدرك تمام الادراك ماهية الأجهزة التى حركها والتى هى على شاكلته ، وأننى قرأت باهتمام الأشياء التى قيلت عنى فى الأيام الماضية فى البرلمان الانجليزى · لقد طردنى السيد بونابرت من فرنسا لأننى حملت السلاح ضد جريمته ، وهذا حقى كمواطن وواجبى كممثل للشعب ، وطاردنى من بلجيكا من أجل كتاب « نابليون الصغير » ، ولعله يطاردنى من انجلترا من أجل الاحتجاجات التى أبديتها فيها ، والتى أبديها وسوف أواصل ابداءها ، وهذا شأن انجلترا أكثر مما هو شأنى · فالنفى لثالث مرة أمر هين · أما من ناحيتى ، فأمريكا طيبة ، واذا كانت تلائم السيد بونابرت ، فانها بالمثل تلائمنى · ولكننى أنبه السيد بونابرت الى أنه لن ينال منى شيئا ، أنا الذرة ، كما لن ينال شيئا من الحقيقة والعدالة وهما الاله ذاته · وأصرح لحكومة ٢ ديسمبر فى شخصه أن التكفير عن الذنب سوف يأتى ، وأننى سوف أعجل ساعة التكفير ، سواء فى فرنسا أو بلجيكا أو انجلترا أو أمريكا ، أو من أغوار القبر اذا كانت الأرواح تعيش فيها كما أعتقد وكما أؤكد · السيد بونابرت على حق ، فبينى وبينه فى الحقيقة « نزاع شخصى » ، ذلك النزاع الشخصى القديم بين القاضى على كرسيه ، والمتهم على مقعده ·

(فيكتور هوجو)

(جيرسيى ، فى ٢٢ ديسمبر ١٨٥٤) ·

الذكرى السنوية السابعة
ليوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨
٢٤ فبراير سنة ١٨٥٥

١

أيها المنفيون ..

لو كانت الثورة التى بدأت فى مثل هذا اليوم منذ سبع سنوات فى دار بلدية باريس قد اتخذت طريقها الطبيعى ، ولم تتحول عن هدفها ، بعد أن اندلعت مباشرة ، ولو لم تقم الرجعية أولا ثم لوى بونابرت بعدها بهدم الجمهورية ، الرجعية بالدهاء والتسمم البطىء ، ولوى بونابرت بالتسلق فى جنح الظلام ، والاقتحام والترصد والقتل ، ولو كانت الجمهورية منذ أيام فبراير اللامعة قد عرضت رايتها على الألب والراين ، وألقت على أوروبا باسم فرنسا صيحة الحرية ! وكانت هذه الصيحة كما تذكرون كافية فى تلك الآونة لاستنهاض الشعوب كلها فى القارة القديمة ، والاجهاز على العروش كلها ، ولو كانت فرنسا ، وهى متكئة على سيف ١٧٩٢ قد بذلت عونهـا ، كما كان من واجبهـا أن تفعل لايطاليا والمجر وبولنـدا وبروسيا وألمانيا ، وباختصار لو كانت أوروبا الشعوب قد خلفت فى عام ١٨٤٨ أوروبا الملوك ، لكان الموقف اليوم فى القارة ، بعد سبع سنوات من النور والحرية كما يلى :

كنا حريين أن نشهد الآتى :

القارة كلها شعب واحد ، والقوميات تحيا حياتها الخاصة ضمن الحياة العامة المشتركة ، فتنتمى ايطاليا الى ايطاليا ، وبولندا الى بولندا ، والمجر الى المجر ، وتنتمى فرنسا الى أوروبا ، وأوروبا الى الجنس البشرى .

لن يكون الراين نهرا ألمانيا ، ولا بحر البلطيق أو البحر الأسود بحيرات روسية ، ولا البحر المتوسط بحيرة فرنسية ، ولا البحر الأطلسى بحرا انجليزيا ، ولن تكون هناك مدافع فى السوند أو جبل طارق أو الدردنيل . وسوف تكون الأنهار حرة ، والمضايق حرة ، والمحيطات حرة .

واذ تغدو المجموعة الأوروبية أمة واحدة ، فان ألمانيا ستكون بالنسبة الى فرنسا ، وفرنسا بالنسبة الى ايطاليا ، ما تكونه اليوم نورماندیا بالنسبة الى بيكارديا ، وبيكارديا بالنسبة الى اللورين • ولن تكون هناك حرب ، وبالتالى لن تكون ثمة جيوش • ومن الناحية المالية وحدها ، ستحصل أوروبا على ربح صاف قدره ٤ مليارات (١) • لن تكون ثمة حدود أو جمارك أو مكوس • وستكون هناك مبادلات حرة ، ومد وجزر هائل فى النقود والسلع ، وتتضاعف الصناعة والتجارة عشرين ضعفا ، وزيادة سنوية فى ثروة القارة تقدر بما لا يقل عن عشرة مليارات ، يضاف اليها أربعة مليارات تتوفر نتيجة لالغاء الجيوش وأكثر من مليارين من الأرباح الناتجة عن الغاء الوظائف الطفيلية فى القارة كلها ، بما فيها وظيفة الملك • يتكون من كل هذا فائض سنوى قدره ستة عشر مليارا للنهوض بالمسائل الاقتصادية ، وثمة ميزانية للعمل ، وصندوق للقضاء على التعاسة التى تستشرى فى مواطن البطالة وبين طبقات العمال الأجراء ، بميزانية تبلغ ستة عشر مليارا فى السنة • هيا ، احسبوا هذا الانتاج الضخم الذى يترتب على الرخاء • ولن أزيد على ذلك •

وثمة نقد قارى على قاعدتين ، قاعدة معدنية ، وقاعدة ورقية ، تستند الى رأس مال أوروبا كلها ، قوته المحركة هى النشاط الحر الذى يمارسه مائتا مليون من الرجال • هذا النقد ، نقد واحد ، سوف يحل محل كل أنواع النقد السخيفة فى الوقت الحاضر ، ويمتص كل أنواع النقود التى تحمل صور الأمراء ، وهى أشكال للتعاسة ، وأسباب مختلفة للفاقة • ذلك لأن الاكثار من أنواع النقد ، فى حركة تداوله ، يؤدى الى مضاعفة الاحتكاك ، وتؤدى مضاعفة الاحتكاك الى اضعاف حركة التداول ، والتدوال وحدة ، فى النقد ، وفى سواه من الأشياء •

وسوف يولد الاخاء التضامن • وسوف يكون المال العام ملكا لكل انسان ، وعمل كل انسان ضمانا للكافة •

حرية التنقل ، والمشاركة ، والتملك ، والتعليم ، والكلام ، والكتابة ، والتفكير ، والحب ، والعقيدة ، كل الحريات ، سوف تشكل حزمة حول المواطن ترعاه وتجعله فى حصن حصين •

ولن يقع اعتداء على أى انسان ، حتى ولو للصالح العام ، اذ ما الفائدة من ذلك ؟ فبقوة الأشياء وحدها ، وزيادة الضوء ، وتأثير نور النهار

---

(١) بالنسبة الى فرنسا ، لن تكون ثمة مفررات ملكية ، ولا هيئة كهنوت تحصل على رواتب ، ولا هيئة قضاة غير قابلة للعزل ، ولا ادارة مركزية ، ولا جيش دائم ، وستجنى البلاد ربحا سنويا صافيا قدره ٨٠٠ مليون ، أى مليونين فى اليوم الواحد •

الوضاح الذى ينبثق فى أعقاب الظلال الملكية والكهنوتية ، سوف يصبح الهواء غير صالح لتنفس الرجل الذى يستخدم القوة ، رجل الغش والكذب، والوحش الكاسر ، والمستغل ، والطفيلى ، والعسكرى الغشوم ، والمرابى ، والأرذال من رجال الدين ، وكل ما يطير فى أضواء الغسق بأجنحة الخفافيش · وسوف تمحى العقوبات القديمة مثل سائر الأمور القديمة · واذ تخمد الحرب ، فان آلة الاعدام التى تشترك مع الحرب فى جذورها سوف نجمد وتختفى من نفسها · وسوف تتلاشى كل أشكال السلاح · وسوف يبلغ الأمر بالانسان الى الشك بأن المخلوق البشرى له القدرة ، أو الجرأة فى ازهاق النفس البشرية ، حتى فى الزمان الماضى · وسوف يكون فى معرض الصور الاتنوجرافية فى اللوفر مدافع هاون من طراز « بيكسانز » خلف الزجاج ، ومدفع لانكاستر خلف الزجاج ، وجيوتين خلف الزجاج ، ومشنقة تحت الزجاج ، وسوف يذهب الانسان الى المتحف ليرى من باب الفضول هذه الكائنات المتوحشة التى يمتلكها الانسان ، كما يذهب الى حظائر الحيوان ليتفرج على الوحوش التى خلقها الله ·

سوف يقول البعض : هذى اذن مشنقة ، كما يقول البعض الآخر : هذا اذن نمر !

سوف نشهد فى كل مكان العقل الذى يفكر ، والذراع التى تعمل ، والمادة التى تطيع ، والآلة التى تخدم الانسان ، والتجارب الاجتماعية على نطاق واسع ، وكل الثمرات الرائعة التى ينتجها التقدم عن طريق التقدم ، والعلم فى نضاله مع الخلق ، ومصانع مفتوحة دواما ، ما على البؤس الا أن يدفع أبوابها ويدخلها فيصبح البؤس من ثمة عملا ، ومدارس مفتوحة دواما ، ما على الجهل الا أن يدفع أبوابها ويدخلها فيغدو نورا ومعرفة ، ودورا للتربية مجانية والزامية ، قدرات التلاميذ هى وحدها التى تعين فيها حدود التعليم ، وفيها يتلقى الطفل الفقير نفس الثقافة التى يتلقاها الطفل الغنى ، وانتخابات تعطى المرأة فيها صوتها أسوة بالرجل · ذلك لأن العالم القديم الذى انقضى كان يرى المرأة خليقة بالمسئوليات المدنية والتجارية والجنائية ، ويراها جديرة بالسجن ، وكليشى (١) ، والليمان ، والحبس الانفرادى ، والمشنقة · أما نحن فانا نرى المرأة جديرة بالكرامة والحرية · العالم القديم يرى المرأة جديرة بالعبودية والموت ، ونحن نراها جديرة بالحياة · هو يعتبر المرأة شخصا عموميا أهلا للمعاناة والكد ، ونحن نعتبرها جديرة بالحق · انا لا نقول : الرجل روح فى المرتبة الأولى من الجودة ، والمرأة روح فى المرتبة الثانية

---

(١) سجن النساء فى حى كليشى بباريس ــ المترجم ·

من الجوده • نحن نعلن أن المرأة ند لنا ، ولها فوق ذلك احترامنا • ايه لك أيتها المرأة ، الأم ، الرصينة ، الأخت ، القاصرة أبدا ، المستعبدة أبدا ، الضحية أبدا ، الشهيدة أبدا ، سوف نرفعك • أعلم أن العالم القديم يسخر منا من أجل كل ذلك ، وحق المرأة الذى نطالب به هو الموضوع الرئيسى لضحكه وسروره • اعترض بعضهم حديثى ذات يوم فى الجمعية الوطنية وصاح : انك تضحكنا على الأخص بموضوع النساء هذا • فأجبت قائلا : وأنتم تبكوننا على الأخص بموضوع النساء •

أواصل حديثى ، وأنهى هذه الصورة •

فى ذروه هذا الجلال العالمى الشامل ، تشرق انجلترا وفرنسا ، فهما الدولتان الكبريان فى الحضارة الراهنة ، والأمتان الاصليتان فى القرن التاسع عشر ، تنيران للجنس البشرى فى مسيرته طريقى الحقيقة والامكان ، وتحملان شعلتين : الواقع ، والفكرة وسوف تتنافسان دون أن تضر احداهما بالأخرى أو تعرقلها • واذا نظرنا فى الحقيقة الى الأمور من العلياء الفلسفية ـ وأذنوا لى بهذه العبارة الاعتراضية ـ لم نجد بينهما أى تنافر سوى الرغبة فى السير الى ما بعد الحدود ، وقلة الصبر على التقدم البعيد المدى ، ومنطق الذى يتقدم المسيرة ، والظمأ الى الآفاق ، والطموح الى التقدم غير المحدود الذى يشغل فرنسا كلها ، والذى ضايق أحيانا جارتها انجلترا التى قنعت راضية بالنتائج التى حصلت عليها ، وراحت تركن فى هدوء الى الأمر الواقع • فرنسا هى خصم انجلترا بالصورة التى نقول بها ان « الأحسن هو عدو الحسن » • واستمر •

فى المدينة القديمة ، مدينة ١٠ أغسطس ، و ٢٢ سبتمبر التى ينادى بها مدينة أوروبا « أوربس » (١) ، تنعقد جمعية ضخمة ، جمعية الولايات المتحدة الأوروبية ، المرجع الذى يقضى فى شئون الحضارة ، والتى انبثقت من الانتخاب العام الذى اشتركت فيه شعوب القارة كلها ، تتولى فى حضور هذا الموكل المهيب ، القاضى الفصل ، وبعون الصحافة العالمية الحرة، معالجة وتنظيم كل مسائل الانسانية ، وتجعل من باريس فى مركز العالم، بركانا من النور •

أيها المواطنون ، أقول لكم فى هذه المناسبة انى لا أومن بأبدية ما يسمونها اليوم « البرلمانات » • غير أن البرلمانات التى تتولد منها الحرية والوحدة معا ، تظل ضرورية حتى ذلك اليوم ، اليوم الذى لم يزل بعيدا ،

---

(١) اسم روما القديم ومعناه « المدينة » ومنه كلمة urbanisme علم تخطيط المدن ـ المترجم •

ولكنه قريب من المنـل الأعلى ، الذى تنفك عنـده التعقيدات السياسية بتبسيط العمل الشامل العالمى ، ويزداد تطبيق شعار « أقل ما يمكن من الحكم » تطبيقا تاما ، وتختفى كل القوانين المصطنعة ، ولا نبقى سوى القوانين الطبيعية • عندئذ لن تكون ثمة جمعية خلاف جمعية المبتكرين والمخترعين التى تكتشف القانون وتنشره ، ولكنها لا تصنعه ، جمعية الذكاء والفن والعلم ، تلك هى « معهد فرنسا » ، المعهد الذى تتغير معالمه وتشرق أنواره ، ويصير نتاج أسلوب آخر فى التسمية ، وتجرى فيه المداولات فى علانية وليس ثمة شك فى أن يصير المعهد ، على المدى الزمنى البعيد ، الجمعية (النيابية) الوحيدة فى المستقبل • وأضيف فى هذا السياق ، أن الشيء العجيب أن « المؤتمر الوطنى » هو الذى أنشأ معهد فرنسـا •

وهكذا فانى ألخص فى كلمات قليلة بضعة الخطوط التى أشرت اليها منذ هنيهة ، فى حين تعوزنى الكثير من التفاصيل ، ومن ثم ألقى اليكم بهذه الأفكار بسرعة وكيفما اتفق ، ولا أصور شيئا الا تصويرا تقريبيا • فلو كانت ثورة ١٨٤٨ قد عاشت وحملت ثمارها ، ولو كانت الجمهورية قد ظلت قائمـة ، وتطورت كما يقضى منطق الأمـور ، من جمهورية فرنسية الى جمهورية أوروبية ، وهو ما كان خليقا بأن يتم آنئذ بالتأكيد فى أقل من سنة ، دون أى اهتزاز أو تمزق ، مع هبوب ريح فبراير القوية • لو سارت الأمور على هذا النحو ، أيها المواطنون ، فماذا يا ترى تكون أوروبا اليوم ؟ أسرة واحدة ، الأمم أخوات ، والانسان أخا للانسان ، ولن يكون ثمة فرنسى أو بروسى أو اسبانى ، وانما يكون هناك أوروبى • وفى كل مكان نشاط ، وصفاء ، ورخاء ، وحياة • ولن يكون ثمة كفاح فى كل أنحاء القارة سوى كفاح الخير والجميل ، والعظيم ، والعادل ، والحقيقى ، والنافع ، فى سبيل تذليل العقبات والبحث عن المثل الأعلى • وذلك النصر الهائل الذى نسميه العمل ، فى كل مكان ، فى ذلك الضياء الشاسع الذى نسميه السلام •

وهكذا أيها المواطنون ، لو كانت الثورة قد انتصرت ، لكان هذا هو بالاجمال والايجاز المنظر الذى تبدو فيه أوروبا الشعوب فى هذه الساعة •

ولكن هـذه الأمور لم تتحقق بالمرة • ولحسن الحظ أعيـد اقرار النظام • فماذا نشهد بدلا من كل هذا ؟

الشيء القائم فى اللحظة الراهنة ليس هو أوروبا الشعوب ، وانما هو أوروبا الملوك •

وماذا تفعل أوروبا الملوك ؟

انها تملك القوة ، وتستطيع أن تعمل ما نشاء ، والملوك أحرار لأنهم حنقوا الحرية • وأوروبا الملوك غنية ، تملك الملايين ، والمليارات ، وما عليها الا أن تفتح شرايين الشعوب ، فتنفجر منها الدماء والذهب • ماذا تصنع ؟ هل تطهر مصاب الأنهار ؟ هل تختصر طريق الهند ؟ هل توصل المحيط الهادى بالمحيط الأطلسى ؟ هل تشق مضيق السويس ؟ هل نقطع مضيق بناما ؟ هل تلقى فى أعماق المحيط ذلك السلك الكهربى العجيب الذى يربط القارات بالقارات بالفكرة التى أصبحت كوميض البرق ، ذلك النسيج الهائل من الحياة العالمية الذى سوف يجعل من الكرة الأرضية قلبا ضخما ينبض بالفكر الانسانى ؟ فيم تنشغل أوروبا الملوك ؟ هل تنجز ، وهى سيدة العالم ، شيئا من العمل العظيم المقدس من أجل التقدم والحضارة والانسانية ؟ فيم تنفق قوى القارة الجبارة التى تملكها ؟ ماذا تصنع ؟

أيها المواطنون ، انها تصنع حربا •

حربا من أجل من ؟

من أجلكم أيتها الشعوب ؟

لا ، من أجلهم هم ، الملوك •

أية حرب ؟

حرب حقيرة فى أصلها : وأصلها مفتاح ، ورهيبة فى بدايتها : بالاكلافا ، ومروعة بخاتمتها : الهاوية •

حرب تبدأ بشىء مضحك ، وتنتهى بشىء فظيع •

أيها المنفيون ، لقد تحدثنا من قبل أكثر من مرة عن هذه الحرب ، وقدر علينا أن نواصل الحديث عنها زمنا طويلا ، وا أسفاه ، لا أفكر فى ذلك الا وفى القلب لوعة •

يأيها الفرنسيون الذين تلتفون حولى ، كان لفرنسا جيش هو أول جيوش العالم ، جيش عجيب ، لا نظير له ، أتم تأهيله فى الحروب الكبرى خلال عشرين سنة فى أفريقيا ، جيش فى طليعة الجنس البشرى ، صورة حية من نشيد المارسييز ، أبياته مرفوعة على حراب البنادق ، ويختلط بهبة ريح الثورة ، فلم يكن عليه عندئذ الا أن يطلق أبواقه فتسقط فى اللحظة نفسها ، فى القارة كلها ، كل الصولجانات ، وكل القيود القديمة ، ترابا وهشيما • أين هو هذا الجيش ؟ ماذا أصبح ؟ لقد استولى عليه السيد بونابرت ، أيها المواطنون • فماذا صنع به ؟ لفه أول كل شىء فى أكفان جريمته ، وبعد ذلك بحث له عن قبر حتى وجد القرم ، ذلك لأن

هذا الرجل بدفعه ويعممه ما فى نفسه من طبيعة مشئومة ، وغريزة التدمير الخليقة بالعالم القديم ، والكائنة فى روحه على غير علم منه ٠

أيها المقفيون ، حولوا أبصاركم لحظة واحدة من « كايين » حيث توجد أبصا مقبرة ، وانظروا بعيدا الى الشرق ، فلكم فيه أخوة ٠ هناك الجيش الفرنسى والجيش الانجليزى ٠

ما هذا الخندق المفتوح أمام تلك المدينة التتارية ؟ هذا الخندق الذى فيه رجال يقضون الليل وقوفا ، فهم لا يستطيعون الرقاد ، لأنهم غارقون فى المياه حتى الركب ، ويرقد غيرهم ، ولكن فى نصف متر من الوحل الذى يغطيهم تماما ، فيضع كل منهم حجرا تحت رأسه ليرفعه خارج الوحل ، وغيرهم راقدون ، ولكن فى الثلج ، ويستيقظون فى الغد وأقدامهم متجمدة ، وغيرهم راقدون ، ولكن على الجليد ، ولن يستيقظوا أبدا ، وغيرهم يسيرون حفاة الأقدام فى جو بارد يبلغ عشر درجات ، لأنهم خلعوا أحذيتهم ، ولم يبق عندهم قوة كافية ليلبسوها ثانيه ، وغيرهم تغطيهم جروح لا يضمدها أحد ، والجميع بلا مأوى ، ولا نار ، ولا غذاء تقريبا ، فليست هناك أيه وسيلة للنقل ، وليس عليهم من الكساء سوى أسمال مبللة أصبحت قطعا من جليد ، تفتك بهم الدوسنتاريا والتيفوس ، ويقتلهم السرير الذى ينامون فيه ، ويسممهم الماء الذى يشربونه ، ويزعجهم ويهد قواهم هجمات المحاصرين الذين يخرجون لضربهم ، وتتفجر القنابل ، وتوقظهم طلقات المدافع الرشاشة من غفوتهم وهم يحتضرون ٠ ولا يكفون عن القتال الا وهم ينازعون سكرات الموت ٠ هذا الخندق الذى كدست فيه بريطانيا ثلاثين ألف جندى فى الوقت الحاضر ، وأرقدت فيه فرنسا فى يوم ١٧ ديسمبر ستة وأربعين ألفا وسبعمائة رجل ـ ولا أعلم الرقم التالى ـ هذا الخندق الذى هلك فيه ثمانون ألف رجل فى أقل من ثلاثة شهور ، خندق سباستيبول هذا هو مقبرة الجيشين ٠ وقد كلف حفر هذا الخندق الذى لم ينته العمل فيه بعد ثلاثة مليارات ٠

الحرب ، لحاء كبير يقبض أجره ثمنا باهظا ٠

نعم ، لكى يتم حفر مقبرة الجيشين الانجليزى والفرنسى ، أنفقت فرنسا وانجلترا فى المجموع حتى الآن ثلاثة مليارات ، بما فى ذلك رأس مال السفن الحربية التى غرقت ، وكساد الصناعة والتجارة والائتمان ٠ ثلاثة مليارات ! بهذه المليارات الثلاثة كان يمكن انجاز شبكة السكك

---

(١) مدينة فى القرم عند مصب نهر تشرنايا ـ هزم عندها الجيش الروسى أمام الجيوش الفرنسية والانجليزية بعد معركة ضارية ـ المترجم ٠

الحديدية الانجليزية والفرنسية ، وبناء النفق الأنبوبى فى بحر المانش . وهو أحسن وسيله للاتصال بين الشعبين ، وأفضل من قبضة يدى لورد بالمرستون والسيد بونابرت اللذين يبدوان لنا فوق الرءوس ومعهما تلك الأسطورة التى تقول « مع حسن النية ! » . بهذه المليارات الثلاثة كان يمكن صرف مياه مروج فرنسا وانجلترا كلها ، وتزويد المدن والقرى والحقول كلها بالماء النقى ، وتطهير الأرض والانسان ، وغرس الأشجار والغابات فى جميع المنحدرات بالبلدين ، ومن ثم يمكن درء الفيضانات ، وتربية الأسماك فى الأنهار كلها بحيث يمكن اعطاء الفقير سمكه السالمون بسعر الرطل جزء من عشرين من الفرنك ، ومضاعفة عدد المصانع والمدارس ، واكتشاف طبقات الفحم والمعادن فى باطن الأرض واستغلالها ، وتزويد المقاطعات كلها بالمحافر البخاريه ، وبذر التقاوى فى ملايين الهكتارات من الأراضى البور ، وتحويل المجارى الى آبار من السباخ ، ومنع القحط والمجاعات ، ووضع الخبز فى كل الأفواه ، وزيادة الانتاج والاستهلاك والتداول عشرة أضعاف ، وزيادة الثروة مائة ضعف ! — من الأفضل الاستيلاء — أخطأت ، بل عدم الاستيلاء على سباستبول !

بل من الأفضل استخدام هذه المليارات فى افناء هذه الجيوش ! والافلاس أفضل من الانتحار !

وعلى ذلك فالجيشان يحتضران أمام القارة التى ترتجف . وفى هذه الأثناء ماذا يفعل « الامبراطور نابليون الثالث » ؟ هأنذا أفتح احدى جرائد الامبراطورية (ويفتح الخطيب جريدة) **وأقرأ فيها :** « يواصل الكرنفال احتفالاته ، وكلها أعياد وحفلات رقص . أما الحداد الذى اتخذه البلاط بمناسبة وفيات ملكات سردينية ، فانها سوف تتوقف لأربع وعشرين ساعة حتى لا تتعطل حفلة الرقص التى سوف تقام فى قصر التويلرى » نعم . هذا هو صوت الفرقة الموسيقية الذى نسمعه فى جناح « الساعة » . نعم ، لقد سجلت صحيفة « المونيتور » الوصف التفصيلى لرقصة « الكادريى » التى « اشترك فيها صاحبا الجلالة » . نعم ، الامبراطور يرقص ، فى حين تحدق عيوننا فى الظلمات ، وننظر ، وينظر معنا العالم المتحضر المرتجف ، الى سباستبول ، بئر الهاوية ، ذلك البرميل المظلم الذى تأتى اليه فرنسا وانجلترا ، هاتان الفتاتان « ابنتا داناؤوس » (١) ذواتا الأعين الدموية ، تأتيان الواحدة بعد الأخرى ، ممتقعتى الوجه

(١) الدانائيد ، بنات داناؤوس : تقول الاسطورة ، انهن حمسون فتاه ، قتلن فى ليلة زفافهن أزواجهن ، فحكم عليهن بملء برميل لا قاع له — وأصبح تعبير « برميل الدانائيد » يطلق على القلب الذى لا تفرغ رغباته ، والمسرف الذى ينفق كل ما يصل الى يديه ، الخ .. المترجم .

منعوشتي الشعر ، تصبان في الهاوية كنوزهما وأطفالهما ، وتكرران العمل دواما مرة بعدة مرة ·

ومع ذلك فقد أعلن أن « الأمبراطور » سوف يسافر · يسافر الى القرم ! أهذا ممكن ؟ ها هو الحياء يأنيه ، ويستنسعر انفعال الجماهير · ويعرضونه علينا وهو يلوح بسيف لودى (١) ناحيه سباستيبول ، وينقل حذاء فاجرام (٢) ذا سبعة الفراسخ ، مع نرولون ، وباروس باكيين ومنعلقين بأطراف حلته الردنجوت الرمادية · ماذا يريد هذا الشاخص الى الحرب أن يقول ! - أيها المواطنون ، اليكم بعض الذكريات · فى صباح الانقلاب ، عندما علم السيد بونابرت أن المعركة قد بدأت ، صاح قائلا : سأذهب لأقاسم جنودي الشجعان المخاطر ! كان هناك على الأرجح باروش أو ترولون يتباكيان · ولم يكن فى الامكان منعه · وانطلق ، واجتاز الشانزيليزيه والتويلرى بين صفين نلانيين من رماح البنادق · وعندما خرج من التويلرى ، دخل فى شارع « ليشيل » ، وشارع ليشيل هو شارع « بيلورى » ، ولا ريب أنه كان هناك فى الزمان الماضى سلم أو عمود ينشد اليه المجرمون · وفى هذا الشارع أبصر الحشد ، ورأى حركة التهديد التى يقوم بها الشعب · وصاح به أحد العمال : ليسقط الخائن ! وشحب وجهه ، واستدار الى الحلف ، وعاد الى الايليزيه · علينا اذن الا ننفعل بسبب رحيله · فهو اذا رحل فان باب التويلرى وكذا باب الايليزيه سوف يبقيان مفتوحين خلفه · اذا رحل فانه لن يولى وجهه شطر الخندق الذى يحتضر فيه الناس ، ولا شطر الثغرة التى يموتون فيها · ذلك لأن أول طلقة مدفع تصيح فيه قائلة : ليسقط الخائن ، سوف تجعله يعود القهقرى · فلنلزم الهدوء · ان لوى بونابرت لن يتجاوز أبدا شارع ليشيل ، سواء فى باريس ، أو فى القرم ، أو فى التاريخ ·

ثم انه اذا رحل ، فسوف تبقى عين التاريخ ثابتة على باريس · فلننتظر ·

أيها المواطنون · عرضت عليكم اللوحة التى تمثل أوروبا اليوم ، ووضعت الحدود على الصورة وحدثتكم عما ستكون عليه أوروبا الجمهوريه · أما الأمبراطورية فانكم ترونها ·

- واليكم موقف فرنسا ، فى داخل هذا الموقف العام · آموال

(١) لودى - مدينة ايطالية على نهر أرا ، انتصر عندها بونابرت على النمساويين فى عام ١٧٩٦ - المترجم ·

(٢) فاجرام - قرية بالنمسا ، بالقرب من فيينا ، انتصر عندها نابليون الأول على الأرشيدق شارل (١٨٠٩) - المترجم ·

الدولة مبددة . المستقبل مثقل بالقروض ، الكمبيالات موقع عليها بامضاء « ٢ ديسمبر » و « لوى بونابرت » ، ومن ثم فهى عرضة للاحتجاج (البروتستو) ، النمسا وبروسيا أعداء خلف قناع التحالف ، اتحاد الملوك كامن ، ولكنه ظاهر للعيان ، أحلام التجزئة تعود ، مليون رجل على أهبة الانطلاق الى الراين عند أول اشارة يبديها قيصر روسيا ، جيش أفريقيا قد أبيد ، فماذا عساه تكون نقطة الارتكاز ؟ انجلترا : غرق أكيد .

ذلك هو الأفق المرعب الذى يقوم على طرفيه شبحان ، شبح جيش القرم ، وشبح الجمهورية فى المنفى .

يا حسرتاه ! فى جانب أحد هذين الشبحين طعنة خنجر الشبح الآخر ، ولكنه مع ذلك قد غفر له طعنته هذه .

نعم ، أؤكد أن الموقف مفجع للغـاية ، حتى لقد استبد الهلع بالبرلمان فأمر باجراء تحقيق . ويبدو لأولئك الذين لا يؤمنون بمستقبل الشعوب المشمولة بالرعاية الربانية أن فرنسا سوف تهلك وأن انجلترا سوف تغرق .

ولنلخص .

الليل فى كل مكان . لم يعد فى فرنسا منبر ، ولا صحافه ، ولا كلمة . الروسيا فوق بولندا ، والنمسا فوق المجر ، والنمسا فوق ميلانو ، والنمسا فوق فينيسيا ، وفرديناند على نابولى ، والبابا على روما ، وبونابرت على باريس . وفى هذه الجلسة المغلقه فى الظلام ، تجرى مختلف الأعمال التى تجرى عادة فى الظلمات ، من اغتصاب ، وسلب ، ونهب ، ونفى ، وضرب بالرصاص ، ومشانق . وفى القرم حرب مخيفه ، جثث جيوش فوق جثث أمم : أوروبا كهف الذبائح . لا أعرف أى وهج مفجع سوف يضىء المستقبل . حصار ، مدن تحترق ، ضرب بالقنابل ، مجاعات ، أوبئة ، افلاسات . وثمة بداية دعوة للهرب من أجل المصالح والأنانيات . وثمة حركات تمرد خفية بين الجنود فى انتظار صحوة المواطنين . أقول لكم انها حالة رهيبة ، فابحثوا عن مخرج لها . الاستيلاء عليها مهانة لا علاج لقد أنزلنا بأنفسنا الخزى والعار . ترى ماذا يحل بالشعوب التى تبقى على قيد الحياة ، تحت وطأة القياصرة الهائجين ؟ انها سوف تبكى حتى تسفح آخر قطرة من دمعها ، وسوف تدفع آخر فلس لديها ، وسوف تسفك دماءها الى آخر طفل لديها . نحن فى انجلترا ، فماذا نشهد حولنا ؟ نساء متشحات بالسواد فى كل مكان ، وأمهات وأخوات وبنات يتيمات وأرامل . أعد اذن الى هؤلاء النسوة ما يبكين من أجله ! انجلترا كلها تحت ثوب الكفن . وفى فرنسا حدادان كبيران : أحدهما الموت ،

والثاني أسوأ منه . وهو العار : مذبحه بالاكلاها ، وحفل الرقص في التويلري .

أيها المنفيون ، لهذا الموقف اسم ، انه يسمى « المجتمع الذى نجا » .

فلا ننسى هذا الموقف الذى يذكرنا به هذا الاسم ، ولنرجع أيضا الى الأصل . نعم ، هذا الموقف ، كل هذا الموقف ، يصدر عن « العمل الكبير » عمل ديسمبر . انه نتاج نقض اليمين فى ٢ ديسمبر ، ومجزرة ٤ منه . ولا نستطيع أن نقول عنه على الأقل انه ابن مجهول النسب ، فله أم ، هى الخيانه ، وله أب ، هو المذبحة . تأملوا هذين الشيئين اللذين يتلامسان فى الوقت الحاضر كما تتلامس اصبعا يد العدالة الالهيه . كمين عام ١٨٥١ ، وكارثة عام ١٨٥٥ ، نكبة باريس ، ونكبة أوروبا . بدأ السيد بونا برت من الأولى فوصل الى الثانية .

انني أدرك تماما ما يقولونه لى ، أعلم أن السيد بونابرت يقول لى بنفسه وعن طريق صحفه : ليس فى فمك الا كلمة ٢ ديسمبر ! انك تردد دائما هذه الأشياء ! فأرد على ذلك قائلا : لأنك مازلت فى مكانك !

انني ظلك .

هل هذا خطئى اذا كان ظل الجريمة شبحا ؟

كلا ، وكلا ، وعلينا ألا نسكت ولا نمل ولا نتوقف . ولنكن نحن أيضا حاضرين ، نحن الحق والعدالة والحقيقة . فوق رأس بونابرت الآن كفنان ، كفن الشعب ، وكفن الجيش ، فلنحركهما دون هوادة . وليسمع الناس دواما ، وليسمعوا خلال كل شيء ، أصواتنا فى أطراف الأفق ! وليكن عندنا تلك الرقابة المخيفة ، رقابة المحيط ، والاعصار ، والشتاء ، والعاصفة الهوجاء ، وكل فورات الطبيعة الهائلة .

وهكذا أيها المواطنون ، هناك معركة متناهية الشدة ، واستنزاف لجميع قوى الحياة لا يتوقف ، وتدهور لا حدود له . تلك هى حال مجتمع الماضى التعس الذى ظن أنه قد نجا بالفعل حين رأى ذات يوم ذلك المغامر الذى استولى على مقاليده ، يعهد بالنظام الى شرطة المدينة ، وبالحمول والبلادة الى الجيزويت !

قال مجتمع الماضى ان الأمور فى أيد أمينة .

فما رأيه الآن ؟

يأيتها الشعوب ، هناك رجال عليهم اللعنة ، اذا وعدوا بالسلام ، أوفوا بالحرب ، واذا وعدوا بالأمن ، أوفوا بالمصائب ، واذا وعدوا بالرخاء ، أوفوا بالخراب ، واذا وعدوا بالمجد ، أوفوا بالعار ، واذا اتخذوا تاج شارلمان ، جعلوا تحته جمجمة ايزيلان ، واذا أعادوا سبك وسام قيصر ، جعلوا

عليه صورة ماندران (١) ، واذا أعادوا الأمبراطورية ، فانما يعيدونها من عهد ١٨١٢ ، وإذا رفعوا النسر جعلوه أنوقا ، واذا أطلقوا على شعب اسما ، كان هذا الاسم مزورا ، وإذا أدوا له قسما ، كان القسم زورا وبهتانا ، واذا أعلنوا له عن موقعة اوسترليتز ، لم يكن اوسترلينز هذا حقيقيا ، واذا منحوه قبلة ، كانت قبلة يهوذا (الاسخربوطى) واذا وهبوا له قنطرة للعبور من ضفة نهر الى ضفته الأخرى ، كانت تلك قنطرة بيريزينا (٢) ٠

آه ، ليس منا أيها المنفيون من لم يحزن ، فالأسى فى كل مكان ، والدناءة والبشاعة فى كل مكان ، ونضخم القيصر انما هو تناقص النور ، ولأن تدهور ذلك البلد العظيم ، الأبى الكريم ، انجلترا ، يحط من قدرتى كانسان ، أنا الذى أحدثكم الآن ، ولأننا نتألم أشد الألم ونحن نسمع فى هذه اللحظة فرنسا وهى تسقط ، فيكون لسقوطها صوت شبيه بالصوت الذى يحدثه سقوط النعش !

أنتم متكدرون ، ولكن عندكم شجاعة وايمان ٠ وحسنا تفعلون يا أصدقائى ٠ تشجعوا أكثر من ذى قبل ! لقد قلتها لكم قبلا ، وانها لنزداد وضوحا يوم بعد يوم ، لم يعد لفرنسا وانجلترا فى هذه اللحظة سوى طريق واحد للخلاص ، ذلك هو تحرير الشعوب ، ونهضة القوميات نهضة شاملة ، والثورة ٠ أهداف سامية ٠ والبديع أن الخلاص فى الوقت ذاته هو العدالة ، وفى هذا نتجلى العناية الالهية ٠

نعم ، فلنتذرع بالشجاعة أكثر من ذى قبل ! لقد صاح دانتون فى لحظة الخطر : الجرأة ، الجرأة ، ومزيد من الجرأة ! ولا بد فى المحنة من الصياح : الأمل ، الأمل ، ومزيد من الأمل !

أيها الأصدقاء ، سوف تشرق الجمهورية الكبرى عما قريب ، الجمهورية الديمقراطية الاجتماعية الحرة ، فمن وظيفة الامبراطورية أن تعمل على احيائها ، كما أن من وظيفة الليل أن يعيد النهار وسوف يختفى رجال الشر والطغيان ، ولم يبق من زمانهم الا دقائق معدودات ٠ انهم يقفون وظهورهم ناحية الجرف ونحن الذين فى داخل الهاوية ، نرى أعقابهم بارزة من حافتها العليا ٠ أيها المنفيون ، انى أرى عندهم السم

---

(١) ماندران (الوى) ــ رئيس عصابة لصوص مشهور ــ ولد عام ١٧٢٤ ــ أعدم على عجلة التعذيب ــ المترجم ٠

(٢) بريزينا ــ نهر فى روسيا ، يصب فى نهر الدنيبر ، اشتهر بذكرى مؤلمة ، ذكرى مرور الجيش الفرنسى من ٢٥ الى ٢٩ نوفمبر ١٨١٢ مهزوما بعد حملة روسيا ــ المترجم

الذى شربه سقراط ، وتل الجلجثة الذى صلب عليه يسوع المسيح ، وأريحا التى هدمها اليهود ، وأشهد حمامات الدم التى أراقها أمثال تراسياس (١) ، والجمرات الملتهبة التى مضغتها بورشـيا (٢) زوجة بروتوس ، وأكوام حطب الحريق التى صاح عندها جان هس : سوف تولد البجعه (٣) ، وأشهد هـذه البحار التى تحبط بنـا والتى عبرها أمثال كرستوف كولمبس ، وأشهد هذه الكواكب التى تعلو رءوسنا والتى استفسر عنهـا أمثـال جاليليو • أيها المنفيون ، الحرية خالدة ! أيها المنفيون ، الحقيقة أبدية ! التقدم ، هو خطوة الاله نفسها •

وعلى ذلك فلتقر أعين الذين يبـكون ، وليطمئن أولئـك الذين يرتجفون ، وليس بيننا أحد منهم •

الانسانية لا تعرف الانتحار ، والله لا يعرف النزول عن الحق • كلا ، لن تبقى الشعوب فى الظلمات أبد الآباد ، تجهل الحالة الحاضرة فى العلم والفلسفة والفن والروح الانسانية ، وعيونها مثبتة فى بلاهة على الطغيان الشبيه بميناء ساعة الأشباح التى يشير عقرباها الثابتان ، السيف والصولجان ، الى منتصف الليل ، أبد الآبدين •

---

(١) عضو مجلس الشيوخ الرومانى ، تآمر ضد نيرون ، وحكم عليه بالاعدام فى عام ٦٦ — المترجم •

(٢) بورشيا — ابنة كاتون الأتيكى ، انتحرت عندما علمت بموت زوجها بروتوس ، احد قتلة يوليوس قيصر (٤٢ ق٠م) — المترجم •

(٣) يشير الى أسطوره ، يأتى فيها الفارس المنقذ فى قارب تجره بجعة — المترجم •

خطاب الى لوى بونابرت

٩ أبريل ١٨٥٥

٢

انتهت تلك الحــرب المفجعة ، حــرب القرم بقبلة منحتهــا الملكه فيكتوريا لامبراطور الفرنسيين وشخص لوى بونابرت الى لندن للحصول على تلك القبلة • وأثار هذا الحدث نوعا من النشــوة فى الحكومتين . فكانت الأعياد بعد المذابح ، ومثل هذه الأمور تتعاقب •

وكان الحفل فاخرا ، بل وكان كاملا من جميع الوجوه • وتدخل فيه الرجل المنفى • فعندما نزل « الامبراطور » فى دوفر طالع العبارات الآتية فى ملصقات على كل الحوائط :

من فيكتور هوجو الى لوى بونابرت

ما الذى أتى بك هاهنا ؟ على من تحقد ؟ من الذى جئت لتهينه ؟ انجلترا فى شعبها أم فرنسا فى منفييها ؟ لقد دفنــا منهم حتى الآن تسعة فى جيرسى وحدها • أهذا هو ما تريد أن تعرفه ؟ كان آخــرهم يدعى فيلكس بونى ، فى التاسعة والعشرين من عمره • أيكفيك هذا ؟ أتريد أن ترى قبره ؟ أقول لك ، ماذا أتى بك هاهنــا ؟ انجلترا التى لايغل عنقها قيد ، وفرنسا المنفية ، وهذا الشعب الذى يتمتع بسيادته الذاتية ، وهذا النفى المقــرون بازهاق الأرواح مع الهدوء ؛ كل هؤلاء لا شأن لهم بك • دع الحرية فى سلام ، دع المنفى فى هدوء •

لاتأت •

ترى أية خدعة سوف تقدمها لهذه الأمة العظيمة الكريمة ؟ أية طعنة تفكر فى توجيهها للحرية الانجليزية ؟ هل تصــل محملا بالوعود كما فعلت فى فرنسا عام ١٨٤٨ ؟ أم ستغير التمثيلية ؟ هل تضع يدك على قلبك فى مناسبة التحالف الانجليزى ، كمــا وضعتها فى مناســبة الجمهورية ؟ هل يحدث ذلك أيضا والرداء محكم الأزرار ، والشارة فوق الرداء ، ونبرة الصوت تلبى بالتأثر ، والعين دامعة ؟ أى يمين مقدسة

سوف تقسمها ؟ أى تأكيد بالاخلاص الأبدى ، وأى وعد صادق لاينتهك ، وأى اشهاد ، وأى قسم مطبوع مع صورتك على النقود ، سوف تعمل على ترويجها هنا ، بامزيف عملات الشرف ؟ ماذا آتيت به الى هذه الأرض ؟ هذى أرض توماس مورس ، وهامبدين ، وبرادشـــو ، وشكسبير ، وميلتون ، ونيوتن ، ووات ، وبايرون ، وهى ليست بحاجة الى عينة من وحل شارع مونمارتر • أتأتى طلبا لوســام ربطة الساق الانجليزية ؟ حقا ما أشجعك !

أقول لك لا تأت ، فلن تكون هنا فى مكانك اللائق بك • انك ترى أن هذا الشعب حر ، وترى جيـدا أن هؤلاء الناس يغدون ويروحون ، يقرأون ويكتبون ، يستفهمون ويفكرون ، يصـــيحون ويســكتون ، ويتنفسون كيفما يشاءون ، وهذا شىء لا يشبه أى شىء مما تعرفون • ومهما نظرت الى ياقات الثياب ، فانك لن تجد بها الثنية التى تصنع بها قبضات أيدى رجال الشرطة • حقا ، انك لن تكون فى دارك ، بل ستكون فى جو لاتستطيع أن تتنفس فيه • انت ترى انه لاتوجد هنا كتائب من الانكشارية ، لا من انكشارية القساوسة ولا من انكشارية الجنود ؛ وترى أنه لايوجد جواسيس ، وترى انه لايوجد جيزويت ، وتـرى أن القضاة يحكمون بالعدل !

المنبر يتكلم ، والصحف تتكلم ، والضمير العام يتكلم • فى هذا البلد شـــمس ؛ وهأنت يانسر ترى أن الدنيـا نهـــار ! فما الذى ستفعله هنا ؟

اذا أردت أن تعلم رأى هذا الشعب فيك ، فى غير موضوع الحلف ، فاقرأ صحفه الحقيقية ، صحفه التى صدرت منذ سنتين • اتزور لندن وأنت فى حلة الامبراطور والجنرال ؟ لقد زارها غيرك ، وكانوا أباطرة مثلك ، بل وجنرالات ، زاروها قبلك واستقبلوا فيها بهتافات النصر المختلفة ، ولسوف تلقى فيها نفس الحفاوة • أتذهب الى ميدان ترافاجار؟ وتذهب الى ميدان واترلو ، وكورى واترلو ، وعمود واترلو ؟ لقد استقبل العمد والمشايخ فيها نيقولا • أتذهب الى حانة بيركنز ؟ لقد اســتقبل فيها العمال هايناو (١) •

هل تأتى لتتحـدث الى انجلترا عن القــرم ؟ انك لتمس فى هذا الخصوص فاجعة كبرى • لقد فتحت كارثة سباستيبول جناح انجلترا

(١) يوليوس جاكوب دومانياو ــ فيلد مارشال نمساوى ، اخضع الثوره المجرية بقسوة (١٧٨٦ ــ ١٨٥٣) ــ المترجم •

بدرجـة أعمق من فتحهـا جنـاح فرنسـا . الجيش الفرنسى يحتضر ، والجيش الانجليزى ميت ؛ الأمر الذى لعله قد حمـل أحد المؤرخين ـ اذا سلمنا بما يقوله بعض الذين يعجبون بأعمالك العشوائية ـ حمله على أن يبدى هذه الملاحظة : « اننا نثأر لواترلو دون قصد منا . لقد أوقع نابليون الثالث بانجلترا فى سنة واحـدة من التحالف معهـا ، أضرارا أشد مما أوقعه نابليون الأول بها فى حروب دامت خمس عشرة سـنة (وبهذه المناسبة ، لم يعد أصـدقاؤك يقولون عن نابليـون الأول : « نابليون الكبير » . لماذا اذن ؟) .

نعم ، عندك نفر من هؤلاء المتملقين ، يا أمبراطور الصدفة ، ان هذه المغامرة التى يسمونها من مقدراتك شىء غـريب حقـا . وان الكلمات لتعوزنا ، ونقع فى هاوية من الذهول حين نفكر أنه ربما قد وصل بك الأمر الى الاعتقاد بأنك شخصية هامة ، وأنك ربما تأخذ هذه الفاجعة الرهيبة مأخذ الجد ، وأنك على الراجح تتصور أنك تبهر أوروبا بذلك المنظر الذى سوف تتجلى فيه يوما أمام الشعب الانجليزى ، بالمشهد الذى تمثله فى الوقت الحاضر ، صامتا ، هائئا ، كئيبا ، واقفا فى غمامتك ، غمامة الآثام ، متوجـا بنـوع من الخزى الأمبراطورى الغامض ، وعلى جبينك كل هذه الدعاوى الكالحة التى تختص بها الصواعق ، وتختص بها ياسيدى أيضا محكمة الجنايات .

آه ! سوف تسمع هذه الأشياء الحقيقية الرهيبة . فلماذا أتيت الى هنـا ؟

أسمع ! اختر من بين أعضـاء هذه الحكومة الذين يرحبون بك لأسباب شتى ، أكثرهم حماسة ونشـوة ، وأشدهم رهبة منك ؛ اختر الانجليزى الذى يصيح بأقوى ما يمكن : ليحى الأمبراطور ! عمدة كان أم وزيرا أم لورد ، ووجه اليه هذا السـؤال البسيط : اذا حدث فى هذا البلد أن رجلا فى يده السلطة ، بصفة من الصفات ، وليكن وزيرا على سبيل المثال (وهذا ماكنته ياسيدى) قام ، بحجة أنه قد أقسم يمين الولاء للدستور أمام الناس وأمام الله ، فأطبق على عنق انجلترا ، ونسف البرلمان ، وقلب المنبر ، وألقى بأعضاء المجلس المتمتعين بالحصانة فى سـجون ميلبانك ، ونيوجيت ، وهدم وستمنستر ، وبدد أموال الشعب وأنفقها على حرسه ، وطرد القضاة شر طردة ، وربط يدى العدالة خلف ظهرها ، وكمم الصحافة ، ودمر المطابع ، وخنق الجرائد ، وغطى لندن بالمدافع وحراب البنادق ، وأفرغ خزائن البنوك فى جيوب جنوده ، واقتحم المنازل ، وذبح الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ، وجعل من

هايدبارك حفرة تطلق منها البنادق ليلا ، وأطلق البنادق الرشاشة على حي « سيتيه » و « ستراند » وشارع « ريجنت » ، وحي « تشيرنج كروس » وغيرها من أحياء لندن العشرين ، ومقاطعات انجلترا العشرين ، وغطى الشوارع بجثث المارة ، وملأ مستودعات الجثث والجبانات بالموتى ، ونشر الظلام في كل مكان ، والسكون في كل مكان ، والموت في كل مكان ؛ ومحا بكلمة واحدة ، وبضربة واحدة القانون ، والحرية ، والحق ، والأمة ، والنسمة ، والحياة ، فماذا عساه يصنع الشعب الانجليزي بهذا الرجل ؟ قبل أن تنتهي الجملة ، سوف ترون سلم المشنقة وهو يخرج من الأرض من تلقائه وينتصب أمامكم ! نعم ، المشنقة • ومهما كانت بشاعة الجرائم التي عددتها الآن ، فاني لا أخفي عليك — ولم أخفي ؟ لا أخفي عليك أني أنطق بهذه الكلمة والقلب منقبض ؟ ذلك لأن كلمة التقدم السامية التي اعترفنا بها نحن الديموقراطيين الاشتراكيين ، لم تعترف بها انجلترا حتى اليوم ، فالحياة البشرية ، في نظر هذا الشعب الجزيري العظيم الذي توقف عند منتصف الطريق ، في القرن التاسع عشر ، وعلى مسافة من قمة الحضارة ، لم تصبح بعد آمنة مطمئنة •

ولابد أن يكون الانسان فوق هذه الهضبة المرتفعة ، هضبة النفي والمحنة التي نحن فيها لكي يحيط بأفق الحقيقة كلها ، ويفهم أن الحياة البشرية كلها ، بل وحياتك أنت ياسيدي ، مقدسة •

على أن أصدقاءك في هذا البلد لايعالجون المسائل التي تمسك على هذا النحو ، طبقا لمبدأ من المبادىء • فهم يفضلون أن يقتصروا على القول بأنه لم يكن أبدا ثمة انقلاب سياسي ، وأن هذا شيء غير صحيح ، وأنك لم تقسم أبدا أي يمين ، وأن ديسمبر لم يكن له أبدا وجود ، وأنه لم تسفك نقطة دم واحدة ، وأن سانت أرنو ، وايسبيناس ، وموبا شخوص اسطورية ، وأنه لايوجد منفيون ، وأن لاميبسا (١) في القمر ، وأننا انما نتظاهر بغير الحقيقة •

يقول الدهاة انه كان هناك في الواقع شيء ما ، ولكننا نبالغ ، وأن الرجال الذين قتلوا لم يكونوا كلهم من ذوي الشعور البيضاء ، وأن النساء اللواتي قتلن لم يكن كلهن حوامل ، وأن طفل شارع تيكتون ذا الأعوام السبعة كان في الثامنة من عمره •

---

(١) لامبيسا : مقاطعة في الجزائر ، كانت تستخدم كاصلاحية للمجرمين في عهد الامبراطورية الثانية — المترجم •

أعود فأقول لاتأت الى هذا البلد ٠

وعليك فضلا عن ذلك أن تفكر فى عاقبة الرعونة ، وفى الأمور التى نعرض لها الحكومه التى ستستقبلك فى بلدها ٠ كان لباريس فورانات فجائية ، برهنت عليها فى عام ١٧٨٩ ، ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ٠ ماذا يضمن للحكومة البريطانية ، مع تقديره الحق للصداقة الفرنسية ، ماذا يضمن للحكومة البريطانية ، أن ثورة لن تنفجر فى أعقابك ، وأن الديكور لن يتغير فجأة ، وأن معكر الأفراح القديم فى ضاحية سانت إنطوان لن يستيقظ فجأة ويركل الأمبراطورية ، وأن الحكومة البريطانية ، تتسلم برقية كهربية ، فلا تجد فى ضيافتها فى سان جيمس ، صاحب الجلالة أمبراطور الفرنسيين ، المدعو الى الوليمة الملكية ، وانما تجد فجأة بدلا منه المتهم الفرنسى الجمهورى ، الممتقع الوجه ، المرتجف الأوصال ؟ لن تجد نابليون صاحب العمود التذكارى ، وانما نابليون المشنقة ؟

ولكن شرطتك يطمئنونك ٠ فالانقلاب يحتفظ فى جعبته برئيس الشرطة العجوز فيدوك ، يبصر عن طريقه بواطن الأمور ، فهو بالنسبة اليه بمثابة الضمير ٠ الشرطة مسئولة أمامك عن الشعب ، كما أن القس مسئول أمامك عن الله ٠ ويتحدث اليك كل من السيد بيترى ، والسيد سيبور ، كل من جهته : فالسيد بيترى يؤكد أن ذلك الشعب من الرعاع لم يعد له وجود ٠ ويهمس السيد سيبور قائلا : أريد أن أرى الله يتحرك ٠ وانت هادىء النفس ٠ وتقول : لا عليك ، ان هؤلاء النظريين يحلمون ٠ انهم يريدون ارهابى بالغيلان ٠ لم يعد هنا ثورة ، لقد حطمها « فيبو » ، وتستطيع حكومة الانقلاب أن تنام ملء جفنيها بفضل يقظة « باروش »(١) ٠ والرعاع والضواحى ، كل هؤلاء تحت نعالى ٠ لا أهمية لكل ذلك ٠

الحقيقة أن الأمر كذلك ٠ ما أهمية التاريخ ؟ ما أهمية السلف ؟ ما أهمية أن يكون هناك اليوم حكومة ٢ ديسمبر ، تتشبه بأوسترلتيز ، وسباستيبول معادلة لمارينجو (٢) ، ونابليون الكبير ، ونابليون آخر يتحرك تحت المجهر (المكروسكوب) ، وأن يكون عمنا هو عمنا حقا (٣) ، أو أنه ليس عمنا ، وأن يكون قد عاش أو مات ، وأن تكون انجلترا قد

(١) باروش — من وزراء نابليون الثالث — المترجم ٠

(٢) مارينجو — قرية ايطالية ، مشهورة بانتصار الفرنسيين بقيادة بونابرت على النمساويين فى ١٤ يونية ١٨٠٠ — المترجم ٠

(٣) نابليون الأول هو عم نابليون الثالث (لوى بونابرت — امبراطور الفرنسيين الذى يقصده المؤلف بهذا الخطاب) — المترجم ٠

وضعت ولنجتون (١) فوق رأسه ، وهدسون لو (٢) على صدره ؟ ما أهمية كل ذلك ؟ لا أهمية لذلك • كل ذلك فى الماضى حديث افك وتشهير • اذا كنا صغيرين ، فهذا أمر لا يخص أحدا • الناس معجبون بنا • اليس كذلك يانرولون ؟ (٣) نعم يا مولاى . ليس هناك اليــوم سوى مسألة واحدة : أمبراطوريتنا • المهم هو شيء واحد : أن نسبت أنهم قد رحبوا بنا ، وأن نفرض « محدث النعمة » على بيت « برنسويك » الملكى القديم ، وازالة آثار كارثة القرم تحت ستار من الاحتفالات فى انجلترا ، والابتهاج فى هذا النوب ، وتغطية طلقات المدافع الرنانة بالألعــاب النارية . وعرض حلتنا ، حلة الجنرال فى المكان الذى رآنا فيه الناس وعصا الشرطة فى يدنا ، وأن نكون فرحين ونرقص قليلا فى قصر بكنجهام • اذا تم ذلك ، تم كل شيء •

وعلى ذلك ، فلنسافر الى لندن ، فهذا على أية حال أفضل من السفر الى القرم ففى لندن سوف تتوالى طلقات المدافع بالبارود ، وتقام الحفلات خمسة عشر يوما ، فى لندن أعياد النصر ، ونزهات فى القصور الملكية • فى كارلتون هاوس ، وأوسبورن ، وجزيرة وايت ، وقصر وندسور حيث سرير لوى فيليب الذين تدين له بحيانك وبماله ، وحيث يتحدث اليك برج لانكاستر عن هنرى الأبله ، ويحدثك برج يورك عن ريتشارد القاتل ثم المراسم الكبرى والصغرى للنهوض من الفراش ، وحفلات الرقص ، وباقات الورد ، والفرق الموسيقية تؤدى مقطوعة « احكمى يا بريطانيا » مع مقطوعة « الرحيل الى سوريا » ، وثريا مضيئة ، وقصــور منيرة ، وخطب ، وهتافات الابتهاج • وتجد تفاصيل أحاديثك وآيات لطفك فى الصحف • شيء جميل • ولسوف تجد أننى أحسن صــنعا اذ أخلط مقدما بهذه التفاصــيل تفاصيل أخرى تأتى من موقع آخر من مواقع نصرك ، ذلك هو « كايين » فالمنفيون سياسيا ــ أولئك الرجال الذين لم يرتكبوا جريمة سوى أنهم كافحوا جريمتك ، أى أنهم أدوا واجبهم ، وكانوا مواطنين صالحين وشجعانا ــ منضمون هناك (فى كايين) الى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، يشتغلون ثمانى ساعات يوميا تحت ضربات عصى السجانين ، وصرخاتهم المزعجة ، شأنهم شأن العبيد فى

---

(١) ولنجتون ــ قائد انجليزى (١٧٦٩ ــ ١٨٥٢) ــ هزم القوات الفرنسية فى البرتغال وأسبانيا • وفى عام ١٨١٤ جاء الى سولت وباشر معركة تولوز • تولى قيادة القوات المتحالفة ضد فرنسا عام ١٨١٥ ، وربح معركة واترلو ــ المترجم •

(٢) هدسون لو ــ حاكم جزيرة سانت هيلين خلال فترة نفى نابليون اليها ــ المترجم

(٣) ترولون ــ رئيس مجلس الشيوخ فى فرنسا فى عهد نابليون الثالث ــ المترجم •

الزمان الماضى ، محلوقى الرءوس ، على أجسامهم اسمال بالية كتبت عليها الحروف الأولى من كلمتى « أشغال شاقة » أما أولئك الذين يريدون أن تكتب على أحذيتهم كلمة « سجين المراكب » بحروف غليظة ، فانهم يسيرون حفاة . ويؤخذ منهم النقود التى ترسل اليهم . واذا نسوا أن يخلعوا الطاقية أمام أى واحد من جنودكم الذين يتلون حراستهم ، اعتبر ذلك منهم سلوكا يستحق العقاب ، من قيود حديدية، وسجن انفرادى ، وصوم، وجوع ، او يربطونهم خمسه عشر يوما ، أربع ساعات كل يوم ، من الرقبة والصدر والأذرع والسيقان بحبال غليظة تشد الى وضعة . ويقضى قرار السيد بونار فى ٢٩ أغسطس بصفته حاكما لجويان ، بأنه مصرح للحراس بقتل المسجونين بحجة ما يسمونه « مخالفة تعليمات السجن » . مناخ فظيع ، وسماء استوائية ، ومياه موبوءة ، وحمى وتيفوس ، وحنين الى الوطن . هناك يموتون — بنسبة خمسة وثلاثين لكل مائتين فى جزيرة سان جوزيف الصغيرة وحدها ، وتلقى الجثث فى البحر . وهكذا الحال يا سيدى .

أعرف أن أحاديث القبور هذه تحملك على الابتسام ، ولكنك تبتسم لها فى وجه من يكون بسببها . وأوافقك على أن ضحاياك ، واليتامى ، والأرامل الذين تتركهم بأعمالك ، والمقابر التى تفتحها ، كل ذلك موضوع مستهلك . وهذه الأكفان كلها تشير الى حبل المشنقة . وليس عندى جديد أقدمه لك . فماذا تريد ؟ أنت تقتل ، والناس يموتون . ولنحزم جميعا أمورنا ، فنتقبل نحن الواقع ، وتتقبل انت الصيحة نقاسى نحن من الجرائم ، وتقاسى أنت من الأشباح .

ثم انهم يطلبون منا هنا أن نصمت ، ويضيفون قائلين اننا نحن المنفيين ، اذا رفعنا أصواتنا فى هـذه اللحظة ، أتحنا الفرصـة الملائمة لالقائنا خارج البلاد . ولسوف يحسنون صنعا . من العدل أن نخرج من البلاد فى اللحظة التى تدخلها أنت .

وسوف يكون فى هذه الحال لون من المجد للمطرودين . والأمر منطقى من الوجهه السياسية . فاضطهاد المنفيين أفضل ترحيب يعمل للنافى ، ويمكن قراءة ذلك فى كتابات مكيافيل ، أو فى عينيك .

أرق ملاطفة يمكن أن تقدم للخائن هى اهانة المخدوعين . والبصقة على وجه المسيح ، بسمة فى نظر يهوذا .

فليفعلوا ما يشاءون .

الاضطهاد . فليكن .

وأعلم أنه مهما كان هذا الاضطهاد ، ومهما كان الشكل الذى يتخذه . فانا سوف نستقبله بفخر وسرور ، وسوف نحييه فى الوقت الذى يحيونك فيه • وليس هذا بشيء جديد • ففى كل مرة صاح فيها الناس : سلام على قيصر ، أجاب صدى الصوت الآدمي قائلا : سلام أيها الالم

ومهما كان الاضطهاد ، فانه لن ينتزع من عيوننا ، ولا من أعين التاريخ ، ذلك الشبح القبيح الذى صنعته ، ولن يمحو من أمام ناظرينا مرأى حكومتك فى غداة الانقلاب ، وتلك الوليمة الكاثوليكية العسكريه ، وليمة تيجان الأساقفة وقلنسوات ضباط الجيش ، ذلك الجمع الخليط من المدرسة الاكليريكية ومن ثكنات الجنود فى لهو وقصف ، ذلك الهرج والمرج من أصحاب الثياب الرسمية المشتوسة ، وأصحاب الثياب الكهنوتية السكارى ، تلك الوليمة التى تضم الأساقفة وضباط الصف ، والتى لم يعد من فيها يعرفون ما يصنعون ، فيها يسب « سيبور » الدين ، ويتوسل « مانيان » ، ويقطع القس خبزه بالسيف ، ويشرب الجندى فى وعاء القربان ، لن يمحو من أمام ناظرينا أغوار مصيرك ، وخبو جذوة هذه الأمة العظيمة ، وانطفاء نور العالم ، وهذا الحزن ، وهذا الحداد ، وهذه اليمين الزور الكبيرة ، ومونمارتر ، الجبل القائم على أفقك المشئوم ، والغمام الثابت ، غمام الطلقات النارية فى « شأن دومارس » ، هناك آلات الاعدام ، الجيوتين ، التى رفعت مثلثاتها السود فى عام ١٨٥٢ ، وهنا ، تحت أقدامنا ، فى الظلام ، هذا المحيط الذى يحمل فى زبده جثث ضحاياك فى كايين •

آه ! لعنة المستقبل هى أيضا بحر ، وذكراك ، جثة بشعة ، سوف تتقلب أبدا فى هذه الأمواج المظلمة !

آه ، أيها التعس ! ألديك فكرة عن مسئولية النفوس ؟ ما هو غدك ، غدك على الأرض ، غدك فى القبر ؟ ماذا ينتظرك ؟ أتؤمن بالله ؟ من أنت ؟

ويعز على النوم أحيانا فى الليل — فسبات الوطن هو سهاد المنفى — فأنظر الى الفلك السرمدى ، وجه العدالة الأبدية ، وألقى على الظلال أسئلة عنك ، وأطلب الى ظلمات الاله رأيها فى ظلماتك ، وأرثى لك يا سيدى ، فى سكون الأبدية الرهيب •

(فيكتور هوجو)

الطرد من جيرسيى

٣

كان لوى بونابرت فى هذه الأثناء ، يجرى فى السر بعض المناورات ، وذلك على أثر التحذير الذى قرأناه بعاليه . وحرك فى هذا الصدد شخصا من النكرات فى مجلس العموم يحمل اسما مشهورا ، ذلك هو السير روبرت بيل الذى استخدم اللهجه الجدية التى نقرها السياسة ، وخاصة فى انجلترا ، فى التشهير بفيكتور هوجو ، وماتسينى (١) ، وكوسوث (٢)، وقال عن فيكتور هوجو : « لهذا الانسان نوع من النزاع الشخصى بينه وبين الشخصية الجليلة التى انتخبها الشعب الفرنسى ملكا له » . ويبدو أن لفظة « الانسان » هى الكلمة المناسبة . وثمة شخص يدعى مسيو دو ريبوكور ، استخدم هذه الكلمة فيما بعد ، فى مايو ١٨٧١ ، ليطلب طرد فيكتور هوجو من بلجيكا ، واستخدمها السيد بونابرت ليكنى بها عن ممثلى الشعب الذين نفاهم فى يناير ١٨٥٢ . وعندما أبلغ السيد « بيل » هذا فى تلك الجلسة التى انعقدت فى ١٣ ديسمبر ١٨٥٤ عن رسائل ونشرات فيكتور هوجو ، أعلن أنه يسأل وزراء الملكة عما اذا كانت هناك وسيلة لوضع حد لهذه الأعمال . وكانت بذرة الاضطهاد كامنة فى كلامه . ولم يهتم فيكتور هوجو بهذه الأشياء المختلفة ، واستمر فى أداء واجبه ، وحرك من فوق رأس الحكومة الانجليزية « رسالته الى لوى بونابرت » التى قرأناها آنفا . واحتدم الغضب ، ونشط الحلف الانجليزى الفرنسى فجأة ، وقام شرطة باريس بتمزيق ملصقات المنفى

---

(١) ماتسينى (جوزيبى) — (١٨٠٥ — ١٨٧٢) — وطنى ايطالى ، مؤسس جمعية سرية (ايطاليا الفتاة) ، استمر يحيك المؤامرات ، فى ايطاليا وسويسرا — نشر فى الكتب والمجلات مبادئه الثورية ، ونادى باقامة جمهورية ايطالية موحدة .. المترجم .

(٢) كوسوث (لويس) — (١٨٠٢ — ١٨٩٤) — بطل وثائر هنغارى ، لعب دورا خطيرا فى الثورة الهنغارية ، مارس ١٨٤٨ — صار فى أبريل ١٨٤٩ رئيسا للجمهورية الهنغارية الجديدة — فرالى تركيا حينما أطبقت القوات النمساوية والروسية على هنغاريا — وقضى بقية حياته فى المنفى — المترجم .

من فوق حوائط لندن · ومع ذلك ارتأى للحكومة الانجليزية أنه من الأصوب انتظار فرصة أخرى · ولم تلبث أن سنحت هذه الفرصة ، فقد نشرت فى لندن رسالة بليغة ، ظريفة ، سافرة موجهة الى الملكة ، وعليها توقيع فليكس بيان ، ونقلتها فى جيرسيى جريدة « لوم » (الانسان) — (انظر كتاب « رجال المنفى ») · وحدث الانفجار على اثر ذلك · وأبعد من جيرسيى بأمر الحكومة الانجليزية ثلاثة من المنفيين : ريبيرول ، محرر صحيفة « لوم » ، والكولونيل بيانتشيانى ، وتوماس · وتدخل فيكتور هوجو ، ورفع صوته دفاعا عنهم ·

(بيـان)

أبعد من جيرسيى ثلاثة من المنفيين ، ريبيرول ، الكاتب البليغ الشجاع ، وبيانتشانى ممثل الشعب الايطالى الشهم ، وتوماس ، سجين مون سان ميشيل الشجاع ·

العمل خطير ، فماذا هناك على ما يبدو ؟ الحكومة الانجليزية · وماذا هناك فى الباطن ؟ الشرطة الفرنسية · يد فوشيه تستطيع أن ترتدى قفاز كاستليريا ، وهذا العمل يثبت ذلك ·

لقد تدخلت حكومة الانقلاب فى الحريات الانجليزية · وانتهت انجلترا فى هذا الخصوص الى أن تنفى المنفيين · وخطوة أخرى تصير انجلترا بعدها من توابع الأمبراطورية الفرنسية ، وتصبح جيرسيى مقاطعة تابعة لمركز كوتانس ·

ورحل أصدقاؤنا ، ونفذ أمر الاقصاء ·

وسوف يقدر المستقبل هذا العمل ، ونحن انما نقتصر على تسجيله · اما أعمال العنف التى وقعت على أشخاصنا فانها تحملنا على الابتسام والسخرية ، بغض النظر عن الحق المعتدى عليه ·

الثورة الفرنسية مستمرة ، والجمهورية الفرنسية هى الحق ، والمستقبل أمر محتوم · ما أهمية كل ما عدا ذلك ؟ ثم ما هو هذا الاقصاء ؟ حلية أخرى تضاف الى النفى ، ثقب آخر فى العلم ·

فقط ، ليس هناك شبهة فى المسألة ·

واليكم ما نقوله ، نحن منفيى فرنسا ، لكم يا حكومة انجلترا · السيد بونابرت ، « حليفكم الوفى القوى » ، لا وجود له شرعى ، سوى أنه متهم بجريمة الخيانة العظمى ·

فمنذ أربع سنوات والسيد بونابرت تحت رحمة أمر بالضبط والاحضار موقع عليه من السادة آردوان رئيس المحكمة العليا ، والقضاة ديلابالم ، وباتاى ، ومورو (من السين) ، وكوش ، والى جانبهم توقيع رينوار النائب العام (١) ٠

لقد أقسم السيد بونابرت بصفته موظفا يمين الاخلاص للجمهورية ، وحنث فى يمينه ٠

وأقسم السيد بونابرت يمين الاخلاص للدستور ، وهدم الدستور ٠

وانتهك السيد بونابرت كل القوانين ، وهو الأمين على القوانين كلها٠

وسجن السيد بونابرت ممثلى الشعب المتمتعين بالحصانة ٠ وطرد القضاة ٠

واقترف السيد بونابرت ، ليفلت من أمر القبض والاحضار ما يقترفه الأشرار للافلات من الشرطة ، فقتل ٠

وضرب السيد بونابرت بالسيف والمدفع الرشاش ، وأعدم ، وذبح بالنهار ، وأطلق الرصاص بالليل ٠

وأعدم السيد بونابرت بالجيوتين كوينينيبيه ، وسيراس ، وشارليه المتهمين بتقديم المساعدة العسكرية فى تنفيذ أمر القبض والاحضار ٠

ورشا السيد بونابرت الجنود ، ورشا الموظفين ، ورشا القضاة ٠

وسرق السيد بونابرت أموال لوى فيليب الذى يدين له بحياته ٠

وحجز السيد بونابرت على الأموال ونهبها وصادرها ، وأرهب الضمائر ، وهدم الأسر ونفى السيد بونابرت ، وأبعد، وطرد ، وأقصى فى أفريقيا وفى كايين ، وأرسل الى المنفى أربعين ألف مواطن ، من بينهم الموقعون على هذا التصريح ٠

---

(١) حكم

بمقتضى المادة ٦٨ من الدستور ٠

تعلن محكمة العدل العليا ٠

أن لوى نابليون بونابرت متهم بجريمة الخيانة العظمى ٠

وتدعو هيئة المحلفين الوطنية الى محاكمته دون امهال ، وتكلف السيد المستشار رينوار بمهام النيابة العمومية لدى المحكمة العليا ٠

صدر فى باريس فى ديسمبر ١٨٥١ ٠

امضاء

آردوان ،رئيسا ، ديلابالم ، باتالى ، مورو (من السين) وكوشى (قضاة)

الخيانة العظمى ، اليمين الزور ، الحنث في اليمين ، رشوة الموظفين ، الحجر على المواطنين ، النهب ، السرقة ، القتل ، كل أولئك جرائم نصبت عليها كل القوانين ، لدى كل الشعوب ، تعاقب عليها انجلترا بالاعدام شنقا ، وتعاقب عليها فرنسا بالليمان ، فى حين ألغت الجمهورية عقوبة الاعدام ·

فمحكمة الجنايات تنتظر السيد بونابرت ·

ويقول له التاريخ ، منذ اليوم : قف ، أيها المتهم ·

والامبراطور المجرم هو جلاد الشعب الفرنسى ، وحليف الحكومة الانجليزية هذا ما نقوله ·

وهذا ما قلناه بالأمس ، وقالته معنا الصحافة الانجليزية برمتها ، وما سوف نقوله فى الغد ويقوله معنا الخلف بالاجماع ·

هذا ما سنقوله على الدوام ، نحن الذين لا نملك سوى روح واحدة . هى الحقيقة ، وكلمة واحدة ، هى العدالة ·

والآن فلتطردونا !

(فيكتور هوجو)

جيرسيى فى ١٧ أكتوبر ١٨٥٥

وأضيف الى توقيع فيكتور هوجو ثلاثة وثلاثون توقيعا من المنفيين ، هى : الكولونيل شاندور تيليكى ، أ · بوفيه ، بونيه دو فيردييه ، هينيه دوكيلر أرسين هايبيس ، البير باربيو ، روميلاك ، محسام ، أ · س · فيسنر ، ضابط نمساوى سابق ، دكتور جورنيه ، شارل هوجو ، ج·ب· أمييل (من أربييج) فرانسوا فيكتور هوجو ، ف · تافيرى ، تيوفيل جيران ، فرانسوا زيشون ، بنجامان كولان ، ادوار كوليه ، كوزييل ف · فانسان ، أ · بياسيكى ، جوزيب رانكان ، لوفيفر ، دكتور باربييه ، طبيب ، هـ · بريفيرو ، محكوم عليه بالاعدام فى انقلاب ، ديسمبر (أليبيه) دكتور فرانك ، منفى ألمانى ، بابوفسكى وزينو ، زفيتوسلافسكى ، منفيان بولنديان ، ادوار بيفى منفى ايطالى ، فومبيرتو ، الأب فومبيرتو ، الابن ، شاردينال ، بويار ، دكتور دوفيل ·

والفقرة التالية منقولة من كتاب « رجال المنفى » لشارل هوجو :

فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٧ أكتوبر ١٨٥٥ ، تقدم ثلاثة

أشخاص من دار « مارين تيراس » وطلبوا التحدث الى السيد فيكتور هوجو وابنيه ٠

وسأل السيد فيكتور هوجو أول الثلاثة قائلا : « من لى الشرف بمحادثته ؟ » ٠

ـ أنا ضابط سرطة سان كليمان يا سيد فيكتور هوجو ، مكلف من قبل صاحب السعادة حاكم جيرسيي بأن أخطركم بأنه بموجب الأمر الملكى، لم يعد بوسعكم الاقامة فى هذه الجزيرة وعليكم مغادرتها من الآن حتى يوم ٢ نوفمبر المقبل ٠ والباعث لهذا الاجراء الذى اتخذ بشأنكم هو توقيعكم بأسفل « البيان » الذى أعلن فى شوارع سان هيلييه ، ونشر فى صحيفة « لوم » ٠

ـ حسن يا سيدى ٠

وأبلغ ضابط الشرطة بعد هذا نفس الاخطار بنفس الصيغة السيدين شارل هوجو ، وفرانسوا فيكتور هوجو اللذين ردا عليه كما رد فيكتور هوجو ٠

وسأل السيد فيكتور هوجو الضابط عما اذا كان فى استطاعته أن يترك له نسخة من أمر الحكومة الانجليزية ٠ ولما أجاب السيد لينبفيو بالنفى ، وصرح بأن هذا الشىء غير متبع ، قال له السيد فيكتور هوجو :

ـ « أرى أننا نحن المنفيين نوقع وننشر ما نكتبه وأن الحكومة الانجليزية تخفى ما تكبته » ٠

وبعد أن أدى الضابط ومساعداه مأموريتهم جلسوا ٠

وواصل فيكتور هوجو الحديث فقال : « من الضرورى أيها السادة أن تعرفوا مرمى العمل الذى أديتموه منذ هنيهة بقدر من اللباقة وبأسلوب يسرنى أن أقر باتساقه التام ٠ ولست أحملكم أنتم مسئولية هذا العمل ، ولا أريد أن أسألكم رأيكم فيه ، وأنا واثق أنكم فى وجدانكم حانقون ومتكدرون بسبب ما كلفتكم السلطة العسكرية أداءه اليوم » ٠

وبقى الضباط الثلاثة ساكتين مطأطئى الرءوس ٠

واسترسل فيكتور هوجو :

ـ « لا أريد أن أعرف شعوركم ، فسكوتكم يحدثنى عنه بالقدر الكافى ٠ ان بين ضمائر الشرفاء قنطرة تنتقل من طريقها الأفكار دون حاجة الى أن تخرج من الفم ٠ ومع ذلك أكرر لكم القول بأنه لا بد من

أن تقدروا جيدا كنه العمل الذى نظنون أنكم قد أجبرتم على المساعدة فى تنفيذه · سيدى ضابط سرطة سان كليمان ، أنت عضو فى مجلس طبقات الأمة عن هذه الجزيرة · وقد انتخبك مواطنوك بطريق الاقتراع الحر · أنت ممثل شعب جيرسيي · فما قولك اذا بعث الحاكم العسكرى جنوده ذات ليلة للقبض عليك وأنت فى فراشك ، وألقى بك فى السجن ، وحطم بين يديك النفويض الذى عهد بك اليك ، وعاملك ، أنت ممثل الشعب كما لو كنت شر العباد ؟ ما قولك اذا صنع الشىء نفسه مع كل واحد من زملائك ؟ وليس هذا كل شىء · انني أفرض انه اراء هـذا الانتهاك للقانون اجتمع قضاة بلاطكم الملكى ، وأصدروا حكما يقضى بأن الحاكم متهم بجريمة الخيانة العظمى ، وعندئذ أرسل الحاكم شرذمة من الجنود قاموا بطرد القضاة من كراسيهم وسط مداولاتهم الرسمية · وأفترض أيضـا أنه أزاء هذه الاعتداءات يجتمع مواطنـوا جزيرتكم الشرفـاء فى الشوارع ، ويحملون السـلاح ، ويقيمون الحواجز ، ويباشرون المقاومة بالقوة باسم القانون ، وعندئذ تقوم حامية الحصن بناء على أمر الحاكم بضربهم بالبنادق الرشاشة · وأفترض أكثر من ذلك أنه ذبح النساء والأطفال والعجائز والمارة المسالمين العزل من السلاح طوال يوم كامل ، وأنه حطم أبواب المنازل بطلقات المدافع ، واخترق الحوانيت برصاص البنادق ، وقتل السكان وهم تحت أسرتهم بطعنات من حراب البنادق · لو فعل حاكم جيرسيي كل هذا ، فما قولكم ؟

وأنصت ضابط شرطة سان كليان الى هذا الكلام فى سكون عميق وارتباك واضح · واستمر صامتا بعد السؤال الذى وجه اليه · وكرر فيكتور هوجو سؤاله : « ما قولك يا سيدى ؟ أجب » ·

فأجاب السيد لينيبفو : أقول ان الحاكم يكون عندئذ مخطئا ·

ــ عفوا يا سيدى ، فلنتفاهم فى مدلول الكلمات · تقابلنى فى الشارع ، وتحييني ، وأنا لا أحييك · وتدخل منزلك وتقول : « السيد فيكتور هوجو لم يرد تحيتى فهو مخطىء » عظيم · وثمة طفل يخنق أمه ، فهل تكتفى بأن تقول انه أخطأ كلا ، ستقول انه مجرم · عظيم · وأنا أسألك : ألا يعتبر الرجل الذى يقتل الحرية ، ويذبح شعبا ، قاتلا لأهله ؟ ألا يعتبر مرتكبا جناية ؟ أجب ·

فقال الضابط :

ــ نعم يا سيدى أنه يرتكب جناية ·

ــ أسجل اجابتك يا سيدى الضابط وأستمر · عندما اعتدوا عليك وأنت تؤدى مهمتك التى وكلت لأدائها كممثل للشعب ، وطردت من

مقر عملك وسجنت ثم نفيت ، اعتكفت فى بلد يعتقد أنه حر ويتباهى بذلك • وكان أول عمل تؤديه هناك أن تفضح الجريمة وتعلق على الحوائط الحكم الذى أصدرته محكمتك والذى يقرر أن الحاكم متهم بالخيانة العظمى • وكان أول ما تعمله أن تنبىء كل الذين يحطيون بك ، والعالم بأسره لو استطعت ، بنبأ الجريمة الفظيعة التى رحت ضحيتها أنت وأسرتك وحريتك وحقوقك ووطنك • الست بهذا العمل يا سيدى الضابط ، تستخدم حقك ؟ بل انى أذهب الى أبعد من هذا فأقول : الست تؤدى واجبك ؟

وحاول الضابط أن يتحاشى الاجابة على هذا السؤال الجديد ، فتمتم يقول انه لم يأت ليناقش قرار السلطة العليا ، وانما هو قد أتى فقط لتبليغ القرار •

وألح فيكتور جوهو قائلا :

ـ « اننا نصنع فى هذه اللحظة يا سيدى صفحة من صفحات التاريخ يوما من الأيام • أجب اذن • الست تستخدم حقك ، وتؤدى واجبك ، عندما تحتج على الجريمة ؟

ـ نعم يا سيدى •

ـ ما رأيك اذن فى الحكومة التى ترسل اليك من أجل أدائك هذا الواجب المقدس ، أمرا بمغادرة البلد ، على يد ضابط يفعل معك ما تفعله معى اليوم ؟ ما رأيك فى الحكومه التى تطردك ، أنت المنفى ، وتبعدك أنت ممثل الشعب بسبب أدائك واجبك ؟ الا تعتقد أن هده الحكومة قد انحطت الى أدنى مدارج الخزى ؟ غير أننى أقنع فى هذه النقطة يا سيدى بسكوتك • أنتم هنا ثلاثة رجال شرفاء وأنا أعلم ، دون أن تتكلموا ما تجيبه به الآن ضمائركم » •

وغامر أحد مساعدى الضابط بابداء ملاحظة فى استحياء :

ـ سيدى فيكتور هوجو ، فى بيانك شىء آخر خلاف جرائم الأمبراطور •

ـ أنت مخطىء يا سيدى ، وحتى أقنعك بذلك ، أقرأ لك البيان •

وتلا فيكتور هوجو البيان ، وجعل يتوقف عند كل فقرة ويسأل الضباط الذين كانوا يستمعون اليه قائلا : أكان من حقنا أن نقول هذا ؟

فقال الضابط :

ـ ولكنك تعارض فى طرد أصدقائك •

فأجاب فيكتور هوجو :

ـ اننى أعارض فيه جهارا • ولكن أليس من حقى أن أقول ذلك ؟

الا تمتد حرية الصحافة فتشمل اباحة انتقاد أى اجراء تعسفى تقوم به السلطة ؟

فقال الضابط : بالتأكيد بالتأكيد ٠

ـ وقد أتيتم لابلاغى أمر الطرد بسبب هذا البيان ، هذا البيان الذى تقرون بأنه من واجبى عمله ، وتسلمون بأنه لا يتضمن أية عبارة تتخطى حدود حريتكم المحلية ، وأنكم خليقون بعمله لو كنتم فى مكانى ؟

فقال أحد الضابطين المساعدين : انه من أجل خطاب فيلكس بيات ٠

فاسترجع فيكتور هوجو مخاطبا الضابط : « معذرة ، ألم تقل لى اننى يجب أن أغادر الجزيرة بسبب توقيعى أسفل هذا البيان ؟ » ٠

وأخرج الضابط من جيبه مظروف الحاكم وفتحه وقال :

ـ بالفعل أنت مطرود بسبب البيان وحده ، لا لشىء آخر

ـ اننى أثبت هذا وأسجله أمام الموجودين هنا ٠

وقال الضابط للسيد فيكتور هوجو :

ـ هل لى أن أسألك يا سيدى عن اليوم الذى تعتزم مغادرة الجزيرة فيه ؟

وأتى فيكتور هوجو بحركة وقال : لماذا ؟ هل هناك اجراءات شكلية لا بد أن تجريها ؟ هل أنت فى حاجة الى أن تتبت أن أمر الطرد قد تم تبليغه على أفضل الوجوه وأكملها ؟

فأجاب الضابط :

ـ سيدى ، اذا كنت أرغب فى معرفة وقت رحيلك ، فانما لكى أحضر فى ذلك اليوم لأقدم لك احتراماتى ٠

(فقال فيكتور هوجو) :

ـ لا أعرف الآن اليوم الذى سوف أرحل فيه ٠ ولكن اطمئنوا فانى لن أتريث حتى انتهاء المهلة ٠ واذا استطعت أن أرحل فى ربع ساعة فسوف أفعل ٠ اننى أتعجل مغادرة جيرسيى ، فالأرض التى لم يعد فيها شرف انما تحرق قدمى ٠

وأردف فيكتور هوجو قائلا :

ـ والآن يا سيدى الضابط ، لك أن تنصرف ٠ وسوف تقدم تقريرا عن تنفيذ مهمتك لرئيسك الحاكم العسكرى الذى سوف يقدم عنه تقريرا لرئاسته وهى الحكومة الانجليزية التى سوف تقدم عنه تقريرا لرئيسها السيد بونابرت ٠

وفى يوم ٢ نوفمبر ١٨٥٥ غادر فيكتور هوجو جيرسيى ، وذهب الى جيرنسيى ٠ وفى هذه الأثناء تحركت مشاعر الشعب الانجليزى الحر ،

وجرت اجتماعات فى كل أنحاء بريطانيا العظمى ، واستاءت الأمة من طرد المنفيين من جيرسيى ، فوجهت لوما شديدا للحكومة · واحتجت انجلترا عن طريق لندن كما احتجت اسكتلندا فى جلاسجو · وشكر فيكتور هوجو الشعب الانجليزى ·

جيرنسيى ، أوتفيل هاوس فى ٢٥ نوفمبر ١٨٥٥
الى الانجليز

مواطنى الأعزاء فى الوطن الأوروبى الكبير ··

تسلمت من يدى أخينا فى الايمان ، الأخ الشجاع هارنى ، الرسالة التى تكرمتم بتوجيهها الى باسم لجنتكم ، وباسم اجتماع نيوكاسل وأشكركم من أجلها ، كما أشكر أصدقاءكم ، باسمى واسم زملائى فى الكفاح والنفى والتشريد ·

كان من المستحيل ألا يثير طرد المنفيين من جيرسيى استياء عاما فى انجلترا · فانجلترا أمة كريمة عظيمة تنبض فيها قوى التقدم الحية كلها ، وتدرك أن الحرية هى النور · ولكن ما جرى فى جيرسيى هو تجربة فى خفاء الليل وغارة الظلمات ، وهجمة بالسلاح شنها الطغيان ضد دستور بريطانيا العظمى الحر القديم ، وانقلاب سياسى أوقعته الامبراطورية بوقاحة فى قلب انجلترا · لقد تمت عملية الابعاد فى ٢ نوفمبر ، وهذا خطأ فى التوقيت ، اذ كان الواجب أن تتم فى يوم ٢ ديسمبر ·

رجائى أن تبلغوا أصدقائى أعضاء اللجنة وأصدقاءكم فى الاجتماع تأثيرنا الشديد بمظاهرتهم الحماسية النبيلة · ومن شأن هذه الأعمال أن تنذر وتوقف بعض حكامكم الذين يفكرون فى هذه الساعة أن يوجهوا الضربة الأخيرة للشرف الانجليزى القديم عن طريق قانون الأجانب المخزى·

ان مظاهرات ، مثل مظاهراتكم والمظاهرات التى جرت فى لندن ، وتلك التى يجرى الترتيب والاعداد لها فى جلاسجو تثبت الحلف وتقويه وتدعمه ، لا الحلف الباطل الكاذب المشئوم ، المفعم برماد مجلس الوزراء الانجليزى الحاضر ورماد الامبراطورية البونابرتية ، وانما الحلف الحقيقى الضرورى ، الأبدى ، حلف شعب انجلترا الحر ، وشعب فرنسا الحر .

وتقبلوا مع جزيل الشكر وأسمى معانى الاخاء القلبى ·

(فيكتور هوجو)

١٨٥٦

١

في يوم ٢٥ مايو ١٨٥٦ ، حين بدأ فيكتور هوجو يستقر في منفاه الجديد في جرنسبي ، تلقى من مانسيني الذي كان وقتئذ في لندن هذين السطرين :

« أسألكم كلمة لايطاليا · انها تميل في هذه اللحظة ناحية الملوك · نبهوها وقوموها » ·

(ج : مانسيني)

الى ايطاليا

أيها الايطاليون ، هذا الذي يتحدث اليكم أخ مجهول ، ولكنه مخلص· احترزوا مما يبدو أن المؤتمرات ومجالس الوزراء والدبلوماسيات تعده لكم في هذه اللحظة · لقد تحركت ايطاليا · وتجلى فيها دلائل التيقظ وصارت تزعج وتقلق الملوك الذين بدا لهم من الضروري تنويمها للحال · احترسوا ، انهم لا يريدون تهدئتكم ، فالتهدئة لا تكون الا باحقاق الحق ، انما هم يريدون أن تستغرقوا في سباتكم ، أن تموتوا · ومن ثم كانت الفخاخ · فحاذروا ومهما كان المظهر الخارجي ، لا تشردوا عن الحقيقة · الدبلوماسية هي الليل · ان ما يعالى لكم انما يدبر ضدكم ·

ماذا ! تنظيمات ، اصلاحات ادارية ، عفو شامل ، العفو عن بطولتكم ، شيء من التحرر الديني ، قليل من حرية الرأي · مجموعة من قوانين نابليون، الديمقراطية البونابرتية ، الخطاب القديم الموجه الى « ادجار نبي » وقد أعيد كتابته بالمداد الأحمر بدم باريس باليد التي قتلت روما ! هذا هو ما يقدمه لكم الأمراء ! وأنتم تعيرونهم الآذان ! وتقولون : لنقنع بهذا ، وتقبلون ، وتلقون السلاح ! وتؤجلون هذه الثورة المظلمة الجليلة الكامنة في قلوبكم ، والتي تسطع في عيونكم ! أهذا شيء ممكن ؟

سوف تنقشع فجأة وفى وقت واحد بالنسبة للكافة ، وأنه اذا كان الغد لنا فهو لكم ، وأنه فى اليوم الذى تظهر فيه فرنسا للعالم تظهر ايطاليا أيضـــا .

نعم ، أى من الشعبين ينهض أولا ، سوف يعمل على انهاض الشعب الآخر . نحن ، بتعبير أفضل ، شعب واحد ونوع بشرى واحد . أنتم الجمهورية الرومانية ، ونحن الجمهورية الفرنسية ، تسرى فينا نسمة حياة واحدة . ولا نستطيع نحن الفرنسيين أن نتوارى عن اشعاع ايطاليا كما أنكم أيها الايطاليون لا تستطيعون أن تتواروا عن اشعاع فرنسا . بيننا وبينكم ذلك التضامن الانسانى العميق الذى سوف تتولد منه الوحدة الشاملة وقت الكفاح ، والتآلف بعد النصر . أيها الايطاليون ، سوف يشهد المستقبل اتحاد أمم القارة الأوروبية ، كأخوات جليلات ، كل واحدة منهن متوجه بالحرية التى تتمتع بها سائر الأمم واخاء الأوطان فى داخل الوحدة الجمهورية العظمى .

لا تحولوا أنظاركم لحظة واحدة عن هذا المستقبل الرائع ، فالحل الأكبر قريب ، ولا تقبلوا أن يجرى لكم حل منفرد . احتقروا ما يعرضه الأمراء من التقدم بخطوات بطيئة متتابعة على هامش الحياة ، فنحن فى زمن الوثبات الهائلة التى نسميها ثورات . والشعوب تفقد أجيالا طويلة ثم تستعيدها فى ساعة واحدة . والاخصاب ، بالنسبة الى الحرية وفى نهر النيل ، هو الاغراق .

ليكن عندنا ايمان ، لا نريد أواسط الأمور ، ولا مهادنات ، ولا حلولا وسطى ، ولا أنصاف انتصارات . كيف ! أنقبل التنازلات بينما الحق معنا ، ونقبل معونة الأمراء ، بينما معونة الشعوب معنا ! فى هذا الضعف من التقدم نوع من التنازل . لا . لنطمح فى العلا ، ولنفكر تفكيرا صائبا ، ولنسر سيرا مستقيما . ولم تعد الأشياء التقريبية تكفينا . ولسوف يتم كل شىء ، يتم بخطوة واحدة وفى يوم واحد ، وومضة واحدة ، وصاعقة واحدة . ولنكن مؤمنين .

وعندما تدق ساعة الانهيار ، تلقى الثورة على أوروبا ، فجأة ،

وفى خط رأسى بقانونها الالهى ، دون اعداد ، ودون تحول ، شعاعها الوهاج العجيب الذى يبهر الأبصار ، شعاع الحرية والحماسة والنور ، فلا يترك للعالم القديم من الوقت الا ما يسمح له بالسقوط .

فلا تقبلوا شيئا من العالم القديم . انه ميت . وأيدى الجثث باردة ، فليس لديها ما تعطيه .

اخوانى ، عندما يكون الانسان من الجنس الايطالى القديم ، تجرى فى عروقه كل أجيال التاريخ الرائعة ، ودم الحضارة ، وعندما لا يكون الانسان مهجنا أو مفسود الأصل ، وعندما يكون قد استطاع أن يجد ، فى اليوم الذى أراده ، كل مستويات الماضى العظيمة ، وعندما يكون قد بذل المجهود الذى لا ينسى فى الجمعية التأسيسية ، والحكومة الثلاثية ، وعندما يكون قد أثبت بالأمس ــ وعام ١٨٤٩ انما هو الأمس ــ أنه جدير بروما ، عندما يكون الانسان فى مثل ما أنتم فيه ، فانه يشعر ، باختصار ، أنه يملك كل شئ فى داخل نفسه ، ويقول لنفسه انه يحمل خلاصة فى يده ومصيره فى ارادته ، ويزدرى عروض الأمراء ، ولا يرضى أن يأخذ أى شئ من أولئك الذين يجب أن يسترد منهم كل شئ .

وتذكروا فضلا عن ذلك ما على الأيدى الملكية والكهنوتية من بقع الوحل ونقط الدم .

تذكروا ألوان التعذيب والتقتيل والجرائم ، وكل صفوف الشهداء والضحايا ، والضرب بالعصى علنا أو فى السجن ، والمحاكم العسكرية ، ومحاكم الأساقفة ، ومحكمة البابا الاستشارية المقدسة فى روما ، ومحاكم نابولى الكبرى ، ومنصات الاعدام فى ميلانو ، وأنكونا ، ولوجو ، وسينيجال ، وايمولا ، وفائنزا ، وفيرارا ، والمقصلة ؛ وآلة ضغط الشرايين ، والمشنقة ، ومائة وسبعين عملية اعدام بالرصاص فى ثلاث سنوات باسم البابا فى مدينة واحدة هى بولونيا ، ثم حصن أوربان ، وقصر سانت آنج ، وايسكيا ، وبويريو التى لم تجد وسيلة للتخفيف من آلام المسجونين سوى تغيير موضع ربط السلاسل فى أجسامهم ، والحكام الذين لم يعودوا يعرفون عدد المنفيين ، والليمانات ، والسجون الانفرادية الضيقة ، والسجون السفلية المظلمة والقبور .

ثم تذكروا برنامجكم الرومانى العظيم الفاخر ، وكونوا له أوفياء ، ففيه الخلاص ، وفيه الأمان وليكن ماثلا أمام بصيرتكم تلك الكلمة القبيحة التى قالتها الدبلوماسية : ايطاليا ليست أمة ، ولكنها تعبير جغرافى .

ولا تجعلوا لكم سوى فكرة واحدة ، أن تعيشوا فى دياركم حياة خاصة بكم . أن تكونوا ايطاليا . ورددوا فى قرارة نفوسكم دون انقطاع

هذا الأمر الرهيب : طالما لم تكن ايطاليا شعبا ، فان الايطالى لن يكون رجلا ٠

أيها الايطاليون ، الساعة قادمة ، وأقول تمجيدا لكم انها قادمة على أيديكم ٠ انكم اليوم مصدر قلق كبير لعروش القارة الأوروبية ٠ ايطاليا هى البقعة التى يتصاعد منها أكبر قدر من الأدخنة الكبريتية فى أوروبا فى الوقت الحاضر ٠

نعم ، لم يبق لسلطان الوحوش والطغاة ، كبارا وصغارا سوى لحظات قلائل ، ونحن فى أواخر عهدهم ٠ تذكروا جيدا أنكم أبناء هذه الأرض المهيأة للخير ، المبيدة للشر ، التى يلقى عليهـا عملاقا الفكر الانسانى ميكيلانج ودانتى ظلالهما : ميكيلانج عن حساب الآخرة ، ودانتى عن عقاب الدنيا ٠

حافظوا على رسالتكم السامية ، كاملة ، طاهرة ٠

لا تقبلوا لأنفسكم التجزئة أو النقصـان ٠ لا نوم ، ولا خدر ، ولا خمول ، ولا أفيون ، ولا هدنة ٠ تحركوا ، تحركوا ، تحركوا ! واجب الجميع ، واجبكم وواجبنا ، هو التحرك اليوم ، والثورة فى الغد ٠

رسالتكم هادمة من جهة ، وبانية للحضارة من جهة أخرى ، وفى وقت واحد ٠ ومن المستحيل الا تتم ٠ لا يداخلكم ريب فى أن العناية الالهية سوف تخرج ايطاليا من هذه الظلمة عظيمة وقوية ، سعيدة وحرة ٠ انكم تحملون فى نفوسكم الثورة التى سوف تبتلع الماضى ، والبعث الذى سوف ينشىء المستقبل ٠ وهناك فى الوقت نفسه ، على جبين ايطاليا المهيب الذى نلمحه خلال الظلمات ، ومضات الحريق الحمراء ، وأضواء الفجر احتقروا اذن ما يبدو أن البعض يستعد لتقديمه اليكم ٠ حاذروا ، وآمنوا ، واحذروا من الملوك ، وتوكلوا على الله ٠

(فيكتور هوجو)

(جيرنسيى فى ٢٦ مايو ١٨٥٦)

٢

اليونان

الى السيد أندريه ريجوبولوس

تسلمت بمزيد التأثر جريدتكم الممتازة ، وأشكركم على ذلك من أعماق قلبى ، وانى أطالع جريدتكم باهتمام شديد ·

واصلوا العمل المقدس الذى أنتم من صانعيه البواسل · اعملوا فى سبيل وحدة الشعوب · اليــوم يجب أن تحلق روح أوربا وتحل فى النفوس محل روح القوميات القديمة · ومن واجب أمجد الأمم ، كاليونان وايطاليا وفرنسا أن تكون قدوة لغيرها غير أنه يجب عليها أولا وقبل كل شىء أن تجد نفسها · وأن تنتمى الى نفسها · يجب على اليونان أن تنتهى من اجلاء تركيا ، وعلى ايطاليا أن تهز النمسا ، وعلى فرنسا أن تمزق الأمبراطورية · وعندما تخرج هذه الشعوب العظيمة من أكفانها ، سوف تصيح قائلة : الوحدة ! أوروبا ! الانسانية !

ذلك هو المستقبل · وسوف يكون صوت اليونان من أقوى الأصوات وضوحا للأسماع وأمثالكم من الرجال خليقون بأن يجعلوا صوتها مسموعا· لقد كافحت منذ بضع سنوات مع أوائل المكافحين من أجل تحرير اليونان، وأشكركم لأنكم تذكرون هذا ·

لقد حملت اليونان وايطاليا وفرنسا الشعلة ، كل منها بدوره · وعليها الآن ، فى القرن التاسع عشر العظيم أن تسلمها الى أوربا ، مع احتفاظها باشعاعها · ولنصبح بالتدريج ، شعوبا وأفرادا ، أقل آنانية ، وأقوى رجولة وانسانية · نادوا : لتحى فرنسا ! فى حين أنادى أنا : لتحى اليونان !

أهنئك يا مواطن اسخيلوس وبيريكليس ، يا من ناضلت فى سبيل المبادىء الانسانية · انه لشىء بديع أن ينتمى الانسان لبلد النــور وأن يحمل فيه علم الحرية ·

وأصافحك من كل قلبى ·

فيكتور هوجو

جيرنسبى فى ٢٥ أغسطس ١٨٥٦

١٨٥٩

١

العفو الشامل

وانقضت السنون . وفى ختام ثمانى سنوات ، ارتأى للمجرم أنه من المناسب الافراج عن الأبرياء ، ومن ثم عفا القاتل عن قتلاه ، وأحس الجلاد بالحاجة الى العفو عن ضحاياه ، فأصدر قرارا بعودة المنفيين الى فرنسا . ورد فيكتور هوجو على قرار العفو الشامل .

(بيـان)

لم يكن أحد ينتظر منى أن أخصص لحظة واحدة فى الاهتمام بهذا الشيء الذى يسمونه العفو الشامل .

والواجب فى الموقف الحالى لفرنسا ، حسب رأيى ، هو الاحتجاج المطلق الدائم الذى لا يلين .

ولما كنت مخلصا للعهد الذى اتخذته مع ضميرى ، فانى سـوف أقاسم الحرية منفاها حتى النهاية . وسأعود ، عندما تعود الحرية .

فيكتور هوجو

أوتفيل هاوس فى ١٨ أغسطس ١٨٥٩

٣

جون براون

فى هذه الأثناء ، كانت دولة ديموقراطية أخرى على وشك ان ترتكب هى أيضا جريمة وبلغ أوروبا نبأ الحكم بادانة جون براون ، وتأثر منه فيكتور هوجو • وفى ٢ ديسمبر ١٨٥٩ ، فى تلك الذكرى السنوية التى استحضرت فى مخيلته كل صور الواجب وضروراته ، وجه الخطاب الذى نقرأه أدناه الى أمريكا عن طريق كل الصحف الحرة فى أوروبا •

الى الولايات المتحدة الأمريكية

عندما يفكر الانسان فى الولايات المتحدة الامريكية ، تنبثق فى الذاكرة صورة مهيبة ، صورة واشنجتون •

واليكم ما يحدث فى هــــذه اللحظة فى ذاك الوطـــن ، وطـــن واشنجتون •

فى ولايات الجنوب عبيد ، الأمر الذى يثير حفيظة الضمير المنطقى الظاهر لدى ولايات الشمال ، باعتباره اشد صنوف اللامعقولات بشاعة • وهناك رجل أبيض ، حر ، يدعى جون براون ، أراد أن يخلص هؤلاء العبيد حقا ، اذا كانت الثورة واجبا مقدسا ، فانما هى كذلك ضد الرق • وأراد جون براون أن يبدأ مهمة الخلاص هذه بتحرير العبيد فى ولاية فيرجينيا • وأطلق لهؤلاء الناس ، لهؤلاء الأخوة ، صيحة التحرير ، وهو الرجل الورع المتدين ، المتقشف ، المؤمن بالانجيل • ولم يستجب العبيد الذين أنهكهم الرق ، فالعبودية تؤدى الى صمم النفس • وناضل جون براون الذى أهمله الناس ، ناضل ومعه حفنة من الرجال الأبطال •

وانهال الرصاص على بدنه ، وسقط ولداه الصغيران شهيدين طاهرين الى جانبه • وقبض عليه • هذا هو ما يسمونه قضية « هاربرز فيرى » •

وبعد أن قبض على جون براون ، حوكم ومعه أربعة من أنصاره : ستيفنز ، وكوب ، وجرين ، وكوبلاندز •

فكيف كانت تلك القضية ؟ لنتحدث عنها فى كلمتين :

كان جون براون ممددا على سرير من الجلد ، وبجسده سبعة جروح لم تلتئم ، رصاصة فى ذراعه ، واخرى فى خاصرته ، واثنتان فى رأسه ، وأثنتان فى صدره ، يسمع بصعوبة ، ودماؤه تنزف خلال فراشه ، وشبحا والديه الميتين الى جواره ، وزملاؤه الأربعه المتهمون معه مجروحون وممددون بجانبه : ستيفنز وفى جسمه أربع طعنات بالسـيوف • و « العدالة » متعجلة ، فلا تعير هذه الأمور أى اهتمام • وثمة مدع عام يسمى « هنتر » يريد أن يتصرف بسرعة ، وقاض يدعى باركر يوافق على ذلك • المداولات تبتر ، والمهل كلها ترفض ، والمستندات المزوره أو المشوهة تقدم ، وشهود النفى يبعدون ، والدفاع يعطل ، ومدفعان رشاشان معبئان فى فناء المحكمة ، وأمر صادر للسجانين باطلاق الرصاص على المتهمين اذا حاول البعض خطفهم ، ومداولة تستمر أربعين دقيقة ، وثلاثة أحكام بالاعدام • وأؤكد بشرفى أن مثل هذا الشىء لم يحدث أبدا فى تركيا ، وأنما حدث فى أمريكا •

مثل هذه الأمور لا تحدث فى العالم المتحضر دون عقاب • فالضمير العالمى عين مفتوحة • ولاشك أن قضـاة شارلستاون وهنتر وباركر والمحلفون الذين يمتلكون عبيدا ، وكل سكان فيرجينيا ، يفكرون فى ذلك فهناك من يراهم •

وأنظار أوروبا مثبتة فى هذه اللحظة على أمريكا •

وكان من المفروض ، بعد الحكم بالاعدام على جون براون أن ينفذ فيه الحكم يوم ٢ ديسمبر (هذا اليوم نفسه) •

ويصل نبأ فى هذه اللحظة ، يقول أنه قد تقرر تأجيل التنفيذ ، فيعدم يوم ١٦ • والفترة قصيرة • فهل هناك الى ذلك الحين ، وقت لابلاغ صيحة الرحمة الى اسماع الناس ؟ •

مهما يكن من الأمر ، فالواجب رفع الصوت •

وقد يتقرر تأجيل ثان فى أعقاب الأول • ان أمريكا أرض نبيلة •

والشعور الانساني يستقظ بسرعة في بلد حر . ونحن نأمل أن ينقذ براون .

فاذا حدث خلاف ذلك ، اذا مات جون براون فى ١٦ ديسمبر على منصة الاعدام ، كان ذلك أمرا رهيبا .

ونحن نعلن جهارا (فالملوك يمضون ، والشعوب تأتى ، ومن واجبنا أن نخبر الشعوب بالحقيقة) ، نعلن أن جلاد براون لن يكون المدعى العام هنتر ولا القاضى باركر ، ولا الحاكم وايز ، ولا ولاية فرجينيا الصغيرة ، وانما سيكون ـ وانى لارتعد حين أقول ذلك وأفكر فيه ـ ستكون الجمهورية الأمريكيه العظيمة بأسرها .

وازاء مثل هذه الكارثه ، كلما ازداد حب الانسان لهذه الجمهورية، وتوقيره لها ، واعجابه بها ، ازداد انقباض قلبه . ولا يليق بولاية واحدة أن تلطخ بالعار سائر الولايات . ولابد بداهة ، فى هذه المسألة من تدخل فيديرالى ، والا أصبح الاتحاد مشاركا فى الاثم ، مادامت هناك جريمة سترتكب وفى الامكان منعها . ومهما كان سخط الولايات الشمالية الكريمة ، فان ولايات الجنوب تشركها فى العار الذى يقترن بمثل هذا الاعدام ، ونحن جميعا ، مهما كنا نحن الذين ننتمى الى وطن مشترك ، هو رمز الديموقراطية ، نشعر بأن هذا الأمر قد مسنا ، وأننا أصبحنا بنوع ما معرضين للخطر . فاذا أقيمت المشنقة فى ١٦ ديسمبر ، فان اتحاد العالم الجديد العظيم ، أمام التاريخ الذى لا يمكن تشويهه ، سوف يضيف من اليوم ، الى كل تضامناته المقدسة ، تضامنا دمويا ، وسوف تكون أنشوطة حبل مشنقة جون براون هى رباط الحزمة الضوئية التى تشع من هذه الجمهورية البهية .

وهذا الرباط قاتل .

وعندما نفكر فيما حاول براون ، ذلك المحرر ، جندى المسيح ، ونفكر فى أنه سيموت ، ويموت مشنوقا بأيدى الجمهورية الأمريكية ، نجد أن الجريمة سوف تتخذ أبعاد الأمة التى تقترفها . وعندما نقول لأنفسنا ان هذه الأمة هى فخر الجنس البشرى ، وأنها كفرنسا وانجلترا وألمانيا ، عضو من أعضاء الحضارة ، بل وانها تفوق أوروبا أحيانا فى بعض الأعمال الجليلة الجريئة فى ميدان التقدم ، وانها قمة عالم بأسره ، تحمل على جنبيها نور الحرية الشاسع ، عندئذ يتأكد لنا أن جون براون لن يموت اذ أننا نتراجع مذعورين أمام مثل هذا الجرم الكبير الذى يرتكبه مثل هذا الشعب العظيم .

وقتل براون ، من وجهة النظر السياسية خطأ لا يمكن اصلاحه . سوف يسبب للاتحاد (الامريكى) صدعا خفيا ينتهى بانفصامه · وقد يكون من المحتمل أن يؤدى اعدام براون الى تدعيم الرق فى فيرجينيا ، والكن من المؤكد أنه سوف يزعزع الديموقراطية الأمريكية كلها · انكم تنقذون عاركم ، ولكنكم تقتلون مجدكم ·

ويبدو ، من وجهة النظر الأخلاقية ، أن قسما من نور الانسانيه سوف يحتجب ، وأن فكرة العدل والظلم سوف تصبح قاتمة حالكة فى اليوم الذى نشهد فيه اعدام « الخلاص » بأيدى « الحريه » ·

أما أنا ، ولست سوى درة ، ولكنى أملك ، كسائر الناس ، ضمير الانسانية كلها ، فانى أركع ، والدموع ملء عينى أمام العلم ذى النجوم ، علم الدنيا الجديدة ، وأتوسل بيدين مضمومتين ، وباحترام بنوى عميق الى تلك الجمهورية الأمريكيه المجيدة أن تتغيا سلامه قانون الأخلاق ، وتنقذ جون براون ، وتهدم منصة الاعدام التى تهدد باعدامه فى ١٦ ديسمبر ، والا نسمح بارتكاب جريمة قتل الانسان لأخيه الانسان . تحت أنظارها ، بل وأقول وأنا أرتجف : بخطئها تقريبا ·

نعم ، فلتعلم امريكا ، ولنتأمل ، أن هناك سيئا أفظع من قتل قابيل أخاه هابيل · هذا هو واشنجتون يقتل سبارتاكوس (١) ·

فيكتور هوجو

اوتفيل هاوس فى ٢ ديسمبر ١٨٥٩

شنق جون براون · وألف له فيكتور هوجو هذه العبارة · لتكتب على قبره : Pro Christo Sicut Christus كالمسيح ، ومن أجل المسيح وبموت جون براون ، تتحقق نبوءة فيكتور هوجو · فبعد انقضاء سنتين على النبوءة التى قرأناها بعاليه ، « انفصم » الاتحاد الأمريكى ، وانفجرت الحرب الفظيعة بين الجنوبيين وبين الشماليين ·

---

(١) زعيم العبيد الدين ثاروا ضد روما ، قتل فى عام ٧١ ق·م بعد أن صمد سنتين فى وجه القوات العسكرية ــ المترجم ·

١٨٦٠

١

العودة الى جيرسيى

فى يوم ١٨ يونيه ١٨٦٠ ، شوهد شيء غريب فى جيرسى ، اذ عطيت الحوائط كلها بملصقات كتبت عليها عبارة : « وصل فيكتور هوجو » لقد طردت جيرسيى فيكتور هوجو منذ خمس سنوات ، أما اليوم فقد خرج سكان جيرسيى عن بكرة أبيهم ، فى أبهى ثيابهم يحيون فيكتور هوجو فى شوارع سان هيلييه ·

واليكم ما حدث

كان ذلك ابان حمله « الألف » الرائعة التى بهرت أوروبا · وليس فى التاريخ فترات توقف ، فمحررو الشعوب يتعاقبون ويتشابهون ، ولكن أقدارهم تختلف · فبعد جون براون يأتى جاريبالدى · والمطلوب مساعدة جاريبالدى فى مشروعه العظيم · ونظم فى انجلترا اكتتاب عام على نطاق واسع · وفكرت جيرسيى فى فيكتور هوجو ، واعتقد الناس أن كلمة منه خليقة بأن تدفع عجلة الاكتتاب · وأصبحت الجزيرة كلها الآن خجلى من الطرد الذى تم فى عام ١٨٥٥ · وأتى وفد على رأسه السيدان فيليب آسبليت ، وديربيشاير الى فيكتور هوجو ومعه دعوة موقع عليها بامضاء خمسمائة من أعيان جيرسيى يرجونه فيها العودة الى الجزيرة ، والتحدث من أجل جاريبالدى · وفى ١٨ يونية ١٨٦٠ عاد فيكتور هوجو الى جيرسيى ووسط حشد كبير من جمهور متأثر ، ألقى الحديث الذى نقرأه فيما يلى :

أيها السادة

هأنذا استجيب لندائكم · اننى أذهب الى مكان يقام فيه منبر يدعونى اليه من أجل الحرية ، فتلك فطرتى ، وأقول الحق ، هذا واجبى (هتافات – اسمعوا ، اسمعوا !) ·

ها هى الحقيقه : انه من غير المسموح لأى انسان أن يتهاون فى الأمور الكبرى التى تجرى فى هذه الآونه ، وأنه يلزم للعمل الجليل الذى يستهدف الخلاص العام الشامل والذى ابتدأ اليوم مجهـــود الجميع . ومشاركه الجميع ، ومعاونه الجميع ، وأنه لا يجوز لأذن أن تغلق ، ولا لقلب أن يصمت ، وانه فى كل مكان ترتفع فيه صيحة الشعوب كلها . يجب أن يتردد صدى هذه الصيحات فى صدور الناس كلهم ، وان على كل انسان لا يملك غير فلس واحد ، أن يقدمه لمحررى الشعوب ، وأن على كل انسان لا يملك سوى حجر واحد أن يلقيه على الطغاة (تصفيق) .

فليتحرك البعض ، وليتكلم البعض الآخر وليعمل الجميع ! نعم ، هيا الى العمل جميعا ! الريح تهب . وليكن تشجيع الناس للأبطال بهجه للنفوس ! ولتحمر وجوه الناس حماسة وكأنها السعير الملتهب . وعلى الذين لا يقاتلون بالسيف أن يقاتلوا بالفكرة ! ولا يبقى ذكاء خاملا ، ولا يبقى عقل متعطلا ! وليشعر أولئك الذين يناضلون أن الجميع ينظرون اليهم ويحبونهم ويعضدونهم ! وليكن حول ذلك الرجل الباسل الواقف هناك فى بالبرمو نار فوق كل جبال صقلية ونور فوق كل قمم أوروبا .

لقد نطقت منذ هنيهة بكلمة « الطغاة » فهل بالغت فى قولى ؟ هل نلبث حكومة نابولى ؟

لندع الكلام . واليكم الوقائع .

انتبهوا . ان ما سأقوله شىء من التاريخ الحى ، ونستطيع أن نقول أنه من التاريخ الدامى (هتاف : اسمعوا !) .

مملكة نابولى ـ التى نهتم بأمرها فى هذه اللحظة ـ ليس بها سوى هيئة واحدة ، هى هيئة الشرطة ، فكل مقاطعة بها « لجنة الضرب بالعصا » وهناك شرطيان: أجوسا ، ومانيسكالكو ، يحكمان تحت امرة الملك . فأجوسا يضرب نابولى بالعصا ومانيسكالكو يضرب صقلية . ولكن العصا ليست الا اسلوبا تركيا ، أما هذه الحكومة فانها تملك فوق ذلك اسلوب محاكم التفتيش والتعذيب . اسمعوا . هناك شرطى يدعى برونو . يربط المتهمين ورءوسهم بين سيقانهم حتى يعترفوا . وشرطى آخر اسمه بونتيللو يجلسهم على مشواة ويشعل نارا تحتها . وهذا ما يسمونه « الكرسى الملتهب » . وشرطى آخر اسمه لويجى مانيسكالكو ، من أقارب الرئيس اخترع آلة يدخلون فيها ذراع المحكوم عليه ، ثم يديرون لولبا . فينسحق العضو . ويسمى هذا الشىء «الآلة الملائكية» . وشرطى آخر يعلق الرجل بذراعيه من حلقتين على جدار ، ومن قدميه على الجدار المقابل ، وبعد ذلك يقفز

فوق الرجل ويفسخه · وهناك الأصفاد التى تسحق أصابع اليد · وهناك آلة الضغط على الرأس ، وهي عبارة عن دائرة من حديد تضغط بواسطة مسمار لولبى (قلاووظ) ، فتجحظ العينان وتبرزان من المحاجر · ويفر بعض المحكوم عليهم أحيانا · فتمة رجل يدعى كازيميرو أرسيمانو ، هرب ، فقبض على زوجه وأولاده وبناته وأجلسوا مكانه على « الكرسى الملتهب » · وبجوار راس « زافيرانا » شاطىء مهجور ، والى هذا الشاطىء احضر بعض الشرطة أكياسا بداخلها رجال ، وجعلوا يغطسون الكيس تحت الماء ، ويبقونه هكذا حتى يكف عن الحركة ، ثم يخرجون الكيس ويقولون للمخلوق الموجود بداخله : اعترف ! فاذا رفض أعادوا تغطيسه · وعلى هـــذا النحو مات جيوفانى فنبا من مسينا · وفى موزيال ، اتهم شيخ مسن وابنته بميولهما الوطنية ، فمات الشيخ مجلودا بالسوط ، أما ابنته وكانت حبلى ، فانها جلدت وهي عارية حتى ماتت · سادتى ، هناك شاب فى العشرين من عمره ، هو الذى يقترف هذه الأفعال · هذا الشاب اسمه فرانسوا الثانى · وهذا الأمر يجرى فى بلد تيبيير (١) (هتافات) أهذا شىء ممكن ؟ انه حقيقى والتاريخ ؟ عام ١٨٦٠ ، السنة التى نحن فيها · أضيفوا الى ذلك حادث الأمس ، فقد دكت باليرمو بالقنابل ، وغرقت فى الدماء ، وقتل سكانها — وأضيفوا ذلك العرف الرهيب ، عرف ابادة المدن ، الذى يبدو انه هوس مسعور فى أسرة من الأسر ، وأنه سوف يغير فى التاريخ بصورة قبيحة ، اسم تلك السلالة الملكية من « بوربون » الى « بومبا » (هتافات) · نعم ، شاب فى العشرين ، الذى يرتكب كل هذه الأعمال المشئومة · سادتى ، أعترف بأننى أشعر بشفقة شديدة كلما فكرت فى هذا الملك الصغير التعس · يا للظلمات ! هذا التعس يقتل ويعذب ، وهو فى السن التى يحب فيهـــا الانسان ، ويؤمن ، ويأمل · هاكم مايفعله القانون الالهى بنفس شقية · فالقانون الالهى يستبدل بكل الشمائل الكريمة فى الشبيبة والبداية ، أهوال الشيخوخة والنهـــاية ، ويجعل العـــرف الدموى قيدا على الأمير والشعب ، ويكدس على عاتق المرتقى الجديد للعرش تأثيرات الأسرة · ويالها من أشياء رهيبة ! فلو نزعنم أجريبين (٢) من نيرون ، وسلختم كاترين دى

---

(١) ثانى امبراطور رومانى — ولى الحكم عام ١٤ ميلادية — كان كفئا وبارعا ولكنه عاس ، ويرتاب فى الناس — المترجم ·

(٢) أم نيرون · كانت على درجة كبيرة من الدهاء والطموح ، ولا ضمير لها · تزوجت للثالث مرة الامبراطور كلوديوس ، وجعلته يتبنى ولدها ، ثم سمته ، وأقامت مكانه على العرش ابنها نيرون · ولكن نيرون لم يحتمل طويلا سيطرتها ونفوذها ، فقتلها بيد أحد قادة الجيش — المترجم ·

ميديسيس (١) (دى مديشى) من شارل التاسع ، لما كان هنـاك على الارجح شارل التاسع ، ولا نيرون · وفى نفس اللحظة التى يقبض فيها وريث القانون الالهى على صولجان الملك ، يرى مصاصى الدماء أجوسـتا ومانيسكالكو مقبلين عليه · والتاريخ يعرف هذين الشخصين اللذين يطلق عليهما أيضا اسمى نارسيس وباللاس ، أو فيلروا وباسيليه · ويستولى هذان الشبحان على الطفل المسكين المتوج · ويؤكد له « التعذيب » أنه هو الحكومة ، وتعلن له « عقوبة الضرب بالعصا » أنها السلطة ، وتقول له الشرطة : اننى آتية من عل · ويطهرونه على الجهة التى خرج منها . ويذكرونه بأبى جده فيرديناند الأول الذى قام : العالم يحكمه ثلاثة تبدأ أسماؤهم بحرف ف : فيستا ، وفارينا ، وفوركا (٢) ، وبجده فرانسوا الأول ، رجل الكمائن ووالده فيرديناند الثانى ، رجل المدافع الرشاشه · فهل يريد أن ينكر آباءه ؟ ويثبتون له أنه يجب أن يكون شرسـا بحكم الوفاء البنوى ، فيطيع ؟ ويذهله ما فى السلطة المطلقة من خمول وعلطه · فهناك على هذه الصورة أطفال بشعون · وعلى هذا النحو ، وبصورة خصبة مع الأسف ، يواصل الملوك الشبان ضروب الاستبداد القديمة (حركة استنكار متصلة) ·

لابد من تخليص هذا الشعب ، بل أكاد أقول انه لابد من تخليص هذا الملك · لقد تكفل جاريبالدى بذلك (هتافات استحسان) ·

جاريبالدى · من هو جاريبالدى هذا ؟ انه رجل ، لا أكثر من ذلك · ولكنه رجل بكل ما فى الكلمة من معان سامية · رجل الحرية ، رجـل الانسانية ، « فير » (الرجل كامل الرجوله) كما يقول مواطنه فيرجيل ·

معه جيش ؟ كلا حفنة من المتطوعين · ألديه ذخيرة حربية ؟ كلا بالمرة · بارود ؟ بضعة براميل · مدافع ؟ نعم ، مدافع الأعداء · ما هى قوته اذن ؟ ما الذى يجعله ينتصر ؟ ما الذى معه ؟ روح الشعب · انه يمضى ، ويجرى · مسيرة سحابة من لهب · والنفر القليل من رجاله يصعقون الكتائب · فى أسلحته الضعيفة سحر ، ورصـاص غدارته يصمد أمام كرات المدافع · الثورة معه · ومن حين لآخر ، فى هرج المعركة

---

(١) ولدت فى فلورنسا (١٥١٩ ــ ١٥٨٩) زوجة هنرى الثانى . والدة فرانسوا الثانى وشارل التاسع وهنرى الثالث ، سياسية قديرة وانما قاسية · حاولت أن تحكم مع اقامة التوازن بين البروتستانت والكاثوليك خلال الحروب الدينية · كان لها النصيب الأكبر فى مذبحة سانت بارتليمى ــ المترجم ·

(٢) العنف ، والدقيق ، والمدراه (المشنقة) ــ المترجم ·

والدخان والبرق ، يظهر حلقه الالهه ، وكأنه أحـــد أبطال هوميروس (هتاف) ٠

ومهما كانت ضراوة المقاومة ، فان هذه الحرب مدهشة ببساطتها ٠ انها هجوم رجل واحد على مملكة ، وافراد جماعته يتواثبون حوله ٠ النساء يلقين اليه بالزهور ، والرجال يقاتلون وهم ينشدون ، وجيش الملك يفر ٠ كل هذه المغامرة عمل بطولى حساس ٠ انها عمل ساطع ، خلاب ورائع ، مثل هجوم النحل ٠

تعجبوا لهذه الخطوات اللألاءة ٠ وانى لأنبأ بأنه ما من خطوة منها تخيب فى آجال المستقبل المحتومة ٠ هناك باليرمو بعد مارسالا ، وميسينا بعد باليرمو ، ونابولى بعد ميسينا ، وروما بعد نابولى ، وفينيسيا بعـد روما . وكل شيء بعد فينيسيا (تصفيق حماسى) ٠

سادتى ، الله هو مثير الزلزال الذى يرج صقليه التى تشهد اليوم فوقها شعلة الوطنية والايمان والحرية والشرف والبطولة . وهى تتوهج ونوره يحجب سناها بريق (بركان) اطنا !

نعم ، هذا لابد أن يكون ، وانه لشيء رائع أن تصدر هذه العبرة الى العالم من أرض الفورانات البركانية (هتافات استحسان) ٠

آه ، ما أجمله من شعب عندما تحين الساعة ! وما أبدع هذا اللغط ، وهذه الثورة ، وهذا الاغضاء عن المصالح الدنيئة والهواجس المنحطة فى نفس الانسان ، وهؤلاء النسوة اللواتى يدفعن أزواجهن ويقاتلن بأنفسهن وهؤلاء الأمهات اللواتى يصحن فى أولادهن قائلات : اذهبـــوا ! وتلك الفرحة ، فرحة الاندفاع طلبا للسلاح ، والتنفس والوجود ٠ وهـــذه الصيحة الصادرة من الجميع ، وهذا الضوء الفسيح عند الأفق ! لم يعد أحد يفكر فى الاثراء ، أو الذهب ، أو البطون ، أو المنح ، أو البلادة التى تسود حفلات القصف والخلاعة ٠ الناس خجلون ، ومتشامخون ، يرفعون الهامات ٠ وهذا المحصا المترفع على الرءوس يستـــفز الطغاة ٠ صفوف الهمجية تتلاشى ، وضروب الطغيان تتهاوى ، والضمائر ترفض ألوان العبودية ٠ وأصحاب البارثينون (اليونانيون) يزعزعون أصحاب الهلال (الأتراك) ٠ وتنصب المنيرفا (١) جادة فى ضوء الشمس وحربتها فى يدها ٠ وتنفتح القبور ، وينادى الناس بعضهم على بعض ، من قبر الى قبر ٠ ابعثوا الموتى ، انه لشيء أقوى من الحياة ، انه التأليه ٠ آه ! انها

(١) ابنة جوبيتر (سيد الأرباب فى أساطير اليونان) ، الهة الحكمة والفنون ــ المترجم ٠

لخفقه قلب الهية • وينعزى الأبطال القدامى المغلوبون على أمرهم ، وتمتلىء عيون الفلاسفة المنفعين بالدموع عندما يغضب من انحط قدره ، وينهض من سقط . وتظهر الأمجاد الرائلة ، تظهر من جديد رائعة مرعبة . وعندما تعود استانبول فتصبح بيزنطة . وتعود سيتينلاه فتصبح أثينا ، ونعود روما فتصبح روما ! (هتافات مضاعفة) •

ونحن جميعا ، أيا كنا • نصفق بأيدينا لايطاليا • فلنمجد تلك الأرض ذات الانتاجات العظيمة ، الأم الحلوب • فى مثل هذه الأمم تبدو بعض العقائد المجردة مرئية واقعية • أنها أمم عذراء من حيث الشرف ، وأمهات من حيث التقدم •

أنتم يا من تستمعون الى ، هل تتصورون هذا المنظر الرائع ، منظر ايطاليا الحرة ؟ حرة ! حرة من خليج تارنت الى بحيرات سان مارك ، فأنا أؤكد لك يا مانين (١) فى قبرك ، أن فينيسيا سـوف تشارك فى هذا الاحتفال ! قولوا ، هل تتصورون هذا المنظر الذى سوف يكون فى الغد حقيقة واقعة ؟ انتهى ، لقد تلاشى كل ما كان كذبا ووهما ورمادا ولبلا • ايطاليا كائنة • ايطاليا هى ايطاليا • وحيثما وجد مصطلح جغرافى وحدت أمة . وحيثما وجدت حنة وحدت روح ، وحينما وجد طيف ، يوجد ملاك ملاك الشعوب الهائل ، الحرية واقفا مبسوط الجناحين • لقد استيقظت ايطاليا ، الميتة العظيمة • انظروا اليها ، انهـا تنهض وتبتسم للجنس البشرى ، وتقول لليونان : انا ابنتك • وتقول لفرنسا : أنا أمك • ويلتف حولها شعراؤها وخطباؤها وفنانوها وفلاسفتها ، وكل هؤلاء الناصحين الهادين للبشرية ، وكل آباء المعرفة العالمية ، وكل أعضاء السيناتو عبر القرون • والى يمينها والى يسارها ذانكم الرجلان العظيمان الرهيبان : دانتى وميكيلانج • آه ، ما دامت السياسة تحب هذه الكلمات ، فان فى ذلك أجل المنجزات • ياله من نصر ! ياله من فعل ! ما أفخم تلك الظاهرة ، ظاهرة الوحدة التى تجتاز فى ومضة واحدة تلك المجموعة الرائعة من المدن الشقيقة : ميلانو وتورينو وجنوا وفلورنسا وبولونيا وبيزا وسيينا وفيرونا وبارما وبالبرمو وميسينا ونابولى وفينيسيا وروما ! وتهب ايطاليا واقفة وتسير قدما — Patuit dea « انتشرت الآلهة » وتسطع ، وتنقل الى التقدم العالمى كله الحمى العظيمة البهيجة التى تتميز بها عبقريتها • وسوف تتكهرب أوروبا بهذا البريق العجيب • ولن تكون النشوة فى أعين الشعوب ، والضياء الساطع على الجباه ، والفرح • والانبهار بسبب هذا

---

(١) مانين (دانييل) — (١٨٠٤ — ١٨٥٧) — وطنى ايطالى ، ولد فى البندقية ، وصار رئيسا لجمهوريتها ، فى عام ١٨٤٨ ، من ألد أعداء السيطرة النمساوية — المترجم •

النور الجديد على الأرض بأقل سدة مما لو ظهر نجم جديد فى السماء
(مرحى مرحى !) ٠

سادتى ، اذا أردنا آن نحيط علما بما يجرى اعداده ، وبما يجرى فى الوقت نفسه ، كان علينا الا ننسى أبدا أن جاريبالدى رجل اليوم ، ورجل الغد ، هو أيضا رجل الأمس ، فقد كان جندى الجمهورية الرومانية قبل أن يكون جندى الوحدة الايطالية ٠ وفى أعيننا وأعين كل من يدرك التعرجات الضرورية التى يتخذها التقدم وهو ماض صوب هدفه ، وبدرك تقلبات الفكرة التى تتطور حتى نعود الى الظهور ، نجد أن عام ١٨٦٠ هو استمرار لعام ١٨٤٩ (ضجة) ٠

ما أعظم محررى الشعوب ، فلينبعهم فى انتصاراتهم هتاف الشعوب لهم اقرارا بفضلهم ! بالأمس كانت الدموع ، واليوم نشيد المجد لله ٠ والله قادر على اعادة توازن الأمور على هذا النحو ٠ انهار « جون براون » فى أمريكا ، ولكن جاريبالدى ينتصر فى أوروبا ٠ والانسانية التى أسست أمام مشنقة شارلستاون المخزية ، تقر عينا أمام سيف كاتا لافيمى البراق (مرحى !) ٠

اخوانى فى الانسانية ، هذى ساعة الفرح والعناق ، فلندع جانبا كل الفروق الطفيفة الشاذة ، والخلافات السياسية ، وهى هينة فى هذه اللحظة ٠ ولنثبت أنظارنا فقط فى هذه الدقيقة القدسية التى نمر بها ، على هذا العمل المقدس ، الهدف المهيب ، وهذا الشفق الفسيح الذى يغطى الأمم المتحررة ، ولنمزج أرواحنا كلها فى تلك الصيحة الهائلة الجديرة بالجنس البشرى وبالسماء : لتحى الحرية ! نعم ، ما دامت أمريكا مع الأسف تحافظ على العبودية بصورة مفجعة ، وتميل ناحية الظلام ٠ فعلى أوروبا أن تضىء أنوارها نعم ، انا نهيب بحضارة القارة القديمة التى ألغت الخرافة بفضل فولتير ، والرق بفضل فيلبرفورس ، وآلة التعذيب بفضل بيكاريا ، تلك الحضارة الكبرى ، نهيب بها أن تظهر من جديد فى اشعاعها الذى لن ينطفىء بعد الآن ، وأن ترفع فوق الناس الشـــعلات الثلاث ، فرنسا وانجلترا وايطاليا (هتافات) ٠

سادتى ، كلمة أخرى ٠ لن نترك صقلية هذه قبل أن نلقى عليهـا نظرة أخيرة ٠ ونختم الحديث ٠

ما هى النتيجة الاجمالية لهذه الأعمال البطولية الباهرة ؟ ماذا يخلص من كل هذا ؟ قانون أخلاقى ، قانون مهيب ٠ واليكم هذا القانون ٠

القوة لا وجود لها · لا ، ليس هناك قوة ، وانما هناك الحق وحده ·

لا وجود الا للمبادىء والعدالة والحقيقة ، لا وجود الا للشعوب ، لا وجود الا للنفوس ، أى قوى المثل الأعلى ، لا وجود الا للضمير على الأرض والعناية الالهية فى السماء (انفعال شديد) ·

ما هى القوة ؟ ما هو السلاح ؟ من من المفكرين يخشى السلاح ؟ لسنا نحن الذين نخشاه ، نحن رجال فرنسا الأحرار ، ولا أنتم رجال انجلترا الأحرار · الحق الذى يشعر به الانسان يرفع رأسه عاليا ، أما القوة والسلاح فانهما ينتميان الى العدم · السلاح ضوء بشع فى الظلمات ، عشية سريعة مفجعة · اما الحق فانه شعاع الضوء الأبدى · الحق هو استدامة الحقيقة فى النفوس ، الحق هو الله حيا فى الانسان · يخلص من ذلك حينما وجد الحق ، كان اليقين بالنصر · الرجل الواحد الذى يملك الحق يسمى فرقة عسكرية ، والسيف الواحد الذى بجانبه الحق يسمى صاعقة · من يقول الحق يعنى النصر · والعقبات ؟ لا وجود لها · لا ، ليس هناك عقبات · لا وجود لحق الاعتراض (الفيتو) ضد ارادة المستقبل انظروا أين المقاومة فى اوربا ، فالشلل أصاب النمسا ، والتواكل أصاب الروسيا · انظروا الى نابولى ، فالصراع فيها عقيم · الماضى الذى يحتضر يضيع جهده · السلاح يضيع هباء منثورا · وهذه المخلوفات المسماة لانزا ، ولاندى واكويلا انما هى أشباح · ربما ظن فرانسوا الثانى فى هذه اللحظة أنه لم يزل على قيد الحياة ، ولكنه مخطىء ، وأقول له انه شبح · لا جدوى من رفضه كل شروط التسليم ، وفتكه بمسينيا ، كما فتك ببالبرمو ، وتشبثه بالفظائع ، فقد انتهى كل شىء ، وانتهى حكمه · اشباح الجياد فى المنفى تدق بنعالها على باب قصره · سادتى ، أقول لكم انه ليس هناك سوى الحق · أتريدون أن تقارنوا بين الحق والقوة ؟ احكموا فى ذلك ببعض الأرقام ·

ففى ١١ مايو ، نزل من سفينة فى مارسالا(١) ثمانمائة رجل ، وفى ٧ يونية ، بعد سبعة وعشرين يوما ، ركب البحر فى بالبرمو ثمانية عشر ألف رجل مذعورين ·

أما الثمانمائة رجل فانهم الحق ، وأما الثمانية عشر ألف رجل ، فانهم القوة ·

---

(١) مارسالا فى صقلية · انتصر فيها جاريبالدى على قوات نابولى فى سنة ١٨٦٠ ــ المترجم

آه ، فلتقر أعين المعذبين ، وليطمئن المقيدون بالأغلال · وكـل ما يجرى فى هذه اللحظة أمر منطقى · نعم ، الأمل فى كل أرجاء العالم ! فليأمل رقيق الأرض فى روسيا (الموجيك) . والفلاح ، والعامل الكادح، والمنبود ، والزنجى المبيع ، والابيض المضطهد ، ليأمل الجمع · السلاسل شبكة ، متماسكة ، اذا انكسرت سلسلة منها ، انفكت الشبكة · ومن ثم كان تضامن الطغيان · فالبابا أخ للسلطان بأكثر مما يظن · وأكرر القول بأن الأمر قد انتهى · آه ، ما أجمل القوة فى الأشياء ! فى الخلاص قوة تفوق قوة البشر ، والحرية قوة الهية تجذب اليها الأشياء ، والقوة التى لا تقاوم تكمن فى أساس الثورات · والتقدم ليس الا ظاهرة من ظواهر الجاذبية ، فمن ذا الذى يستطيع عرقلته ؟ بمجرد أن تندفع عجلة التقدم ، يبدأ عمل القوة التى لا تقهر · يأيها الطغاة ، أتحداكم أن توقفوا الحجر الذى يهوى من عال ، أو السيل الجارف ، أو الانهيار الثلجى ، أتحداكم أن توقفوا ايطاليا ، أو ثورة ١٧٨٩ ، أو الدنيا التى عمرها الله بالنور (تصفيق حماسى) ·

تنبأ فيكتور هوجو ، فى شـأن جون براون بالحـرب الأهلية الأمريكية ، وتنبأ فى شأن جاريبالدى بالوحـدة الايطالية ، وتحققت هاتان النبوءتان ·

وبعد الاجتماع أقيمت وليمة اختتمت بتناول نخب فيكتور هو جو · فأجاب فيكتور هو جو قائلا :

سـادتى ،

ما دمت واقفا ، فاسمحوا لى ألا أجلس · انني أشعر بحاجة الى أن أشكر فى الحال الرجل الملهم الطيب القلب الذى سمعناه منذ هنيهة · ولن أقول سـوى كلمات قليلة ، فالأحاسيس العميقة توجز الكـلام بطبيعتها ، والقلوب المتأثرة فصيحة بانفعالها وحده · حسن ، اننى شديد التأثر ·

وأفضل وسيلة لشكركم أن أقول لكم اننى أحب جيرسيى · قلت ذلك لكم بالأمس ، وسمعتموه فى الاجتماع ، وقرأتموه فى الصحف ، وأكرره اليوم · ولكنى أتحدث الى قلب شعب ، وفى أذنه · والأمم كالنساء لا تمل من سماع عبارة : أحبك · لقد غادرت جيرسيى وأنا آسف ، وهأنذا أعود اليها وأنا سعيد · وثمة شىء عجيب وبديع يميز محررى الشعوب : ذلك أنهم يذهبون فى تحريرهم أحيانا الى مدى أبعد مما كانوا يأملون · لقد ضرب جاريبالدى ضربتين بحجر واحـد دون أن يدرى ، فأخـرج آل بوربون من صقلية ، وأعادنى الى جيرسيى ·

ان هتافاتكم ومقاطعاتكم الودية لحديثي لتؤثر في نفسي في هذه اللحظة لدرجة أنني لا أجد الكلمات التي يجب أن أقولها لكم . ولا أعرف كيف أجيب على مثل هذا الترحيب الشامل الباسم بصورة رائعة من كل النواحي ، وعلى مثل هذا القــدر الكبير من الهتافات ومظاهر العطف والمودة . وأكاد أقول لكم : رفقا بي ، أنتم جميعا ضد انسان واحد . هناك وحش خـرافي يتراءى لي في هـذه اللحظة عظيم الموهبة ، واني لأحسد هذا الوحش الذي يسمى بريباريه(١) ، ولكم أتمنى أن يكون لي مثله مائة ذراع لأصافحكم مائة مرة .

سأقول لكم ما أحبه في جيرسيي . انني أحب كل ما فيها . احب هذا المناخ المعتدل في الصيف والشتاء ، وهذه الأزهار التي نتجلى دائما كأنها في فصــل الربيع ، وهذه الأشجار النورمانديه . والصــخور البريطونية ، والسماء التي تذكرني بفرنســا ، والبحر الذي يذكرني بباريس . أحب هذا الشعب الذي يعمل ويكافح ، وكل اولئك الناس الطيبين الذين نقابلهم في كل لحظــة في شوارعكم وحقولكم ، والذين تتشكل سيماهم من الحــرية الانجليزية ، والرقة الفرنسية التي هي أيضا حرية .

عندما وصلت ها هنا منــذ ثمــانية أعوام ، بعد خروجي من أعجب الصراعات السياسية في هذا القرن ، وأنا الغريق الذي كنت آنئذ أنضح من كارثة ديسمبر ، ومرتعبا من تلك العاصفة ، أشعث الرأس من تلك الزوبعة ، هل تعلمون ماذا وجدت في جيرسيي ؟ وجدت شيئا قدسيا ساميا ، غير متوقع ، وجدت السلام . نعم لقد تم اقتراف اكبر جريمه سياسية في العصر الحديث : ذلك الاعتداء الشنيع ، خنق الحرية في بلد النور ، في قلب فرنسا مع الأسف ! لقد ناضلت ذلك الاستعباد استعباد رجل واحد لشعب واحد . واضطربت في نفسي كل تلك المعركة المرتجة ، من أعلى رأسي الى أخمص قدمي . وكنت ساخطا ، مذهولا . لاهثا . ولكن جيرسيي هدأت نفسي . وأعيد القول انني وجدت السلام والراحة ، وهدوءا عميقا في هذه الطبيعة الرقيقة في ريفكم ، في هذه الدعة اللطيفة التي يتصف بها مزارعوكم ، في تلك الوديان والأماكن المنقطعة ، وتلك الليالي التي تبدو فوق البحر وكأنها أغزر نجــوما . وذلك المحيط المضطرب أبد الآباد ، الذي يبدو وكأنه ينبض نبضا مباشرا

---

(١) بريباريه : مارد اسطوري ، ابن السماء والأرض ، له خمسون رأسا ومائة ذراع . اغرقه نبتون في البحر ، وقيده جوبيتر بالأغلال تحت الاطنا ، عقابا له على تمرده ، ويطلق الاسم لغويا ومجازيا على كل انسان أو جماعة تبذل جهودا مضاعفة . المترجم

تحت السمة الربانيه · وهكذا فمع شبيبى بالغضبة المقدسة ضد الجريمه . احسست بالفضاء الشاسع يمزج بهذا الغضب رحابته الصافية الهادئة . ومن ثم سكن ما كان يهدر فى نفسى · نعم ، أشكر جيرسيى ، وأشكركم · لقد أحسست بطيبه الانسان تحت سقوف دياركم ، وفى مدنكم ، وأحسست بالطيبة الالهية فى حقولكم وفوق بحوركم · آه . لن أنسى ما حييت تلك السكينة الجليلة التى انزلتها الطبيعة على نفسى فى أيام النفى الأولى . ونستطيع ان نقول اليوم ، ولن تمنعنا كرامتنا من هذا الاعتراف . ولن يكذبنى فيه اى واحد من زملائى فى المنفى ، نقول انا تألمنا جميعا عندما غادرنا جيرسيى · ان لنا كلنا فيها جذورا غائرة ، فثمة عروق من قلوبنا قد نفذت فى تربتكم وانغرزت فيها · وكان انتزاعنا منها مؤلما لنا · وأحببنا جميعا جيرسيى · أحبها البعض منا لانه كان سعيدا بها ، وأحبها البعض الآخر لأنه كان تعسا بها · فالعذاب رباط لا يقل قوة وعمقا عن البهجة · والانسان قد يشعر مع الأسف بمثل هذه الآلام فى الأرض التى يلجأ اليها ، حتى ليصبح من المستحيل عليه أن ينفصل عنها ، حتى لو تيسر له العودة الى الوطن · واليكم شيئا رأيته بالأمس ، وطرأ على ذهنى فى هذه اللحظة · ان هذا الاجتماع مهيب واليف فى وقت واحد ، وما سوف اقوله لكم يلائم هذه الطبيعة المزدوجة · فبالأمس ذهبت مع بعض الأصدقاء الأعزاء لزيارة هذه الجزيرة ، والعودة الى رؤية الأماكن التى نحبها ، والمتنزهات التى كنا نفضلها فيما مضى . والمناظر الطبيعية التى بقيت فى ذاكراتنا وكأنها خيالات مرئيه · وعند عودتنا ، بقيت فكرة كان لابد لنا أن نحققها ، فقد أردنا أن نختم زيارتنا بما هو الختام : بالجبانة ·

وأوقفنا العربة التى كانت تقلنا أمام حقل سان جان الذى يضم الكثير من أهلنا أتعرفون الشىء الذى أثار الرعدة فى أوصالنا لحظة وصولنا ؟ أتعرفون ما رأيناه ؟ كانت هناك امرأة ، أو بالأحرى شكلا آدميا فى ملاءة سوداء ممددة على الأرض أكثر منها راكعة أو ساجدة ، بل ومتهاوية بصورة ما على قبر من القبور · وبقينا جامدين صامتين وأصابعنا على افواهنا أمام هذا الألم المهيب · وبعد أن صلت المرأة ، نهضت وقطفت وردة من أعشاب المقبرة وأخفتها فى قلبها · عند هذا عرفناها · عرفنا هذا الوجه الشاحب وهاتين العينين اللتين لا ينفع فيهما أى عزاء ، وتلك الشعور البيض · انها أم ، أم أحد المنفيين ، أم فيليب فور ، الشاب الكريم الذى مات منذ أربع سنوات · هذه الأم تأتى كل يوم الى هذا المكان ، مهما كانت حالة الجو · منذ أربع سنوات وهذه الأم تركع على هذا الحجر وتقبله · حاولوا اذن أن تنتزعوها منه · أشيروا لهاالى فرنسا ، نعم فرنسا ذاتها ! لا أهمية لذلك عند هذه الأم · قولوا لها : « ليس هنا

بلدك ، هل تصدقكم · قولوا لها « لم تولدى هنا » ، وسوف نرد عليكم قائلة : « هنا مات والدى » · وسوف تسكتون أمام هذه الاجابة ، لأن وطن الام هو قبر طفلها ·

وهكذا أيها السادة ، قد يحب الانسان أرضا ما ، يحبها بلحمه ودمه وروحه · ان أرواحنا قد امتزجت بهذه الأرض ، ففيها أصدقاؤنا الذين ماتوا · واعلموا أنه ليس هناك أرض أجنبية . فالأرض فى كل مكان هى ام الانسان ، أمه الحنون ، الصلبة العميقة · دار الانسان هى كل مكان أحب فيه أو بكى ، أو قاسى ، انها كل هذه الأماكن ·

ســـادتى ، انى أجيب على النخب الذى قـــدم الى بنخب لجيرسيى ، واشرب من أجل جيرسى ورخائها ، وثرائها ، وصلاحها ، وتوسعها الصناعى والتجارى ، وأكثر من ذلك من أجل نمائها الثقافى والمعنوى ·

هناك شيئان يجعلان الشعوب عظيمة رائعه ، هذان الشيئان همـــا الحرية وكرم الضيافه · وكان كرم الضيافة فخار الأمم القديمة ، أمـــا الحرية فانها فخــــار الامم الحديثة · وجيرسى تملك هذين التاجين ، فاتحفظ بهما ·

لتحتفظ بهما الى الأبد ! ويجمل بنا أن نتحدث بدأة ذى بدء عن الحرية · عليكم أن تحرصوا بغيره على حريتكم · لا تسمحوا لأى كائن من كان أن يجرؤ على المساس بها · هذه الجزيرة هى أرض الجمــــال والســـعادة والاســـتقلال · ولستم فيهــــا لتعيشوا وتستمتعوا فحسب ، وانما أنتم فيها لكى تؤدوا واجبكم · وسوف يتكفل الله بالحفاظ عليها جميلة ، ويتكفل نساؤكم بالحفاظ عليها سعيدة · أما أنتم أيها الرجال فعليكم أن تحافظوا عليها حرة ·

أما كـــرم ضيافتـــكم ، فحافظوا عليهـــا هى الأخرى بنفس ورعة · وتتميز الأمم الكريمة المضيافة عن سائر الأمم بلون من البهاء الجليل المرفر ، وهى قدوة حسنة لغيرها من الامم · ولا تكتفى هذه الأمم ، فى حركة الشعوب الشاسعة الصاخبة باكرام الضيوف ، وانما تباشر التربية فوق ذلك · وكرم الضيافة بين الامم بداية للأخاء بين الناس · والأخاء بين الناس هو فى ذاته هدف · كونوا أبدا كراما لضيوفكم ، ولتكن هـــذه الشيمة المقدسة ، كرم الضيافة ، شرفا دائما لهذه الجزيرة · واسمحوا لى بان أقرن بها فى هذا الصدد شقيقتها جيرنسى ، وأرخبيل المانش كله · تلك الأرض ملجأ عظيم ، لا من حيث اتساعها ، وانما من حيث عـــدد اللاجئين من جميع الأحزاب والأوطان اللذين آوتهم وواستهم منذ قرون

ثلاثة • آه ، ليس ثمه شيء فى العالم ابدع من الملجأ ! كونوا ملجأ • استمروا فى الاحتفاء بكل من يأتى اليكم • كونوا الأرخبيـــل المبارك المنقذ • لقد جعلكم الله ها هنا لتفتحوا ثغوركم لكل السفن التى تقذفها العاصفة ، وقلوبكم لكل الرجال الذين تصيبهم ضربة القدر •

وليس هناك حدود لهذه الضيافة القدسية • لاتجادلوا من يأتيكم ، استقبلوه دون أن تختبروه • وكل من يتعذب فهو جدير بالضيافة ، وتلك من سمات العظمة فى كرم الضيافة • ونحن الموجودين هنا ، كل المنفيين من فرنسا ، لم نؤذ أحدا ، وقد دافعنا عن حقوق بلادنا وقوانينها ووفينا بالتزامات الوكالة عن الشعب ، وانصتنا الى صوت ضميرنا ، ونحن نقاسى من أجل ما هو عدل وما هو حق • لقد رحبتم بنا ، وهذا شيء طيب . ولكن لابد أن تتوقعوا غيرنا من الغرقى • واذا كان للأخيار مصائبهم ، فللمذنبين مزالقهم المهلكة • ولبس ارتكاب الانسان شرا سببا فى أن ينتصر على الدوام • اسمعوا هذا : اذا أتاكم فى أى وقت نفر من المهزومين فى قضايا جائرة ، فعليكم أن ترحبوا بهم كما ترحبون بنا • والتعس هو أحد أشكال الحق القدسية • واستمعوا الى هذا جيدا : اننى لا استثنى أحدا من هؤلاء المهزومين المحتمل قدومهم • وقد يحـــدث ذات يوم — فالأحداث فى يد الله ، ويد الله لا تفرغ — قد يحدث أن يكون من بين أولئك الذين تلقى بهم العواصف الشديدة أو نوبات مد البحر العالية على شواطئكم ، ذلك الذى نفانا نحن الموجودين هنا ، وقد طرد بدوره وأصبح تعسا • عندئذ كونوا به رحماء كما كنتم معنا طيبين • فاذا دق بابكم ، افتحوه وقولوا له : « أولئك الذين نفيتهم من قبل هم الذين طلبوا الينا أن نرحب بكم فى هذا الملجأ » •

٢

نشرت صحيفة « البروجريه » فى « بورت أوبرانس » الخطاب التـالى الذى حرره فيكتور هوجو للسـيد هيرتيلو رئيس تحرير هذه الصحيفة ، ردا على عبارات الشكر التى وجهها اليه السيد هيرتيلو دفاعا عن جون براون •

أوتفيل هاوس فى ٣١ مارس ١٨٦٠ ••

أنت يا سيدى أنموذج نبيل لهذا النوع البشرى الأسود الذى اضطهد وأهمل أمدا طويلا • هناك شعلة واحدة فى نفس الانسان ، فى جميع بقاع الأرض ، والسود أمثالك برهان على هذه الحقيقة • هل كان هناك أكثر

بن آدم واحد ؟ فى استطاعة أنصار المذهب الطبيعى أن يناقشوا هـذه المسألة • ولكن الثابت أنه لا يوجد غير اله واحد •

وطالما لا يوجد سوى أب واحد ، فنحن كلنا اخوة • ومن أجـل هذه الحقيقة مات جون براون • وأنا أكافح من أجلها ، وأنتم تشكروننى على ذلك ، وليس فى مقدورى أن أعبر لكم عن مقـدار تأثرى بكلماتكم البديعة •

لا يوجد على الأرض بيض وسود ، وانما بها أرواح • وأنت روح من هذه الأرواح • والأرواح كلها أمام الله بيضاء •

انى أحب بلدكم ، وجنسكم ، وحريتكم ، وثورتكم ، وجمهوريتكم • والنفوس الحرة ترتاح فى هذه الساعة الى جزيرتكم البديعة • لقد ضربت منذ قليل مثلا عظيما حين حطمت الاستبداد •

وسوف تساعدنا على تحطيم الرق ، فيختفى الاســتعباد بجميع أشكاله • وليس ما قتلته ولايات الجنوب هو جون براون ، وانما هى قتلت الرق •

ويمكن أن نعتبر الاتحاد الأمريكى منحلا من الآن ، رغم ما تقوله عنه الرسالة المخزية التى أرسلها الرئيس بوكانان ، وانى لآسف على ذلك أسفا عميقا ، ولكنه أمر أصبح منذ اليوم محتوما • هنـــاك بين الشمال والجنوب مشنقة جون براون • ولم يعد التضامن ممكنا • ومثل هذه الجريمة لا يتحملها طرفان •

واصلوا التنديد بهذه الجريمة ، وواصلوا دعم ثورتكم الباسلة • تابعوا عملكم ، أنتم ومواطنوكم الأفاضل • ان هايتى (١) الآن نور ساطع وانه لشىء جميل أن نرى بين مشاعل التقدم التى تضىء طريق الناس ، مشعلا تحمله يد زنجى •

اخوك

فيكتور هوجو

---

(١) جزيرة من جزر الأنتيل الكبرى ، تقع شرقى كوبا ، تنقسم الى دولتين مستقلتين : جمهورية هايتى ، وجمهورية دومينيكا ـ المترجم •

الى كابتن بتلر
اوتفيل هاوس فى ٢٥ نوفمبر ١٨٦١

تسألنى يا سيدى رأيى فى حملة الصين · انك ترى هذه الحملة بدبعة ومشرفة ، ومن طيب خلقك أنك تقدر شعورى فى هذا الصدد بعض التقدير · ومن رأيك أن حملة الصين التى انتظمت تحت رايتى الملكة فيكتور والامبراطور نابليون مجد تتقاسمه فرنسا وانجلترا ، وتريد أن تعرف مدى تأييدى لهذا النصر الانجليزى الفرنسى وما دمت تريد أن تعرف رأيى ، فاليك رأيى :

كان فى أحد أركان العالم ، أعجوبة من أعاجيب الدنيا · وكانت هذه الأعجوبة تسمى « قصر الصيف » ·

للفن مبدءان : الفكرة التى تتيح الفن الأوروبى ، والخيال الذى يتيح الفن الشرقى · وقصر الصيف بالنسبة الى الفن الخيالى يماثل البارتينون بالنسبة الى الفن المثالى ·

وفى هذا القصر كل ما يمكن أن يولده خيال شعب متفوق من الناحية الانسانية · لم يكن ، كالبارتينون عملا نادرا لا نظير له ، وانما كان شيئا من قبيل النموذج الهائل للخيال ، اذا أمكن أن يكون للخيال نموذج · تصور بناء لبس فى الامكـــان وصفه ، شيئا شبيهـــا بعمارة قمرية · هذا الشىء هو قصر الصيف · لو شيدت حلما بالرخام وحجر اليشم والبرونز والخزف ، وأقمت له هيكلا من خشـــب الأرز ، وغطيته بالأحجار الكريمة ، وكسوته بالحرير ، وجعلت له هنا محرابا ، وهناك جناحا للحريم ، وفى موضع آخر قلعة ، ووضعت فيه آلهة ووحوشا ، ثم صقلته وطليته بالمينا والذهب ، وزينته ، وعهدت الى بعض المهندسين الذين هم أيضا شعراء بأن يبنوا الألف حلم وحلم فى الألف ليلة وليلة وأضفت الى ذلك حدائق وأحواضـــا ونافـــورات من الماء والزبد والبجع والطاووس ، قصارى القول لو افترضت شيئا كالكهف اللألاء الذى شيده

خيال الانسان فى صورة معبد وقصر ، لكان هذا البناء الأثرى . اقتضى انشاؤه عملا طويلا اضطلع به جيلان من الناس . لقد سيدت القرون هذا البناء الذى يضارع مدينه فى ضخامته . ولكن لمن شيد ؟ للشعوب . ذلك لأن ما يصنعه الزمن يملكه الانسان . ويعرف الفنانون والشعراء والفلاسفة قصر الصيف . تحدث عنه فولتير . وقديما قالوا : البارثينون فى اليونان ، والاهرامات فى مصر ، والكوليزيه فى روما ، ونوتردام فى باريس ، وقصر الصيف فى الشرق . يراه الانسان فى الأحلام ، اذا لم يره بالعين . أنه تحفة فنية ، من نوع مجهول ، يلمحه الانسان عن بعد فيما يشبه الشفق . وكأنه صورة لحضارة آسيا على أفق حضارة أوروبا . لقد اختفت هذه الأعجوبة .

فذات يوم دخل لصان فى قصر الصيف ، فنهبه أحدهما ، واشعل الثانى الحريق فيه . وقد يبدو النصر لصا من اللصوص . لقد اشترك المنتصران فى تخريب قصر الصيف تخريبا شاملا . ويختلط بكل هذا اسم « الجين » (١) الذى يذكرنا بالبارثينون بصوره هدامة . وما صنع فى البارثينون ، صنع مثله فى قصر الصيف ، وانما بصورة أتم وأبرع بحيث لم يترك به شىء . ولا يمكن أن تعادل كنوز كاتدرائياتنا مجتمعة هذا المتحف الهائل الفخم ، متحف الشرق . ولم يكن به تحف فنيه رائعة فحسب ، وانما كان به أيضا أكداس من المصوغات . عمل رائع ، وغنيمة كبيرة . لقد ملأ أحد المنتصرين جيوبه ، ولما رآه المنتصر الثانى وهو يفعل ذلك ملأ هو أيضا خزائنه . وعادا الى أوروبا يضحكان وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر . تلك هى قصة اللصين !

أننا نحن الأوروبيين المتمدنون ، أما الصينيون فهم فى نظـــرنا الهمجيون . وهذا هو ما فعلته المدنية بالهمجيين .

وأمام التاريخ ، سوف يسمى أحد اللصين فرنسا ، والآخر انجلترا. ولكن أحتج ، واشكرك لأنك اتحت لى هذه الفرصة . ان جرائم القادة لا تتم بخطأ الرعية . والحكومات أحيانا لصوص ؟ أما الشعوب فليست كذلك بالمرة .

---

(١) الجن ستوماس بروس ، كونت ديلجين (١٧٦٦ ـ ١٨٤١) دبلوماسى وعالم آثار اسكتلندى انتزع من مبنى الأكروبول بأثينا مجموعة التماثيل والقطع الرخامية فى مبنى البارثينون ، وتعرف هذه المجموعة باسمه ـ المترجم .

لقد وضعت الأمبراطورية الفرنسية نصف هذا النصر فى جيوبها، وهي اليوم تعرض ، بلون من السذاجة الشبيهة بسذاجة المالك ، تعرض تحف قصر الصيف القديمة الفاخرة • وانى آمل أن تعيد فرنسا هذه الغنائم الى الصين المسلوبه ، حين يتم خلاص فرنسا وتطهيرها •

وحتى ذلك الحين ، أؤكد ان هناك سرقه ، وهناك لصين •

ذلك هو يا سيدى مدى تأييدى لحملة الصين •

فيكتور هوجو

١٨٦٢

١

المحكوم عليهم بالاعدام فى شارلروا

نسبت عده صحف بلجيكية الى فيكتور هوجو أشعارا موجهة الى ملك البلجيكيين يلتمس بهـا العفو عن تسعة من المحكوم عليهم بالاعـدام فى شارلروا ؛ ومن ثم حرر فيكتور هوجو فى هذا الصدد الخطاب التالى ٠

أوتفيل هاوس فى ٢١ يناير ١٨٦٢ ٠

سـيدى

اننى أعيش فى وحدة ٠ ويستغرقنى العمل بصفة خاصـة منـذ شهرين ، وهو عمل عاجل ، لدرجة أننى لم أعد أعرف شيئا مما يجرى فى الخـارج ٠

واليوم أتانى أحد الأصدقاء بصحف تحوى أشعارا جميلة تتضمن التماسا بالعفو عن تسعة من المحكوم عليهم بالاعدام ٠ ورأيت توقيعى بأسفل هذه الأشعار ٠

هذه الأشعار ليست أشعارى ٠

وأيا كان مؤلف هذه الأشعار فانى أشكره ٠

فعندما يتعلق الأمر بانقاذ رءوس آدمية ، أرى من الخير أن يستخدم الناس اسمى ، بل ويسيئوا استخدامه ٠

وأضيف الى هذا أنه يبدو لى من المستحيل تقريبا أن يسىء أحـد استخدام اسمى فى مثل هذه القضية ٠ ولا ريب أن الغاية هنا تبرر الواسطـة ٠

ومع ذلك فليسمح لى المؤلف أن أهنئه على هذه الأشعار التى أكرر القول انها تبدو لى جميلة للغاية ٠

وأقرن بهذا الشكر الأول الذى أقدمه اليه شـكرا ثانيـا ، لأنه أحاطنى علما بهذه القضية المحزنة ، قضية شارلروا ٠ وأعتبر هـذه

الأشعار نداء موجها الى ، واساوبا للدعوى الى رفع صونى ، اذ تعرض على أنظارى الجهود التى بذلتها فى ظروف أخرى مماثلة ، وأشكره على هذا التكليف الكريم ٠

وانى استجيب لندائه ، وأنضم اليه لنحاول ان نجنب بلجيكا سقوط رءوس تسعة على منصة الاعدام ٠ لقد خاطب هو الملك ، وأنا قليل المعرفة بالملوك ، ومن ثم فانى أتوجه الى الأمة ٠

وقضية هينو (١) هذه ، بالنسبة الى بلجيكا ، والتقدم ، مناسبة من المناسبات التى تخرج فيها الشعوب اما صغيرة واما عظيمة ٠

انى أتوسل الى الامة البلجيكية أن تكون عظيمة ٠ ومن البدهى أن فى مقدورها ان تمنع تشغيل هذه المقصلة البشعة ذات الأطواق التسعة فى الميدان العام ٠ وليس ثمة حكومة تقاوم هـذه الضغوط الفكرية القدسية فى سبيل الرحمة ٠ ولابد أن تتجه الارادة الاولى لأى شعب الى الاستغناء عن آلة الاعدام ٠ هناك مثل يقول : ارادة الشعب من ارادة الله ٠ وفى مقدوركم أيها البلجيكيون أن تجعلوا المثل يقول : ما يريده الله ، يريده الشعب ٠

اننا نجتاز فى هذه اللحظة اسوأ فترة فى القرن التاسع عشر ٠ فمنذ عشر سنوات، والحضارة تتراجع تراجعا واضحا : فينيسيا مكبلة بالاغلال ، والمجر مضغوط عليها ، وبولندا معذبة ، وعقوبة الاعدام فى كل مكان ٠ للملكيات قادة عسكريون مثل هايناو (٢) ، وللجمهوريات أمثال تاللافيرو ٠ لقد رفعت عقوبة الاعـــدام الى مرتبـــة « الحجـــة الأخيرة » Vltine ratio الأجناس والألوان والأحزاب تواجه بعضها بعضا بهذه العقوبة ، وتستخدمها كما لو كانت ردا مقنعا ، ويستخدمها البيض ضد الزنوج ، ويستخدمها الزنوج كرد فعل مفجع ضد البيض ٠

الحكومة الاسبانية تعدم الجمهوريين بالرصاص ، والحكومة الايطالية تعدم الملكيين بالرصاص ٠ وروما تعدم رجلا بريئا ٠ ويظهر القاتل الحقيقى ويعلن عن اسمه ويعترض على التنفيذ بلا جدوى ، فقـــد سبق السيف العذل ، فالجلاد لا يرجع فى عمل أداه ، وأوروبا تؤمن بعقوبة الاعـــدام وتتمسك بها ٠ وأمريكا تتقاتل بسببها ومن أجلها ٠ آلة الاعدام صديقة

---

(١) مقاطعة فى بلجيكا ــ المترجم ٠

(٢) جوليوس جاكوب دوهايناو (١٧٨٦ ــ ١٨٥٣) ــ فيلد مارشال نمساوى ــ أخمد بقسوة الثورة المجرية ــ المترجم ٠

الرق ، والمسنعة تلقى ظلالها على حرب الابادة بين الاخوة في الولايـات المتحـــدة ٠

ولم يحدث ابدا ان كان بين أمريكا وأوروبا مثل هذا التوازى ، ولم نتفاهما من قبل بمثل هذه الدرجه ٠ انهما مختلفتان في كل شيء فيما عدا هذه المسأله ، مسألة القتل ٠ وهكذا يتفق العالمان في موضوع عقوبه الاعدام ٠ فعقوبة الاعدام تسود الدنيا ٠ وثمة ضرب من القـانون الالهى ٠ قانون البلطه ، يصدر عن الانجيل للكاثوليك الرومان ، وعن التوراة لأهالى فيرجينيا البروتستانت ٠ وقد شيد « بين » Penn بالفكرة (١) قوس نصر مثالى كقنطره تربط العالمين ٠ ولابد أن توضع اليوم منصة الاعدام على هذا القوس ٠

وعلى هذا الاعتبار ، فان أمام بلجيكا فرصه رائعة ٠

لابد لشعب يملك الحرية أن يملك أيضا الارادة ٠

المنبر الحر ، والصحافة الحرة يشكلان بنيان الرأى الكامل ٠ ليتحدث الرأى ، فاللحظة حاسمة ٠ وفى الظروف التى نمر بها ، تستطيع بلجيكا ، وهى الشعب الصغير الذى لا يكاد يكون له وجود ٠ تستطيع اذا ارادت ، بالغائها عقوبة الاعدام ، أن تصبح زعيمة الأمم ٠

وأؤكد القول ان هذه فرصه رائعة ٠ فمن الواضح أنه اذا لم تكن هناك آلة لاعدام مجرمى « هينو » ، فلن تكون ثمة آلة اعدام لأى انسان كان ، وأن المقصلة لن تنبت فى أرض بلجيكا الحرة ؛ ولن تكون ميادينكم العامة بعد ذلك عرضة لظهور هذا الشبح المشئوم ٠ ويقضى منطق الأشياء الحاسم بأن عقوبة الاعدام الملغاة عندكم اليوم الغاء فعليا ، سوف تكـون ملغاة فى الغد الغاء قانونيا ٠

وانه لشيء رائع أن يعطى الشعب الصغير درسا للشعوب الكبيرة ، فيكون من أجل هذا وحده أعظم منها ٠ وانه لشيء رائع ، أمـــا تكاثف الظلامات بصورة كريهـة ، وفى وجـــود الهمجية العليلة المنتكسة ، أن تضطلع بلجيكا بدور الدولة الكبيرة فى مجال الحضارة ٠ وتبهر الجنس البشرى فجأة بالنور الحقيقى ، وذلك بأن تعلن فى الظروف التى يتفجر فيها جلال المبدأ على أحسن الوجوه ، لا بمناسبة خلاف ثورى أو دينى ، ولا بمناسبة وجود عدو سياسى ، وانما بمناسبة وجود تسعة من المساكين

---

(١) وليم بن ــ عضو فى جماعه اللوبكرز الانجليز ــ وهى جماعة تعمل على التعريب بين الشعوب والعناصر والديانات (١٦٤٤ ــ ١٧١٨) ــ المترجم ٠

غير الجديرين بأية رحمة خلاف رحمة الفلاسفة ، تعلن فى هذه الظـروف حصانة الحياة البشرية ، ونرد نهائيا الى دياجير الليـــل تلك العقوبة البشعة ، عقوبة الاعدام التى تفخر بأنها أقامت على وجه الأرض صليبين ، صليب يسوع المسيح فى العالم القديم ، وصليب جون براون فى العالم الجـــديد ٠

على بلجيكا الكريمة أن تتأمل فى ذلك ٠ انها هى الخاسرة بسبب آلة الاعدام فى شارلروا ، وعندما تضع الفلسفة والتاريخ حضارة من الحضارات على كفتى ميزان ، فان الرءوس المقطوعة تثقل الكفة المضـــادة لهـذه الحضارة ٠

اننى أؤدى واجبا بتحريرى هذا الخطاب ، فكن ياسيدى عونا لى ، وأعرنى دعايتك من أجل هذه المصلحة الجليلة المؤلمة ٠

فيكتور هوجو

نشر هذا الخطاب فى الصحف الانجليزية والبلجيكية ، وتأجل تنفيذ الحكم ، وأنقذت سبعة رءوس من التسعة ٠

٣

أرمان باربيس

فى عام ١٨٣٩ حكم على باربيس بالاعدام • وأرسل فيكتور هوجو الى الملك لوى فيليب الأشعار الأربعة المعروفة ، وأنقذ حياة باربيس • والخطابان التاليان يتصلان بهذا الموضوع •

الى فيكتور هوجو

أيها المواطن العزيز المجيد :

لابد أنك تتصور أن المحكوم عليه بالاعدام الذى تحدثت عنه فى العدد السابع من كتاب « البؤساء » انسان جحود • لقد انقضت ثلاثة وعشرون عاما وهو مدين لك بهذا المعروف ! ومع ذلك فلم يقل لك شيئا •

سامحه ! سامحنى !

لقد آليت على نفسى مرارا وأنا فى سجنى قبل شهر فبراير ، أن أسرع الى لقائك اذا أعيدت الى حريتى • ولكنها كانت أحلام الشباب ! وأتى ذلك اليوم القيت فيه بنفسى ،، كقشة مهشمة فى دوامة عام ١٨٤٨ • ولم استطع أن أعمل شيئا مما كنت اشتهى عمله بحرارة • ومن ذاك الحين — وأرجو المعذرة أيها المواطن العزيز فى هذه الكلمة التى سأقولها — كان جلال موهبتك يقف على الدوام حائلا دون ابداء فكرى •

كنت فخورا فى ساعة الخطر أن أرى نفسى محميا بشعاع من شعلتك ، ولم يكن بوسعى أن أموت طالما كنت تدافع عنى • ولم يكن

فى مقدورى أن أثبت أننى جدير بذراعك التى امتدت فوقى . ولكن لكل انسان قدره المكتوب ؛ ولم يكن كل الذين أنقذهم أخيل أبطالا .

وقد أصبحت الآن شيخا . ومنذ سنة وأنا فى حالة صحية سيئة . وكثيرا ما اعتقـــدت بأن قلبى أو رأسى سينفجر . ولكنى أهنىء نفسى لسلامتى رغم آلامى ، اذ وجدت فى نفسى الجرأة ، بتأثير « معروفك »(١) الجديد ، لأن أشكرك على معروفك القديم .

ومادمت قد تحدثت ، فشكرا وألف شكر من أجل قضيتنا المقدسة ومن أجل فرنسا . للكتاب الذى ألفته منذ قليل .

أقول : فرنسا ، لأنه يبدو لى أن هذا الوطن العزيز ، وطن جان دارك ووطن الثورة ، هو وحده القادر على أن ينجب قلبك وعبقريتك . لقـــد وضعت ، أنت الابن السعيد البار ، على جبين أمك الوضاح اكليلا جديدا من أكاليل المجد !

مع خالص المـــودة ؟ أ. باربيس

لاهاى فى ١٠ يولية ١٨٦٢ .

الى أرمان باربيس

اوتفيل هاوس فى ١٥ يولية ١٨٦٢ .

أخى فى النفى :

رجل مثلك ، كان جندى التقدم وشهيده ، ضحى فى سبيل القضية المقدسة ، قضـــية الديموقراطية والانسانية بثروته وشبابه وحقه فى السعادة وحريته ، وارتضى من أجل خدمة المثل الأعلى كل أشكال الصراع ، وكل ألوان المحن ، والافتراء والاضطهاد والاقصاء ، وســـنوات السجن الطويلة ، وسنوات النفى الطويلة ، وأسلم قياده للغير بسبب اخلاصه ، حتى انتهت به المسيرة تحت سكين المقصلة ؛ عندما يكون رجل مثلك قد فعل كل هذا ، فان الناس كلهم يكونون مدينين له ، أما هو فلا يدين

(١) انظر « البؤساء » الكتاب الأول (العدد الرابع من طبعتنا) وفيه خط تحت كلمة « معروف » الواردة فى خطاب باربيس .

لأى مخلوق بأى شيء · ومن وهب كل ما يملك للنوع الانسانى ، أصبح برىء الذمة حيال الجميع ·

من المستحيل عليك أن نكون جاحدا لأى انسان · وأرى اليوم بوضوح أننى لو لم أفعل منذ ثلاث وعشرين سنة ما تتفضل بشكرى عليه ، لكنت أنا الجاحد لك ·

وانى لأشعر بأن كل ما فعلته للشعب انما هو خدمة قدمتها لشخصى ·

لقد أديت واجبا لا مفر منه ، فى الوقت الذى تذكرنى به · واذا كان الحظ قد أسعدنى فى ذلك الحين بأن أسدد لك قليلا من الدين العام، فان تلك اللحظة لا تعد شيئا بالنسبة الى حياتك كلها ، ومازلنا نحن جميعا مدينيك ·

ومنوبتى ، اذا سلمنا بأنى استحق أية مثوبة ، كانت فى عملى نفسه · ومع ذلك فانى أقبل بحنو العبارات النبيلة التى أرسلتها الى ؛ وقد أثر فى نفسى تأثيرا عميقا عرفانك السامى بالجميل ·

اننى أرد عليك وأنا منفعل بما جاء فى خطابك · وذلك الشعاع الذى يأتى من وحدتك الى وحدتى ، شيء جميل · الى اللقاء القريب فى هذه الأرض أو فى خارجها ، وأحيى روحك العظيمة ·

فيكتور هوجو

٣

البؤســاء

١٦ سبتمبر ١٨٦٢

بعد أن نشر كتاب « البؤساء » ، ذهب فيكتور هوجو الى بروكسل ٠ وأدب له الناشران السيدان لاكروا ، وفيربوبكهوفن وليمة ، كانت فرصة للقاء الكتاب المشهورين من جميع البلاد (انظر مذكراتنا) ٠ وأجاب فيكتور هوجو ، وحوله الكثير من كرام الرجال ، وبعضهم على درجة كبيرة من ذيوع الصيت ، على تحيات هذه النفوس النبيلة بكلمات نطالعها فيما يلي ٠ ويذكر أولئك الذين حضروا هذا الحفل الرصين الجميل الذى أقيم من أجل أحد المنفيين أن فيكتور هوجو لم يستطع أن يحبس دموعه فى اللحظة التى طرأت فيها على ذهنه ذكرى اسبرومونتى (١) ٠

ســـادتى :

لا يمكن أن أعبر عن مقدار تأثرى ، فأرجو المعذرة اذا كانت الكلمات تعـــوزنى ٠

واذا لم يكن من واجبى سوى أن أرد على خطاب عمدة بروكســل المبجل ، كانت مهمتى هذه بسيطة ، فليس على ، لأمجد هذا الحـــاكم المحبوب بجدارة ، وهذه المدينة النبيلة المضيافة ، الا أن أكرر كل ما يتردد على الأفواه ؛ ويكفينى لذلك أن أكون صدى لها ٠ ولكن كيف لى أن أشكر

---

(١) اسبرومونتى ـ مرتفعات جرانيتية بايطاليا (واسمها الآن كالابريا) ٠ وفى عام ١٨٦٢ أصابت عندها قوات فيكتور ايمانويل جاريبالدى واسرته ٠ المترجم ٠

الأصوات الأخرى الفصيحة الودودة التي خاطبتني ؟ فالى جانب هذين الناشرين اللذين يرجع اليهما الفضل في تلك الفكرة المثمرة ، فكرة المكتبة الدولية ، وهي نوع من الرباط الاعدادي بين الشعوب ، أرى أنه قد اجتمع هاهنا سياسيون ، وفلاسفة ، وكتاب مبرزون ، فخر الآداب ، وفخرة القارة المتحضرة • واني لأشعر بالحيرة والارتباك اذ أجد نفسي مركزا لحفل العباقرة هذا ، وأرى هذا القدر الكبير من التكريم يوجه الى شخصي ، في حين أنني لست سوى ضمير يرتضي الواجب ، وقلب يرتضي التضحية •

ان شكر هذه المدينة في شخص عمدتها أمر بسيط ؛ ولكنني أقول ثانية كيف يتأتى لي أن اشكركم جميعا ؟ كيف لي أن أصافحكم جميعا بيد واحدة ؟ ومع ذلك فالطريقة أيضا بسيطة ، فأنتم جميعا ، الموجودين هنا ، كتابا كنتم أم صحافيين ، ناشرين أم طابعين ، سياسيين أم مفكرين ، ما الذي تمثلونه ؟ كل طاقات الذكاء ، وكل أشكال الدعاية ، أنتم فريق الروح ، أنتم العضو الجديد في المجتمع الجديد، أنتم الصحافة • انني اشرب نخب الصحافة !

الى الصحافة لدى كل الشعوب ! الى الصحافة الحرة ، الى الصحافة القوية المجيدة الخصبة !

أيها السادة ، الصحافة هي ضياء العالم الاجتماعي ، وفي كل ما هو ضياء ، يوجد قبس من الحكمة الالهية •

الفكر شيء أكثر من الحق ، انه روح الانسان نفسها • وكل من يعرقل الفكر انما يعتدي على الانسان نفسه • والقانون يعتبر الكتابة والطبع والنشر نظائر ؛ انها دوائر تتسع باستمرار ، دوائر الذكاء الفعال ، انها موجات الفكر الرنانة •

والصحافة هي أوسع كل دوائر الروح الانسانية هذه واشعاعاتها وقطر دائرة الصحافة هي نفس قطر دائرة الحضارة •

وكل نقص في حرية الصحافة يقابله نقص في الحضارة • ويمكن القول انه حيثما احتجبت الصحافة الحرة ، انقطع غذاء الجنس البشري • سادتي ، ان رسالة عصرنا الحاضر هي تغيير أسس المجتمع القديمة ، وخلق النظام الحق ، واستبدال الحقائق الواقعية في كل مكان بالأوهام • وفي انتقال القواعد الاجتماعية هذه ، وهي المهمة الضخمة التي يضطلع بها

هذا الجيل . لا يوجد شيء يستطيع أن يقاوم الصحافة التى تستخدم قوتها الجاذبة على المذهب الكاثوليكى ، والنزعة الحربية ، والحكم المطلق ، وعلى أشد التكتلات الواقعية والفكرية صلابة ومقاومة .

الصحافة هى القوة . لماذا ؟ لأنها العقل المفكر .

انها البوق الحى الذى يوقظ الشعوب ، ويعلن بصوت مرتفع عن سيادة القانون . وهى لا تهتم بالليل الا لكى تبعث الفجر ، وتخمن قدوم النهار وتحذر العالم . والشيء الغريب مع ذلك أنها تكون أحيانا هدفا للتحذير ، كالبومة التى توبخ الديك على صباحه .

نعم ، الصحافة مضطهدة فى بعض البلاد . هل هى عبد رقيق ؟ لا . صحافة مستعبدة ! هذا تزاوج فى الكلمات ، لا وجود له فى الواقع .

وهناك فضلا عن ذلك اسلوبان كبيران للرق ، اسلوب سبارتاكوس ، وأسلوب ابكتيت (١) . الأول حطم أغلاله ، أما الثانى فانه حقق روحه . فاذا لم يستطع الكاتب المقيد بالأغلال أن يلجأ الى الأسلوب الأول ، بقى له استخدام الأسلوب الثانى .

لا ، مهما فعل الطغاة ، فليس ثمة استعباد للروح ! وأشهد على ذلك كل الرجال الأحرار الذين يستمعون الى ، وهذا ما قلته لى أخيرا ياسيد بيليتان بعبارات بديعة . فضلا عن أنك وكثيرين غيرك قد أثبتوا ذلك بالمثل الطيب الذى قدمتموه .

سادتى ، فى هذا القرن ، لا سلام من غير حرية الصحافة ، وانما ضلال عن سواء السبيل ، وغرق ، وكوارث فى كل مكان .

هناك اليوم مسائل معينة ، هى مشاكل هذا القرن ، قائمة أمامنا ، لا نستطيع أن نتجنبها ؛ وليس ثمة حل وسط بشأنها ، فلا مفر من

---

(١) فيلسوف رواقى (من مدرسة زينون) من القرن الأول الميلادى . كان فى روما عبدا لابافروديت معتوق نيرون . جمعت أحاديثه فى كتاب واحد ، وهى عن المذهب الرواقى . يحكى أن سيده كان شديد القسوة ، فعذبه ذات يوم بأن اوى ساقه فى آلة التعذيب فقال له ابيكتيت « سوف تكسر ساقى » . ولما تم ذلك اكتفى بان يقول له « ألم أقل لك ذلك ؟ » ــ المترجم .

الاصطدام بها أو الاحتماء بها • والمجتمع يسير من هذه الناحية بصورة حذيثة لا تقاوم • هذه المسائل هي موضوع الكتـــاب المؤثر المؤلم الذى جرى الحديث عنه منذ هنيهة بعبارات رائعة • هذه المشـــاكل هي : الفاقة ، والتطفل ، وانتاج الثـــورة وتوزيعها . والنقد ، والائتمان • والعمل ، والأجــر ، وزوال طبقــة الكادحين (البروليتاريا) • وتناقص العقوبات بالتدريج ، والبؤس ، والدعارة ، وحق المرأة الذى يرفع نصف الجنس البشرى هؤلاء من وضعهن كقاصرات ، وحق الطفل الذى يقتضى - وأقول يقتضى - التعليم المجاني الالزامي ، وحق الروح الذى يتضمن حرية الدين • ومع الصحافة الحرة ، تجد هذه المشاكل نورا يعلوها ، وتصير قابلة للتناول ، ويمكن رؤية أغوارها ومنافذها ، ويمكن لقـاؤها والنفاذ فيها • فاذا ما تم تناولها والنفاذ فيها ؛ أى تم حلها ، فانهـــا سوف تنقذ العالم • ومن غير صحافة ، ليل مدلهم • وكل هذه المشاكل مخيفة فى الوقت الحاضر ، لا يتبين الانسان منها سوى منحدراتها ، وقد لا يتبين مدخلا لها ، ومن المحتمل أن يغرق المجتمع فيهـــا • فالفنار اذا انطفأ ، أصبح الميناء صخرة الهلاك •

سادتى ، ليس هناك احتمال للخطأ مع الصحافة الحرة ، ولا ذبذبة ، ولا تلمس فى المسيرة البشرية • الصحافة هى الاصبع المرشـــدة وسط هذه المشاكل الاجتماعية ، ومفترقات الطرق المظلمة • سيروا نحو المثل الأعلى ، والعدالة ، والحقيقة ؛ ولا يكفى السير وحده ، وانما لابد من السير الى الأمام • فى أى اتجاه تسيرون ؟ تلك هى المسألة برمتها • التظـاهر بالحركة ليس بالمرة هو انجاز التقدم • التظاهر بالحركة دون التقـــدم أمر يلائم الطاعة السلبية • وتحريك الأقدام فى حفرة بالأرض تحريكـا متواصلا آليا ، أمر لا يليق بالجنس البشرى • ليكن لنا هدف ، ولنعرف الى أين نسير ، ولنجعل ثمة تناسبا بين الجهد والنتيجة ، ولتكن فى كل خطوة نخطوها فكرة ، ولتتصل كل خطوة اتصالا منطقيا بالخطوة التى تليها ، وليأت الحل بعد الفكرة ، والنصر بعد الحق • لا خطوة الى الوراء • التردد فى الحركة يكشف عن فراغ فى العقل • وليس ثمة ما هو أتعس من ارادة الشىء وعدم ارادته فى وقت واحد • الانسان الذى يتردد ويتقهقر ويتريث لا يفكر • أما أنا ، فانى لا أقبل سياسة من غير رأس مفكر ، كما لا أتصور ايطاليا من غير روما •

وما دمت قد نطقت بهذه الكلمة ، كلمة روما ، فاسمحوا لى بأن أقطع حديثى ، وأن أمضى بفكرى الذى تحول لحظة عن اتجاهه ، صـــوب ذلك الرجل الباسل الراقد هناك على فراش الألم • لا ريب فى أنه على صواب حين يبتسم ، فالمجد والحق معه • ومما يربك النفس ويرهقهـــا

أنه يوجد فى ايطاليا ، ايطاليا النبيلة المجيدة ، أو قد وجد بها ، رجال يسلون السيف ضد هذا الرجل الذى هو الفضيلة بعينها • ألم يتعرف هؤلاء الايطاليون على الشخصية الرومانية فى شخص هذا الانسان ؟

ويقول هؤلاء الرجال عن أنفسهم انهم رجال ايطاليا ، ويعلنون أنها مظفرة ، ولا يدركون أنها مذبوحة • آه ، انها لمغامرة كئيبة ، ولسوف يتراجع التاريخ حانقا أمام هذا النصر البشع الذى يتم بقتل جاريبالدى حتى لا يكون ثمة روما !

ان القلب ليشتعل غيظا ، فلندع ذلك •

سادتى ، من هو نصير الوطنى ؟ الصحافة • من هو مفزعة الجبان والخائن ؟ الصحافة •

أعلم أن الصحافة مكروهة ، وهذا سبب كبير يدعو الى محبتها • وكل ضروب الظلم والتعصب والخرافات تشكو من الصحافة وتهينها وتسبها بقدر ما تستطيع • وأتذكر منشورا بابويا مشهورا ، ظلت بعض كلماته البارزة راسخة فى ذهنى • فى هذا المنشور لأحد البابوات ، وهو معاصرنا البابا جريجوار السادس عشر ، عدو جيله – وهذا من بعض مساوىء البابوات – وفى ذهنه دائما فكرة التنين القديم ، ووحش سفر الرؤيا ؛ نقول ، فى هذا المنشور نعت البابا الصحافة بلغته اللاتينية ، لغة رهبان كامالدول (١) بأنها Gula ichea, ealigo, impetus immaniscun Strepitu harrendo حنجرة ملتهبة ، ضباب مظلم ، اندفاع شرس مع جلبة مخيفة •

وأنا لا أعارض شيئا من هذا ، فالصورة صادقة • فوهة لهب ، دخان ، سرعة معجزة ، صوت هائل • نعم ، انها القاطرة التى تمر ! تلك هى الصحافة ، القاطرة الهائلة القدسية ، قاطرة التقدم • الى أين تمضى ؟ الى أين تجر الحضارة خلفها ؟ الى أين تحمل هذه القاطرة القوية الشعوب ؟ النفق طويل ومظلم ومخيف ؛ اذ يمكن القول بان الجنس البشرى لم يزل تحت الأرض ، تلفه المادة وتسحقه ؛ وتشكل عليه الخرافات والمعتقدات وضروب الجور والاستبداد عقدا سميكا ، وفوقه ظلمات كثيفة ! ومنذ وجد الانسان ، والتاريخ كله تاريخ سفلى ، تحت الأرض ، لا يلمح المرء فى أى مكان فيه الشعاع الربانى • ولكن هناك منذ القرن التاسع عشر ، بعد الثورة الفرنسية ، أملا ويقينا • هناك أمامنا ، على بعد ، نقطة مضيئة ظاهرة ؛ تكبر لحظة بعد لحظة ، فهى المستقبل ، وهى

---

(١) رهبان وراهبات ، أقامهم فى كاما لدولى (فى توسكانيا بايطاليا) القديس روموالد فى أوائل القرن الحادى عشر – المترجم •

الانجاز ، نهاية التعاسة ، وفجر الأفراح ؛ هى كنعان (١) ! انها أرض المستقبل التي لن يجد الانسان فيها حوله سوى أخوة ، ولن يجد فوقه سوى السماء • فلتتشجع القاطرة المقدسة ! وليتشجع الفكر والعلم والفلسفة ، ولتتشجع الصحافة ، ولتتشجعن جميعا ، أيتها الأرواح ! الساعة تقترب ، تلك الساعة التى سوف تخرج فيها البشرية ، خروجها السامى فى النور الباهر ، بعد أن تكون قد تخلصت فى النهاية من ذلك النفق المظلم الذى امتد عبر ستة آلاف سنة ، تخرج مذهولة لتجد نفسها فجأة وجها لوجه مع شمس المثل الأعلى •

سادتى ، كلمة أخرى ، وأرجو من سماحتكم أن تعتبروها شخصية •

اننى سعيد بوجودى بينكم ، وأشكر الله الذى أنعم على بهذه الساعة الجميلة فى حياتى القاسية • وسوف أعود غدا الى الظلام • ولكنى رأيتكم وتحدثت اليكم ، وسمعت أصواتكم ، وصافحتكم • وسوف أحمل كل ذلك معى فى عزلتى •

وأنتم يا أصدقائى من فرنسا ــ وسوف يجد أصدقائى الآخرون الموجودون هنا أن من الطبيعى أن أوجه اليكم كلمتى الأخيرة ــ لقد شهدتم منذ أحد عشر عاما انسانا يغادر فرنسا وهو فى طور الشباب ؛ وتشهدونه الآن شيخا مسنا • تغير لون الشعر ، ولم يتغير القلب • واشكركم لتذكركم الغائب ، ولحضوركم • وتقبلوا أعمق مشاعر الحنان ــ أنتم أيضا ، الأصغر منى سنا ، والذين أعتز بأسمائهم عن بعد ، ولكن آراهم هنا لأول مرة • ويخيل الى أننى استنشق بينكم هواء الوطن ، وأن كلا منكم قد أتانى بشىء قليل من فرنسا ، وأننى أرى شيئا خارجا من أرواحكم المتجمعة حولى ، شيئا أخاذا وجليلا ، يشبه النور ، هو بسمة الوطن •

اننى أشرب نخب الصحافة ! نخب سلطانها ومجدها وقوتها ! وحريتها فى بلجيكا والمانيا وسويسرا وايطاليا وأسبانيا وانجلترا وأمريكا ، وخلاصها فى سائر أنحاء العالم •

---

(١) ابن حام ، سلف الكنعانيين ــ اسم أعطاه الاسرائيليون لفلسطين قبل الاستيلاء عليها ، فكانت الأرض الموعودة لهم من قبل الله ، ونهاية تنقلاتهم بعد مغادرتهم لمصر • الموسوعة العربية الميسرة •

٤

مأدبة الأطفال
الى الناشر كاستيل

اوتفيل هاوس ، فى ٥ أكتوبر ١٨٦٢

عزيزى السيد كاستيل

وقع تحت انظارك ، بعامل الصدفة ، بعض تجارب الرسوم التى أجريتها بيدى ، فى ساعات كنت أقضيها فى تأمل شبيه بالذهول ، بما كان فى ريشتى من بقـــايا حبر ، وذلك على بعض هوامش أو اغلفـــة المخطوطات • وتبدى رغبتك فى نشر هذه الأشياء • ويبدى الحفار البارع السيد بول شينى استعداده لعمل صور منها مطابقة للأصل • وتطلبون موافقتى • ومهما كانت موهبة السيد بول شينى الجميلة ، فانى أخشى أن هذه الخطوط المبعثرة التى أجرتها الريشة على الورق فى غير حذق بيد رجل عنده مشاغل أخرى ، ليست بالمرة رسوما بمعنى الكلمة لمجرد الادعاء بأنها رسوم • ومع ذلك تصر على نشرها • وأنا أوافق • هـــذه الموافقة لشىء ربما كان يدعو الى الضحك والسخرية ، تحتاج الى تفسير • اليك اذن الأسباب :

أقمت منذ قليل فى دارى بجيرنسيى جمعية أخوية عملية ، أردت أن أنميها وأعمل بصفة خاصة على توسيع نطاقها • انهـــا عمل زهيد لا يستحق أن أتكلم عنه ؛ وجبة أسبوعية للأطفال المعوزين • ففى كل أسبوع تشرفنى بعض الأمهات الفقيرات بالحضور بأطفالهن لتناول طعام الغداء بمنزلى • وكان عندى فى البداية ثمانية من هؤء الأطفال ، ثم خمسة عشر ؛ وعندى الآن اثنان وعشرون طفلا (١) • ويتغذى هؤلاء الأطفـــال معا ، ويختلطون بعضهم ببعض ، فمنهم كاثوليك وبروتستانت وانجليز

(١) زاد هذا العدد فيما بعد حتى بلغ الأربعين •

وفرنسيون وايرلانديون ، لا تمييز بينهم بسبب الدين أو الوطن • أدعوهم الى الضحك والسرور وأقول لهم : كونوا أحرارا • ويستهلون الوجبة ويختمونها بالشكر لله ، بعبـــارة بسيطة بعيدة عن الصيغ الدينية التى قد تؤثر فى مداركهم • وأتولى خدمتهم مع زوجتى وابنتى وزوجة أخى وأولادى وخدمى • ويأكل الأطفال لحما ويشربون نبيـــذا ، وهـــذان شيئان ضروريان للأطفال • وبعد ذلك يلعبون ويذهبون الى المدرسة • ويأتى أحيانا بعض القساوسة الكاثوليك والبروتستانت ومعهم بعض ذوى الفكر الحر وبعض المنفيين من الديموقراطيين ليشهدوا هـــذه الوليمـة المتواضعة ، فلا الحظ على اى واحد منهم أنه قد استاء • وأوجز القول • ولكن يبدو لى أننى قلت ما يكفى لايضاح أن هذه الفكرة ، فكرة تقديم الأسر الفقيرة داخل الأسر الأكثر يسارا ، فى سهولة ومساواة ، فـــكرة يغذيها رجال أفضل منى ، وعلى الأخص قلوب النساء ، فكرة قد لا تكون رديئة ، وأعتقد أنها عملية وخليقة بأن تعطى ثمارا طيبة ، ولذلك أتحدث عنها حتى يقتدى بها من يشاء ، ومن يكون قادرا على تنفيذهـــا • وليس هذا من قبيل الصدقة ولكنه من قبيل الأخوة • وهذا الضرب من دخول الأسر الفقيرة فى أسرنا يعود علينا بالفائدة كما يفيدها ، وهو بداية للتضامن ، ومحرك للصيغة الديموقراطية المقدسة : الحـــرية والمساواة والاخاء ويدفعها أمامنا • انه الاتحاد بيننا وبين اخواننا الأقل منا حظا • نحن نتعلم أن نقوم على خدمتهم وهم يتعلمون أن يحبونا •

وأعتقد يا سيدى أننى عندما أفكر فى هذا العمل الصغير استطيع أن أضحى بشىء من عزة نفسى فأصرح لك بالنشر الذى ترجـوه • وسوف يسهم عائد هذا النشر فى تكوين رأس مال لأطفالى الصغار الفقراء • ها هو ذا الشتاء • قد أقبل ، ولن يضيرنى فى شىء أن أمنح ثيابا لأولئك الذين يرتدون أسمالا بالية ، وأحـذية لأولئك الذين يسيرون بأقدام عارية • ولسوف يكون نشرك لرسومى عونا لى فى ذلك ، وتشجعنى هذه المعونة على التصريح لك بالنشر • واعترف بأننى لم أكن أتصور بالمرة أن رسومى ، كما تفضلت بتسميتها كذلك ، خليقة بأن تجذب انتباه ناشر خبير مثلك وفنان مثل السيد بو شيرى • فلتتحقق رغبتكما • ولسوف تستخلص الرسوم كل ما تستطيع استخلاصه من هذا النشر العريض الذى لم تكن مهيأة له بالمرة • وسيكون للنقد حق على هذه الرســوم ، حق ارتجف من وطأته • وهأنذا أتركها تحت رحمته • وانى لواثق دواما أن أطفالى الصغار الأغرار الفقراء سوف يجدونها حسنة للغاية •

أنشر اذن هذه الرسوم يا سيد كاستيل ، وتقبل كل ما أتمناه لك من نجـــاح •

فيكتور هوجو

٥

جنيف وعقوبة الاعــــدام

فى الأشهر الأخـــيرة من عـــام ١٨٦٢ ، راجعت جمهورية جنيف دستورها • وعرضت مسألة عقوبة الاعدام • وأبقى التصويت الأول على آلة الاعدام ، وكان لزاما اجراء تصــويت ثان • وفــكر الجمهــوريون التقدميون فى جنيف فى فيكتور هوجو ، فكتب له الســـيد بوست ، أحد أعضاء الكنيسة البروستانتية ، وصاحب الكثير من المؤلفات القيمة خطابا نطالع فيما يلى سطوره الأخيرة •

« صوتت الجمعية التأسيسية فى جنيف مؤيدة الابقاء على عقوبة الاعدام بثلاثة وأربعين صوتا ضد خمسة أصوات • ولكن لابد أن تعرض هذه المسألة ثانية عما قريب فتناقش من جديد • فاذا كان بوسعك أن تتدخل فى المسألة ببضع كلمات من عندك ، كان ذلك عونا كبيرا وقوة جديدة لنا ، فهى ليست مجرد مسألة اقليمية أو اتحادية ، وانمــا هى مسألة اجتماعية وانسانية ، كل ضروب التدخل فيها مشروعة • فلابد من عظماء الرجال فى الأمور العظام • ومناقشاتنا فى حاجة الى عبقرية • تنير لها السبيل • وسوف تكون المساعدة التى تأتينا من تلك الصخرة التى تتجه اليها الكثير من الأنظار عونا كبيرا لنا أجمعين » •

وصل هذا الخطاب الى فيكتور هوجو فى يوم ١٦ نوفمبر • وفى يوم ١٧ منه أجاب قائلا :

أوتفيل هاوس ، فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٢

ســـيدى :

أحسنت صنعا ؛ انتم فى حاجة الى المعونة ، وتخاطبوننى فى ذلك ، وأنا أشكركم • تنادوننى وأنا أبادر بتلبية النداء • ما الأمر ؟ هانذا •

جنيف على مشارف أزمة من تلك الأزمات الطبيعية التى تسجـــل

التغيرات فى الأطوار بالنسبة الى الأمم والأفراد • انتم بسبيل مراجعة دستوركم ، وأنتم تحكمون بلادكم بأنفسكم ، أنتم سادة ، وأحرار • أنتم جمهورية • وسوف تعملون عملا جسيما ، سوف تعدلون ميثاقكم الاجتماعى ، وتدرسون موقفكم من التقدم والحضارة ، وتتفاهمون فيما بينكم بشأن المسائل المشتركة • وسوف ينفتح باب المناقشة ، ويظهر من بين المسائل المدرجة فى جدول الأعمال أخطر المسائل قاطبة ، مسألة حصانة الحياة البشرية •

تلك هى عقوبة الاعدام •

واأسفاه ! متى نكف عن التدحرج والسقوط على المجتمع الانسانى، من أعلى تلك الصخرة الكالحة ، صخرة سيسيف (١) تلك الكتلة من الحقد والطغيان والظلام والجهل والظلم ، والتى يسمونها القصاص ؟ متى يستبدل بكلمة العقاب كلمة التعليم ؟ متى يدرك الناس أن المذنب انسان جاهل ؟ الثأر ، العين بالعين والسن بالسن ، والشر بالشر ، هذا هو بالتقريب قانوننا • متى يكف الثأر عن ذلك الجهد القديم الذى يبذله حين يعطينا العوض باسم القصاص ؟ أيظن أنه يخدعنا ؟ لا فرق بينه وبين الغدر حين يسمى نفسه « المصلحة العليا للدولة » ، ولا بينه وبين قتل الانسان لأخيه الانسان حين يرتدى الزى العسكرى ويسمى نفسه « الحرب » • وعبثا حاول « دى ميستر » (٢) أن يزين دراكون (٣) ويموهه ، فالبلاغة الدموية لا طائل من ورائها ، اذ هى لا تستطيع أن تخفى التشوه الواقعى الذى تداريه • والسفسطائيون أشخاص يموهون الحقائق ولكن دون فائدة • الظالم يبقى ظالما ، والقبيح يظل قبيحا • من الكلمات ما هى أقنعة ، ولكنا نستطيع أن نلمح ظلال الشر خلال ثقوبها •

متى اذن ينطبق القانون على الحق ؟ متى تتوافق العدالة البشرية مع العدالة الالهية ؟ متى يفهم أولئك الذين يقرأون التوراة أن قابيل قد خلص بحياته ؟ متى يفهم أولئك الذين يقرأون الانجيل صلب المسيح ؟

---

(١) كائن اسطورى ، مرهوب الجانب بسبب قوته وما يقترفه من ضروب السلب والنهب • حكم عليه بعد موته أن يدحرج فى الجحيم حجرا كبيرا على قمة جبل ، فيقع الحجر من الجبل أبد الآباد • « وصخرة سيسيف » تعبير ينصرف معناه الى العمل الشاق الذى لا يتوقف أبدا — المترجم •

(٢) جوزيف دى ميستر (١٧٥٤ — ١٨٢١) كاتب فرنسى ، اشتغل بالسياسة ، وكان سفيرا لبلاده فى سردينيا وبطرسبرج — المترجم •

(٣) دراكون — كبير القضاة ، ومشرع فى أثينا • كانت قوانينه شديدة القسوة حتى قيل انها قد كتبت بالدماء ، وجرت قسوته هذه مجرى الأمثال — المترجم •

متى ينصت الناس الى الصوت الحي القوى الذى يرتفع من أغوار المجهول فى ظلماتنا قائلا « لا تقتل أبدا ! » • متى يدرك أولئك الذين يعيشون فى هذه الدنيا ، من قاض وقس وشعب وملك أن هناك من هو فوقهم ؟ جمهوريات بها عبيد ، ملكيات لها جنود ، مجتمعات بها جلادون ، القوة فى كل مكان ، أما الحق فليس له مكان • تعسا لكم يا سادة العالم البائسين ، يا ديدان العلل ، وثعابين الغرور •

وتتاح للتقدم فرصة يستطيع فيها أن يخطو خطوة الى الأمام • سوف تناقش جنيف مسألة عقوبة الاعدام ، ومن ثم حررت خطابك يا سيدى تطلب منى فيه أن أتدخل فى النقاش وأشترك فيه ، وأقول كلمتى • وأخشى أنك تبالغ فى اعتقادك بفعالية كلمة واحده عزلاء ككلمتى • فمن عساى أكون ؟ وماذا بوسعى أن أفعل ؟ ها قد انقضت سنون طويلة منذ عام ١٨٢٨ ، وأنا أكافح ، بقوى الانسان الواهية ضد ذلك الشىء الهائل المتناقض البشع ، ضد عقوبة الاعدام التى تتشكل من قدر كاف من العدالة لارضاء جمهور الناس ، وقدر كاف من الظلم لافزاع الرجل المفكر • وهناك آخرون غيرى فعلوا أكثر وأحسن مما فعلت • كل ما هنالك أن عقوبة الاعدام قد تخلت عن بعض ميادينها ، واعتراها الشعور بالخزى فى باريس وسط كل ذلك الضياء • وفقد الجيوتين ثقته بذاته ، ولم يتنازل مع ذلك عن مركزه • ولما طرد من ميدان « جريف » ظهر عند بوابة « سان جاك » ، ولما طرد من بوابة سان جاك ، ظهر فى ميدان « روكيت » • انه يتقهقر ، ولكنه مع ذلك باق •

وما دمت تطلب يا سيدى مساعدتى ، فانى مدين لك بها • ولكن لا تبالغ فى تصور أهمية نصيبى فى انجاح هذا العمل اذا كتب له النجاح • وأكرر لك القول اننى منذ خمس وثلاثين سنة وأنا أحاول أن أقاوم الاعدام فى المبادين العامة • لقد نددت دون هوادة بذلك الضرب من التعدى الذى يقترفه القانون الدنيوى على القانون السماوى • واستثرت الضمير العالمى ، وهاجمت ذلك الجور بالمنطق ، وبالشفقة التى هى اسمى ألوان المنطق • وناضلت اجمالا وتفصيلا تلك العقوبة العمياء المفرطة التى تقتل ، فكنت أحيانا أعالج الفكرة العامة محاولا أن أصيب هذا العمل وأجرحه فى مبدئه ، وجاهدا أن أهدم آلة الاعدام برمتها والى غير رجعة ، وليس آلة معينة بالذات ؛ وفى أحيان أخرى اكتفى بحالة معينة وأتغيا انقاذ حياة انسان واحد • ونجحت أحيانا ، ولكنى فشلت فى أكثر الأحيان • وأخلصت بعض النفوس النبيلة لهذه المهمة • ومنذ أقل من عشرة شهور ، نجحت الصحافة البلجيكية فى انقاذ سبعة رءوس

بين تسعة من المحكوم عليهم بالاعدام فى شارلروا ، اثر المساعدة القوية التى قدمتها الى تلك الصحافة عند تدخلى فى صالح هؤلاء الناس .

لقد هدم كتاب القرن الثامن عشر عقوبة التعذيب . ولا شك عندى فى أن كتاب القرن التاسع عشر سوف يهدمون عقوبة الاعدام . لقد نجحوا فى فرنسا من قبل فى محو عقوبة قطع اليد والحرق بالحديد المحمى بالنار ، والغاء الموت المدنى ، واقترحوا تلك الوسيلة الوقتية الرائعة ، وسيلة الظروف المخففة . قال النائب سالفيرت : « نحن ندين لبعض الكتب القبيحة ككتاب « اليوم الأخير فى حياة محكوم عليه بالاعدام » بادخال ذلك الأسلوب الممقوت ، اسلوب الظروف المخففة . والحقيقة أن الظروف المخففة هى بداية الغاء عقوبة الاعدام . والظروف المخففة فى القانون كالاسفين فى شجر البلوط . فلنتناول المطرقة الالهية وندق بها على الاسفين دون هوادة ، دقات الحقيقة القوية ، فلسوف ينشدخ النطع .

واعترف بأن هذا العمل سوف يتم ببطء ، ومع ذلك فعلينا الا نقنط . فجهودنا لن تكون دائما عديمة الفائدة ، حتى فى التفاصيل الدقيقة . ذكرتكم منذ هنيهة بواقعة شارلروا ، وهأنذا أذكر لكم واقعة أخرى .. فمنذ ثمانية أعوام ، أى فى عام ١٨٥٤ ، حكم فى جيرنسيى على رجل يدعى « تابز » بالاعدام شنقا . وتدخلت ، ووقع ستمائة شخص من أعيان الجزيرة على التماس بالعفو . وشنق الرجل . والآن اسمعوا . وصلت الى أمريكا بعض الصحف الأوروبية التى تحوى الخطاب الذى حررته لأهالى جيرنسيى لمنع تنفيذ حكم الاعدام ، وصلت فى الوقت المناسب لكى يعاد نشر هذا الخطاب بصورة مجدية فى الصحف الأمريكية ، اذ سوف يشنق فى كويبك رجل يدعى جوليان . واعتبر شعب كندا الخطاب الذى كتبته لشعب جيرنسيى كأنه موجه اليه — أى الى شعب كندا — وبمشيئة الله أنقذ هذا الخطاب « جوليان » الذى لم يكن يقصده أصلا ، لا تابز الذى كان محررا من أجله . لماذا أذكر هذه الوقائع ؟ لأنها تبرهن على ضرورة الثبات والاصرار . ولكن واأسفاه ، فان آلة الاعدام تصر هى الأخرى على البقاء .

ولم تزل احصائيات الجيوتين والمشنقة تحتفظ بمستوياتها الفظيعة . ولم تنقص أرقام القتل الشرعى فى أى بلد . بل لقد حدثت نكسة منذ عشر سنوات ، عندما ضعفت المشاعر الخلقية ، فاستردت عقوبة الاعدام خطورتها . وانتم أيها الشعب ، شهدتم فى مدينتكم جنيف وحدها آلتى جيوتين أقيمتا فى غضون ثمانية عشر شهرا . حقا ، لماذا لا يعدم

« ايلسى » بعد أن أعدم « فارى » ؟ فى أسبانيا آلة ضغط الشرايين ؛ وفى روسيا الاعدام ضربا بالعصى ؛ وفى روما ، تستبشع الكنيسة سفك الدماء ، ومن ثم تزهق أرواح المحكوم عليهم بالاعدام اغتيالا أما فى انجلترا التى تحكمها امرأة ، فانها شنقت امرأة ·

هذا الأمر لا يمنع العقوبات القديمة من اطلاق الأصوات القوية ، والاحتجاج بأن الناس يفترون عليها ، ومن التظاهر ببراءتها · الناس يكثرون من الحديث عنها ، وهذا شيء مخيف · لقد كانت دائما وديعة ورقيقة · انها تصنع قوانين تبدو فى ظاهرها قاسية ، ولكنها لا تستطيع تطبيقها · هى التى أرسلت جان فالجان الى الليمان من أجل قطعة خبز سرقها ! ما أعجب ذلك ! حقا ، انها أرسلت الى الاشغال الشاقة المؤبدة فى عام ١٨١٦ الثوار الجائعين فى مقاطعة السوم ، وفى عام ١٨٤٦ ··· يا للأسف ، ان أولئك الذين يعتبون على سجن جان فالجان فى الليمان ينسون جيوتين بوزانسيه ·

كانت نظرة القانون الى الجوع على الدوام نظرة عكسية · لقد تحدثت منذ هنيهة عن عقوبات التعذيب الملغاة · عظيم ! · ولكن لم يزل التعذيب قائما فى عام ١٨٤٩ · أين ؟ فى الصين ؟ لا ، بل فى سويسرا · فى بلدك يا سيدى · فى أكتوبر ١٨٤٩ ، فى مدينة « زوج » (١) ، أراد قاضى التحقيق أن يحمل لصا سرق قطعة جبن على الاعتراف بجرمه (سرقة مادة غذائية · الجوع أيضا !) ، واللص فتاة تدعى ماتيلد فيلدمبرج ، فضغط على ابهاميها فى مكبس ، ورفع التعسة الى السقف بواسطة بكرة وحبل مربوط بالمكبس ، وهكذا أصبحت معلقة من ابهاميها ، وجعل مساعد الجلاد يضربها بالعصا · وفى عام ١٨٦٢ كان التعذيب بالسياط لم يزل مطبقا فى جيرنسيى · وفى الصيف الماضى جلد رجل يدعى « تورود » فى الخمسين من عمره ؛ وكان هو أيضا جائعا ، فأصبح لصا ·

لا ، علينا الا نيأس ، ولنشعل الثورة ، ثورة الفلاسفة للتخفيف من قسوة القوانين · لننقص العقوبات ، ونزيد التعليم · ولنقدر الخطوات التى يجب أن نتخذها من واقع الخطوات التى اتخذت من قبل ! ما أجل الظروف المخففة ! انها كانت خليقة بأن تمنع حدوث ما سوف أقصه عليكم الآن ·

كنت مارا بميدان « دار القضاء » بباريس ظهر يوم من أيام صيف عام ١٨١٨ أو ١٨١٩ ، فوجدت حشدا من الناس حول عمود من الخشب · واقتربت · كان هناك مخلوق بشرى ، امرأة شابة ، فتاة ، مربوطة الى

---

(١) مدينة فى سويسرا ــ المترجم ·

العمود بسلسلة حديدية تطوق عنقها ، ولافتة معلقة من رأسها • وأمامها عند قدميها موقد ممتلىء فحم منقد وقطعة من حديد بيد خشبية ، مغمورة فى الجمرة ، والحديد يزداد احمرارا ، وجمهور الناس يظهرون الرضا • كانت المرأة مدانة بذلك الجرم الذى يسميه القضاء « سرقه خدم المنازل » ، ويسمى بأسلوب مجازى « رقصة أذن السلة » (١) • وفجأة دقت الساعة الثانية عشرة ظهرا ، فصعد رجل على المنصة خلف المرأة دون أن تراه • ولاحظت أن صدار المرأة الصوفى الخشن كان به من الخلف شق مضموم بشرائط مبرومة • وفك الرجل الشرائط بسرعة ، وفتح الصدار ، وعرى ظهر المرأة حتى الخاصرة ، وأمسك الحديدة الموضوعة فى الموقد وضغطها بشدة وعمق على الكتف العارى • واختفى الحديد ويد الجلاد عن الأنظار فى دخان أبيض • ولم تزل الصرخة الفزعة التى أطلقتها المـــرأة المعذبة تدوى فى أذنى رغم انقضاء أكثر من أربعين سنة ، وسوف تبقى فى نفسى أبد الآباد • كانت المرأة سارقة ، ولكنى اعتبرتها شهيدة • وبرحت ذاك المكان وأنا وقتئذ فى السادسة عشرة ، وقد صح عزمى على أن أناهض ما حييت مساوىء القانون •

ومن أسوأ هذه الأعمال عقوبة الاعدام • وكم شهدنا منها ، حتى فى القرن الحاضر ، بل وفى المحاكم العادية ، وبسبب جنح عادية ! وفى ٢٠ أبريل ١٨٤٩ ، أعدمت فى بريستول فتاة تدعى سارة توماس فى السابعة عشرة لأنها فى لحظة غضب قتلت سيدتها التى كانت تضربهـا فضربتها بقطعة من حطب • وكانت المحكوم عليها لا تريد أن تموت ، ومن ثم كان لابد أن يجرها سبعة من الرجال الى المشنقة • وشنقت قسرا • وفى اللحظة التى عقدت فيها الأنشوطة على عنقها ، سألها الجلاد عما اذا كان لديها كلام تبعث به الى والدها ، فكفت عن عويلها لتقول له : نعم ، قولوا له انى أحبه • وفى مطلع هذا القرن ، فى عهد جورج الثالث ، حكم فى لندن بالاعدام على ثلاثة أطفال من طبقة لابسى الخرق ، بتهمـة السرقة • وذكرت صحيفة « نيوجيت كالندر » أن أكبرهم لم يكن يبلغ وقتئذ الرابعة عشرة • وشنق الأطفال الثلاثة •

ماذا يرى الناس اذن فى القتل ؟ كيف ! أيمتنع على القتل وأنا فى الزى العادى ، ويباح لى القتل وأنا فى ثوب القضاء ! عباءة القضاة مثل الثوب الكهنوتى الذى كان يلبسه ريشليو ، تبيح كل شىء ! آه ، أرجوكم ، لا تأخذوا بثأرى ، وأقول لكم ان هذا قتل ، وقتل • هل قتل الانسان

---

(١) تعبير فرنسى يقصد به ما يفعله بعض خدم البيوت من الحصول من مخدوميهم على مبالغ تزيد عما أنفقوه فى شراء حاجيات المنزل ــ المترجم •

مباح فى غير حالة الدفاع الشرعى بأضيق معانيه (اذ انه بمجرد أن يسقط المعتدى عليك جريحا ، يصير من واجبك أن تنقذه) ! مثل الشىء الذى يحرم على الفرد يباح للجمهور ؟ هاكم الجلاد . قاتل من طراز عجيب ، انه القاتل الرسمى ، المرخص له ، الموظف ، الأجير ، المكلف بالقتل فى أيام معينه ، الذى يشتغل فى علانية ويقتل فى وضح النهار ، ويستخدم « أخشــاب العداله » عدة له ، ونثبت له صــفة قاتل الدوله ! القاتل الموظف ، القاتل الذى يتخذ القانون مقرا له ، القاتل باسم الجميع ! انه يملك تفويضى وتفويضكم فى العمل . يخنق ويذبح . ثم يضرب على كتف المجتمع ويقول له : أنا أعمل من أجلك ، فادفع لى أجرى . انه القاتل بحكم القانون ، القاتل الذى تقررت مهمته ، مهمة القتل . بأمر المشرع ، وتداول المحلفون بشأنها ، وأصدر القاضى حكمه بها . وأمن القس عليها ، وقام الجندى بحراستها ، وراح الشعب يتفرج عليها . انه القاتل الذى يحظى أحيانا بعطف القتيل . لقد ناقشت . أنا الذى أخاطبكم ، هذه المسألة مع محكوم عليه بالاعدام يدعى ماركيز . كان من مؤيدى فكرة عقوبة الاعدام ، كما ناقشت هذه المســألة أيضا قبل قضية مشهورة بسنتين ، مع أحد رجال القضـــاء ويدعى « بيست » كان من أنصار العقوبات المخلة بالشرف ، فلتفكر الحضارة فى أنها مسئوله عن عمل الجلاد . آه ! تمقتون القتل حتى تقتلوا القاتل . أما أنا فأكره القتل لدرجة أنى أمنعكم من أن تصيروا قتلة . الناس كلهم ضد فرد واحد ، والقدرة الاجتماعية متركزة فى الجيوتين ، وقوة الجماعة مستخدمة لازهاق روح انسان ، ما أبشع كل هذا ! قتل الانسان انسانا آخر عمل يرهب الفكر ، أما قتل الناس جميعا انسانا واحدا فانه عمل يفزعه .

أمن الضرورى أن أكرر لكم دواما ما أقول ؟ كان هذا الرجل فى حاجة الى كل ما تبقى له من العمر ليتعرف الى نفسه ، ويقومها ، ويتخلص من المسئولية التى تثقل روحه . ولكنكم تمنحونه بضع دقائق ! بأى حق ؟ كيف تجرأون على أن تتحملوا مسئولية هذا العمل الرهيب الذى يجتث مختلف ظواهر التوبة والندم ؟ أتدركون ماهية هذه المسئولية التى تلعنونها ، والتى تنقلب ضدكم فتصبح مسئوليتكم أنتم ؟ أنكم تعملون أكثر من مجرد قتل انسان . انكم تقتلون ضميرا .

بأى حق تجعلون الله قاضيا قبل الســاعة ؟ أية صفة تبرر لكم رفع القضية أمامه ؟ هل هذا القضاء درجة من درجات قضائكم ؟ هل تضعون محكمتكم مع المحكمة الالهية فى مستوى واحد ؟ هناك احتمالان : فاما أنكم مؤمنون بالله أو غير مؤمنين . فان كنتم مؤمنين ، كيف تجرؤون على أن تلقوا بروح خالدة الى عالم الأبدية ؟ وان كنتم غير مؤمنين ، كيف تجرؤون على أن تلقوا بكائن حى الى العدم ؟

هناك فقيه من فقهاء القانون الجنائى ، أجرى التفرقة الآتية :
« من الخطأ أن نقول : اعدام ، وانما يجب أن نقول : اصلاح • المجتمع لا يقتل وانما يجتث » • ونحن قوم علمانيون ، ومن ثم لا نفهم هذه الأمور الدقيقة •

الناس ينطقون كلمة العدالة ! آه ، تلك الفكرة الجليلة الموقرة بين كل الفكر ، ذلك التوازن الفائق ، تلك الاستقامة المتصلة بأغوار الأمور ، ذلك الوسواس الخفى الذى يغترف من المثل العليا ، تلك الاستقامة المطلقة المختلطة بالرجفة ازاء الضخامة الأبدية الفاغرة امامنا ، تلك الحشمة الطاهرة التى لا تتحيز ولا تحابى ، تلك الموازنة التى تشمل ما لا وزن له ، ذلك المفهوم الذى يتركب من الأشياء كلها ، ذلك التسامى بالحكمة الممتزجة بالرأفة ، ذلك الفحص الذى تجريه عين الاله للأفعال البشرية ، تلك الطيبة الصارمة ، ذلك الشعاع الساطع الذى ينبثق من الضمير العالمى ، ذلك التجرد ، تجرد المطلق الذى يغدو واقعا دنيويا ، ذلك المرأى ، مرأى الحق ، ذلك الوميض ، وميض الأبدية الذى يتجلى للانسان: تلك هى العدالة ! تلك البصيرة المقدسة ، بصيرة الحق التى تحدد بوجودها وحده المقادير النسبية للخير والشر ، والتى تنير وجدان الانسان فتجعله فى تلك اللحظة الها ، ذلك الشيء الكامل الذى يتناسب بحكم قانونه مع اللانهاية ، ذلك الجوهر السماوى الذى جعلت منه الوثنية الهة • وجعلت منه المسيحية كبير الملائكة ، تلك الصورة الشاسعة التى تضع قدميها على قلب الانسان وجناحيها فى النجوم ، ذلك « اليونجفراو » (١) للفضائل الانسانية ، تلك الذروة ، ذروة الروح ، تلك العذراء • ياللاله الطيب ، الاله السرمدى ، أمن الممكن أن نتصوره واقفا على الجيوتين ؟ أمن المستطاع أن نتصوره وهو يعقد سيور « طبلية » المشنقة على مآبض انسان بعس ؟ أفى المستطاع أن نتخيله وهو يفك بأصابعه النورانية الخيط البشع الذى يشد سكين المقصلة ؟ ونتخيله وهو يكرس الجلاد ، ذلك الخادم الرهيب ويحط من قدره فى آن واحد ؟ ونتخيله وهو معروض ومبسوط وملصق بيد مثبت الملصقات على العمود المشين الذى يشد اليه المجرمون ؟ أيمكن أن نتمثله محبوسا يتنقل فى تلك الحقيبة الليلية ، حقيبة الجلاد « كالكرافت » التى اختلط فيها مع الجوارب والقمصان الحبل الذى شنق به بالأمس بعضهم وسوف يشنق به فى الغد غيرهم •

وطالما وجدت عقوبة الاعدام ، فان الانسان سوف يشعر بالبرودة حين يدخل فى محكمة الجنايات فيجدها كئيبة مظلمة •

---

(١) قمة عالية فى سويسرا — المترجم •

حدث في بلجيكا ، في شهر يناير الماضي ، أثناء مناقشات شارلروا ــ ونذكر في هذه المناسبة أنه قد اتضح خلالها من بعض المعلومات التي كشف عنها شخص يدعى « رابيه » أن اثنين من الذين أعدموا بالجيوتين في السنوات الماضية ويدعيان جوتال وكوبك كانا على ما يحتمل بريئين (ويا له من احتمال !) ــ نقول انه حدث خلال هذه المناقشات ، وازاء الكثير من الجرائم المتولدة من أعمال العنف التي تنسب الى الجهل ، ان ظن أحد المحامين أن من واجبه وفي مقدوره أن يثبت ضرورة التعليم المجاني الالزامي • ولكن النائب العام قاطعه وقال له ساخرا : ايها المحامي ، لسنا هنا في مجلس النواب • كلا يا سيدي النائب العام ، بل هنا القبر •

ولعقوبة الاعدام صنفان من الأنصار : فبعضهم يفسرها ، وبعضهم يطبقها ، وبتعبير آخر أولئك الذين يتناولون النظرية ، وأولئك الذين يتكلفون بالتطبيق • ولكن النظر والتطبيق لا يتفقان ، فهما يتعارضان بصورة عجيبة • وليس عليكم ، لكي تهدموا عقوبة الاعدام الا أن تفتحوا باب المناقشة بين النظر والتطبيق • والأجدر أن تستمعوا الى • أولئك الذين يريدون الاعدام ، لماذا يريدونه ؟ هل ذلك لأن الاعدام عبرة للناس ؟ تقول النظرية ، نعم أما التطبيق فيقول لا ، ومن ثم فهو يخفي منصة الاعدام بقدر ما يستطيع ، ويهدم مونفوكون (١) ، ويلغي المنادي العام ، ويتجنب أمام السوق ، ويقيم آلته في منتصف الليل ، وينجزعمله في وقت السمر • وفي بعض البلاد ، في أمريكا وروسيا يشنق الناس وتقطع رءوسهم في غير علانية • فهل ذلك لأن عقوبة الاعدام عادلة ؟ يقول النظري نعم ، فالمذنب ينال جزاءه ويقول العلمي لا • ذلك لأنه لا بأس من أن يعاقب الرجل ويعدم ، ولكن من تكون هذه المرأة ؟ انها أرملة • ومن هؤلاء الأطفال ؟ انهم أيتام • لقد ترك الميت كل هؤلاء وراءه ، ترك أرملة ويتامى ، أي أن هؤلاء قد وقع بهم القصاص في حين انهم أبرياء أين عدالتكم ؟ ولكن اذا لم تكن عقوبة الاعدام عادلة ، فهل ياترى نافعة ؟ يقول النظري نعم فالجثة الهامدة تبعث في نفوسنا الهدوء • ويقول العلمي لا لأن تلك الجثة تخلف لك أسرة تجعلها تحت وصايتك : أسرة بلا أب ولا خبز • وها هي الأرملة تبيع عرضها لتعيش ، وها هم الأيتام يسرقون ليأكلوا •

كان دومولار الذي سرق في سن الخامسة يتيما ، من أب أعدم بالجيوتين •

---

(١) موضع كان فيما مضى خارج اسوار باريس ، وفيه مشنقة مشهورة شيدت في القرن الثالث عشر ــ المترجم •

لقد تلقيت منذ بضعة شهور اهانة شديدة لانى تجاسرت على القول بأن فى هذه الحالة ظرفا مخففا .

من الجلى أن عقوبة الاعدام ليست عبرة ولا هى عادلة أو نافعة ما هى اذن ؟ انها « أنا من أنا ؟ Sum qui Sum » ان علتها كائنة فى ذاتها . ولكن عجبا ، الجيوتين للجيوتين ، كالفن للفن !

ولنجمل ما قلنا .

هكذا المسائل كلها تدور دون استثناء حول عقوبة الاعدام ، المسألة الاجتماعية ، والمسألة الأخلاقية ، والمسألة الفلسفية ، والمسألة الدينية . ترى هل ألممتم بهذه المسألة الأخيرة بنوع خاص ؟ هذه المسألة البعيدة الأغوار ؟ آه ، اننى الح فى هذه النقطة . هل فكرتم فى ذلك ، أنتم الذين تريدون الموت ؟ هل تأملتم فى هذه السقطة المفاجئة التى تهوى بحياة بشرية فى اللانهاية ، سقطة غير متوقعة فى الأغوار ، تقع على غير موعد ، مفاجأة رهيبة تحدث سرا ؟ أنكم تضعون هناك قسا ، ولكن القس يرتجف مثلما يرتجف المحكوم عليه بالاعدام . انه أيضا لا يعلم شيئا . تطمئنون السواد بالظلام .

ألم تميلوا اذن على المجهول ؟ كيف تجسرون على أن تلقوا فيه بشىء ما؟ ما أن تظهر آلة الاعدام على قارعة الطريق فى احدى مدننا ، حتى تضطرب فى الظلمات التى تلف هذه النقطة الرهيبة خلجة هائلة تبدأ من ميدانكم، ميدان « جريف » ولا تتوقف الا أمام الله . وهذا التعدى يدهش الليل . تنفيذ عقوبة الاعدام ، انما هى يد المجتمع التى تمسك برجل فوق الهاوية ، ثم تنفتح اليد وتلقيه فيها . ويسقط الرجل . أما المفكر الذى يدرك بعض ظواهر العالم المجهول ، فانه يستشعر ارتجاف الظلمة العجيبة . ايه لكم أيها الناس ، ماذا فعلتم ؟ من ذا الذى يعرف اذن رعشات الظلام ؟ الى أين تذهب الروح ؟ ماذا تعلمون عن ذلك ؟

بالقرب من باريس حقل بشع يسمى « كلامار » ، موضع القبور اللعينة ، لقاء المحكوم عليهم بالاعدام . ليس به هيكل عظمى واحد معه الراس . الا أن المجتمع البشرى ينام هادئا الى جوار ذلك . لا يعنينا فى شىء وجود جبانات على سطح الأرض ، من صنع الله ، والله أعلم بالحكمة فى ذلك . ولكن هل يستطيع الانسان أن يفكر فى هذا الشىء دون أن يرتعب ، يفكر فى جبانة من صنع الانسان ؟

لا ، خليق بنا أن نردد هذه الصيحة : لا مشنقة بعد اليوم ! الموت للموت !

اننا نتعرف على الرجل المفكر بنوع من الاحترام الغامض الذى يكنه للحياة • وأعلم تمام العلم أن الفلاسفة بهم مس من جنون — ترى من يحتمدون عليه ؟ الواقع أنهم يطالبون بالغاء عقوبة الاعدام ! ويقولون انها حداد الانسانية • حداد ! فليمضوا اذن ليشهدوا جمهور الناس وهم يبكون حول المشنقة ! فليرجعوا اذن الى الواقع ! اننا نجد الضحكة فى الموضع الذى يؤكدون فيه قيام الحداد • هؤلاء الناس يحلقون مع السحاب ، يحتجون بالوحشية والهمجية لان الناس ينسون رجلا أو يقطعون رأس رجل من وقت الى آخر • يالهم من حالمين ! أيفكرون فى محو عقوبة الاعدام ؟ هل فى الامكان أن يتصور الانسان شيئا أشد سرفا من هذا ؟ عجبا ! الن يكون ثمة مشنقة ، ولا حرب ! الن يقتل انسان بعد اليوم ! أسألكم ، هل فى هذا شىء من الصواب ! من عساه يخلصنا من الفلاسفة ؟ متى نتخلص من الأساليب والنظريات والمستحيلات والحماقات ؟ ولكنى أسألكم باسم من نصدر هذه الحماقات، باسم التقدم ؟ هذى كلمة جوفاء • باسم المثل الأعلى ؟ انها كلمة طنانة • لا جلاد بعد اليوم ! ولكن الام نؤول أمورنا ؟ مجتمع تخلو قوانينه من الموت ! يالها من أوهام ! ياللحياة من خيالات ! من هم كل أولئك الذين يقوءون بالاصلاحات ؟ انهم شعراء ، فلنتحرز من الشعراء • الجنس البشرى ليس فى حاجة الى هوميروس وانما هو فى حاجة الى السيد فولنسيرون •

ولعله من العجيب ان نشهد مجتمعا وحضارة يتولى قيادتهما ايسخولوس ، وسوفوكليس ، واشعيا (١) ، وأيوب ، وفيثاغورس ، وبندار ، وبلوت ، ولوكريس ، وفيرجيل ، وجوفينال ، ودانتى وسيرفانتس ، وشكسبير ، وميلتون ، وكورينى وموليير ، وفولتير • انه لأمر يثير الضحك والسخرية • ولسوف يقهقه عندئذ كل الرجال الجادين الرصينين ، ويهزون أكتافهم ازدراء ، سواء منهم فى ذلك جون بول أو برودوم • ولسوف تختلط الامور ونعم الفوضى • والخير اليقين فى ذلك نجدة فى الدوائر المختلفة ، سواء دور البورصة أو دوائر النواب العموميين وعلى أية حال ، فانكم سوف تناقشون يا سيدى من جديد هذه المسألة الضخمة ، مسألة القتل الشرعى ! تشجعوا ، ولا تتهاونوا ، وليمض أهل الخير قدما فى طريق النجاح •

ليس هناك شعب صغير • قلت هذا فى بلجيكا منذ بضعة

---

(١) أول الأنبياء اليهود الأربعة الكبار ، فى القرن الثامن قبل المسيح • مؤلف « كتاب أشعيا » — المترجم •

شهور فى صدد المحكوم عليه بالاعدام فى شارلروا ، واسمحوا لى بترديده اليوم فى سويسرا · لا تقاس عظمة الشعب بعدد أفراده ، كما لا تقاس عظمة الرجل بطول قامته · المقياس الوحيد هو كمية الذكاء والفضيلة · من يضرب مثلا عظيما فهو انسان عظيم · وسوف تغدو الأمم الصغيرة أمما عظيمة فى اليوم الذى تمارس فيه ، الى جانب الشعوب القوية عددا ، الشاسعة الاقاليم ، التى تتشبث بالمعصبات والمزاعم الباطلة ، وتوغل فى الأحقاد ، وتتمادى فى الحرب والاسترقاق والموت ، تمارس الأخوة فى هدوء وفخار ، وتمقت السلاح ، وتلغى آلة الاعدام ، وتمجد التقدم ، وتبتسم فى صفاء ، كصفاء السماء · لا جدوى من الكلمات اذا لم تكن وراءها الأفكار الجمهورية لا تكفى ، انما لا بد أيضا من الحرية ؟ والديموقراطية لا تكفى ، وانما لا بد أيضا من الانسانية · الشعب يجب أن يكون انسانا ، والانسان روحا · من الغريب أن تتقدم جنيف فى اللحظة التى تتقهقر فيها أوروبا · فلتتأمل سويسرا فى هذا ، لتفكر جمهوريتكم الصغيرة النبيلة فى جمهورية تواجه الملكيات بعقوبة الاعدام وقد ألغيت ، ولسوف يكون هذا أمرا مدهشا · وسوف يكون أمرا عظيما أن تبعث العداوة القديمة النافعة بين جنيف وروما فى مظهر جديد ، وأن يعرض على أنظار العالم المتحضر وتأملاته روما مع البابوية من جهة ، البابوية التى تقضى بالادانة والاعدام ، وروما مع جنيف ، بانجيلها الذى يعفو ويغفر ، من جهة أخرى ·

أيا شعب جنيف ، مدينتكم على بحيرة من بحيرات جنة عدن ، فأنتم فى مكان مبارك ، تحف بكم كل روائع الخليقة · ان عادة التأمل فى الجمال تكشف عن الحق وتفرض بعض الواجبات · ولا بد أن الحضارة متناسقة كالطبيعة · استشيروا كل هذه الآيات الرءوف وآمنوا بسمائكم البهية ، فالرحمة تنزل من السماء الزرقاء · أبطلوا آلة الاعدام · لا تكونوا جاحدين · وحاشا لله أن يقال ان الانسان يقدم الجيوتين لله حمدا وشكرا لذاته العلية فى ذلك الركن الرائع من أركان الأرض الذى يكشف الاله فيه للانسان عن الجلال والقدسية اللتين تتجليان فى الألب والآرف (١) والرون والليمون (٢) الأزرق ، « ومون بلال » فى هالة من شعاع الشمس ·

وعلى الرغم من السرعة التى أجاب بها فيكتور هوجو ، فان المداولة التى جرت فى لجنة الدستور كانت أسرع منها ، وعندما وصل خطاب

(١) نهر صغير فى سويسرا ·

(٢) بحيرة جنيف — المترجم ·

فيكتور هوجو كان عمل اللجنة قد انتهى · وأبقى مشروع الدستور على عقوبة الاعدام · ولم يقنط فيكتور هوجو لأن الشعب لم يعط صوته بعد، ومن ثم لم تكن المسألة قد انتهت · وعلى ذلك كتب فيكتور هوجو الى السيد بوست الرسالة التالية :

أوتفيل هاوس فى ٢٩ نوفمبر ١٨٦٢ ·

سيدى ··

وصلك الخطاب الذى تشرفت بارساله اليك فى يوم ١٧ من نوفمبر — على ما أظن — فى يوم ١٩ أو ٢٠ منه · وفى غداة اليوم نفسه الذى حررت فيه رسالتى تلك ، عرضت أمام محكمة جنايات السوم قضية « دوازجاردان » التى ألقت الأضواء على بعض الأحداث الطارئة المخيفه الملازمة لعقوبة الاعدام ، فضلا عن انها جعلت الحاجة الملحة الى مراجعة قانون العقوبات على نطاق واسع أمرا ملموسا · أما الوقائع البشعة فان من شأنها أن تؤيد ضرورة اجراء التعديلات ·

طالعت اليوم ، ٢٩ نوفمبر ، فى جريدة « لابريس » هذه السطور التى كتبت فى بيرن بتاريخ ٢٤ نوفمبر :

« نشرتم الخطاب الموجه من السيد فيكتور هوجو الى السيد بوست فى جنيف بشأن عقوبة الاعدام · وجاء نشر هذا الخطاب متأخرا بعض الشىء ، فقد أنهت الجمعية التأسيسية فى جنيف أعمالها منذ خمسة عشر يوما ، ولم يحقق الدستور الذى وضعته أمانى الشاعر ، لأنه لم يلغ عقوبة الاعدام ، حتى بالنسبة الى الجرائم السياسية » ·

كلا ، لم يفت الأوان بعد

عندما كتبت رسالتى ، كنت أخاطب الشعب الذى يقرر ، أكثر مما كنت أخاطب اللجنة الدستورية ·

وبعد بضعة أيام ، فى اليوم السابع من شهر ديسمبر ، سوف يعرض الدستور على الشعب ليقول فيه كلمته ؛ ومن ثم فلم يزل هناك بعض الوقت ·

الدستور الذى يتضمن ، فى القرن التاسع عشر ، قدرا من عقوبة الاعدام ، ليس جديرا بجمهورية · ومن يقول « جمهورية » ، يعنى صراحة « حضارة » · واذا رفض شعب جنيف المشروع الذى سيعرض عليه ، ومن

حقه ، بل من واجبه أن يرفضه ، فانه يؤدى بذلك عملا من تلك الأعمال العظيمة التى تحمل طابع السيادة والعدالة فى وقت واحد ٠

وعسى أن تجدوا فائدة من نشر هذا الخطاب

وأقدم لك ياسيدى من جديد أسمى آيات التقدير والمودة ٠

فيكتور هوجو

ونشر الخطاب ، وأعطى الشعب صوته ، ورفض مشروع الدستور. وبعد أيام قلائل استلم فيكتور هوجو هذا الخطاب :

« ٠٠ انتصرنا ، ورفض دستور المحافظين ٠ لقد أثمر خطابك الذى نشرته كل الصحف وحاربه الكاثوليك ، وطبع منه السيد بوسمت ألف نسخة ، وطبع منه الراديكاليون أربعة آلاف نسخة ؛ وجعل منه الراديكاليون وعلى رأسهم السيد جيمس فازى سلاحا للكفاح ٠ وكان رأى الأحرار الالغاء كرأيك ٠ وكان تفوقك تاما ٠ وهناك بعض الراديكاليين الذين كانوا مترددين قبلا ، منهم السيد هيروا الذى يعتبر أنه هو الذى أيد تنفيذ حكمى الاعدام فى فارى وايلسى ٠ والمجلس الكبير الذى رفض العفو عن هذين الشخصيين كان كله من الراديكاليين ٠

ومع ذلك فان الراديكاليين اجمالا قوم تقدميون ٠ والآن وقد جمعوا كلمتهم ضد عقوبة الاعدام ، فانهم لن ينكصوا على أعقابهم ٠ ويعتبر الناس هنا الغاء آلة الاعدام أمرا مؤكدا ، والفضل فى ذلك يعود اليك ياسيدى ٠ وانى لآمل أن نفوز أيضا بتقدم آخر كبير ، هو انفصال الكنيسة عن الدولة ٠

« لست ياسيدى أكثر من رجل مغمور ، ولكنى سعيد ٠ وأهنئكم كما أهنىء نفسى ٠ ويشرفنا الأثر العظيم الذى خلفه خطابك ٠ ولا يمكن لوطن السيد دو سيللون أن يصم أذنيه عن صوت فيكتور هوجو ٠

« معذرة لهذا الخطاب الذى كتب على عجل ، وتفضل بقبول عميق احترامى » ٠

ا٠ جاييه (من بونفيل)

٦

قضية دواز

الى السيد محرر جريدة « تان »

سـيدى

أرجو ياسيدى أن تتفضل بقبول تبرعى فى الاكتتاب الذى نظم من أجل دواز . على أنه لاينبغى الاقتصار على جمع المال ، فهذى حالة لعلها أسوأ من حالة « ليزورك » التى قضى فيها فى فرنسا فى القرن التاسع عشر ، اذ انتزع الاعتراف من فم امرأة حبلى ، بواسطة الخنق ، واستخدام الصدرة التى يشد بها المسجونون ، مما أدى الى جنون المرأة وقتل الجنين الذى كان فى أحشائها ، قتلا « شرعيا » بشعا ، نتيجة للتعذيب الذى وقع بها ، ثم كان سلوك قاضى التحقيق ورئيس المحكمة والنائبين العموميين ، وادانة البريئة . وعندما ثبتت براءتها بعد أن أهينت أمام محكمة الجنايات باسم العدالة ، كان لزاما أن تخر العدالة على ركبتيها أمام البريئة .. كل ذلك مسألة لا تحدى فيها النقود .

الاكتتاب شيء طيب ومفيد ومحمود بالتأكيد . وانما لابد من تعويض اسمى من ذلك . لقد أصيب المجتمع بضرر أشد مما وقع على روزالى دواز . والاهانة التى لحقت بالمدنية بالغة العمق . أما تلك التى لحقتها الاهانة الكبرى فهى العدالة .

فليكن الاكتتاب ، ولكنه يبدو لى أن على وزراء العدل ونقيبى المحامين السابقين أن يفعلوا شيئا آخر . أما من ناحيتى ، فعلى واجب لن أقصر فى أدائه .

فيكتور هوجو
أوتفيل هاوس فى ٢ ديسمبر ١٨٦٢

لم يصغ أحد الى النداء الذى وجهه فيكتور هوجو · وصدق من قال ان المنفى يحيا بالأوهام · لقد أخطأ فيكتور هوجو حين اعتقد أن وزراء العدل ونقيبى المحامين سوف يباشرون هذه القضية بأنفسهم · ولم يتخذ أى اجراء قضائى فى أعقاب الحقائق الرهيبة التى تكشفت عنها قضية دواز · ثم انه ليس فى ذلك أى شيء غير طبيعى : فالعدالة لم تباشر أبدا · دعوى ضد العدالة ·

ولنوضح هنا ، من باب التذكرة ، كيف عوملت روزالى دواز · ومن المفيد أن نضع هذه التفاصيل تحت أنظار المفكرين · فالمفكرون يسبقون المشرعين · والضوء الذى يسطع أولا فى الضمائر ، يتجلى بعد ذلك فى القوانين ·

اتهمت روزالى دواز بقتل والدها مارين دواز استنادا الى قرائن شديدة الغموض · ولم تحتمل روزالى دواز هذا الاتهام بصبر · ففى كل مرة استجوبت فيها كانت تثور ، الأمر الذى كان يصدم وقار القضاة · وفقدت المتهمة رزانتها وأفلت زمامها حسبما قيل فى محضر الاتهام ، واضطرم غيظها حتى كانت تبدو هائجة مجنونة · وما أن يكف الناس عن اتهامها حتى تهدأ نفسها وتغدو صامتة جامدة من شدة الارهاق · قال عنها شاهد : كانت تبدو كقديسة قدت من حجر ·

أرادت « العدالة » أن تعترف روزالى دواز بقتل أبيها · ولكى يحصلوا منها على هذا الاعتراف ، وضعوها فى زنزانة طولها ثمانية أقدام وعرضها سبعة وارتفاعها سبعة (١) · وكانت هذه الحجرة مغلقة بباب مزدوج · ولم يكن ثمة نور أو هواء ، اللهم الا ما كان يمر خلال فرجة « فى سعة قالب الطوب » (٢) مثقوبة فى الباب ، تفتح فى قاعة داخلية بالسجن · وكانت أرضية الحجرة مرصوفة ببلاطات مربعة ، ولم يكن بها أى مقعد ، فكانت السجينة مضطرة الى الوقوف أو الرقاد على البلاط ·

---

(١) الطول ٢ر٥ مترا والعرض ٢ر١٥ مترا والارتفاع ٢ر٤ مترا (حسب شهادة كبير السجانين) ·

(٢) سأل النائب العام كبير السجانين :
ــ هل كان فى تلك الحجرة نور بشكل ما ؟
كبير السجانين : نعم يا سيدى النائب العام ، كانت هناك فتحة باتساع قالب الطوب ·

وفى المساء ، تعطى فراشا من قش يؤخذ منها فى الصباح · وفى أحد الأركان سطل للغائط · ولم نكن نخرج أبدا ، لم تخرج الا مرتين فى ستة أسابيع · وكانوا يلبسونها أحيانا صدار المجانين (١) · وكانت حاملا ·

ولما شعرت بالجنين يتحرك اعترفت · وحكم عليها بالأشغال الشاقة المؤبدة · ومات الطفل ·

كانت بريئة ·

وهاكم فقرة من فقرات الاستجواب الذى أجرى بعد أن ثبتت براءتها · كانوا مع ذلك يوجهون الخطاب اليها باعتبارها مذنبة :

س ـ ولكنا لاندرى مع ذلك ماهى وسائل الاكراه التى استخدمت ضدك ؟

ج ـ قالوا لى : اعترفى والا فانك سوف تبقين فى الجب المظلم الذى وضعت فيه ، ولم يكن لى فيه شىء حتى الهواء ·

س ـ أى أنهم وضعوك فى السجن الانفرادى ، وهذا من حق القاضى ومن واجبه ، وقد تمسكت باعترافك خمسة أسابيع بعد خروجك من السجن الانفرادى ·

ج ـ « بانفعال » ـ ايه ، بلا شك ، لم أكن أريد العودة الى السجن الانفرادى ·

النائب العام : ولكنك لم توضعى فى الزنزانة ؟

ج ـ أوه ! لا أعلم · ولكنى أعلم أنه كان هناك بابان بثقب ، ولا هواء ·

النائب العام : لم تكونى مفصولة عن قاعة المسجونين العمومية الا بباب واحد ·

الرئيس : هل كنت تخرجين الى النور ؟

ج ـ لم أخرج فى المدة كلها سوى مرتين ·

س ـ لأنك لم تطلبى ذلك ؟

ج ـ عفوا : عفوا ، انى لم أطلب شيئا غير ذلك · قالوا لى : قولى الحقيقة، وسوف تخرجين ·

---

(١) سأل الدفاع كبير السجانين قائلا : ألم تلبس صدار المجانين يومين بلياليهن ، كبير السجانين · نعم ، لأنها أرادت أن تنتحر ·

س — (النائب العـام) : لاتخلطى الأمور ، ألم تكونى تخرجين مرتين كل يوم ؟

ج — لم أخرج سوى مرتين خلال ستة أسابيع أو سبعة ·

س — (الرئيس) : ولكن ألم تطلبى الخروج ؟

ح — طلبت أشياء كثيرة ولم أنل شـيئا على الاطلاق · وكان الكاتب المنتدب يقول لى دائما : اعترفى وسوف تخرجين ·

س — هل زارك الطبيب ؟

ج — لم أره سوى مرتين خلال شـهرين ، فى المرة الأولى فصد دمى ، وفى المرة الثانية أمر بخروجى ·

س — كم يوما انقضت بعـد خروجك من السجن الانفرادى وقبـل أن تلدى ؟

ج — أربعة أسـابيع ·

س — هل فقدت طفلك ؟

ج — نعم (تبكى) · عاش ولدى أربعة وعشرين يوما · كيف كان فى مقدوره أن يعيش ؟ لم أكن أنام أبدا فى الزنزانة (تبكى) ·

قرار محكمة النقض

بتاريخ ٩ أكتوبر ١٨٦٢

« المحكمـة

« تقرر عدم ملاءمة أحكام محكمة الجنايات التى أدانت بتهمة اغتيال داردن دوار :

أولا : روزالى دوار ، زوجة جاردان (بالأشغال الشاقة المؤبدة) ·

ثانيا : فانيا لمن ، وفبرهام (للواقعة نفسها) ·

ونقول منذ اليوم ، بأن فى عزم فيكتور هوجو أن يعود الى قضية دواز فى كتاب بعنوان « ملف عقوبة الاعدام » · ولسوف تأخذ العدالة مجراها ·

١٨٦٣ — صراع الأم

١

الى الجيش الروسى

ثارت بولندا العنيدة ، عناد الحق . وسحقها الجنس الروسى .
وكتب ألكسندر هيرزن محرر صحيفة «كولوكول» الشجاع الى فيكتور هوجو العبارة الآتية :

« النجدة أيها الأخ الأكبر ! قل كلمة الحضارة »

ونشر فيكتور هوجو فى الصحف الأوروبية الحرة نداء الى الجيش الروسى نطالعه فيما يلى :

أيها الجنود الروس ، كونوا بشرا كما كنتم

هذا المجد متاح لكم فى هذه اللحظة ، فتلقفوه

اسمعوا طالما كانت هناك فسحة من الوقت :

اذا واصلتم هذه الحرب الوحشية ، اذا كنتم أنتم أيها الضباط ذوى القلوب النبيلة ، تخشون أن تنور فيكم رغبة جامحة قد تلقى بكم فى سيبيريا ، وأنتم أيها الجنود ، يا من كنتم فيما مضى رقيق الأرض فأصبحتم اليوم عبيدا ، وانتزعتم بشدة من بين أمهاتكم وخطيباتكم وأسركم ، وصرتم معرضين للجلد بالسياط والمعاملة السيئة والتغذية الرديئة ، مقضيا عليكم بالخدمة العسكرية سنين طويلة ولأجل غير محدود — والخدمة العسكريه فى روسيا أشد قوة من الأشغال الشاقة فى البلاد الأخرى — اذا جعلتم من أنفسكم أنتم الضحايا ، أعداء للضحايا ، اذا كنتم فى هذه اللحظة المقدسة التى تنهض فيها بولندا الموقرة ، اللحظة السامية التى تخيرون فيها بين بطرسبورج حيث الطاغية ووارسو حيث الحرية ، اذا أنكرتم واجبكم ، الواجب الأوحد ، واجب الاخاء فى هذه المعركة الحاسمة ، اذا وحدتم ضد البولنديين مصالحكم ومصالح قيصر ، جلادهم وجلادكم ، اذا لم تكونوا

أنتم المقهورين قد استخلصتم من الطغيان درسا سوى تأييد الطاغى ، اذا كنتم تصنعون العار لأنفسكم من تعسكم ، اذا كنتم أنتم الذين تحملون الحسام بأيديكم ، تضعون فى خدمة الاســـتبداد ذلك الغول الثقيل الوطأة ، الضعيف النفس ، الذى يستحقكم جميعا . روسا كنتم أم بولنديين، تضعون فى خدمة قوتكم الغاشمة المخدوعة ، اذا كنتم تعسفون بنذالة استنادا الى تفوق السلاح والعدد هؤلاء الأهالى الأبطال اليائسين الذين يطالبون بأولى الحقوق ، حق الوطن ، بدلا من أن تســتديروا وتجابهوا جزار الأمم ، اذا كنتم فى صميم القرن التاسع عشر تجهزون على بولندا ، اذا كنتم تفعلون كل ذلك يا رجال الجيش الروسى ، فانكم سوف تهوون الى مستوى أحط من مستوى العصابات فى أمريكا الجنوبية ، الأمر الذى يبدو مستحيلا ، وتثيرون لعنة العالم المتحضر عليكم ! جرائم القوة هى مع ذلك ولم تزل جرائم ، والرعب العام هو عقوبة من العقوبات .

أيها الجنود الروس ، استلهموا البولنديين ، ولاتحاربوهم .

ان ما أمامكم فى بولندا ، ليس هو العدو ، وانما هو القدوة .

فيكتور هوجو

اوتفيل هاوس فى ١١ فبراير ١٨٦٣

٢

جاريبالدى
الى فيكتور هوجو

كابريرا فى آغسطس ١٨٦٣

صديقى العزيز

أنا فى حاجة الى مليون بندقية أحرى اللايطاليين . وانى لعلى ثقة من أنك سوف تساعدنى فى جمع الأموال اللازمة · وسوف نوضع النقود بأيدى السيد ادريانو ليمارى ، أمين صندوقنا ·

المخلص

ج· جاريبالدى

الى الجنرال جاريبالدى

أونفيل هاوس ، جيرنسيى ، فى ١٨ نوفمبر ١٨٦٣

عزيزى جاريبالدى

كنت غائبا ، ولذلك تأخرت فى استلام خطابك ، وسوف يصلك جوابى متأخرا تجد تبرعى طى هذا الخطاب ·

ولامراء فى أنك تستطيع الاعتماد على شخصى الضعيف ، وعلى القليل الذى فى قدرتى أن أفعله ، وسوف أنتهز أول فرصة لأرفع صوتى مادمت تجد فائدة فى ذلك ·

لابد لك من ملايين السواعد ، وملايين القلوب ، وملايين النفوس ، تلزمك ثورة الشعوب الكبرى ، وهى لامحالة قادمة ·

صديقك

فيكتور هوجو

٣
حرب المكسيك

كانت الأمبراطورية الأولى تستحق كل ضروب القسوة من التاريخ ، ومع ذلك فانها صنعت المجد • أما الأمبراطورية الثانيـة فانها صنعت العار واضطرمت حرب المكسيك ، وهى اعتداء غاشـم على شعب حر • وقاومت المكســـيك ، وعوملت معاملة عســكرية • وكان الهجـوم على « بويبلا » جريمة فى داخل تلك الجريمة • كانت عملية من عمليـات دك المدن ، تزرى بقضية عادلة ، وتتمم شناعة حرب جائرة • ودافعت بويبلا دفاعا بطوليا ، ودأبت طول مدة الحصار على اصدار جريدة مطبوعة من عمودين ، أحدهما بالفرنسية والثانى بالاسبانية • وكانت كل أعداد هذه الجريدة تبدأ بصفحة عن « نابليون الصغير » • وهكذا كان محاربو بويبلا يفسرون لجيش الأمبراطورية ماهيـــة الأمبراطور • وتضمنت الجريدة نداء لفيكتور هوجو (١) ، أجاب عليه قائلا •

أيا رجال بويبلا ،

أنتم على حق فى اعتقادكم بأنى معكم •

ليست فرنسا هى التى تحاربكم ، انما هى الأمبراطورية • انى معكم بالتأكيد • ونحن قائمون ضد الأمبراطورية ، أنتم من جانبكم ، وأنا من جانبى ، أنتم فى الوطن وأنا فى المنفى •

قاتلوا ، ناضلوا ، كونوا رهيبين • واذا اعتقدتم بأن فى اســمى بعض الفائدة ، فلكم أن تستخدموه • ولتكن الحرية قذيفتكم ، صوبوها الى رأس ذلك الرجل • هناك علمان مثلثا الألوان ، علم الجمهورية المثلث

---

(١) وهذا نص النداء :

اسمعوا يا جنود الطاغية : معنا أفضل الفرنسيين • عندكم نابليون وعندنا فيكتور هوجو •

وعلم الأمبراطوريه المثلث · ليس الذى يعاديكم هو العلم الأول ، انما هو الثانى ·

نطالع على العلم الأول عبارة : الحريه ، المساواة ، الاخاء ·

ونطالع على الثانى : طولون ، ١٨ برومير - ٢ ديسمبر · طولون ·

اسمع الصيحة التى ترسلونها الى ، وبودى لو وقفت حائلا بينكم وبين جنودنا ، ولكن من عساى أكون ؟ شبح · يا حسرتاه ! جنودنا ليسوا مذنبين فى هذه الحرب التى فرضت عليهم كما فرضت عليكم · وقضى عليهم بالرعب من اضرامها وهم كارهون لها · أما القواعد التاريخيـــه فانها تقضى بتلب الجنرالات ونبرئة الجيوش · والجيوش أمجاد عشواء ، قوات انتزع منها الضمير · الاضطهاد الذى يوقعه جيش بالشعوب ، انما يبدأ باستعباد الجيش نفسه · هؤلاء الغزاة مكبلون بالأصفاد · والجندى الذى يستعبد الناس انما يستعبد نفسه فى المقـام الأول · ولم تعد الجيوش ، بعد أحداث ١٨ برومير و ٢ ديسمبر سوى أشباح الأمة ·

أيا رجال المكسيك الشجعان ، قاوموا ·

الجمهورية معكم ، ترفع فوق رءوســكم علم فرنسا الذى يضم قوس قزح ، وكذا علم أمريكا الذى يضـم النجوم · عليـكم بالأمـل · مقاومتكم البطوليـــة تعتمد على القانون ، وتتمتع بذلك اليقين الكبير ، بالعدالة ·

الاعتداء على الجمهـورية المكسيكية هو اسـتمرار للاعتـــداء على الجمهورية الفرنسية · الكمين يكمل كمينا آخـر · وانى آمل أن تفشل الأمبراطـورية فى محاولتهـا المزرية ، وأن تنتصروا أنتم · وفى جميع الأحوال ؛ منتصرين كنتم أو منهزمين ، ستظل فرنسا أختكم ، أختا لمجدكم كما هى أخت لتعسكم · أما من جهتى ، فما دمتم تستفيدون باسـمى ، فانى أكرر لكم القول بأنى معكم ، ولسوف آتيكم بأخوتى ، أخوة المواطن ان كنتم منصورين ، وأخوتى ، أخوة المنفى ، ان كنتم منكسرين ·

فيكتور هوجو

١٨٦٤

١

ذكرى شكسبير المئوية

باريس فى ١١ أبريل ١٨٦٤

من لجنة شكسبير الى فيكتور هوجو

أيها الأستاذ العزيز الذائع الصيت

انعقد اجتماع من الكتاب والمؤلفين والفنانين المسرحيين وممثلى جميع المهن الحرة بقصد تنظيم احتفال بباريس فى يوم ٢٣ من أبريل لمناسبة ذكرى مرور ثلاثمائة سنة على مولد شكسبير ٠

وتم اختيار أعضاء لجنة شكسبير الفرنسية وهم :

السادة : أوجست باربييه ، وبارى، وشارل باتاى (من الكونسرفاتوار) وهكتور بيرليوز ، والكسندر دوما ، وجول فافر ، وجورج صاند ، وجول جانان ، ونيوفيل جوتييه ، وفرنسوا فيكتور هوجو ، وليجوفيه ، وليتريه ، وبول موريس ، وميشليه ، وأوجين بيليتان ، ورينيه (من الكوميدى فرانسيز) ٠ والسكرتاريون : السادة لوران بيشا ، وليكونت دوليل ، وفيليسيان مالفيى ، وبول دوسان فيكتور ، وتوريه ٠

وجعلت الرئاسة لكم بالاجماع ، فهى من حق الشاعر الكبير والمواطن العظيم ٠

وانا لعلى ثقة من أنكم سوف تنضمون الينا بصورة تضفى على هذا الحفل مغزاه الأكمل ٠

مندوبو اللجنة

لوران بيشا

هنرى روشفور

لوى أولباك

أوجست فاكيرى

أ . فالنى

الى لجنة ذكرى شكسبير

أوتفيل هاوس فى ١٦ أبريل ١٨٦٤

سـادتى

يبدو لخاطرى كما لو كنت عائدا الى فرنسا . ان شعورى بأنى بينكم انما يعادل وجودى بها . تدعوننى ، فتهرع روحى اليكم .

أنتم أيها الفرنسيين تضربون مثلا رائعا بتمجيدكم لشكسبير . انكم نضعونه على مستوى مفاخركم القومية ، وتؤاخون بينه وبين موليير الذى تقرنونه به ، وبين فولتير الذى نضمونه اليه . وفى حين تجعل انجلترا من جاريبالدى مواطنا لمدينة لندن ، تجعلون أنتم من شكسبير مواطنا لجمهورية الأدب الفرنسى . ذلك لأن شكسبير ينتمى فى الواقع اليكم ، فأنتم تحبون كل مافى هذا الرجل ، أولا لأنه انسان . وأنتم تتوجون فى شخصه الممثل الذى قاسى ، والفيلسوف الذى ناضل ، والشاعر الذى انتصر . وهتافاتكم له تكرم فى حياته الارادة ، وفى عبقريته المقدرة ، وفى فنه الادراك ، وفى مسرحه الانسانية .

أنتم على صواب ، وهذا حق . الحضارة تصفق لهذا الحفل النبيل .

أنتم الشعراء تمجدون الشعر ، أنتم المفكرين تمجدون الفلسفة ، أنتم الفنانين تمجدون الفن . أنتم أكثر من هذا ، أنتم فرنسا تحيى انجلترا . هذا هو العناق السامى ، عناق الأخت لأختها ، عناق الأمة التى أنجبت « فانسان دوبول » (أى فرنسا) للأمة التى أنجبت ويلبرفورس(١) (أى انجلترا) ؛ عناق باريس حيث المساواة للندن حيث الحرية . ويترتب التبادل على هذا العناق ، فتعطى احداهما ما تملكه الى الأخرى .

تحيتكم باسم فرنسا لانجلترا فى شخص رجلها العظيم شىء بديع . ولكنكم تفعلون أكثر من ذلك . انكم تتخطون الحدود الجغرافية ، فلم يعد ثمة فرنسى ولا انجليزى . أنتم اخوة لرجل عبقرى تحتفلون به . انكم تحتفلون بهذه الكرة الأرضية ، تهنئون الأرض التى شهدت مولد شكسبير فى مثل هذا اليوم من ثلاثمائة سنة . أنتم تكرسون ذلك المبدأ

---

(١) ولبم ويلبرفورس ، من رجال السياسة الانجليز (١٧٥٩ ـ ١٨٣٣) . اشتهر بحملاته التى شنها على الرق ـ المترجم .

السامى ، مبدأ كلية وجود الأرواح ، ومنه ننبع وحدة الحضارة ، وننزعون الأنانية من قلوب القوميات • فكوريني لا يخصنا وحدنا ، وميليتون لا يخصهم وحدهم ، وانما الجميع للجميع • الأرض كلها وطن للذكاء • تأخذون النوابغ كلهم فتعطونهم كل الشعوب • وتنزعون الحواجز الحائلة بين الشعراء وبذلك تنزعونها من بين الناس ، وتمزجون الأمجاد بعضها ببعض وبذلك تشرعون فى ازالة الحدود ! فياله من مزيج مقدس ! ويا له من يوم عظيم !

هوميروس ، دانتى ، شكسبير ، موليير ، فولتير ، كل لا ينحرأ • النوع البشرى بأجمعه يمتلك الرجال العظام ، والروائع تجعل على المشاع ، تلك هى الخطوة الأولى ، تتبعها الخطوات الباقية •

هذا هو العمل الذى سوف تستهلون به ، عمل لا وطن له ، انسانى ، تضامنى ، أخوى ، مجرد من أى تعصب قومى ، أعلى من كل الحدود المحلية • فرنسا تتبنى أوروبا ، وأوروبا تتبنى الدنيا كلها بصورة رائعة • ومن مثل هذا الحفل ينبع عمل حضارى •

كان عليكم أن تختاروا لرئاسة هذا الاجتماع التذكارى ، بين أكبر الشخصيات الذائعة الصيت • وتزخر الأسماء الشهيرة الشائعة بينكم ، وتلمع قائمتكم بها • وتتجمع التجسدات اللامعة فى الفن والمسرح والقصة والتاريخ والشعر والفلسفة والبلاغة فى هذا الحفل المهيب حول قاعدة تمثال شكسبير • ولكن كانت لديكم بلا شك فكرة اعطاء الاحتفال بهذا العيد السنوى طبيعته الخارجية ، وأن يجرى هذا الحفل خارج الحدود كلها ، بل وفيما وراء الحدود ، ومن ثم كان يلزمكم للرئاسة رجل قائم فى هذا الاطار الاستثنائى ، فرنسى خارج فرنسا ، غائب وحاضر فى وقت واحد ، له قدم فى انجلترا وقلب فى باريس ، شىء كهمزة الوصل التى يمكن أن توجد على المسافة المرغوبة ، وتكون قادرة بنوع ما على أن تضع يدى الأمتين العظيمتين الواحدة فى الأخرى • ومن تدابير الأقدار أن كان هذا الوضع هو وضعى • وانى لأدين باختياركم المجيد لشخصى لهذه الصدفة السعيدة فى الوقت الحاضر •

أشكركم ، وأقدم لكم هذا النخب : « الى شكسبير والى انجلترا ، الى النجاح التام ، نجاح رجال الفكر العظام ، الى وحدة الشعوب فى التقدم والمثل العليا » •

فيكتور هوجو

وشعرت حكومة بونابرت بالقلق من ناحية الاحتفال بعيد شكسبير ورأت ضرورة منعه •

٣

شوارع « بلوا » القديمة وبيوتها

الى السيد أ · كابروا

اوتفيل هاوس فى ١٧ أبريل ١٨٦٤

أشكرك ياسيدى ، لقد جعلتنى أعيش فى الماضى · ففى يوم ١٧ أبريل ١٨٢٥ ، فى مثل هذا اليوم من تسع وثلاثين سنة (واسمح لى بأن أسجل هـذا التوافق الصغير المحبب الى نفسى) وصلت الى بلوا فى الصباح قادما من باريس · كنت قد أمضيت الليل فى عـربة البريد · وماذا عساى أفعل فى عربة البريد ؟ نظمت أشعار « النبالان » (١) · وعندما انجزت البيتين الأخيرين ، ولم يكن الصبح قد انبلج بعد ، جعلت أتأمل فى ضوء المصباح مرور أبقار منطقة أورليان على جانبى العربة وهى قادمة من باريس ، حتى نمت · وأيقظنى صوت السائق وهو يصيح بى : هاهى ذى بلوا ! وفتحت عينى ، وأبصرت مئات النوافذ فى وقت واحد ، وحشدا مشوشا من البيوت وقباب الأجراس وقصرا ، وفوق التل أكليلا من الدوح (٢) ، وصفا من واجهات المبانى الحادة الأركان ذات الجمالونات الحجرية على ضفة الماء · مدينة قديمة على شكل مدرج مستدير ، منتشرة بصورة عفوية على بروزات فوق سطح مائل · انها شبيهة بجيرنسيى التى أقطن بها اليوم ، فيما عدا أن المحيط هاهنـا أكثر رحابة من نهر اللوار هناك ، وليس له قنطرة توصل الى الضفة الأخرى ·

وكانت الشمس تشرق على مدينة باوا ·

وبعد ربع ساعة ، كنت فى شارع « لوفوا » أمام المنزل رقم ٧٣ · وطرقت بابا صغيرا يؤدى الى حديقة ، وجاء رجل يشتغل بالحديقة ففتح الباب · كان أبى ·

---

(١) النبال ، هو رامى النبال ، أى السهام ــ المترجم ·

(٢) جمع دوحة ، وهى الشجرة العظيمة ــ المترجم ·

وفى المساء ، أخذنى أبى الى أعلى الرابية التى تشرف على بيته وفيها شجرة جاستون . وشهدت من عل ، وللمرة الثانية ، المدينة التى رأيتها فى الصباح . كان هذا المنظر ، رغم صرامته أشد فتنة من سابقه . كانت المدينة قد بدت لناظرى فى الصباح بذلك التشويش الرائع وبذلك اللون من المفاجأة اللذين يتجليان مع الصحو ، أما فى المســاء فقد هدأت فيها الخطوط . وعلى الرغم من أن الدنيا لم تزل نهارا ، فقد بدأت فى الجو غاشية من كآبة ، وراحت ظلال الغسق تضعف من حدة أطراف سقوف المنازل . وثمة ومضات شموع قليلة جعلت تحل محل ضــياء الشفق المتــألقة المتكسرة على زجاج النوافذ . وطرأ على الأشــكال الجانبية للأشياء ذلك التغير الغامض الذى يحدث مع المســاء . وزالت صــلابة الأشكال ، وحلت محلها الأقواس . وكان هناك مزيد من الأكواع وقليل من الزوايا . وجعلت أنظر ، والنفس متأثرة ، تكاد تذوب رقة بفعل الطبيعة ، وفى الجو نسمة صيف غامضــة . وبدت المدينــة لناظرى متناسقة ، لا كما بدت فى الصباح بهيجة وفاتنة فى غير نظام . كانت مجزأة الى أقسام فى مجموعات بديعة متوازنة ، والمستويات تتســع وتنبسط ، والطوابق يرتفع أحدها عن الآخر بصورة هادئة متوافقة . فهناك الكاتدرائية والكنيسة الأسقفية وكنيسة سان نيقولا السوداء ، والقصر ، وهو حصن فى الوقت نفسه ، والوديان الضيقة المتداخلة فى المدينة ، والمرتفعات الصــاعدة ، والمنحدرات الهابطة ، وعليهــا البيوت المتسلقة من ناحية ، والمنحدرة من ناحية أخرى ، والكوبرى ومسلته ، ونهر اللوار الجميل المتعرج ، ومجموعات أشــجار الحور المنتظمة فى خطوط مستقيمة ، وقصر شامبور الذى يبدو عند الأفق بأبراجه الصغيرة الداغلة ، والغابات التى يخترقهــا ذلك الطريق العتيق المسمى بالقناطر الرومانية والذى يحدد المجــرى القديم لنهر اللوار . كل هذه المجموعة كانت عظيمة حلوة . وكان أبى يحب هذه المدينة .

انك اليوم تعيد الى خاطرى ذكرى هذه المدينة . وبفضلك أجد نفسى فى بلوا . تقوشــك المحفورة الشرون ترينى المدينــة المألوفة ، لا مدينة القصور والكنائس وانما مدينة البيورن (١) . نحن معك فى الشارع ، ومعك ندخل فى الدار الخربة . وثمة أبنية قديمة متداعية ، كالمسكن الخشبى المنحوت بشارع (ســان لوبان) ، وفندق دينس دبيون الذى يعلوه برج بسلم ذى كوات جانبية مرتبة كالسلم الحلزونى لكنيســة سان جيل ، ومنزل شارع « هوت » (أى الشارع العلوى) ، والرواق

---

(١) « شوارع بلوا القديمة وبيوتها » ، نقوش محفورة على المعــادن ، من ابداع أ. كيروا .

ذى العقد المنخفض فى شارع سير دوبلوا ، تعرض بدائع الخيال الغوطى كلها ، ورقه عصر النهضة كلها ، بالاضافة الى ماضى الخرائب من شاعرية . ورب دار خربة قد تكون جميلة كالجوهرة . ولا أروع من عجوز متوقدة الذكاء ذات قلب حنون . والكثير من البيوت اللطيفه التى نقشتها بيدك ، هى أشبه شىء بمنزل هذه العجوز . وان الانسان ليسعد بالتعرف عليها . ومن كان ملى صديقا لها ، فانه يفرح اذ يراها ثانيه . وكم من أشياء نحكيها لكم هذه النقوش ، وما أحلى أحاديث الزمان الماضى ! أنظروا على سبيل المثال هذا المنزل الأنيق الرقيق فى شارع الصاغة (ديزورفيفر) ، ما أشبهه بخلوة أليفة . ما أسعدنا وسط كل هذا الجمال والأناقة . أنك لتعرفنا بهذه الأشياء كلها ، فنقوشك انما هى لوحات فنية حقة ، وتصاوير فوتوغرافية صادقة ، فيها حرية الفن العظيم . ولوحة شارع شيمونتون تحفة فنية . ولقد صعدت درجات القصر الكبيرة مع هؤلاء الفلاحين الطيبين ، فلاحى سولونى الذين صورتهم . أما المنزل ذو التماثيل الصغيرة فى شارع « بيير دوبلوا » فانه شبيه بصورة المنزل البديعة ، منزل « الموسيقيين من ويموث » . واسترجعت ذكرى كل شىء . فهذا برج « دراجان » (البرج الفضى) ، وهذا هو الجمالون القائم المرتفع ، فى ركن شارعى فيوليت وسان لوبان ، وهذا دار «دوجيز» ، ودار «شيفيرنى»، ودار « ساردينى » بعقوده المقوسة على شكل يد السلة ، ودار « الوى » بعقوده الأنيقة التى ترجع الى عصر شارل الثامن ؛ وهذى درجات « سان لوى » التى تؤدى الى الكاتدرائية ، وهذا شارع « سيرمون » وفى نهايته معالم كنيسة سان نيقولا الرومانية الطراز ، وهذا هو البرج ذو الجوانب المقطوعة المسمى « منبر الملكة آن » . وكان خلف هذا البرج الحديقة التى كان لويس الثانى عشر يتنزه فيها على ظهر بغلته الصغيرة وهو مصاب بداء النقرس . وكان للويس الثانى عشر ، مثلما كان لهنرى الرابع بعض الصفات المحببة . لقد ارتكب الكثير من الحماقات ولكنه كان مع ذلك ملكا طيب القلب ، القى فى نهر الرون الدعاوى التى أقيمت ضد أهالى مقاطعة « فود » بسويسرا . ويكفيه فخرا أن يكون أبا لتلك المنجمة الهيجونوت الباسلة « رينيه دوبريتانى » التى أبدت شجاعة فائقة فى مذبحة سان بارتيليمى (١) ، ونخوة فى مونتارجيس . قضى ثلاث سنوات من شبابه فى برج « بورج » وعانى السجن فى القفص الحديدى . هذا الأمر الذى كان خليقا بأن يجعل من غيره انسانا شريرا جعل منه رجلا

---

(١) مذبحة بدأت فى باريس فى ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ ضد البروتستانت الفرنسيين دبرتها كاترين دى ميديتشى بالاشتراك مع دوق انجو ودوق جيز والملك شارل التاسع ، وامتدت المذبحة الى خارج باريس وأدت الى استئناف الحروب الدينية ـ المترجم .

طيب القلب • ودخل جنوا منتصرا ، وعلى درعه خلية نحل مذهبه ، وهذا الشعار non utitur acuelco « لا نستعمل حد السيف » وكان مع طيبه شجاعا • وفى « اينيادبل » قال له أحد رجال حاشيته « انك تعرض نفسك للخطر ياسيدى » فرد عليه قائلا : « ضع نفسك خلفى » • وهو أيضا الذى قال « الملك الطيب ملك شحيح • انى أفضل أن أكون أضحوكة فى أعين حاشيتى من أن أكون ثقيلا فى أعين الشعب » ومما قاله : « أقبح حيوان تراه العين وهو يمر ، مدع عام يحمل حافظة أوراقه » • وكان يمقت القضاة المولعين بادانة المتهمين ، والذين يجتهدون فى تضخيم الأخطاء ، وتضييق الخناق على المتهم ، فكان يقول عنهم : « انهم كالاسكافى الذى يشد الجلد بأسنانه ليطيله » • ومات من فرط حبه لزوجته ، كما حدث فيما بعد لفرانسوا الثانى ، اذ راح كل منهما ضحية رقيقة لملكة اسمها « مارى » • وكان زواجه قصير الأمد • ففى يوم أول يناير عام ١٥١٥ ، بعد انقضاء ثلاثة وثمانين يوما ، أو بالأحرى ثلاث وثمانين ليلة على زفافه ، أسلم لويس الثانى عشر الروح • ولما كان هذا اليوم يوافق رأس السنة الميلادية ، فانه قال لزوجته : « يا حبيبتى الصغيرة ، أقدم لك موتى هدية رأس السنة » وقبلت الهدية ، مناصفة مع الدوق دو براندون •

والشبح الآخر الذى يشرف على بلوا ممقوت بقدر ما كان لويس الثانى عشر محبوبا • ذلك هو « جاستون » الذى تجرى فى عروقه دماء آل بوربون ممتزجة بدماء آل ميدبتشى سادة فرنسا فى القرن السادس عشر ، الخائن الغادر ، الخفيف الروح ، الذى قال فى مناسبة القبض على لونجفيل ، وكونتى ، وكونديه ، « ياله من فخ محكم ! صاد فى دفعة واحدة ثعلبا وقردا وأسدا ! » • وهو فضولى ، فنان ، جامع تحف، مولع بالأوسمة والمصوغات وأوعية الحلوى المزخرفة ، يقضى فترات الصباح فى الفرجة باعجاب على غطاء صندوق من العاج ، فى حين يقوم بعضهم بقطع رأس صديق من أصدقائه كان هو قد أوقعه بالغدر والخيانة •

كل هذه الصور ، وكذا صور هنرى الثالث ودوق دوجيز وغيرهما، بما فيهم « بيير دوبلوا » الذى له الفخر فى ان يكون أول من ابتدع عبارة « استحالة المادة ، أى القربان ، الى لحم المسيح ودمه » • كل هؤلاء رأيتهم ياسيدى عندما تصفحت مجموعتك الثمينة التى تسترجع ذكريات التاريخ فى غير نظام ولا ترتيب • وتوقفت طويلا عند صورتك الخاصة بنافورة لويس الثانى عشر • لقد صورتها كما شهدتها أنا من قبل ، ناضرة ورائعة رغم قدمها • انها من أحسن لوحاتك • وأعتقد أن لوحتك الشاملة لمدينة « روان » التى أبدعتها أمام دار أمبواز تمثل

بالفعل ما كانت عليه فى زمانى ، انك تتمتع بموهبة رفيعة صـــادقة .
وبتلك النظرة التى تدرك الأسلوب ، واللمسة الثابتة القوية النشيطة،
والكثير من الفطنة فى استخدام المنقاش ، والكثير من البساطة والبراءة ،
وتلك الموهبة النادرة ، موهبة النور فى الظلال • وما يدهشنى ويخلب
لبى فى نقوشك هو النور الساطع والبهجة والمظهر الباسم ، وفرحة
الاستهلال التى تتجلى فى روعة الصباح • وثمة لوحات تبدو وكأنها
مغمورة فى نور الفجر • تلك هى بالفعل « بلوا » مدينتى المحبوبة » ،
المشرقة • ذلك لأن أول تأثير وقع فى نفسى عند وصــولى اليها لم يزل
مطبوعا بها • « وبلوا » فى ناظرى مدينة ساطعة الأنوار ، لا أراها الا فى
الشمس المشرقة • تلك هى بعض تأثيرات الشباب والوطن •

استرسلت طويلا فى حديثى اليك ياسيدى لأنك أثلجت صدرى ،
وأصبت موطن الضعف من نفسى ، ولمست الركن المقدس من ذكرياتى •

انى أعانى فى بعض الأحيان مشاعر حزينة مرة ، ولكنك منحتنى بعض
المشاعر الحزينة الرقيقة • والحزن الرقيق انما هو لون من السرور •
وانى لشاكر لك هذا الجميل وســعيد بأن أجد هذه المدينة مصــونة
محفوظة ، لم يحل لونها الا قليلا جدا ، ولم تزل على الحال التى شهدتها
عليها منذ أربعين سنة خلت ، هذه المدينة التى تشدنى اليها تلك البكرة
الخفية من الخيوط الروحيـــة التى يستحيل قطعها ، « بلوا » التى
شهدتنى يافعا ، « بلوا » التى تعرفنى شـــوارعها ، وأحبنى بيت من
بيوتها ، والتى تنزهت فيها منذ قليل فى صـــحبتك وأنا أبحث عن
شعرات أبى البيض ، فأجد شعرى أنا الأبيض •

وأصافحك ياسيدى ••

(فيكتور هوجو)

١٨٦٥ ــ ماهية الموت

١

اميل دوبيتيرون
جبانة « المستقلين » فى جيرنسيى
١٩ ينــاير ١٨٦٥

انشغلنا أسبوعين بأختين ، فزوجنا احداهما ، وها نحن أولاء ندفن الأخرى · وهكذا يكون اضطراب الحياة الدائم · فلنحن الهامات أيها الاخوان أمام القدر القاسي · لنحنها وفى نفوسنا أمل · خلقت عيوننا لا لتبكى فحسب وانما لتبصر · وخلقت قلوبنا لا لتتألم فحسب وانما لتؤمن · الايمان بوجود آخر انما ينبثق من ملكة الحب · وعلينا الا ننسى فى غمار هذه الحياة القلقة التى تجد سكينتها فى الحب ، أن القلب هو · موطن الايمان · الابن يعمل على لقاء أبيه ، والأم لا تسلم بفقد طفلها أبدا · عظمة الانسان فى أنه ينكر العدم ·

القلب لا يستطيع أن يخطىء · الجسد حلم فهو يتلاشى · لو كانت تلك الغشية هى نهاية الانسان لكانت خليقة بأن تجرد وجودنا من كل تصديق · نحن لا نقنع بذلك الدخان الذى هو المادة ، ولكننا فى حاجة الى اليقين · وكل من يحب يعلم ويشعر بأنه لا توجد ركائز للانسان على سطح الأرض ·

الحب هو الحياة فيما بعد الحياة · ومن غير هذا الايمان ، لا يمكن أن توجد ملكة عميقة فى القلب ، ويصير الحب الذى هو غاية الانسان عذابا له ، ويستحيل هذا الفردوس جحيما · لا ، ولنقل جهــارا ان الخليقة المحبــة تتطلب الخليقة الخالدة · والقلب فى حــاجة الى الروح ·

فى هذا التابوت قلب ، وهذا القلب حى ، وهو فى هذه اللحظة ينصت الى ما أقول ·

كانت اميلى دوبيتيرون موضع فخار أسرة متدينــة مبجلة · كان أصدقاؤها · وأقاربها يغنون بجمالها ويحتفلون ببسمتها · كانت زهرة

البهجة المفتحة في المنزل ، محاطه منذ المهد بكل ألوان الحنان ، وشبت هانئة . وكما كانت تتلقى السعادة . فانها كانت تهبها للناس . وكما كانت محبوبة ، كانت محبة . لقد قضيت نحبها منذ قليل .

الى أين ذهبت ؟ الى الظلام ؟ لا ، بل نحن الذين فى الظلام ، أما هى فانها فى نور الفجر . انها فى الأشعة الساطعة ، فى الحقيقة ، فى الواقع فى الجزاء . هؤلاء المتوفيات الصغيرات اللواتى لم يفترفن انما فى الحياة ، هن نزيلات القبر العزيزات ، ترتفع رءوسهن فى رقة خارج الحفرة متجهه نحو أكليل غامض . لقد مضت اميلى دوبينرون الى العالم الأخروى باحثة عن الصفاء الأسمى الذى يكمل الموجودات البريئة . مضت وهى زهرة العمر ، صوب الأبدية . مضت وهى الجمال ، صوب المثل الأعلى ، مضت وهى الأمل صوب اليقين ، مضت وهى الحب صوب اللانهاية : مضت وهى الدرة صوب المحيط . مضت وهى الروح الى ربها .

اذهبى أيتها الروح .

معجزة هذا الرحيل السماوى العظيم الذى نسميه الموت هى أن اولئك الذين يرحلون لا يبتعدون أبدا . انهم فى عالم من الضياء ، ولكنهم حاضرون فى عالمنا ، عالم الظلمات ، شهودا رفقاء . انهم فى العلياء ولكنهم قريبون . أوه ، مهما تكونوا أنتم الذين شهدتم كائنا عزيزا لديكم يختفى فى طيات القبر ، لا تظنوا أنه هجركم . هو موجود على الدوام ، موجود الى جواركم أكثر من أى وقت مضى . جمال الموت فى الحضور ، الحضور الذى لا يمكن التعبير عنه ، حضور الأرواح المحبوبة التى تبتسم لعيوننا الدامية . اختفى الكائن الذى نبكيه ، ولكنه لم يرحل . لم نعد نلمح محياه الرقيق ، ولكننا نشعر أننا تحت جناحيه . الموتى هم الخفايا، ولكنهم ليسوا بالغائبين .

لنكن عادلين مع الموت ولا نكون أبدا جاحدين له . ليس الموت كما يقال عنه كمينا وانهيارا . من الخطأ أن نعتقد أن كل شيء يضيع فى هذه الظلمة ، ظلمة الحفرة الفاغرة . هنا تظهر الأشياء كلها . القبر المكان الذى تعاد فيه الأشياء الى أصولها . هنا تلحق الروح باللانهاية وتسترد كمالها المطلق ، وتسترد ملكيتها لكامل طبيعتها الغامضة . لقد تحررت من الجسد والحاجة والعبء الثقيل والقدر . الموت هو أعظم صنوف الحرية ، وهو كذلك أعظم ضروب التقدم . الموت هو صعود كل من عاش الى الطبقة العليا . انه الصعود الباهر المقدس . وكل انسان ينال ثمة

تساءه • وكل شيء يتغير سمائه في الضوء وبواسطة الضوء • فمن كان امينا فقط على الارض يصير جميلا ، ومن كان جميلا فحسب يصير ساميا ، ومن كان ساميا فقط يصبح طيبا •

والآن ، ما علة وجودي هنا ، انا الذي أتحدث ؟ ما الذي أتيت به الى هذه الحفرة ؟ بأي حق أتيت لأخاطب الموت ؟ من أكون ؟ لا شيء كلا ، بل أنا مخطيء ، فاني شيء ما • انا منفي • نفيت بالأمس قسرا ، وأنا اليوم منفي برغبتي • المنفي انسان مهزوم ، مفترى عليه ، مضطهد ، مجروح بيد القدر ، محروم من الوطن • المنفي انسان بريء يرزح تحت وطأة لعنـــــة من اللعنات • ولابد أن بركته طيبة ، فأنا أبارك هـذه المقبرة •

انى أبارك هذه المخلوقة النبيلة اللطيفة الراقدة فى هذه الحفرة • فى الصحراء يلتقى الانسان بالواحات : وفى المنفى يلتقى بأرواح • كانت اميلى دوبتيرون روحا من الأرواح الناتئة التى قابلناها • لقد جئت لأوفى لها بدين المنفى الذى يتقبل العزاء فى وفاتها ، أباركها فى الأعمـــاق المظلمة • وباسم الكروب التى اشرقت عليها بأنوارها الرقيقة ، باسم صروف الدهر التى انتهت بالنسبة اليها ، والتى لم تزل باقية معنا ، باسم كل ما كانت ترجوه فيما مضى وكل ما نالته اليوم ، باسم كل مـــا أحبته ، باسم كل هؤلاء أبارك هذه المتوفاة • أباركها فى جمالها وشبابها ورقتها وحياتها ومماتها • أبارك أيتها الفتاة الصغيرة فى ثوبك الجنازى الأبيض ، فى دارك التى تركتيها موحشة ، فى نعشك الذى ملأته أمك بالزهور وسيملأه الاله بالنجوم •

٢

تمثـــال بيكاريا (١)

شكلت لجنة فى ايطاليا لاقامة أثر تذكارى لبيكاريا . ودعى فيكتور هوجو للاشتراك فى هذه اللجنة .

أوتفيل هاوس فى ٤ مارس ١٨٦٥

أوافق شاكرا

وسوف أشعر بالفخار حين أرى اسمى بين الأسماء الرفيعة الشأن التى تشكل لجنة الأثر التذكارى لبيكاريا .

البلد الذى سوف يقام فيه مثل هذا الاثر بلد سعيد ومبارك ، فعقوبة الأعدام لم يعد لها وجود فى حضرة تمثال بيكاريا .

أهنىء ايطاليا .

واقامة تمثال بيكاريا هو الغاء لآلة الاعدام .

فاذا ما ظهرت آلة الاعدام بعد اقامة التمثال ، كان حريا بالتمثال أن يختفى فى باطن الأرض .

(فيكتورهوجو)

---

(١) فيلسوف ايطالى ، وعالم فى الجريمة ، ولد بميلانو (١٧٣٨ – ١٧٩٤) مؤلف كتاب مشهور فى « الجرائم والعقوبات » . جددت مبادئه قانون العقوبات وخففه – المترجم .

٣

الذكرى المئوية لدانتى

اونفيل هاوس فى اول مايو ١٨٦٥

سيدى حاكم مدينة فلورنسا ..

كان لخطابك الموقر أثر عميق فى نفسى . لقد دعوتمونى الى حفل نبيل ، وتريد لجنتكم الوطنية أن يسمع صوتى فى هذا الحفل المهيب . واليوم تؤكد ايطاليا ذاتها أمام العالم لأمرين ، لأنها تحقق وحدتها ولأنها تمجد شاعرها . الوحدة حياة الشعب . وايطاليا الموحدة هى ايطاليا الحقة . الاتحاد ولادة . ويبدو ان ايطاليا حين اختارت هذه الذكرى المئوية للاحتفال بوحدتها أرادت أن تولد فى اليوم نفسه الذى ولد فيه دانتى . تريد هذه الأمة أن يكون لها نفس تاريخ هذا الرجل . ما ابدع هذا !

الواقع أن ايطاليا تتجسد فى شخص دانتى اليجييرى ، فهى مثله باسلة ، مفكرة رفيعة ، عظيمة ، أهل للقتال وللتفكير . وهى مثله تدمج الشعر والفلسفة فى تركيب عميق . وهى مثله تنشد الحرية . وهو مثلها يملك العظمة التى يجعلها فى حياته ، والجمال الذى يجعله فى أعماله . وتختلط ايطاليا ودانتى فى لون من التداخل المتبادل الذى يحقق شخصيتهما ، ويتلألأ كل منهما فى الآخر . ايطاليا جليلة القدر ، ودانتى دائع الصيت . للاثنين قلب واحد وارادة واحدة وقدر واحد . ايطاليا تشبه دانتى من حيث القدرة الخفية التى يتمتع بها كل منهما فى المحن . هى ملكة وهو عبقرى . كانت مثله منفية ، وهو مثلها متوج .

هى مثله خارجة من الجحيم (١) . المجد لهذا الخروج المشرق !

---

(١) يشير الكاتب هنا الى جحيم دانتى الوارد فى كتابه المشهور « الكوميديا الالهية » . وفيه يتكلم دانتى عن سبع دوائر فى الجحيم يدبرها الانسان ـ المترجم .

وا حسرتاه ! لقد خبرت (ايطاليا) الدوائر السبع واحتملت وجازت التقسيم المشؤوم • كانت شبحا ، وكانت تعبيرا جغرافيا ! واليوم أصبحت بحق ايطاليا • هي ايطاليا ، كما أن فرنسا هي فرنسا ، وانجلترا هي انجلترا • لقد بعثت حية وتألقت وتسلحت وابتعدت عن الماضي الغامض المفجع ، وبدأت ارتقاءها نحو المستقبل • وانه لشيء طيب وجميل أن نتذكر في هذه الساعة المشرفة ، في ذروة انتصارها وتقدمها وفي شمس الحضارة والمجد ، نتذكر تلك الليله الليلاء التي كان فيها دانتي شعلتها المضيئة •

ان عرفان الشعوب العظيمة بفضل الرجال العظام مثل يقتدى به• لا ، انا لا نسمح بالقول بأن الشعوب جاحدة للأفضال • ففي لحظة من اللحظات كان هناك رجل يمثل ضمير أمه • فعندما تمجد الأمة هذا الرجل فانها تبرهن على صدق ضميرها ، فكأنها تستشهد على ذلك بروحها • ايها الايطاليون ، أحبوا مدائنكم الشهيرة الرائعة ، وحافظوا عليها وبجلوها . وكرموا دانتي • كانت مدائنكم هي الوطن ، أما دانتي فكان الروح •

ستة قرون قام عليها مجد دانتي • والقرون هي الوجوه التي تتطور عليها الحضارة • ومع كل قرن ينبثق بنوع ما صنف آخر من البشر ، وفي الامكان القول بأن خلود البيجيري قد تأكد ست مرات بفضل سته أجيال جديدة من الجنس البشري • وسوف تواصل الأجيال القادمة دعم هذا المجد •

وعاشت ايطاليا في شخص البجييري ، رجل النور • ورانت غشية طويلة ثقيلة على ايطاليا ، غشية أصاب العالم خلالها خدر وبرود • ولكن ايطاليا عاشت • أقول أكثر من ذلك ان ايطاليا تألقت حتى في هذه الظلمة • كانت ايطاليا في تابوتها ، ولكنها لم تكن ميتة • كان لها من دلائل الحياة الشعر والأدب والعلم والصروح الأثرية والاكتشافات والروائع الأدبية والفنية • ما أبهى الأنوار التي سطعت على الفن ، من دانتي الى ميكيلانج ! ما أوسع المنفذ المزدوج في الأرض وفي السماء ، فتحة في الأرض كريستوف كولومب ، وفتحة في السماء جاليليو • هي ايطاليا الميتة التي صنعت هذه المعجزات • آه ! انها كانت حية بالتأكيد ! كانت تحتج بأنوارها من أعماق جدثها • ايطاليا قبل انبلج منه نور الفجر •

ايطاليا المجهدة ، المصفدة بالاغلال ، الدامية ، المدفونة • ايطاليا هذه علمت الدنيا • كانت مكممة الفم ، ولكنها عرفت وسيلة تتحدث بها خلال روحها •

لقد شوشت ثنيات أمها لتقدم خدماتها للحضارة • وأيا كنا ، نحن الذين نقرأ ونكتب ، فنحن نبجلك أينها الأم ! نحن رومانيون مع « جوفينال » (١) وفلورنسيون مع « دانتى » •

ومن بدائع ايطاليا أنها ارض الرواد الأوائل • ويشهد الانسان فى رحابها ، فى كل عصور تاريخها ، بدايات عظيمة • وهى تتكفل دون هوادة بوضع التصميمات العظيمة للتقدم الحضارى • فليباركها الله من أجل هذه المبادرة المقدسة ! انها حوارية وفنانة • وهى تمقت الهمجية • وكانت أول من نشر الأضواء على ألوان الشطط فى العقاب فى الأرض ، وفيما وراء الحياة • هى التى أطلقت ، فى مناسبتين صيحة الانذار ضد ضروب التعذيب ، ضد الشيطان ، ثم ضد فاريناس • Farinace وهناك رباط وثيق بين « الكوميديا الالهية » التى كشفت عن العقيدة وبين « بحث فى الجرائم والعقوبات » الذى كشف عن القانون • وايطاليا تمقت الأذى ، فهى لا تحكم بالادانة ولا بالتعذيب • لقد حاربت الوحش فى صورتيه ، صورة الجحيم ، وصورة آلة الاعدام • أما دانتى فقد تكفل بالمعركة الأولى ، وأما بيكاريا فقد تكفل بالثانية •

كان دانتى رائدا من نواح أخرى • لقد زرع فى القرن الثالث عشر الفكرة التى أثرت فى القرن التاسع عشر • كان يعلم أنه لا يجوز أن يكون هناك أى قصور فى القانون والعدالة من ناحية التنفيذ ، ويعلم أن ناموس النمو من النواميس الالهية ، ويريد الوحدة لايطاليا • وأحلام العظماء تنبت فى مستقبل الأيام • وتدور أحلام المفكرين طبقا لما يجب أن يكون •

والوحدة التى نادى بها جيرار جروت وروشلان لألمانيا ، وأرادها دانتى لايطاليا ، ليست هى حيـــاة الأمم فحسب ، وانما هى هدف الانسانية • وحيثما تزول الانقسامات ، ويتلاشى الأذى والشر • سوف يختفى الرق من أمريكا • لماذا ؟ لأن الوحدة سوف تولد من جديد • وتميل الحرب الى الخمود فى أوربا • لماذا ؟ لأن الوحدة تنزع الى التكون • وانه لتواز مدهش بين انحسار الكوارث وبين سيادة الانسانية الموحدة •

ان مثل هذا الاحتفال المهيب لهو مظهر رائع • انه عيد الناس كافة تحتفل به أمة من أجل أحد العباقرة • مثل هذا العيد تحتفل به

---

(١) شاعر ايطالى هجاء ، كانت أسفاره الهجائية الساخرة مفعمة بالحرارة والسخط على رذائل روما • ولد حوالى عام ٤٢ ميلادية وتوفى عام ١٢٥ ــ المترجم •

ألمانيا من أجل سيلر ، وانجلترا من أجل شكسبير ، وايطاليا من أجل دانتي . وتشارك أوروبا في الاحتفال ، وهذا هو أسمى آيات الوحدة . فكل أمة تعطى غيرها من الأمم بعضا من رجالها العظام . ونتشكل وحدة الشعوب مع خطوط الاخاء بين العباقرة .

وسوف يسير التقدم بخطى متزايدة فى هذا الطريق الذى هو طريق النور . وعلى هذا النحو سوف نصل ، خطوة خطوة ، دون رجة ، الى الانجازات الكبرى ، وسوف نمضى ، نحن الأبناء المتفرجين ، فى طريق الاتحاد . وهكذا سوف نصل جميعا بفوة الأشياء وحدها وسلطان الأفكار وحده الى المودة والسلام والانسجام . لن يكون هناك أجانب . وسوف تكون الأرض كلها وطنا للجميع . تلك هى الحقيقة العليا وذلك هو الانجاز الضرورى . وحدة الانسان من وحدة الاله .

وانى لأشارك بعاطفة الأبناء فى عيد ايطاليا .

(فيكتور هوجو)

٤

مؤتمر الطلبة

انعقد مؤتمر للطلبة فى بلجيكا ، ودعى فيكتور هوجو لحضوره .
بروكسل فى ٢٣ أكتوبر ١٨٦٥ .

وصلتنى دعوتكم الكريمة فى لحظة رحيلى الى جيرنسبى . ويؤسفنى ألا أستطيع حضور اجتماعكم النبيل المثير للمشاعر . وقد خطا مؤتمركم الطلابى خطوة كريمة . وأنتم تسيرون قدما مع اتجاه جيلكم ، وتبرهنون على نشاطكم وتحرككم ، وهذا شيء جميل .

بالاخاء بين المدارس . تعلنون عن الاخاء بين الشعوب ، وتحققون اليوم ما نحلم به نحن للغد . ومن غيركم أنتم الشباب خليق بأن يكون الطليعة ؟

اتحاد الأمم ، تلك الغاية العظيمة التى يقصدها المفكرون والفلاسفة والتى لم تزل بعيدة المنال ، هذا الاتحاد أصبح منذ هذه اللحظة مرئيا فى أشخاصكم . وانى لأهتف لعملكم الائتلافى ، ولهذا السلام الانسانى الذى تم ابرامه بين أطفالنا ، وأحب فى الشباب ، مشابهته للمستقبل .

لقد انفتح باب أمامكم ، وعلى هذا الباب نطالع عبارة : السلام والحرية ! فلتمروا منه ، ولتكونوا أول المارين ، وأنتم أهل لذلك . هذا الباب هو قوس نصر التقدم .

وأنا معكم من أعماق نفسى .

(فيكتور هوجو)

١٨٦٦

١

الحـــرية

أونفيل هاوس فى ١٩ مارس ١٨٦٦ :

الى السيد/ كليمان دوفبرنوا (١) ٠

ســـــيدى :

رحبت بكتابى « عمال البحـــر » فى عبارات رائعة ملؤها الود والفخار ، فأشكرك ٠

أنت صاحب القريحة الوقادة والضمير الثابت ، أنت أحد أفراد جماعة باسلة تتبع قادة قوية ٠ أنتم ترفعون العلم الأبدى ، وتطلقون الصيحة الأبدية ، وتطالبون بالحق الأبدى : بالحرية !

الحرية ، هى ما تتعطش اليه اليـوم المدارك والضمائر تعطشــا شديدا ٠ الحرية تنتمى الى كل الأحزاب ، فهى الأسلوب الحيوى للفكر ٠ كل نفس تريد الحرية ، مثلما تريد حدقة العين النور ٠ لذلك اتجهت الجماهير كلها اليك منذ اليوم الأول ٠

وأنا مثلك ، أريد الحرية ، وأقاسمها المنفى فى هذه اللحظة ٠ كتبت : سأعود فى اليوم الذى تعود فيه الحرية ٠ اننى أنتظر الحرية بصبر شخصى كبير ، وقلق وطنى كبير ٠

فرنسا بلا حرية ، لم تزل هى الالهة وانما من غير روح ٠ والفارق بينى وبينك هو أننى رجل ثورى ، الثورة فى رأيى مستمرة ٠

التقدم ينتابه فتور بشرى ، ومن ثم فهو فى حاجة الى هزة كل ألفين أو ثلاثة آلاف سنة ٠ لابد له من Ouid divinum « شيء الهى »

---

(١) كاتب وسياسى فرنسى (١٨٣٦ ــ ١٨٧٩) ــ وزير فى الامبراطورية الثقافية ــ المترجم ٠

بدفعة جديدة ، سببه ابتدائيه • وعلى قدر ما تخبرنا به ذاكرة الشعوب في التاريخ • كان رد فعل أوروبا ضد آسيا ، رد الفعل الذى نغنى به هوميروس ، هو الرجه الأولى ، وكانت المسيحية الرجة الثانية ، أما الثالثة فكانت الثورة الفرنسية •

لكل ثورة طبيعة مزدوجه نتعرف عليها من خلالها ، فهى تشكيل من وراء هدم ، ولا يسنى ارادة احدى الطبيعتين دون الأخرى ، ويتميز الرجل الثورى بقبوله هاتين الطبيعتين •

الثورات لا تخلق شيئا ، انما هى انفجار طاقات حرارية كامنة • انها تخرج عن نطاق الانسان ذلك الحدث الداخلى الأبدى الذى أصبح خروجه أمرا ضروريا ، وموضوعه موضوع العصور فى حياة الانسانية • والثورات تستخلص هذا الحدث • ونحن نظن هذا الحدث أمرا جديدا لاننا لا نراه ، وكنا نستشعره من قبل • وهو لو كان حدثا جديدا لكان جائزا • وليس ثمة جديد فى الحق • اما العنصر الذى يظهر فى صورة مبدأ فهو ذلك الفرخ الرائع الذى تخرجه الثورات • والحق الخفى يتكشف فيصير حقا عاما ، وينتقل من حالة مشوشة الى حالة واضحة محددة • كان مستكنا فانفجر • كان شعورا فأصبح حقيقة واقعة •

هذه البساطة الفائقة هى من خصائص أعمال التقدم ذات السيادة •

أما الهزتان الكبيرتان الأخيرتان فى مجال التقدم فقد أنارنا الحقيقتين الانسانيتين الكبيرتين وأقاماهما الى الأبد فوق المجتمعات المتطورة : المسيحية وقد استخلصت المساواة ، والثورة الفرنسية وقد استخلصت الحرية •

وأينما انعدمت هاتان الحقيقتان ، انعدمت الحياة • الحياة ، أن يكون الناس كافة اخوانا ، وأن يكونوا أحرارا • هاكم الحركتين اللتين تتنفس بهما المدينة •

المساواة والحرية هما شهيق الجنس البشرى وزفيره • وما دام الأمر كذلك فانه من الغريب أن نسمع محاجاة فى « الحريات التبعية » و « الحريات الضرورية » •

يقول بعضهم : سوف تتنفسون عندما تستطيعون •

ويقول آخر : سوف تتنفسون عندما تريدون •

« الحريات » عبارة لا معنى لها . أما « الحرية » فهى ذات معنى . انها تشترك مع الله فى نفى الجمع . هى أيضا نقول

« أنا هو أنا » .

ارفع اذن علمك عاليا . صيحتك « الحريه » هى الصيحة التى تخلق الحضـارة ، هى صيحة الانسـان الكبرى التى تقول للشىء كن فيكون . انها النداء العميق الغامض الذى سوف يشرق بعده النجم . النجم وراء الأفق ، يسمع صيحتك ، فتشجع !

معذرة لهذا الزاهد اذا ما خرج لحظة من هدوئه حين أثارته عباراتك الفصيحة الخطيرة وكلمتك القـوية الجامعة للشمل . وهأنذا أبادر بالرجوع الى ما كنت فيه من سكينة . ولكن اسمح لى قبل ذلك يا سيدى أن أصافحك .

(فيكتور هوجو)

٢

المحكوم عليه بالاعدام فى جيرسيى

برادلى

خطاب لصديق

بروكسل فى ٢٧ يولية ١٨٦٦ :

انا مسافر ، وأنت كذلك · ولست أعرف الى أى عنوان ارسل لك خطابى · ترى هل يصل اليك ؟ ومع ذلك فقد وصلنى خطابك ، ولكن لم يصلنى أية صحيفة من الصحف التى حدثتنى عنها · تطلب الى أن اتدخل ، ولكن لا أعرف أول حرف فى هذه القضية المحزنة . قضية برادلى · ثم ماذا عساى أقول ، مع الأسف ! برادلى شىء لا قيمة له ، يضيع عذابه فى عذاب العالم الكبير · والمدينة تقاسى فى هذه اللحظة على آلة التعذيب · ففى انجلترا أعيد تنفيذ الاعدام رميا بالرصاص ، وفى روسيا يزاولون التعذيب · وفى ألمانيا نشط اللصوص وقطاع الطرق · وفى فرنسا انحطت المدارك السياسية والأدبية والفلسفية · والمقصلة الفرنسية تنافس المشنقة الانجليزية ·

أصبح التقدم فى كل مكان مجالا للجدل · الحرية فى كل مكان متعطلة ، والمثل العليا فى كل مكان مهينة · وفى كل مكان تنجح الرجعية بمسمياتها المختلفة ، من قبيل النظام التام ، والذوق الحسن ، والحصافة ، والقوانين الجيدة ، الخ ··· كلمات كلها أكاذيب ·

كانت جيرسى ، الجزيرة الصغيرة ، فى طليعة الشعوب الكبيرة ، حرة ، شريفة ، ذكية ، عطوف · ويبدو أنها حين رأت الدنيا تتقهقر ، اعتزمت هى أيضا أن تتقهقر · لقد أطاحت باريس برأس فيليب ، وسوف تقوم جيرسى بشنق برادلى : منافسة فى الاتجاه المضاد للتقدم ·

لقد أكدت جيرسى التقدم ، وهى الآن سوف تؤكد الرجعية ·

يوم ١١ أغسطس ، يوم عيد فى الجزيرة · سوف تشنق رجل فى هذا اليوم ·

وتصر جيرسيى على أن تؤدى دورها الوحشى ، أسوة بملك بروسيا أو امبراطور الروسيا · يالك من ركن صغير مسكين من أركان الأرض !

يا للكفر بالله الذى يعنى الكثير من أجل هذا البلد الجميل ! يا لنكران هذه الطبيعة ! نعمه الصافية الكريمة ! مشنقة فى جيرسى ! جدير بالعبد أن يكون رحيما !

اننى أحب جيرسيى ، ولذلك فأنا حزين ·

لك أن تنشر خطابى هذا اذا شئت · اليوم ، الأشياء كلها تسعى لاطفاء النور · ومع ذلك فعلينا ألا نيأس · واذا كان الحاضر أصم ، فعلينا أن نلقى الى المستقبل الذى ينتظرنا باحتجاجات الحق والانسانية ضد الظلام الرهيب ·

« فيكتور هوجو »

٣

كريت

صيحة بلغتنى من أثينا :

نداء جاءنى من مدينة فيدياس ومن ايسخولوس ، وأصوات تنطق باســـمى ٠

من أنا حتى أستحق مثل هذا الشرف ؟ لا شىء ، رجل مهروم ٠

من ذا الذى يخاطبنى ؟ قوم منتصرون ٠ نعم أيها الكانديون (١)، الأبطال المتهورون اليوم ٠ سوف تنتصرون فى الغد ٠ اثبتوا وصابروا ٠ سوف تنتصرون حتى ولو كنتم تختنقون ٠ فى احتجاج المحتضر قوة ٠ انه النداء فى حضرة الله الذى يكسر ٠٠٠ ماذا ؟ يكسر شوكة الملوك ٠

٠ كل هذه القوى الجبارة المعادية لكم ، وتلك التحالفات التى تضم القوى العشواء والآراء المتصلبة ، والطواغى المسلحة العتقة ، من صفاتها الرئيسية أنها قد تفرق بسهولة بينة ٠

السفينة الملكية القديمة ، على مؤخرتها تاج البابوات ، وفى مقدمتها العمامة ، قد تسرب ماء البحر فى داخلها انها تغرق فى هذه اللحظة فى المكسيك والنمسا واسبانيا وهانوفر وساكس وروما وغيرها ٠ نعم ، اثبتوا صابروا ٠ ٠

لا يمكن أن تنهزموا ٠

الثورة التى تخمد لا تمحو مبدءا ٠

ليس هناك أمر واقع ٠ وانما هناك الحـــق فحسب ٠ الأحداث لا تنتهى أبدا ، وانما الحق هو الذى ينجزها مرة بعد مرة ٠ الحـــق

---

(١) أهالى جزيرة كريت المسماة أيضا « كانديا » ، واسم عاصمتها أيضا كانديا ــ المترجم ٠

لا ينغمر ، فأمواج الأحداث تمر من فوقه ، ولكنه يظهر من تحتها . بولندا الغارقة تعوم فتطفو . هاكم أربعة وتسعين عاما والسياسة الأوروبية تحمل هذه الجثة (جثة بولندا) ، والشعوب تبصر هذه الروح وهى تطفو فوق الوقائع .

أيا شعب كريت ، أنت أيضا روح .

أيا يونانى كانديا ، الحق فى صفكم ، والمنطق السليم معكم ، وما يتعلل به الباشا فى كريت لا يقره العقل . وما يصدق مع ايطاليا يصدق بالمثل مع اليونان . ولا يمكن رد فينيسيا الى الأولى دون أن ترد كريت الى الثانية . والمبدأ الواحد لا يمكن أن يصدق من ناحية ويكذب من ناحية أخرى . وما هو هناك فجر لا يمكن أن يكون هنا قبر .

والى أن يحين الأوان ، تسيل الدماء ، وتتركها أوروبا تسيل وتعتاد ذلك . واليوم يوم السلطان ، انه يبيد احدى القوميات .

هل ثمـة قانون الهى تركى ، يبجله القانون الالهى المسيحى ؟ القتل والسرقة والاغتصاب تنقض فى هذه اللحظة على كانديا كما انقضت منذ ستة شهور على ألمانيا . والشىء الذى يمتنع على شبنذر هانز يتاح للسياسة . يقال عن الانسان الذى يضع السيف فى جنبه ويتفرج على المذابح فى هدوء انه من رجال السياسة . ويبدو أن الدين مهتم بأن يذبح الأتراك كانديا فى هدوء ، وأن المجتمع سوف يتزلزل كيانه اذا لم تخترق السيوف أجسـام الأطفـال بين سكارينتو وسيتبر . ان نهب المحاصيل واحراق القرى شىء مفيد . والباعث الذى يفسر عمليات الابادة هذه ويجعلها مقبولة ومحتملة هو باعث يعلو على مداركنا . ويدهشنا بالمثل ما جرى فى ألمانيا هذا الصيف . ومن الأمور المهينة لأولئك الناس الذين أحالهم النفى أغبياء بلداء ، وأنا منهم ، ألا يفهموا البتة الأسباب العظمة التى يبديها القتلة الحاليون .

ومهما كان الأمـر فقد طرحت المسـألة الكريتيـة منذ اليـوم على بساط البحث . ولسوف تحل هذه المسألة أسوة بجميع مسائل هذا القرن ، بالتحرير .

الحكم ما ندين به نحن الفرنسيين لوالدتينا ، اليونان وايطاليا : أن تكتمل سيادة كل منهما ، وتصير أثينا على رأس الأولى وروما على رأس الثانية .

انه دين سوف توفى به فرنسا . وانه واجب ســوف تؤديه فرنســا .

متى ؟

اثبتوا وثابروا .

أوتفيل هاوس فى ٢ ديسمبر ١٨٦٦ .

(فيكتور هوجو)

١٨٦٧

١

كريت

من شعب كريت الى فيكتور هوجو

أومالوس (حى سيدونيا) بكريت فى ١٦ يناير ١٨٦٧

هبت علينا نفحة من روحك القوية فجففت دموعنا · وقلنا لأطفالنا : هناك وراء البحار شعوب كريمة وقوية تنشد العدالة وسوف تحطم أغلالنا ·

فاذا هلكنا فى المعركة ، وتركناكم يتامى شاردين فى الجبال مع أمهاتكم الجائعات ، فان هذه الشعوب سوف تتبناكم ، ولن تقاسوا أى عذاب بعد ذلك ·

ومع ذلك فقد تطلعنا عبثا ناحية الغرب · ومن الغرب لم تصلنا أية نجدة · وقال لنا أولادنا : لقد خدعتمونا - وجاء خطابك ، أثمن عندنا من أحسن الجيوش · ذلك لأنه يؤكد حقنا ·

لقد قمنا بثورتنا لأننا نعرف حقنا ·

ولم نكن نطمح ، نحن الجبليين المساكين المسلمين تسليما هزيلا ، أن ننتصر وحدنا على هاتين الأمبراطوريتين الكبيرتين المتحالفتين ضدنا : مصر وتركيا ·

ولكنا أردنا أن نلجأ الى الرأى العام الذى قيل لنا انه السيد الوحيد على العالم فى الوقت الحاضر ، نلجأ الى النفوس الكبيرة التى تقود هذا الرأى ، مثلك ·

وبفضل الاكتشافات العلمية ، أصبحت القوة المادية اليوم ملك الحضارة ·

كانت أوروبا منذ أربعة قرون عاجزة أمام البرابرة · أما اليوم فانها تملى عليهم القوانين · لذلك فانه لن يكون ثمة اضطهاد للانسانية اذا شاءت أوروبا الا يكون اضطهاد ·

لماذا اذن تبقى أوروبا على أحد الباشوات على مرأى من الشـواطىء الايطالية فى وسط البحر المتوسط ، على بعد ثلاثين ساعة من فرنسا " هذا ما حدث فى الزمان الماضى الذى كان فيه الأتراك يحاصرون تارنتو فى ايطاليا ، وفيينا فى المانيا !

لقد الغى رق الجنس الأسود فى أمريكـا · بيد أن عبوديتنا أكثر بشاعة وأشد وطأة مما كانت عليه عبودية الزنوج · ورغم المواثيق كلها ، فان التركى هو دائما سيد أشد قسوة من أى مواطن أمريكى فى الولايات المتحدة ·

واذا أتيح لك أن تعرف تاريخ كل أسرة عندنا كما تعرف تاريخ بلدنا التعس ، فانك سوف تشهد النفى والاضطهاد والموت ، نشهد الأب وقد ذبحته سيوف طغاتنا ، والأم وقد انتزعت من بين أطفالها الصغار لترزح فى أشد ضروب العبودية اذلالا للنفس ، والأخوات وقد تلوثن . والاخوة وقد جرحن أو قتلن ·

ولن نقول لأولئـك الذين يتركوننا نقـاسى كل تلك المقـاساة . ويستطيعون **انقاذنا سوى العبارة الآتية :** أنتم لا تعرفون اذن الحقيقة ؟

عندما أنزلت بارجتان احداهما انجليزية والثانية روسية فى ميناء بيريه · بعض أسرنا ، كان هناك بعض الأجانب · وشهد هؤلاء الأجانب أننا لم نكن مبالغين فى وصف آلامنا ·

أنت نور أيها الشاعر · وانا نناشدك أن تنير أذهان أولئك الذين يجهلوننا ، وأولئك الذين حذرهم بعض الرجالين من قضيتنا المقدسة ·

أيها الشاعر ، تقول لغتنا الجميلة انك خالق ، خالق الشعوب . كالمرتلين الأقدمين ·

وبأغانيك الفاخرة فى كتاب « شرقيات » بذلت جهدا عظيما فى خلق الشعب اليونانى الحديث ·

هيا أنجز عملك ·

انك تدعونا بالمنتصرين ، وسوف ننتصر بفضلك ·

باسم الشعب الكريتى ، وبتفويض من ضباط البلد ،

حكمدار مقاطعة كانيه الأربع

ج زيمبراكاكيس

اوتفيل هاوس فى ١٧ فبراير ١٨٦٧

كتبت هذه السطور استجابة لأمر جاء من عل ، من وسط الغمه ٠

وهذا ثانى نداء وجهته اليونان الى ٠

وصلني خطاب ، خرج من معسكر الثائرين يحمل تاريخا من أومالوس بحى سيدوينا ، مصطبغ بدم الشهداء ، مكتوب بين الأطلال والموتى ، بين الشرف والحرية ٠ فى هذا الخطاب صيغه آمرة تشوبها سمة بطولية ٠ وعنوان الخطاب : « من شعب كريت الى فيكتور هوجو » ، ويقول لى : واصل ما بدأته ٠

وها أنذا أستمر ، وما دامت كانديا التى تلتقط أنفاسها الأخيرة تريدنى أن أتكلم ، فأنا أعاود الحديث ٠

ويحمل الخطاب توقيع زيمبرا كاكيس ٠

زيمبرا كاكيس هو بطل هذه الثورة الكاندية التى كان زيريسدانى خائنهـا ٠

تتخذ الشعوب فى بعض ساعات البطولة والشهامة أجساد الجنود الذين هم فى الوقت نفســـه أرواح ، فمنهم واشـــنجنون وبوتزاريس وجاريبالدى ٠

وكمـا ثار جون براون من أجل السـود ، وجاريبالدى من أجل ايطاليا ، يثور زيمبراكاكيس من أجل كريت ٠

فاذا واصل زيمبراكاكيس الجهاد حتى النهاية ، وسوف يفعل ، سواء هلك مثل جون براون ، أو انتصر مثل جاريبالدى ، فانه سوف يكون رجلا عظيما ٠

أتريدون أن تعرفوا موقف كريت فى الوقت الحاضر ؟ اليكم بعض الحقائق ٠

الثورة لم تمت ٠ لقد استردوا فيها السهول ، ولكنها احتفظت بالجبـال ٠

انها لم تزل حية ، تنادى وتصبح مستغيثة ٠

لماذا ثارت كريت ؟ لأن الله جعلها أجمل بلاد الدنيا ، وخلق الأتراك أتعس الخلائق ، لأن عندها حاصلات وليس لها تجارة ، عندها مدن ليس بها طرق ، وقرى ليس بها دروب ، عندها موانى ليس بها أرصفة ،

وأنهار ليس عليها قناطر ، وأطفال بلا مدارس ، وحقوق بلا قوانين . وشمس بلا ضياء . وقد نشر الأتراك عليها أجنحة الليل .

ثارت كريت لأنهـا يونانيـة وليست تركية ، لأن الأجنبى بها لا يحتمل ، لأن الطاغية ممقوت اذا كان من جنس المضطهد ، أما اذا لم يكن كذلك فهو بشع ، لأنه لا يمكن أن يكون هناك سيد يتكلم رطانة بربرية فى بلد ايتيارك ومينوس ، لأنك يا فرنسا سوف تثورين !

ثارت كريت ، وخيرا صنعت .

ما الذى نتج من هذه الثورة ؟ سوف أخبركم . أربع معارك لغاية يوم ٣ يناير ، منها انتصارات ثلاثة : أبوكورونا ، وفافيه ، وكاستل سيلينو ، وكارثة مشـهورة : أركاديون ! وقـد شقت الثورة الجزيرة قسمين ، فأصبح نصفها للأتراك والنصف الآخر لليونانيين . وهناك خط للعمليات الحربية يمتد عن طريق سكيفو وروكولى . من كيساموس الى لاسيتى ، بل والى جيرابيترا . ومنذ ستة أسابيع لم يعد للأتراك المرتدين سوى بضع نقاط على الساحل . والسفح الغربى لجبال بسيلوريتى حيث أمبيليرسا . وفى تلك اللحظة كان خليقا باصبع أوروبا المرفوعة ان تنقذ كانديا . ولكن أوروبا لم يكن لديها وقت لذلك . كان هناك زفاف فى تلك اللحظة ، وكانت أوروبا تتفرج على الحفل الراقص .

يعرف الناس كلمة أركاديون ، ولكنهم يعرفون القليل عن الحقيقة . واليكم التفاصيل الدقيقة المجهولة تقريبا . فى أركاديون ، وهى دير جبل ايدا ، أسسه هيراكليوس ، هاجم ستة عشر ألف تركى مائة وسبعة وتسعين رجلا وثلثمائة وثلاث وأربعين امرأة وأطفالهم . وكان مع الأتراك ستة وعشرون مدفعا ، ومدفعا حصار ، ومع اليونانيين مائتان وأربعون بندقية . واستمرت المعركة يومين وليلتين . واخترق جدران الدير ألف ومائتا كرة حديدية من كرات المدافع . وانهـار جدار منهـا ، ودخل الأتراك ، وواصل اليونانيون المعركة ، ولم تعد مائة وخمسون بندقية صالحة للاستعمال . واستمر القتال فى الحجرات الصغيرة والسلالم ست ساعات . وكان فى الفنـاء ألفا جثة . وحشود الأتراك المنتصرين تملأ الدير . ولم يبق غير قاعة محصنة بالمتاريس . بها مخزن البارود . وفى هذه القاعة ، بالقرب من المذبح . وسط جماعة من الأطفال والأمهات . رجل فى الثمانين من العمر ، هو الراهب جابرييل ، يصلى . وفى الخارج يقتل الأتراك الآباء والأزواج . ولكن خلاص النساء والأطفال من القتل من شأنه أن يلقى بهم فى مهاوى الشقاء والتعس فى حريم الأتراك . وكان الباب الذى انهـالت عليه دقات الفؤوس على وشـك الانهيـار

والسقوط . وتناول الشيخ المسن من فوق المذبح شمعدانا ، ونظر الى هؤلاء الأطفال والنسوة وأمال الشمعدان فوق البارود . وخلص الجميع . ووقع انفجار رهيب ، انقذ المنهزمين ، وانقلب النزع الأخير نصرا . وباد هذا الدير البطولى الذى قاتل كما تقاتل القلاع الحصينة . باد كالبركان .

ليست يسارا أعظم بطولة . وليست ميسولونجى (١) أعظم شأنا من أركاديون .

تلك هى الوقائع ، فماذا تفعل الحكومات التى يقال عنها متحضرة ؟ ماذا تنظر ؟ انها تتهامس قائلة : صبرا ، فنحن نتفاوض .

تتفاوضون ؟ وفى هذه الأثناء تقتلع أشجار الزيتون والقسطل (٢) ، وتهدم طواحين الزيت ، وتحرق القرى والمحاصيل . وترسل مجموعات كاملة من السكان الى الجبال ليموتوا فيها من الجوع والبرد ، ويذبح الأزواج . ويشنق الشيوخ . وثمة جندى تركى يبصر طفلا طريحا على الأرض ، فيدس فى فتحتى أنفه شمعة مشتعلة ليستوثق من وفاته . وعلى هذا النحو استيقظ فى أركاديون خمسة من الجرحى فذبحوا لفورهم .

تقولون صبرا ! وفى هذه الأثناء يدخل الأتراك قرية مورنييس التى لم يبق فيها سوى النساء والأطفال . وعندما يخرجون منها ، لا تشهد العين سوى كومة من الخرائب منهارة على كومة من الجثث الآدمية ، كبيرة وصغيرة .

والرأى العام ؟ ماذا يفعل ؟ ماذا يقول ؟ لا شئ . انه يشيح بوجهه الى الناحية الأخرى . ماذا تريدون ؟ عيب هذه الفواجع أنها لا تساير العادات الشائعة .

يا للأسف !

وتنتهى السياسة الصبور التى تنتهجها الحكومات الى نتيجتين : امتناع العدالة عن اليونان ، وامتناع الرحمة عن الجنس البشرى . أيها الملوك ، كلمة واحدة سوف تنقذ هذا الشعب . لقد أسرعت أوروبا فقالت كلمتها . هيا قولوا هذه الكلمة . فيم نفعكم ان لم يكن فى هذا الخصوص ؟

---

(١) مدينة فى اليونان على البحر الايونى ، اشتهرت بالدفاع البطولى الذى تصدى به بوتزاريس للاتراك فى عام ١٨٢٢ ، ١٨٢٥ ، ومات فيها الشاعر الانجليزى بايرون ــ المترجم .
(٢) أبو فروة ــ المترجم

ولكن لا ، انكم تصمتون ، وتريدون أن يصمت الجميع ٠

الحديث عن كريت محظور ، وهذى هى الخطة المرسومة ٠ وهناك ست أو سبع دول كبرى تتآمر ضد شعب صغير ٠ ترى ما عساها تكون هذه المؤامرة ؟ انها أشد المؤامرات خسة ونذالة ، مؤامرة السكوت ٠

ولكن الرعد نقيض السكوت ٠ والرعد يأتى من العلياء ويسمى فى لغة السياسة : الثورة ٠

(فيكتور هوجو)

٢

الغينانيون (١)

بعد كريت ، نتجه ايرلندا نحو ذلك المقيم فى جيرنسيى . فيكتب اليه نســاء الغينانيين المحــكوم عليهم · ومن ثم حرر فيكتور هوجو تلك الرسالة الى انجلترا ·

الى انجلترا

الكرب والغمة فى دبلن · الأحكام تتعاقب ، وقرارات العفو عن المحكوم عليهم لا تصل وثمة خطاب بين أيدينا يقول : « ··· ســوف ننصب المشنقة ، فتبدأ نشاطها بالجنرال بيرك ، وبعده الكابتن مكافرتى ، والكابتن ماكليور ، ثم ثلاثة آخرون ، كيلى وجويس وكولينين ··· لم يبق أمامنا دقيقة واحدة نضيعها ··· نساء وفتيات يتوسلن اليك ··· نرى هل يصلك خطابنا فى الوقت المناسب ؟ ··· » نقرأ هذا الخطاب ولا نصدق ما يحويه · يقال لنا : المشنقة مستعدة ، فنجيب : هذا مستحيل · لم يجر العرف على اعدام مرتكبى الجرائم السياسية ، فضلا عن أن عقوبة الاعدام مكروهة حتى للجرائم العادية · لا ، المشنقة السياسية لا يمكن أن يكون لها وجود فى انجلترا · لم تهلك انجلترا لكوسوت (٢) لتقيم هى مشانق مثل مشانق هنغاريا ، ولم تمجد انجلترا جاريبالدى لتعود الى مثل مشانق صقلية · ترى ما معنى الهتافات التى تطلقها لندن وساوثمبتون؟ ألفوا اذن كل لجــانكم البولندية واليونانية والايطالية ، وكونوا مثــل

---

(١) الفينانية حركه سياسيه ثوريه انتظمت فى ايرلندا عام ١٨٦١ بقصد تحريرها من السيطرة الانجليزية وامتد نشاطها الى امريكا ــ المترجم ·

(٢) لويس كوسوت (١٨٠٢ ــ ١٨٩٤) بطل وثائر هنغارى ، زعيم ثوره عام ١٩٤٨ فى هنغاريا . اختير رئيسا للحكومه فى ابريل ١٨٤٩ ــ وحينما أطبقت القــوات النمساوية والروسيه على هنغاريا وقمعت الثورة فر الى تركيا وقضى بقية حياته منفيا عن البلاد . ومات فى ايطاليا ــ المترجم ·

أسبانيا • كلا ، لن تعدم انجلترا ايرلندا فى عام ١٨٦٧ مثلما فعلت اليزابيث عندما قطعت رأس مارى ستيوارت •

فالقرن التاسع عشر حى يرزق •

هل يشنق بيرك ! مستحيل • هل تحاكون نالافيرو فى قتله جون براون ، وشاكون فى قتله لوبير . وجيفرار فى قتله ديلورم الصغير ، وفرديناند فى قتله بيزاكان ؟

عجبا ! أبعد الثورة الانجليزية ، والثورة الفرنسية ، وفى العصر العظيم الذى نحن فيه ، عصر النور ، لم يقل أحد شيئا ولم يفكر أحد فى شىء ، ولم يتم الاعلان عن أى شىء ، أو انجاز أى شىء منذ أربعين سنة •

عجبا ، أتحدث مثل هذه الأشياء فى حضورنا ، ونحن أكثر من متفرجين ، بل نحن شهود عيان ! عجبا ، أما زالت العقوبات القديمة الوحشية قائمة ! عجبا . أما زالت مثل هذه الأحكام تصدر حتى هذه الساعة : « فى يوم كذا ، بتاريخ كذا سوف تجر على الحصير فى المكان الذى ستعدم فيه ، ثم يقطع جسدك أربع قطع تترك تحت تصرف صاحب الجلالة الذى سيأمر بما يتبع بشأنها حسب ما يتراءى له » عجبا ! فى ذات صباح من شهر مايو أو يونية ، اليوم أو غدا . سوف توثق يدا رجل بالحبال ويغطى رأسه بطاقية سوداء ويشنق ويخنق حتى تفيض روحه . لأنه ذو عقيدة سياسية أو وطنية ، ولأنه ناضل من أجل هذه العقيدة وانهزم ! لا ! لست انت انجلترا التى نفعلين هذا !

انك تمتازين على فرنسا فى الوقت الحاضر من حيث أنك أمة حرة • أما فرنسا التى تضارع انجلترا فى عظمتها فانها ليست الآن سيدة نفسها ، وفى هذه الحال اذلال شديد لها ، ومن أجل هذا تزهين وتتفاخرين • ولكن حذار : قد يتقهقر الانسان قرنا كاملا فى يوم واحد • وانت يا انجلترا ترتدين الى الوراء ، الى المشنقة السياسية ! اذن أقيمى تمثالا لجيفريز (١) •

وفى هذه الأثناء سوف نقيم نحن تمثالا لفولتير •

هل فكرتم فى ذلك ؟ عجبا ! عندكم شريدان وفوكس اللذان وضعا

---

(١) حامل الأختام (وزير العدل) فى انجلترا فى عهد شارل الثانى وجاك الثانى جلب لنفسه كراهية الشعب بسبب الاحكام الجائرة القاسية التى أصدرها — المترجم •

أسس البلاغة البرلمانية ، وهوارد الذى زاد فى تهوية السجون وخفف العقوبات ، وولبرفورس الذى ألغى الرق ، ورولاند هل الذى نشط حركة البريد ، وكوبدن الذى خلق حرية التجارة . لقد دفعتم العالم الى الاستعمار ، ومددتم أول خط (كابل) تلغرافى عبر المحيطات . أنتم الذين نضجتم كل النضج فى عالم السياسة ، وتمارسون الحقوق الوطنية العظيمة بكل أشكالها ممارسة رائعة . عندكم حرية الصحافة ، وحرية الخطابة ، وحرية العقيدة ، وحرية تكوين الجمعيات ، وحرية الصناعة ، وحرية السكن ، والحرية الشخصية . وسوف تصلون عن طريق الاصلاح الى الانتخاب العام ، أنتم بلد التصويت ، وقائمة الناخبين ، والاجتماع . أنتم الشعب القوى صحب قانون « احضار المتهم الى قاعة المحكمة » (١) . بديع ، أضيفوا اذن الى كل هذه العظمة شيئا آخر . أضيفوا « بيرك المشنوق » . أنتم أعظم الشعوب الحرة ، وبسبب هذا بالذات تصبحون أصغرها .

لا يعلم الانسان مدى التخريب الذى تسببه قطرة من العار فى داخل المجد والفخار . فبعد أن كنتم الأوائل تصبحون الأخيرين ! ما هذا الطموح المعكوس ؟ ما هذا التعطش الى الانحطاط ؟ لن تعرف القارة الأوروبية بريطانيا العظمى المهيبة صانعة التقدم أمام هذه المشانق الجديرة بجنون جورج الثالث . ولسوف تشيح الأمم بوجهها عن هذا العمل المنافى للمدنية . ومن عساه يقترف هذا العمل ؟ انجلترا ! يا لها من مفاجأة مفجعة ، ودهشة تبعث على الأسى . ما أبشعها شمس يخرج منها الليل فجأة !

لا ، لا ، ثم لا ! أقول لكم ثانية أنكم لستم انجلترا التى تفعل هذا . أنتم انجلترا مرشدة الأمم الى التقدم والعمل والمبادأة والحقيقة والحق والعقل والعدالة وجلال الحرية ! أنتم انجلترا التى تعرض علينا صورة الحياة ، لا شبح الموت .

أوروبا تدعوكم الى الواجب .

ان الدفاع عن هؤلاء المحكوم عليهم ، انما هو مبادرة الى نجدة ايرلندا ، وهو أيضا مبادرة الى نجدة انجلترا . فالأولى معرضة للخطر من ناحية حقها ، والثانية من ناحية مجدها .

---

(١) Hebeas Corpus

لن نقام المشانق أبدا ٠ ولن يموت ماكليور ومافرنى وكيلى وجوبس وكولينان ٠ أيتها الزوجات والبنات اللوانى كتبن خطابا لرجل منفى ، لا حاجة بكن الى تفصيل الثياب السود ٠ انظرن فى طمأنينه الى أطفالكن النائمين فى مهودهن ٠ انجلترا تحكمها امرأة تلبس ثوب الحداد ٠ الأمم لن تيتم أطفالا ، والأرملة لن تجعل النساء أرامل ٠

(فيكتور هوجو)

اوتفيل هاوس فى ٢٨ مايو ١٨٦٧

وكان لهذا الكلام أثره فى النفوس ، فلم يعدم الغينيانيون

٣

الامبراطور ماكسيميليان

الى رئيس جمهورية المكسيك

حواريز ، لقد أصبحت ندا لجون براون ٠

وأمريكا الحالية لها بطلان ٠ جون براون ، وأنت جون براون الذى انفضى الرق على يديه ، وأنت الذى عاشت الحرية بفضلك ٠

لقد خلصت المكسيك بفضل مبدأ ورجل ٠ أما المبدأ فهو الجمهورية ، وأما الرجل فهو أنت ٠

ثم ان مصير الاعتداءات الملكية كلها الى الفشل ٠

وكل حركة لاغتصاب السلطة تبدأ من مدينة بويبلا وتنتهى فى مدينة كويريتارو ٠

انقضت أوروبا على أمريكا فى عام ١٨٦٣ ٠ وهجمت ملكيتان على ديموقراطيتكم ، هجمت احداهما بأمير ، وهجمت الثانية بجيش ٠ وأتى الجيش بالأمير ٠ وعندئذ شهد العالم هذا المنظر : من ناحية ، جيش ، أعظم جيوش أوروبا حنكة ودربة ، يستند الى أسطول قوى فى البحر بقدر ما هو قوى فى البر ، تموله فرنسا ، جيش مستعد دائما ، تحت قيادة قديرة ، مظفر فى أفريقيا والقرم وايطاليا والصين ، شديد التعصب لرايته ، يمتلك جيادا ومدافع ومؤونة وذخائر حربية بكميات هائلة ، ومن ناحية أخرى : خواريز ٠ من ناحية ، أمبراطوريتان ، ومن ناحية أخرى رجل واحد ، رجل معه حفنة من الرجال ، رجل مطارد من بلد الى بلد ، ومن حلة الى حلة ، ومن غابة الى غابة ، يترصده رصاص المجالس العسكرية المرذولة ، مطارد ، متسكع ، مرتد الى الكهوف وكأنه حيوان متوحش ، محصور فى الصحراء ، رصدت جائزة لمن يقبض عليه ،

جنرالاته نفر من البائسين ، وجنوده من أصحاب السياب الرثة المهلهلة . لا مال معه ولا خبز ولا بارود ولا مدفع ، يتخذ من الادغال قلاعا . الاغتصاب هنا يسمى عملا مشروعا ، والحق هناك يسمى لصوصية . الاغتصاب ، وعلى رأسه خوذة ، وفى يده حسام الأمبراطور ، يحييه الأساقفة ، يدفع أمامه ويجر خلفه جميع الفرق العسكرية . أما الحق فهو وحيد وعار . أنت الحق ، وقد قبلت النزال .

واستمرت المعركة ، معركة فرد واحد ضد الجميع ، خمس سنوات . ولما أعوزك الرجال ، اتخذت من الأشياء قذائف . كان الجو الشديد القسوة عونا لك ، وشمسك تابعة لك . اتخذت للدفاع عنك البحيرات التي يستحيل عبورها ، والجنادل التى تموج بالتماسيح ، والمستنقعات الملأى بالحيات والنبانات السامة والحمى الصفراء المنتشرة فى المناطق الحارة ، والقفار المالحة ، والرمال الشاسعة التى لا ماء فيها ولا عشب ، والتى تموت فيها الخيول من الجوع والعطش ، وهضبة « أناهواك » . الكبيرة الصارمة الحصينة بتجردها كاقليم قشتالة (باسبانيا) ، والسهول ذات الوهاد التى ترجها الهزات البركانية ، من كوليما الى نيفادو دى تولوكا . واستعنت بحدودك الطبيعية ، سلاسل جبال الأند (الكورديلير) الوعرة ، والسدود البازلتية العالية ، وصخور البورفير (١) الضخمة . لقد أضربت حرب الجبابرة ، فاتخذت من الجبال عدتك للقتال .

وذات يوم ، بعد انصرام أعوام خمسة فى دخان وتراب وعمى ، تبددت الغمامة ، ورأينا الامبراطوريتين صريعتين ، ولم يعد ثمة أثر للملكية ولا للجيش ، وصار الاغتصاب الفاجر أطلالا خربة ، وفوق هذا الدمار رجل واقف هو فواريز ، والى جانب هذا الرجل ، الحرية .

لقد فعلت هذا يا خواريز ، وانه لعمل عظيم . وبقى عليك أن تعمل عملا أعظم .

اسمع أيها المواطن ، رئيس جمهورية المكسيك .

لقد جدلت الملكيات تحت وطأة الديموقراطية ، وأريتهم قوتها ، والآن أرهم جمالها . أعرض الشفق بعد الصواعق ، أعرض الجمهورية التى تبقى على حياة الناس بعد حكم القياصرة الذى يذبحهم . أعرض الشعب الذى يحكم على الملكيات المغتصبة المدمرة ، ويعدل فى حكمه . أظهر المدنية للهمج والمبادىء للطغاة . أشعر الملوك بالذلة والهوان أمام أنوار الشعب الساطعة ، وأقضى عليهم بالرأفة والحنان .

---

(١) البورفير نوع الرخام الشديد الصلابة ، لونه أحمر أو أخضر ، ومبرقش — المترجم .

المبادىء تتدعم خاصة بحمايتنا لأعدائنا . وعظمه المبادىء فى التغاضى والتجاهل . الناس لا أسماء لهم أمام المبادىء ، انما هم « الانسان » فحسب . والمبادىء لا تعرف الا نفسها ، فهى فى سذاجتها السامية لا تعرف سوى أن الحياة البشرية مصونة من كل اعتداء .

ايه لك أيتها الحقيقة الموقرة فى عدم تحيزها ! يا لجمال الحق من غير تمييز ، الحق الذى لا يهمه غير أن يكون حقا !

من أهم الأشياء أن ننبذ أسلوب العنف هذا ، أسلوب القتال ، خاصة أمام أولئك الجديرين بأن يموتوا بحكم الشرع . ان أبدع انقلاب يقع لآلة الاعدام ، هو الانقلاب الذى ينم أمام المحكوم عليه .

ضع مبدأ ينقذ هذا الذى اعتدى على المبادىء ، ويكون له فيه السعادة ، كما يكون له فيه الخزى والعار ! وليركن الى الحق ، هذا الذى يضطهد الحق . فاذا جردته من حصانته الكاذبة ، حصانته الملكية ، كشفت عن الحصانة الحقيقية ، الحصانة الانسانية . وانه ليذهل حين يرى أنه قد كرس أمبراطورا من وجه غير وجهه الأمبراطورى . ليعلم هذا الأمير الذى لم يشعر بانسانيته أن فى شخصه تعاسة ، تعاسة الأمير ، وفيه جلالا ، جلال الانسان .

لم تسنح أبدا فرصة رائعة مثل هذه الفرصة . أيجرؤ أحد أن يصرع بيريزوفسكى فى وجود ماكسيمليان السليم المعافى ؟ لقد أراد الأول أن يقتل ملكا ، وأراد الثانى أن يقتل أمة .

أى خواريز ، فلتخط بالمدينة هذه الخطوة الهائلة ، أى خواريز ، الغ عقوبة الاعدام من على وجه الأرض .

وليشهد العالم هذه المعجزة : الجمهورية وفى قبضتها قاتلها الامبراطور . وفى اللحظة التى تهم فيها بسحقه ، تدرك أنه انسان ، فتخلى سبيله وتقول له : أنت من الشعب مثل غيرك ، فاذهب !

هناك يا خواريز ، سيكون ثانى نصر لك . كان انتصارك الأول على الاغتصاب نصرا مبينا ، أما انتصارك الثانى ، بالتسامح مع المغتصب ، فسوف يكون نصرا ساميا .

نعم ، هؤلاء الملوك الذين غصت سجونهم بالنزلاء ، وتلطخت ما عندهم من آلات الاعدام بدماء القتلى ، ملوك المشانق والمنافى (١)

---

(١) جمع منفى — المترجم .

والمعاقل وفيافى سيبريا ، هؤلاء الذين يمتلكون بولندا ، وأولئك الذين بيدهم هافانا ، وكريت ، أولئك الأمراء الذى بنصاع لهم القضاة ، والقضاة الذين يطيعهم الجلادون ، والجلادون الذين يمتثلهم الموت ، وهؤلاء الأباطرة الذين يقطعون رؤوس الناس بسهولة ، بين لهؤلاء كلهم كيف يمكن الابقاء على رأس امبراطور .

اكشفوا عن قانون النور ، فوق مجموعات القوانين الملكية كلها حيث قطرات الدم تتساقط ، ولبنصر وسط أطهر صفحة من صفحات الكتاب المقدس أصبع الجمهورية موضوعة على هذا الأمر الالهى الذى يقول : « لا تقتل ... » .

هذه الكلمات الثلاث تتضمن الواجب .

والواجب ستؤديه .

سوف يخلص المغتصب . أما المحرر فانه لم يسلم مع الأسف ! فمنذ ثمانية أعوام ، فى الثانى من ديسمبر عام ١٨٥٩ ، تحدثت باسم الديموقراطية ، وطالبت الولايات المتحدة بحياة جون براون ، ولكن لم أستطع انقاذ حياته . واليوم أطالب المكسيك بحياة ماكسيمليان . فهل يا ترى أحصل عليها ؟ نعم ، وربما قد تم خلاصها فى هذه اللحظة .

ان ماكسيميليان يدين بحياته لخواريز

وقد يقول بعضهم : والعقاب !

العقاب ، ها هو :

سوف يعيش ماكسيمليان « بموجب العفو الصادر من الجمهورية »

أوتفيل هاوس فى ٢٠ يونية ١٨٦٧

(فيكتور هوجو)

حرر هذا الخطاب وأرسل فى ٢٠ يونيــة ١٨٦٧ . وفى اللحظة نفسها ، أى فى الوقت الذى كان فيه فيكتور هوجو يكتب هذا الخطاب ، جرى فى باريس العرض الأول لاعادة مسرحية « هيرنانى » . ونشرت الصحف الانجليزية والبلجيكية الخطاب الموجه الى خواريز فى يوم ٢١ يونية . وفى الوقت نفسه أرسلت برقية من لندن عن طريق سفارة النمسا وبأمر خاص من الامبراطور الهرم فرديناند الثانى تخطر خواريز أن فيكتور هوجو طلب العفو عن ماكسيميليان . ووصلت البرقية متأخرة بعد تنفيذ الحكم بالاعدام فى ماكسيميليان . وفقدت الجمهورية المكسيكية بهذا العمل فرصة عظيمة للمجد والفخار .

٤

فولتير

فى عام ١٨٦٧ ، افتتحت صحيفة « لوسييكل » اكتتابا شعبيا لاقامة تمثال لفولتير وأرسل فيكتور هوجو قائمة تبرعات جماعة المنفيين فى جيرنسيى ، وكتب لمحرر جريدة لوسييكل :

الاكتتاب من أجل اقامة تمثال لفولتير واجب عام ٠

فولتير رائد

انه حامل شعلة القرن الثامن عشر ، فهو يتقدم الثورة الفرنسية ويعلن عنها ٠ انه نجم ذلك الصباح العظيم ٠

كان القساوسة محقين حين أطلقوا عليه لقب لوسيفير (١)

(فيكتور هوجو)

---

(١) ابليس — المترجم ٠

٥

جون براون

نظم مديرو جريدة باريسية اسمها « لاكوؤبيراسيون » (التعاون) منذ بضعة شهور اكتتابا محددا ببينى (١) واحد لتقديم وسام لأرملة ابراهام لنكولن • وعندما تم لهم تحقيق هذا الغرض ، فتحوا اكتتابا مماثلا من أجل تقديم تذكار من هذا القبيل لأرملة جون براون ، وأرسلوا الخطاب الآتى الى فيكتور هوجو :

(بريد أوروبا)

باريس فى ٣٠ يونية ١٨٦٧

سيدى

نظمنا اكتتابا بعشرة سنتيم لاهداء وسام لأرملة جون براون • ولا بد أن يدرج اسمك على رأس قوائمنا • وقد قمنا من تلقائنا بدرج اسمك فى رأس القوائم • لك تحياتنا الأخوية واحتراماتنا •

بول بلان

احد مديرى صحيفة « لاكوؤبيرا سيون »

فأرسل فيكتور هوجو الرد التالى :

سيدى

أشكرك

اسمى لمن يريد أن يستخدمه فى سبيل التقدم والحقيقة • الوسام للنكولن يستدعى وساما لجون براون • فلنوف بهذا الدين حتى تسدد أمريكا دينها • وأمريكا مدينة لجون براون بتمثال فى مثل علو تمثال واشنجتون • لقد أسس واشنجتون الجمهورية ، أما جون براون فانه أقام دعائم الحرية • وانى لأشد على يدك مصافحا •

أوتفيل هاوس فى ٣ يولية ١٨٦٧

(فكتور هوجو)

---

(١) عملة انجليزية تقدر ببضعه مليمات ـ المترجم •

٦

عقوبة الاعدام
الغاؤها فى البرتغال

« من المعروف ان ملك البرتغال الشاب دون لويز دى بورتوجال قد تفضل قبل أن يغادر بلاده لزيارة المعرض العالمى بالتوقيع على قانون أقره مجلسا البرلمان بالغاء عقوبة الاعدام .

« وقد أتاح هذا الحدث الخطير فى تاريخ المدينة تبادل الرسالتين اللتين نطالعهما فيما يلى بين أحد نبلاء البرتغال وبين فيكتور هوجو » .

(صحيفة بريد أوروبا » فى ١٠ أغسطس ١٨٦٧)

الى السيد فيكتور هوجو .

لشبونة فى ٢٧ يونية ١٨٦٧

فزنا بنصر عظيم . بل ان المدنية قد خطت خطوة جبارة ، وفاز التقدم بأساس آخر متين ! واشتد اشراق نور المعرفة ، وارتدت الظلمات على أعقابها .

فازت الانسانية بنصر مبين . ولسوف تهنئى الأمم الحقيقة ، نهنئها الواحدة بعد الأخرى ، وتتعلم الشعوب كيف تعرف أصدقاءها الحقيقيين ، أصدقاء الانسانية .

أستاذى ، ان صوتك الذى يصل دائما الى الأسماع حين يتحتم الدفاع عن مبدأ كبير ، أو تسليط الأضواء على فكرة كبيرة ، أو الاشارة بأنبل الأعمال ، صوتك الذى لا يكل أبدا من الدفاع عن قضية المظلوم ضد الظالم ، والضعيف ضد القوى ، صوتك الذى ينصت اليه الانسان باحترام ، من الشرق الى الغرب ، والذى يصل صداه الى كل مكان ، الى أقصى بقاع العالم ، صوتك الذى كثيرا ما ارتفع قويا حازما رهيبا ، كصوت نبى عملاق من أنبياء البشرية ، حتى وصل الى ها هنا ، وفهمه

الناس ، فخاطب القلوب ، ونرجم الى حدث كبير ... فى هذا الركن الذى هو الى ذلك مكان مبارك ، يكاد لا يبين فى أوروبا ، بقعة « مجهرية » (لا نراها العين المجردة) فى العالم ، فى هذه الأرض الواقعة فى الغرب الأقصى . والتى كانت ذائعة الصيت فى الزمان الماضى . واستطاعت أن تدون صفحات لامعة لا تمحى فى تاريخ الأمم ، وفتحت ثغور الهند لتجارة العالم ، وكشفت الحجاب عن بقاع غير معروفة ، وتكاد أعمالها العظيمة أن تكون اليوم منسية ، وكأنها قد أمحت ، محتها الغزوات الاخيرة التى أنجزتها المدنية ، وبالاجمال ، فى هذه البقعة التى تسمى البرتغال .

لم لا ينهض الصغار الأذلاء فى هذه الآونة التى يدنو فيها القرن التاسع عشر من نهايته ، ليصيحوا فى وجه الكبار الأقوياء قائلين : الانسانية تئن ، فلنبعثها حية ، الانسانية تضطرب فلنهدئها ، الانسانية توشك أن تقع فى الهاوية فلننقذها !

لم لا تستطيع الشعوب الصغيرة أن ترشد الكبيرة الى طريق الكمال ؟ لم لا نستطيع ، بحجة أنها صغيرة فحسب ، أن تعلم الشعوب القوية طريق الواجب ؟

البرتغال اقليم صغير بلا شك ، بيد أن شجرة الحرية قد ازدهرت فيها بقوة من قديم الزمان . البرتغال اقليم صغير بلا ريب ، ولكننا لا نجد رقيقا واحدا ، ولكنها ، كما قلت أمة عظيمة .

أستاذى ، أزف اليك أننا قد فزنا بنصر عظيم .

لقد أقر مجلسا البرلمان أخيرا الغاء الاعدام . هذا الالغاء الذى كان موجودا منذ عدة سنوات وجودا واقعيا ، أصبح اليوم حقيقة قانونية . انه قانون بالفعل ، قانون كبير فى أمة صغيرة . فيالها من قدوة حسنة ، ويالها من درس مقدس !

تقبل من صديقك المخلص وتلميذك المتواضع فبلائه واحترامه .

بدرو دى بريتو ارانها

الى السيد بيدرو دى بريتو أرانها

أوتفيل هاوس فى ١٥ يولية

خفق قلبى من تأثير خطابك النبيل . وكنت على علم بالخبر العظيم ، ففرحت حين تلقيت عن طريقك هذا الصدى اللطيف .

لا ، ليس هناك شعوب صغيرة . بل هناك اناس صغار مع الأسف ! وهم أحيانا قادة الشعوب الكبيرة .

الشعوب التى بها طغاة كالسبوع المكممة الأفواه .

اننى أحب وأمجد برتغالكم الجميلة العزيزة . انها حرة ومن ثم فهى عظيمة .

لقد ألغت البرتغال عقوبة الاعدام .

وانجاز هذا التقدم ، انما هو انجاز خطوة المدنية الكبيرة .

أصبحت البرتغال منذ اليوم على رأس أوروبا .

ومازلتم دواما ، أيها البرتغاليون ملاحين بواسل ، تتقدمون دائما : تتقدمون فى المحيط فى الزمان الماضى ، وتتقدمون اليوم فى عالم الحقيقة . اعلان المبادىء شىء أبدع من اكتشاف العوالم .

واننى أصيح : المجد للبرتغال ، ولكم الحظ السعيد !

وأشد على يدك الصديقة .

ف.ه.

٧

هيرنانى

تتشكل أحكام النفى من تفاصيل منوعة لا بد من تسجيلها مهما كانت وضاعة الآمر بهذه الأحكام · ويستكمل التاريخ بنيانه بهذه الطرائف · من ذلك أن السيد لوى بونابرت لم يحكم بالنفى على فيكتور هوجو وحده ، وانما نفى أيضا « هيرنانى » · نفى كل مسرحيات الكاتب المنفى · فلا يكفى نفى الانسان ، بل لا بد أيضا من نفى فكره · بل انهم كانوا يريدون نفى ذكراه · وكانت صورة فيكتور هوجو فى سنة ١٨٥٣ تعتبر ضربا من التمرد ، وخطر على السيد بيلفيى والسيد ماريسك نشر صورته على مقدمة طبعة جديدة عرضاها للبيع ·

وتنتهى الصغائر بأن تبلى وتتخلق · لذلك نفد صبر الرأى العام وطالب بما يريد · وفى عام ١٨٦٧ ، صرح السيد بونابرت بمسرحية « هيرنانى » فى مناسبة المعرض العالمى ·

وسنرى فيما بعد أن هذا التصريح لم يستمر طويلا · ومنذ الحظر الثانى لم تظهر هيرنانى على المسرح الفرنسى · ونقول ضمنا ان الكثير من الأشياء التى عملتها الأمبراطورية ، تبدو اليوم ونحن فى عام ١٨٧٥ ، ولها قوة القانون فى عهد الجمهورية · وجمهوريتنا تحيا فى ظل الأحكام العرفية ، وتتهاون مع الرقابة ، ولا يسوؤها قليل من النظام الامبراطورى ممتزجا بالحرية · ولم تزل مسرحيات فيكتور هوجو ممنوعة من العرض تقريبا نقول « تقريبا » لأن ما كان صريحا فى عهد الأمبراطورية أصبح مستترا فى عهد الجمهورية · كل ما هنا لك أن الصراحة قد ضعفت بعض الشيء · ويبدو أن المسارح الرسمية تتخذ من فيكتور هوجو موقف الحظر على أعماله ، وتمارس هذا الحظر فى سكون · ومع ذلك تتفجر الطبيعة العسكرية فى بعض الأحيان ، وتتبدى الرقابة فى سذاجة عسكرية فتعترف بما فيها من صفات · ويكف الرقيب العسكرى الفظ الطباع عن تلك المظاهر الساذجة ، مظاهر التحشم البلهاء التى يتجلى بها الشرطى المدنى ،

فيظهر على حقيقته · من ذلك أن السيد الجنرال « لادميرو » لم يستخف حين منع عرض مسرحية « الملك يلهو » بمقتضى الأحكام العرفية · بل انه لم يهتم البتة بأن يفسر كيف أن تريبوليه (١) عرض « مارى ألاكون » (٢) للخطر ، اذ نراءى له هذا الأمر حقيقة واضحة ، واكتفى بذلك ، وكان لا بد لنا أن نكتفى نحن أيضا بذلك ·

ونتذكر أنه حدث منذ سنتين أن قام موظف آخر ، وهو مأمور مركز ، لحجز مسرحية « الشبح » عن اعلانات مسرح من المسارح الاقليمية ، وصرح بأنه يجب ، لنشر أى كلام عن مسرحيه من مسرحيات فيكتور هوجو ، الحصول على اذن خاص من وزير الداخلية ، يتجدد لكل حفلة مسائية ·

ولنعد الى عام ١٨٦٧ ·

أعيد عرض « هيرنانى » فى ٢٠ يونية ١٨٦٧ فى نفس اللحظة التى كان فيهـا فيكتور هوجو يتشفع من أجل ماكسيميليان · وأرسل اليه بعض الشعراء الشبان الذين نطالع أسماءهم فيما يلى الخطاب التالى :

أيها الأستاذ الجليل العزيز

استقبلنـا اعادة عرض مسرحيتكم « هيرنانى » على خشبة المسرح بهتافات حماسية شديدة · وكان للنصر الجـديد الذى ناله أعظم شاعر فرنسى رنة فرح كبيرة فى نفوس شباب الشعراء كلهم ، وسوف يكون يوم ٢٠ يونية هذا يوما تاريخيا مشهودا فى حياتنا ·

ومع ذلك فقد شاعت فى هذا الحفل سحابه من حزن ، اذ كان غيابكم عنه مبعث ألم لرفاتكم فى الكفاح المجيد عام ١٨٣٠ ، فلم يستطيعوا أن يصافحوا يد الأستاذ الكبير الصديق ، وكان غيابكم مع ذلك أشد ايلاما لنفوس الشـبان الذين لم يحظوا أبدا بمصـافحة تلك اليد التى كتبت « أسطورة القرون » · وقد صمموا أن يبعثوا اليك على الأقل ، أيهـا الأسـتاذ الجليل بآيات ولائهم الشديد واعجابهم الذى لا حد له سـالى برودوم ، أرمان سيلفستر ، فرانسوا كوبيه ، جورج لافونيستر ، ليون فالاد ، ليون ديركس ، جان ايكار ، بول فـرلين ، البيرمرا ، أندريه توريبه ، أرمان رينو ، لوى كزافييه دوريكار ، هـ · كازاليس ، ايرنست ديرفيلى ·

---

(١) تريبولية (المشهور بلوووريال) مهرج لويس الثانى عشر وفرانسـوا الأول ، توفى حوالى ١٥٢٨) ــ المترجم ·

(٢) القديسـة مارجـريت مارى « الاكـون » ، راهبـة (١٦٤٧ ــ ١٦٩٠) · نشرت شعار « ساكر كور » (القلب المقدس) ــ المترجم ·

وأجاب فيكتور هوجو قائلا :

بروكسل فى ٢٢ يولية ١٨٦٧

أيها الشعراء الأعزاء

الثورة الأدبية لعام ١٨٣٠ ، المترتبة على ثورة ١٧٨٩ حدث من أحداث القرن الحاضر وأنا جندى متواضع من جنود هذا التقدم ، أقاتل من أجل الثورة فى جميع أشكالها ، فى شكلهـا الأدبى ، والاجتماعى ، مبدئى الحرية ، وقانونى التقدم ، ونمطى المثل الأعلى ٠

لست شيئا يذكر ، ولكن الثورة هى كل شئ ٠ لقد استقرت دعائم شعر القرن التاسع عشر ٠ كان عام ١٨٣٠ على حق ، وتجلى ذلك فى عام ١٨٦٧ ٠ وسمعتكم الطيبة الفنية برهان على ذلك ٠ ولعصرنا منطق عميق لا تدركه النفوس السـطحية ، ولا سبيل لأى رد فعل أن يعمل ضده ٠ والفن الكبير جزء لا يتجزأ من هذا القرن ٠ انه روحه ٠

ولسوف يزداد النور اشراقا بنضالكم أنتم. أصحاب المواهب الجميلة الفتية ، والنفوس النبيلة ٠ كان من نصيبنا نحن الكبار الكفاح أما أنتم الشباب فسوف يكون لكم النصر ٠

ان روح القرن التاسع عشر لتقرن السعى الديموقراطى وراء الحقيقة بقانون الجمال الأبدى ٠ وتيار عصرنا الذى لا يقاوم يقود كل شئ نحو هذا الهدف الأسمى ، نحو الحرية فى المدارك ، والمثل الأعلى فى الفن ٠ واذا صرفنا النظر عن كل ما هو لاصق بشخصى ، رأينا بالتأكيد أن الاتحاد قد تم بين جميع الكتاب ، والمواهب ، والمدارك من أجل تحقيق هذه النتيجة الرائعة ٠ ويريد الشباب الكريم ، وأنتم منه ، بحماسة عظيمة ، أن يحقق الثورة الشاملة ، فى الشعر ، كما يحققها فى نظام الدولة ٠ فلا بد أن يكون الأدب ديموقراطيا ومثاليا فى وقت واحد ، ديموقراطيا من ناحية الحضارة ، ومثاليا من ناحية الروح ٠

المسرحية هى الشعب ٠ الشعر هو الانسان ٠ وهذا هو اتجاه عام ١٨٣٠ الذى واصلتم السير فيه ، واستوعبه النقد العظيم فى وقتنا الحاضر ٠ وانى لأؤكد أنه ليس ثمة جهد رجعى بقادر على التغلب على هذه الحقائق ٠ فالنقد السامى على اتفاق مع الشعر السامى ٠

وانى ، على قلة شأنى ، لأشكر وأهنئ هـذا النقد السامى الذى يتحدث بثقة ومقدرة فى الصحافة السياسية والأدبية ، ويتمتع بادراك عميق لفلسفة الفن ، ويهتف بالاجماع لعام ١٨٣٠ كما يهتف لعام ١٧٨٩ ٠

وتقبلوا شكرى أنتم أيضا ، يا زملائى الصغار ·

وفى هذه المرحلة من الحياة التى أمر بها ، أبصر بوضوح النهاية ، أى اللانهاية · وعندما تصبح هذه النهاية وشيكة ، لا تترك مبارحة هذه الأرض فى نفوسنا سوى هموم قاسية · ومع ذلك فقبل أن يبدأ هذا الرحيل المحزن الذى أعد له العدة فى وحدتى هذه ، يسعدنى أن أتلقى رسالتكم البليغة التى تجعلنى أحلم بالعودة بينكم ، وتبعث فى نفسى وهما بتلك العودة · فمـا أحـلى الشـبه بين الغروب والشروق انكم ترحبون بشخصى ، أنا الذى أستعد للقاء الاله القدير ·

شكرا · أنا الغائب من أجل الواجب ، عزمى قوى لا يتزعزع ، ولكن قلبى معكم ·

وانى لفخور بأن أرى اسمى محاطا بأسمائكم · ان أسماءكم أكليل من النجوم ·

فيكتور هوجو

٨

منتانا (١)

الى جاريبالدى

هؤلاء الشبان ، أولاد برتوس وكامبى ،
وترازياس ، كم كانوا ؟ أربعة آلاف ·
كم مات منهم ؟ ستمائة · احصوا ، انظروا ·
شتات من أشلاء بترتها القنابل ،
أذرع مقطوعة ، عيون سود مثقوبة ،
بطون تنهشها ذئاب تعوى خرجت من مرابضها ،
لحم آدمى مضروب بالرصاص وسط الأيكات ·
هذا كل ما تبقى بعد الخيانات ،
بعد الفخاخ ، بعد الكمائن المشينة ،
واحسرتاه لتلك القلوب الكبيرة والنفوس العظيمة !
أنظروا ، لقد حصدوا بالمناجل ·
جريمتهم ؟ أرادوا روما وما بها من أقواس النصر ،
كانوا يدافعون عن الشرف والحق ، عن هذه الأوهام ·
اقتربن أيتها الأمهات ، تعرفن على أولادكن !
فالانسان دائما هو ابن من أرضعته ·
انظروا ، هذا الجبين الزائغ الذى اخترقته رصاصة شدخته ،
انه الرأس الأشقر المسكين الذى كنت أيتها المرأة المسكينة ،
ترينه فيما مضى يتلألأ فى الشفق ، وينبلج فيه الروح ·

---

(١) قرية ايطالية بالقرب من روما ، انهزم عندها جاريبالدى أمام الجيوش البابوية والفرنسية فى ٣ نوفمبر ١٨٦٧ ، المترجم ·

هاته الشفاه التى لطخ العشب زبدها ،
هذه اليد الباردة ، بالقرب من تلك الأجفن المغلقة ،
كانت تفجر لبنك بين أصابعها الوردية ·
ها هو ذا المولود الأول ، وها هو ذا المولود الأخير ·
ايه أيها الأمل الذى خبا ، فأصبح كومة تعسة !
ادمع غزيرة ! كانوا أحياء ، وطالبوا بنهر التيبر ، نهرهم ·
الشباب لا يكتمل ، من غير حرية ·
أرادوا التحرير ، والترميم ، العزاء ،
وكان كل واحد منهم يعانى فى نفسه ، فى ورع وايمان
جماع الاهانات التى يعانيها الوطن ·
كانوا يعرفون حساب كل شىء ، فيما عدا الأعداء ·
واحسرتاه ! ها أنتم اذن نائمون نوما أبديا !
انقضت سويعات النور والحب ·
فلن نقطفوا مع خطيباتكم ،
أوراق زهور المروج اليانعة اللألاءة ··
كم من دماء فوق هذا القس ، أيها المسيح الشاحب اللون

***

حبر عظيم مختار ، مسه الملاك بخوصته ،
أمره الله أن يمسك برقة وهدوء ،
انجيله مفتوحا على العالم اليتيم ·
أيها الأخ ، أخ الناس كلهم ، ذو الرداء الكتانى ،
نصفك على المنبر ، ونصفك الثانى فى القبر ·
خادم الحمل ، وحارس الحمام ،
أنت الذى تحمل من السماوات زنبقة ترتجف فى يدك ·
أيها الانسان الدانى من نهايتك ، لأن جبينك ناصع البياض ،
وهواء القبر يتلاعب بين شعرات رأسك ،
أنت يانائب ذلك الذى كان يعرض خده الثانى ،
يامن تنثر الغفران بلا حساب ،

ان ما يتلج صدرك فى هذه الساعة . وما تباركه
على أرضنا الظلماء حيث تناضل الروح البشرية ،
انما هى بندقية تقتل أثنى عشر رجلا فى الدقيقه !

١

ويظهر يوليوس الثانى (١) تحت تاجه الأسقفى الحديدى
وأخيرا تؤيد البابوية الشرسة الجحيم ·
حقا ، لقد قامت أداة الموت بمهمتها خير قيام ·
وهؤلاء الملوك ! صاعقتهم خائنه ، ورعدهم جبان ·
كنتم أيها الفرنسيون فيما مضى عظماء ، ما أثقل ذلك على النفس ·
كنتم فيما مضى واحدا ضد عشرة ، وأنتم اليوم عشرة ضد واحد ·
أيا فرنسا ، لقد جللوك بالعار ، وساقوك ، وربطوك ،
وأجبروك على استعباد ايطاليا ·
هاك ما صنعوه بك ، أنت الماردة ، فريسة الأقزام !
جدول يغلى ويسيل على سفح جبال الأينين ·

٢

يأيها الشيخ المنحوس ، ها أنت ذا مسئول
عن الرخمة التى تنبش الرمال لتخرج جمجمة ،
وعن نعيق الغربان المشئوم !
املئى من الآن خيالاته ، أيتها القبور ،
والبقاع البشعة حيث تتجول بنات عرس ،
وأشباح الطيور الجاثمة على هياكل عظمية !
فاذا نام ، اظهرى له يا ساحة الحرب المظلمة ·
المدافع ساخنة ، لقد أدت واجبها ،
والمدفع الرشاش الذى دعى فلبى الدعوة وأنجز الوعد ،
وانتهى كل شىء ، وقضى الموتى ، فلتقرأ القداس ،
ولتتناول القربان المقدس بين أصابعك بعد أن تجففها قليلا ،

---

(١) بابا رومانى (يوليان دو لاروفير) من ١٥٠٣ الى ١٥١٣ ــ كان سياسيا كبيرا واشترك فى حروب ايطاليا ــ المترجم ·

اد لا يليق أن تلطخ الاله بالدم !
كل شيء مع ذلك بديع ففرنسا ليست فخورة ،
وملك بروسيا يضحك ، وأموال سان بيير موفورة
والايرلندى يبذل آخر قرش فى جعته ،
ويستسلم الشعب ويركع على ركبته ،
وينثنى كما ينثنى العشب خشية أن يحصده أحد ·
ويسترد العدو فروزيون ، ويدحل فيتيرب ،
ويأمر قيصر الروسيا باقامة شعائره الدينية ·
وفى كل واد استلقى فيه ميت شاحب اللون ،
جاء الجرز فرحا ينهشه ، ويرتجف خشية أن يتحرك الميت ·

هنا الأرض سوداء ، هنا السهول حمراء
لم يعد جاريبالدى سوى اسم خالد لاجدوى منه ،
مثل ليونيداس ، ومثل وليم تل ·
أما البابا فانه يضع كل جواهره فى سكستين وجيزى وكارم ·
وهو لرقة مشاعره ، ينثر دموع الفرح ·
انه وديع للغاية ، يتحدث عن نجاح أسلحته ،
والدم المهراق ، والفرنسيين الطيبين ،
وكميات الرصاص التى يقذفها المدفع ·
وفى تواضع ، وعيناه مطرقتان ، كأعين الشعراء ؛
يتلقى من البعض رجاء بأن يتفضل بتلاوة أشعاره ·
الطرق مغطاة بمواكب الجرحى
والنصر يضحك فى كل مكان ·

فائدة الخونة

بينما انت جالس أيها البابا على عرشك ، تحت مظلتك ،
بين اللآلىء ، والذهب والحرير ، وسط فرسانك
الذين كنت بالأمس تقودهم بأصبعك فى ميدان القتال ،
وعلى رأسك تاجك البابوى ذو الشعب الثلاث ،
تبصر أيها القس ذات يوم فى الفاتيكان
رجلا حزينا يدخل عليك متسربلا بثياب بالية ،

رجلا مسكينا لايعرفه أحد . فتقول له .
من أنت يا عابر السبيل ؟ ماذا تريد منى ؟ أخارج أنت من السجن ؟
لماذا نرى هذه الفتل من الصوف على كتفك ؟
وسوف يجيب الرجل قائلا : كانت شاه فوقها منذ قليل .
أنا آت من بعيد . أنا اليسوع .

٣

فيد للبطل ! حبل للرسول !
جون براون ، جاريبالدى ، مروا الواحد بعد الآخر .
من هذا السجين ؟ انه بطل التحرير .
على الأرض ، فى كل مكان ، من القطب الى خط الاستواء ،
يسود الظلم ، وينتصر ، ويقود الضمير الانسانى
بالقوة والجبن والنذالة .
يا للمعجزات المخزية ! يا لقلة الحياء العجيبة !
يتلقون الصفعات على أيدى السفراء ،
يكبلون بالحديد ذلك الذى أحسن البنا .
أنت تعلم أنى لمتك لأنك أعطيته هذا العرش !
كان شريفا ، فأصبح شرطيا .
أنه مدين لمملكة ، ومن ثم يوفى دينه بالنفى .
المرء خسيس . ولم لا ؟ فهو يؤمر بأن يكون خسيسا .
فلنزحف على الأرض . أسلم للانسان أن يلعق سيده من أن يعضه .
ثم ان كل شيء معقول . أين اللامعقول ؟
السجن السحيق للمجد ، أما الجريمة فلها البخور .
فمم تشكون ؟ لما كان صاحب الخزى هو صاحب المقام الرفيع ،
فلابد أن تكون الحقيقة زورا وبهتانا ، وهكذا يستقيم الميزان .
يقال للجندى : اضرب ! فلابد له أن يضرب .
الموت هو الخادم الكئيب الذى ينفذ أوامر الأقوى .
ثم ان النسر قد يأتى ليساعد البجعة !

ضرب الرصاص هو المبدأ . أما الايمان فهو الأمر ·
ما الجندى فى نظرنا ؟ حديد يحمله خادم ·
يريد البابا نصرا كنصر سادوفا ، فليكن له ما يريد !
ماذا اذن ؟ هل يبلغ الأمر بنا فى القرن الذى نعش فيه ،
ان نناقش القانون القديم الذى يفرض على الناس
أن يطيعوا أميرهم ، ويقتتلوا فيما بينهم ؟
لم السعى فى سبيل التقدم المزعوم ،
مادام السوقة ثابتين على عاداتهم ؟
ويتمتع الجمهور بأكبر قدر من الهدوء لأن عندهم أقل قدر من المعرفة ·
ان كل المصالح الكبرى عند الشعوب ، كآلة الاعدام ،
والحرب ، والميزانية ، والجهل الضرورى ،
لاتتعرض الا للقليل من الأخطار ، وهى متوازنة عند الانسان
المشدود الوثاق أكثر مما هى متوازنة عند الانسان الحر ·
الانسان الحر يتحرك ويسبب الاضطراب ·
ورجل مثل جاريبالدى يستطيع أن يحطم كل شىء فى أية لحظة ،
ويجر خلفه الجماهير التى تفر ،
وتنتقل الى المثل الأعلى · وهذا شىء خطير ·
ومن المفهوم حقا أن المجتمع الذى يرعاه الملوك ،
حقيق بأن يهتز ويرتعد ويصيح طالبا النجدة ،
اذا كان هناك بطل لم تغل يده عن البطش ·
والظلام يتهم المنار بجريمة اللمعان ·

٤

لم يجد جاريبالدى الوسيلة المثلى لتعريف الأمور
اليست غاية كل انسان فى هذه الحياة الدنيا
ألا يكون غرا الا بأقل قدر مستطاع ؟
الاستمتاع شىء جميل · والحياة رماية على مرمى ·
الضمير الحى فى الأسماك يرتجف ، وانى أرثى له ·
لاشىء يملك من الفضيلة أكثر مما تملك الخزائن المليئة ·

من مصلحة الناس كلهم أن يكون هناك أمراء
ينثرون الذهب فى الأقاليم ٠
من أجل هذا يجب أن يكون الملك غنيا ،
ومن الواجب أن يقرر له راتب ضخم ٠
أما البابا الذى يريدون أن يكون مكانه فى الكواكب
فانه ملك كسائر الملوك ، فى حاجة الى القروش ٠
يا للشيطان ! الرخاء هو قانون الكنيسة ،
ولابد من طلاء البابا بالذهب حتى يمكن اثبات وجود الله ٠
أما أن يكون الانسان معدما لايملك حجرا يريح عليه رأسه ،
فهذا خليق بيسوع المسيح ٠ والأسماك الرثة عار ٠
لنبحث المسألة من الوجهة الأخلاقية ٠
ان غاية الكولونيل أن يصير جنرالا ،
وغاية المارشال أن يكون قائدا أعلى للجيوش !
ولنتكلم بصراحة ٠ اننا نريد مرتباتنا قبل كل شىء ٠
المتنكر لمبادئه مخطىء طالما لم يكن فى رتبة مشير
فان كان مشيرا فهو على حق ٠ المهم هو الغنى والاثراء
انظروا ، ها نحن نتمثل بأفراد ، أسرة هانوفر ٠
أما هؤلاء اللصوص قطاع الطرق الذين يريدون أن يبقوا فقراء ،
فانهم أعداء الشعب . ويل لهم ، الخارجين على القانون ،
انهم مثل سىء ٠ اسجنوا هذا الصعلوك ،
الذى كان حاكما مطلقا فلم يضع فى جيبه شيئا ٠
عندما يمس الانسان الناقوس يصطدم بالمقرعة ٠
وعندما يقترب من القسيس يجده جنديا خسيسا ٠
ويح نفسى ، ليست البابوية موضوعا من مواضيع الفن ٠
فبالحسام فى أسبانيا ، وبالعصا فى ألمانيا ٠
والرقابة فى فرنسا ، يخففون ويشذبون
الاغراق فى الأحلام والميل الى الحق ٠
الشعب عند الأمير حذاء شديد الضيق ،
من المفيد توسيعه باستهلاكه في المسيرات العسكرية ٠

ويستطيع صاحب النيافة ، بمواعظه الدينية الصارمه ،
أن يلصق بالسماء تلك القوانين التى نسميها عاسفة ·
أما المجلدة ، فان اللاتينية تسميها « سيلابس » (المنهاج)
النظام كل شيء · وبندقية « شاسيبو » حلوة
والتقدم مبارك ، ولكن فيمن ؟ فى الزواوى (١)
وكرات المدافع مباركة فى طلقاتها ، وابن آوى
مبارك فى جوعه ، اذا كان من أتباع البابوية ·
أما نحن ، فانا نرى شيئا عظيما أن يسخر
البابا من هذا الجيل الغبى ، ويحطم ويضرب ·
وما أن يحاول بعضهم أن يأخذ منه ماله ،
حتى ينقلب دون حياء شرطيا يجمع الجنود ،
ويضرم نيران الحرب ويصيح : الموت للأحرار ·
فليوص فى عظة الأحد باستخدام قنبلة المدفع ،
وليقل فى ختام صلاته : اذبحوا !
وليرسل الى المحاربين عربات كثيرة مشحونة
بالبارود والحديد والرصاص والمؤن ،
ويغذى عمليات الابادة فى ميادين القتال ·

٥

فليذهب اذن ! ليذهب حاملا تفويض الشعب له ·
ليذهب ، هذا الفارس ، فارس الشعوب التائه ، هذا الجندى ،
هذا الفارس المغوار ، حامى المنل الأعلى ، ليرحل ·
أما نحن المنفيين من أيتنا ، فانا نفتح أبوابنا
لهذا المنفى من اسبرطة ، وليكن اليوم ضيفنا
وليدخل دارنا المظلمة ، وهو مشرق الأنوار ·
نعم ، تعا أيها الأخ المكروب ، ان كل واحد منا ،
يريد أن يجعل من منفاه وطنا لك !

---

(١) جندى فرنسى بلباس أهل الجزائر والمغرب — المترجم ·

تعال ، اجلس مع أولئك الذين لم يعد لهم دار ٠
تعال ، أنت الذى استطاعو أن يهزموك ، ولم يستطيعوا أن يطووك
ولسوف نبحث عن اسم للأمل ٠
سوف نقول : ايطاليا ! فتجيب أنت قائلا : فرنسا ٠
وسوف ننظر الى النجوم وهى تشرف ،
ونحن نصبو الى نيل الحقوق ، فالليل يبعث الأحلام ٠
حب الانسانية يخالطه شىء من الحقد ،
يعادل ثقل العبودية ، وبرودة السلاسل ،
وأكاذيب القسيس ، وقسوة الملك ٠
اننا نزأر ونخيف ٠ لماذا ؟
لأننا نحب ٠ اننا نريد أن نرى كل هذه الرؤوس الصغيرة
تنمو وتشب ٠ نحن وحوش فى مرابضها ،
ولشعوب هى صغارنا
أنا وأنت يا أخى ، قد ألقوا بنا على نفس الصخرة ، ولكنا لم نغرق عندها٠
وسوف يحكى كل منا للآخر قصته ٠
سوف تحكى لى قصة باليرمو وانتصارك فيها ،
وسوف أحكى لك عن باريس ، وسقوطها ، وزفراتنا ،
ونقرأ معا هوميروس على حافة الأمواج ،
ثم نواصل سيرك القوى الجرىء .
وهناك يتحول البريق حريقا ٠

٦

آه ! أيها الشعب الايطالى ، لقد كان دعامتك ٠
آه ! أيتها الشعوب ، كنت ستظفرين بروما بفضله ،
بفضل ذراع المحارب ، بفضل قلب النبى ٠
كان حقيقا أن يعطيها اباكم أولا ، ثم يصلحها بالتالى ٠
نعم ، انه فى هدوئه ، وفى عظمته التى تكفى
لأن تلحقه دون صعوبة بالأبطال الغابرين
كان خليقا بأن يعيد بناء روما ، وأن يمزج

أمتولة القبر القديم بأمنولة المعبد القديم .
كان خليقا بأن يجمع بين تورين وبيزا وألب وفيلامينري ،
ويجمع الكابينول بميزوف . ويعجن ،
روح جوفينال بروح دانتى ،
ويزيد من صلابة معدن الاستقلال
ويريكم الطرق المجبدة ، طرف الجبابرة .
ابكوا أيها الايطاليون ، انه كان خليقا بأن يجعلكم من الرومان ..

٧

وتم ارتكاب الجريمة .. من ارتكبها ؟ هذا البابا ؟
لا . هذا الملك ؟ لا . السلاح يفلت من سواعدهم الهزيلة .
من المذنب اذن ؟ انه الرجل الغامض
الذى تربص خلف حائطنا
انه ابن « سينون » الاغريقى ، وابن يهودا الاسخربوطى
ذلك الذى ترصد للجمهورية مبتسما ،
وايمانه فى جبينه ، وخنجره فى يده .

انه بينكم ، أيها الملوك ، أيتها الجماعة التى تكاد تتجرد من الانسانية ،
رجل يرمقه البرق من حين الى حين .
هذا المدان ، الذى يضاعف حوله الحرس
يضيع جهده سدى . ان دوره يقترب . متى ؟ عما قريب .
ولهذا نسمع هديرا فى الأعالى .
الظلام فوق قصوركم أيها الملوك ، لقد جاء به الليل .
الرعد يطلب أن يتحدث الى أحدكم ،
وكأنه الجلاد جاء يقرع بابكم

وفى هذه الاثناء تفوح رائحة الموتى البشعة ،
ممتزجة بدخان البخور الذى يرتفع مع تسبيحات الشكر لله ،
تفوح من أغوار الغابات وأعماق المروج الملأى بالحشائش ،

من البرارى والمستنقعات وبطون الوديان ، ومن كل مكان !
ويشم الانسان أبخرة القبور العفنة فى شوارع باريس الناسية ،
وفى المكسيك وبولندة وايطاليا والكريت التي يهبط عليها الليل ،
كما لو كانت المذابح الحمراء قد تفتحت أزهارها ،
فى شجرة الموت النامية فى أرض مجنونة ،
فقد حان أوان ازدهارها ،
على الكرة الأرضية ، وتحت القبة السماوية ·
قتلى فى كل مكان ، وذبحى فى كل مكان ·
الجثة ملقاة على الأرض · والفكرة قائمة ·
الجثث ستلقاة فى السهول الموحشة ،
والدعوة الى السلاح ترفرف على شفاهها ·
وكأن هذه الجثث مبذولة ، وهى بالفعل مبذورة ·
أما خط المحراث فاسمه الحرية ، وأما الموت فاسمه ريح الشمال العاصفة ·
وأما الموتى الأمجاد فهم الحبوب النبيله التى ينثرها
الموت بعيدا فوق المستقبل ، فوق الهاوية ·
انهضوا أيها الأبطال ! وأنت أيتها الجثث ، تعفنى ·
أد عملك ، أيها السر الغامض · أما هؤلاء البائدون ،
المشتتون ، العرايا ، الشعث ، الفاغرو الأفواه ،
الذين يعرضون على السماء أذرعهم المقطوعة المدلاة ،
كل هؤلاء البائدين الجامدين ينتظرون ·

وبينما يقيم الملوك الفرحون المخربون
حفلا مهيبا مظفرا فيما بينهم
وبينما تقصف آلتهم فى بطون السحب ،
بالموسيقات والأعياد والضحكات والأغانى ،
وتعرض على الملأ السعيد ، فى جبهاتنا ،
اخاء القياصرة والسلاطين ،
يتآخى النسر من ناحيته مع الموت ؛ هناك :
بعيدا فى الصحراء ، فى الظل ، تحت ريح الشمال الباردة ·

هناك تتقابل دوب القبور مقابلتها الدنيئة ٠
هناك الغراب ، والأنوق الأنوص ، والنسر الأصهب ،
والرخمة الشرهة ، والبواشن ، والخطاطيف الضارية ،
تطير بأقصى سرعتها باسطة أجنحتها ،
قاصدة تلك المجازر حيث جثث الموتى
فتنقض هذه الطيور الشرسة عليها ،
ينهش بعضها اللحم ، ويعض بعضها العظم
مولولة ، ينادى أحدها الآخر ، والنار تحت أجفانها
وتقبل على شرب الدم الذى يسيل بين الحجاره

٨

أيها الشعب الغارق فى سباته ، متى تصحو ؟
ان الرقاد المتصل لا يليق بمن قصمته القواصم ،
انتم نائم ، ودمك على يديك ، والندبة على جسدك
الندبة التى خلفها الخندق الخشن واللعين
وأثر الحبل الذى كان ملفوفا حول رسغيك
ماذا فعلت بروحك ، انت يامن اضطرمت غيظا ؟
الامبراطورية كهف ، وكل صنوف الليل ،
تمسكك فى دياجيرها الكثيفة ٠
وتنام ناسيا كل شىء : مجدك ، والدسائس ،
والحرية ، والحق ، والأنوار العلوية ٠
وتغلق عينيك متثاقلا ، مستلقيا تحت أغطية بشعة ،
لاتبالى بالاهانة التى تلقيها للنجوم !
هيا ، تحرك ، هيا أنهض واجلس ٠
ونشهد أخيرا جذع المارد يتحرك ٠
أصبحت الهجعة الطويلة خزيا وعارا ٠
هل أنت مكدود ؟ هل أنت أصم ؟ هل أنت ميت ؟ انى انكر كل ذلك ٠
الا تشعر بما أنت فيه من كد وارهاق ؟
وبأن العار ينمو ويستفحل لحظة بعد لحظة ؟

الا تسمع من يسير فوق رأسك ؟
انهم الملوك يقترفون الشرور ويقيمون الأفراح ،
أنت نائم على هذا الروث ! كنت مواطنا ،
فأصبحت دابة تحمل الأثقال ، حسن !
الحمار ينهض وينهق ، والثور يقف ويخور ،
أبحث اذن في ظلام ليلك ، ماداموا قد ذهبوا بنور عينيك !
أنت يامن كنت عظيما ، قف ! الوقت متأخر ،
في هذه الظلمة ، قد يضع الانسان يده عفوا ،
على الخزى ، أو قد يضعها على المجد ،
أمدد ذراعك على طول الجدار الأسود ،
فقد يتوارى المجهول غير المرتقب في هذا الظل ،
ولعلك تستطيع أن تمسك حساما بين قبضتيك التعستين ،
وانت تتلمس طريقك مضطربا في الظلمات !

اوتفيل هاوس في نوفمبر ١٨٦٧

لم ينقض شهر على نشر هذه الأشعار ، حتى ظهر سبع عشرة ترجمة لها ، بعضها في صورة شعرية ، وزاد احتدام الصحافة الاكليركية غيظا من دوى هذه الأشعار ،

ورد جاريبالدى على فيكتور هوجو بقصيد من الأشعار الفرنسية ، يتضمن آيات الشكر النبيل المعبرة عن نفس عظيمة ،

وكان من أثر نشر أشعار فيكتور هوجو الحادث الآتى : ذلك أنه في تلك الآونة (في شهر نوفمبر ١٨٦٧) كانت مسرحيـــة هيرنانى تمثل في « المسرح الفرنسى » (الكوميدى فرانسيز) ، ومسرحيـــة « روى بلاس » على وشك أن تعرض على مسرح الأوديون ، ومن ثم أوقفت حفلات « هيرنانى » ، وتسـلم فيكتور هوجو في جيرنسيى الرســـالة التاليــة :

« يتشرف مدير مسرح أوديون الأمبراطورى باخطار السيد فيكتور هوجو بأنه قد صدر الأمر بمنع اعادة عرض مسرحية روى بلاس »

شيلى

فأجاب فيكتور هوجو قائلا :

الى السيد لو بونابرت ، بقصر التويليرى ،

سيدى ، تسلمت رسالتك الموقعة باسم شيلى ،

فيكتور هوجو

٩

الأطفال الفقراء

عيد الميلاد – ديسمبر ١٨٦٧

أشعر دائما بنوع من الحيرة كلما رأيت أشخاصا كثيرين مجتمعين حول شيء بسيط وصغير للغاية • فانا الانسان الوحيد ، أفتح دارى مرة كل سنة • لماذا ؟ لكى يشهد كل الناس حفلة صغيرة . ويستمتعوا بساعة من السعادة ليست من عندى وانما من عند الله يهبها لاربعين طفلا فقيرا ، يعيشون سنة بطولها فى تعاسة ، ويوما واحدا فى سعادة • أهذا كثير عليهم ؟

سيداتى ، أوجه كلامى هذا اليكن • فلمن أهب فرحة الأطفال ان لم أهبها لقلوب النساء ؟ فكرن جميعا فى أطفالكن حين ترين هؤلاء الأطفال ؛ وفى حدود ما تتمتعن به من قوة ، ومن أجل أن تبدأن مؤاخاة الناس منذ الطفولة ، اجتهدت أيتها الأمهات السعيدات المحظوظات أن لا يحسد الصغار الفقراء الصغار الأغنياء ! ليندر الحب • وهكذا سوف نجعل المستقبل هادئا ميسورا •

بذل الاحسان لأربعين طفلا ، كما قلت من قبل فى مثل هذه المناسبة ، عمل قليل الأهمية • ولكن اذا أمكن زيادة عدد هؤلاء الأطفال الأربعين الى ما لا نهاية له ، بتعاون كل النفوس الطيبة ، كان ذلك مثلا طيبا مفيدا • ومن أجل هذه الغاية ، غاية الدعاية ، وافقت على نشر بعض الاعلان عن مشروع « عشاء الأطفال الفقراء » الذى وضع أساسه فى أوتفيل هاوس • لهذه المبرة الصغيرة اذن هدفان رئيسيان ، هدف صحى وهدف دعائى •

فهل نجح من الوجهة الصحية ؟ نعم ؛ واليكم البرهان • منذ سبعة أعوام ، أى منذ تأسيس « عشاء الأطفال الفقراء » هذا فى أوتفيل

هاوس . لم يمت سوى طفلين فقط من بين الاربعين طفلا المشتركين فيه . طفلان فى ستة أعوام ! اننى أعرض هذه الحقيقة على رجال الصحة والأطباء ليتأملوهـا .

هل سجيح من وجهه الدعاية ! نعم هناك ولائم عشاء اسبوعيه للأطفال الفقراء ، على نسق هذا العشاء (الذى بدأ فى أوتفيل هاوس) ، بدأت تنتظم فى كل مكان تقريبا . فى سويسرا وانجلترا ، وأمريكا بوجه خاص . وقد استلمت بالأمس صحيفه انجليزية اسمها « ليث يابلوت » توصى بانشائها فى حماسه .

قرأت لكم فى العام الماضى خطابا نشر فى صحيفة التايمز ، يعلن فى لندن من انشاء مبرة لعشاء ٣٢٠ طفلا . وهاكم اليوم رسالة حررتها ليدى طومسون . أمينة صندوق مبرة عشـاء الأطفال الفقراء فى قريه « ماريلبون » ، تضم ٦٠٠٠ طفل . من ثلاثمائة الى ستة آلاف ، تقـدم رائع ، سنة بعد سنة . وانى لأهنئ وأشكر مراسلتى النبيلة ليـدى طومسون . وهـكذا أثمرت فكرة المعتكف بفضلها وبفضـل أصـدقائها المبجلين . لقد أصبح الجدول الصغير فى جيرنسيى نهرا كبير فى لندن .

كلمة أخيرة .

علينا جميعا فى هذه الحياة الدنيا واجبات متعددة الأنواع . لقد فرض الله علينا أول ما فرض واجبـات قاسية . علينا أن نناضل من أجل مصلحة الناس كافة . علينا أن نحارب الأقوياء وذوى السلطان . نحارب الأقوياء حين يسيئون استخدام القوة ؛ ونحارب ذوى السلطـة حين يستخدمون السلطة فى عمـل الشر . علينـا أن نقبض على عنق الطاغى ، مهما كانت هويته . من سائق عربة النقل الذى يسىء معاملة الحصان ، الى الملك الذى يعتسف شعبا ، المقاومة والنضال ضرورتان قاسيتان . ولسوف تكون الحياة قاسية اذا اقتصرت على هذين الأمرين . وفى بعض الأحيان يبلغ الأعياء من الانسان غايته ، فيستمهل الواجب . ويواجه الانسان عندئذ ضميره فيرد عليه الضمير قائلا . ماذا تريدنى أن أعمل فى هذا الشأن ؟ الواجب أن تستمر . ومع ذلك فهو يستوقف النضال لحظة ، ويشرع فى تأمل الأطفال الفقراء الصغار ، تلك الوجوه الناضرة التى يجعلها فجر الحيـاة الرائع ورودا وأنوارا لألاءة . ويتأثر الانسان ، ويتحول من السخط الى الحنان . وعندئذ يفهم الحياة كلهـا ويشكر الله الذى يعطينا الأقوياء والخبثاء لنحاربهم ، ويعطينا أيضـا الأبرياء والضعفاء لنخفف آلامهم . الله الذى جعل الواجبات اللذيذة الى جانب الواجبات الصارمة ، الأولى تؤاسى الثانية .

١٨٦٨

١

مانين (١)

دعى أهالى فينيسيا (البندقية) فيكتور هوجو لحضور الاحتفال بنقل رماد مانين الى فينيسيا · فرد على دعوتهم بالخطاب الآتى :

أوتفيل هاوس فى ١٦ مارس ١٨٦٨ :

كتب الى بعضهم من فينيسيا متسائلا عما اذا كان عندى كلمة أدلى بها فى هذا اليوم المشهود ، يوم ٢٢ مارس · نعم ؛ واليكم هذه الكلمة :

لقد انتزعت فينيسيا من مانين ، مثلما أنتزعت روما من جاريبالدى أما مانين الميت فانه يستعيد فينيسيا · وأما جاريبالدى الحى فانه سوف يدخل روما ·

وليس لفرنسا من حق الضغط على روما بأكثر مما للنمسا من حق الضغط على فينيسيا ·

نفس الاغتصاب الذى ينتهى الى نفس النتيجة ·

وهذه النتيجة التى سوف ترفع من قدر ايطاليا ، سوف تزيد من عظمة فرنسا ·

ذلك لأن كل الأشياء العادلة التى يصنعها الشعب أشياء عظيمة ·

وسوف تبسط فرنسا الحرة يدها لايطاليا المتكاملة ·

وسوف تنحاب الأمتان · أقول هذا بفرحة عميقة ، وأنا ابن فرنسا وحفيد ايطاليا ·

وانتصار مانين اليوم ينبىء بانتصار جاريبالدى فى الغد ·

---

(١) مانين (دانييليه) وطنى ايطالى ، ولد فى فينيسيا (البندقية) · رئيس جمهورية فينيسيا فى عام ١٨٤٨ · من أكبر أعداء السيطرة النمساوية (١٨٠٤ ــ ١٨٥٧) ــ المترجم·

ويوم ٢٢ مارس هذا يوم يبشر بالمستقبل ٠

مثل هذه الأحداث ملأى بالوعود ٠ كان مانين مقاتلا ، ونفى من أجل الحق ٠ لقد ناضل فى سبيل المبادىء ، ورفع عاليا سيف النور ٠ كان يتميز مثل جاريبالدى برقة الأبطال ٠ وحلف نعشه ، تقف حرية ايطاليا المرئية رغم أنها ممنعة ٠ وسوف تنزع قناعها ٠ عندئذ تصبح الحرية سلاما ، مع بقائها حرية ٠

هذا هو ما تعلن عنه عودة مانين الى فينيسيا ٠

فى موت ، مثل موت مانين ، شىء من الأمل ٠

فكتور هوجو

٢

جوستاف فلوران

من أجل بعض الوقائع ، تنطلق صيحة غضب وسخط ٠

السيد جوستاف فلوران كاتب شاب موهوب ، وهو ابن رجل كرس نفسه للعلم ، ومن ثم كرس هو نفسه للتقدم ٠ عندما اندلعت ثورة كريت ، مضى اليها ٠ لقد جعلته الطبيعة مفكرا ، وجعلته الحرية جنديا ٠ وتبنى القضية الكريتية ؛ وناضل من أجل وحدة كريت واليونان ٠ تبنى كانديا (كريت) البطلة بعاطفة الأبوة الخالصة ٠ وسالت دماؤه وقاسى على تلك الأرض التعسة ، وعانى فيها القر والقيظ ، والجوع والعطش ٠ وحارب هذا الباريسى فى جبال « سفاكيا البيضاء » وعانى فصول الشتاء والصيف القاسية ، وخبر ميادين القتال الكئيبة ، ونام فى الثلج أكثر من مرة بعد انتهاء المعركة بجانب الذين ناموا مع الموت ٠ وهب دمه ، ووهب ماله ٠ وثمة واقعة مؤثرة : فقد أقرض حكومة كريت ثلثمائة فرنك ٠ وأفهم أن تحتقر الحكومات المدينة بثلاثة عشر مليارا (١) مثل هذا المبلغ الزهيد ٠ وبعد سنوات قضاها هذا الفرنسى فى اخلاص عنيد ، منح الجنسية الكريتية ٠ وضم مجلس الأمة الكريتى الى عضويته السيد جوستاف فلوران ، وبعثه الى اليونان ليقوم برسالة الاخوة والسلام ، كما كلفه بتقديم نواب كريت الى البرلمان اليونانى ٠ وفى أثينا ، أراد السيد جوستاف فلوران أن يقابل جورج الدانمركى الذى يقال انه ملك اليونان ٠ ولكن قبض على السيد جوستاف فلوران ٠

---

(١) كان هذا المبلغ دين فرنسا فى عهد الامبراطورية فى تلك الآونة ٠ ومن ذلك الحين . أضافت معركة سدان وأذيالها الى هذا الدين مبلغ عشره مليارات ٠ وتدين فرنسا من جراء المغامرة الأخيرة التى قامت بها الامبراطورية بدين اضافى قدره عشرة مليارات ، فى حين أنها فقدت اقليمين ؛

كان بصفته فرنسا صاحب حق ، وبصفته كرينيا ملتزما بواجب . وأنكرت الحكومة اليونانية هذا الحق وذاك الواجب . وقامت الحكومتان الفرنسية واليونانية المتواطئتان في الجريمة بترحيله على ظهر سفينة ركاب أوصلته قسرا الى مارسيليا . وهناك كان من العسير حرمانه من حرية التنقل ؛ ومن ثم كان لابد من اخـــلاء سبيله . وما أن استرد الســـيد جوستاف فلوران حتى سافر من فوره الى اليونان وهكذا عاد الى أثينا قبل انقضاء ثمانية أيام على طرده منها . كان هذا واجبه ، لقد قبل السيد جوستاف فلوران مهمة مقدسة ، فهو نائب شعب يحتضر ، وحامل صيحة النزع الأخير ، والأمين على أسمى الوصايا ، على حق أمة ؛ ويريد أن ينفذ هذه الوصية بكل أمانة ، ويؤدى المهمة خير أداء . ومن ثم كان عنـــاده وبسالته . ولكن بعض العهود تعتبر أن من يؤدى واجبه انما يرتكب جريمة . والسيد جوستاف خارج على القانون فى هذه اللحظة ، تطارده الحكومة اليونانية وتسلمه الحكومة الفرنسية . وها هو المناضل الشديد البأس يكتب الى من أثينا حيث أختبأ فيقول : « اذا قبض على ، فانى اتوقع ان يدسوا لى السم فى سجن ضيق » .

ونقرأ فى خطاب آخر كتبه لى بعضهم من اليونان ، « جوستاف فلوران مخذول » .

لا ، انه لم يخذل . فلتعلم الحكومات ، سواء منها التى تعتقـــد أنها قوية ، مثل الروسيا ، أو التى تشعر بأنها ضعيفة مثل اليونان ، أو التى تسوم بولندا العذاب ، أو التى تخون كريت ، لتعلم وتتفكر فى أن فرنسا قوة ضخمة مجهولة . فرنسا ليست أمبراطورية أو جيشا أو بقعة جغرافية ، بل انها ليست كتلة بشرية تبلغ ثمانية وثلاثين مليونا من الناس الغافلين الى حد ما عن الحق بسبب ما هم فيه من عناء ، ولكنهـا روح . اين هى ؟ فى كل مكان . ولعلها فى هذه اللحظة موجودة فى الخارج أكثر مما هى فى داخل فرنسا نفسها . ويحدث أحيانا لأمة من الأمم أن تكون منفية . أمة مثل فرنسا تمثل مبدأ ، واقليمها الواقعى هو الحق . الى الحق تلجأ ، تاركة الأرض للاستعباد ، والأملاك المادية للطغيان المادى . لا ؛ لم تهجر الكريت التى لا يعتبرونها أمة من الأمم . لا ؛ لم يخذل نائبها وجنديها جوستاف فلوران الذى اعتبر خارجا على القانون . أما الحقيقة ، وهى الخطر الأكبر ، فانها هناك ، يقظة . الحكومات نائمة ، أو تتظاهر بالنوم . ولكن هناك فى جهة ما عيونا مفتوحة ، ترى وتحكم . هذه العيون ترى وتحكم ؛ انها عيون ثابتة مخيفة . الحدقة التى يكمن فيها الضوء هجوم متصل على كل ما هو كذب وظلم وظلام . هـل

يعلم أحد لماذا انهار القياصرة · والسلاطين والملوك الأقدمون والقوانين والعقائد القديمة ؟ انهارت لأن هذا الضوء كان مسلطا عليها · هل يعلم أحد لماذا سقط نابليون ؟ سقط لأن العدالة الواقفة فى الظلال كانت تنظر اليـــه ·

فيكتور هوجو

أوتفيل هاوس فى ٩ يولية ١٨٦٨ :

وبعد ثلاثة اسابيع من نشر هذه الرســـالة ، تلقى فيكتور هوجو البطاقة التالية :

نابولى فى ٢٥ يولية ١٨٦٨ ·

اســـتاذى :

أصبحت بفضلك خــارج السجن بعيـــدا عن الخطر · لقد اضطرت الحكومات تحت ضغط الضمير العـــام الى الافراج عن الشخص الذى طالب فيكتور هوجو بالافراج عنه · لقد دان لك باربيس بحياته ، وأنا أدين لك بحريتى ·

جوستاف فلوران

٣

اسبانيا

فى عام ١٨٦٨ ، دهم الرجل المنفى مصيبتان : فقد زوجته ، وفقد حفيده المولود البكر لابنه شارل . مات الطفل فى شهر مارس وماتت مدام فيكتور هوجو فى شهر أغسطس . واستطاع فيكتور هوجو أن يحتفظ بالطفل الى جواره ، اذ دفن فى أرض المنفى . أما مدام فيكتور هوجو فانها عادت الى فرنسا . وكانت الأم قد أبدت رغبتها فى أن ترقد بالقرب من ابنتها ، فدفنت فى جبانة فيلكييه . ولم يستطع المنفى أن يمضى فى أثر المتوفاة ، فوقف بعيدا على الحدود ، يرقب النعش وهو يختفى عند الأفق . وألقيت كلمة الوداع الأخيرة باسمه على مقبرة فيلكييه ، ألقاها صوت نبيل . وها هى الكلمات السامية العظيمة التى قالها بول موريس :

« أود فقط أن أودعها باسمنا جميعا .

« انكم تعلمون جيدا ، يا من تلتفون حولها لآخر مرة ، من كانت هذه النفس الجميلة الرقيقة ، هذه الروح المحبوبة ، هذا القلب الكبير .

« آه ، هذا القلب الكبير ، بنوع خاص ! كم كانت تحب الحب ، وتحب أن تكون محبوبة ! كم كانت قادرة على المعاناة مع أولئك الذين تحبهم !

« كانت زوجة أعظم رجل فى الوجود ، وارتفعت بقلبها الى مرتبة هذا العبقرى . كانت نديدة له من كثرة ما كانت تفهمه .

« لابد أن ترحل عنا ، ولابد أن نتركها .

« لقد وجدت بالفعل حبها . وجدت طفليها هنا (يشير الى الحفرة) وهناك (مشيرا الى السماء) .

« قال لى فيكتور هوجو بالأمس عند الحدود : قل لابنتى انى ارسل لها أمها حتى يأتى الأوان ٠ وها أنذا قد قلت كامته ، وأعتقد أنهـا سمعتهـا ٠

« والآن وداعا ! وداعا للحاضرين ، ووداعـا للغـائبين ! وداعـا لصديقتنا ، وداعا لأختنا ! « وداعا ، ولكن الى لقاء ! » ٠

ولكن الواجب لا يرحم ، فله مطالب عاجلة ملحة ٠ وقد رأينا أن مدام فيكتور هوجو توفيت فى شهر أغسطس ٠ وفى شـهر أكتوبر ، سقطت الملكية فى اسبانيا ، فأعاد سقوطها الى نفس فيكتور هوجو الرغبة فى الكلام ، واضطر أمام مثـل هـذه الأحداث الحاسمة الى قطع حبـل السكوت ، رغم ما هو فيه من حداد ٠

الى اسبانيـا

شعب كان طوال ألف سنة ، من القرن السادس الى السادس عشر ، أول شعوب أوروبا ، ندا لليونان فى الأدب الملحمى ، ولايطاليا فى الفن ، وفرنسا فى الفلسفة ٠ كان لهذا الشعب « ليونيداس » تحت اسـم « بيلاج » ، وأخيلوس تحت اسم « سيد » ٠ بدأ بفيريات وانتهى برييجو ٠ كان له « ليبانت » مثلما كان لليونان « سالامين » ٠ ولولا هذا الشـعب لما خلق كورنيى التراجيديا ، ولما اكتشف كريستوف كولومب أمريكا ٠ هذا هو الشعب الصلب العود ، شعب « فويرو يوزجو » ٠ اسبانيا منيعة بجبالها الشماء ، كسويسرا ، فجبل « مولاهاسين » (مولى حسن) هو بالنسبة الى « مون بلان » (فى سويسرا) كنسبة ١٨ الى ٢٤ ٠ كان لها مجلسها فى الغابة ، وكان هذا المجلس معاصرا للفوروم فى روما ، وينعقد المجلس فى الغابة حيث يباشر الشعب الحكم مرتين كل شهر ، مـرة والقمر هلال ، ومرة والقمر بدر ٠ كان لها مجالسها الوطنية فى « ليون » قبل أن يعرف الانجليز البرلمان فى لندن بسبعين سنة ٠ وكان لها فى « مدينادیل كامبو » قسمها المائل لقسم « لعبة الكرة » (١) فى عهـد « دون سانشى » ٠ وفى عام ١١٣٣ ، كان له طبقة ثالثة (عامة الشعب) متفوقة فى مجالس بورخا ٠ وشهدنا فى مجلس هذه الأمة مدينة مثـل « ساراجوس » تبعث وحدها خمسة عشر نائبا ٠ ومنذ عام ١٣٠٧ أعلن

---

(١) قسم أداء نواب الطبقة الثالثة (عامة الشعب) فى فرنسا فى يوم ٢٨ يوليـة ١٧٨٩ ، بألا يفترقوا قبل أن يمنحوا فرنسا دستورا ، رغم أن الملك لويس السادس عشر قد رفض أن يصرح لهم بدخول قاعة المداولات ــ المترجم ٠

الشعب فى عهد الفونس الثالث حقه وواجبه فى الثورة • وفى أراجونا نبت دعائم ذلك الكائن المسمى بالعدالة ، وهــو اسمى من ذلك الكائن المسمى بالملك • وأقــام فى وجه العــرش ذلك الحق الرهيب ، حق « الرفض » فرفض الضريبة لشارل كنت • لقد خذل هذا الشعب فى منشئه شارلمان ، وخذل وهو يحتضر نابليون • كان لهــذا الشعب علله ، وتحمل أذى الحشرات ، ولكنه بالاجمــال لم ينله من الخزى على أيدى الرهبــان أكثر مما ينال السبوع من الأذى بسبب القمل • ولم يتخلف عن هذا الشعب سوى شيئين : أن يعــرف كيف يستغنى عن البابا ، وأن يستغنى عن الملك • كان شبيها بانجلترا من حيث الملاحــة والمغامرة والصناعة والتجارة والاختراع فى أنحاء الكرة الأرضية ، وانشاء طرق للمواصلات كانت مجهولة ، والمبادأة ، والاستعمار الشامل : كان شبيها بانجلترا فيما عدا عزلتها ــ أى عزلة انجلترا ــ وبزيادة شمسها ، شمس اسبانيا • كان له ربابنته وأطباؤه وشعراؤه وأنبياؤه وأبطــاله وحكماؤه • يملك هذا لشعب قصر الحمراء ، كمــا تملك أثينا البارنينون ، ويملك سيرفانتس كما نملك فولتير • وألقت روح هذا الشعب الضخمة على وجه الأرض أنوارا قوية ، لم يكن فى المستطاع اطفاؤها الا على يدى رجل مثل « توركمادا » (١) • وعلى هذه الشعلة وضع البابوات قلانسهم الشبيهة بالمطفأة الهائلة • وتحالفت البابوية مع السلطة المطلقة للتغلب على هذه الأمة • ثم أحالت كل ضياء هذا الشعب الى لهيب ، وشــهدنا اسبانيا مشدودة الى الأتون • وغطت محاكم التفتيش هذه الدنيا ، وكان دخانها يشكل طوال قرون ثلاثة ســحابة بشعة تظلل المدينة • وما أن انتهى التعذيب والاحراق حتى أصبح فى الامكان القول بأن هذا الرماد هــو الشعب •

واليوم تنبعث هذه الأمة من داخل هذا الرماد • وما هو خرافى فى طير العنقاء حقيقى بالنسبة للشعب •

هذا الشعب يبعث حيا ، فهل يبعث ضئيلا ؟ أو يبعث كبيرا ؟ هــذا هو السؤال •

فى مقدور اسبانيا أن تسترد مكانتها ، وتعود ندا لفرنسا وانجلترا • وانها لهبة عظيمة من الله ، وفرصة نادرة • فهل تترك اسبانيا هــذه الفرصة تفلت منها ؟

---

(١) توماس دى توركمادا ، قاض بمحاكم التفتيش باسبانيــا (١٤٢٠ ــ ١٤٩٨) اشتهر بقسوته ، وبقى اسمه مقترنا بذكرى محاكم التفتيش ــ المترجم •

والفائدة من قيام ملكية أخرى فى القارة الأوروبية ؟ اسبانيــــا خاضعة للملك خاضع لسائر الدول ، يا للانحطاط ! وفضلا عن ذلك فان اقامة الملكية فى هذه الساعة تستلزم جهدا فى سبيل أمر لن يدوم الا وقتا قصيرا ، فسوف تتغير الصورة عن قريب .

الجمهورية فى اسبانيا هى الأمن المستقر فى أوروبا ، هى السلام ، هى التوازن بين فرنسا وبروسيا ، ومعها تصبح الحرب بين الملكيــات العسكرية مستحيلة بسبب الثورة الحــاضرة ، وتوضع الكمــامة على سادوفا (١) كمـا وضعت على أوسترلتز (٢) . وتستبدل صــورة العمل والرخاء بصورة التقتيل ، ويحل النسيج الحريرى (الجاكار) محــل البنادق . وفى القارة الأوروبية يقوم التوازن فجأة بفضل ذلك النقل الذى سيوضع فى كفة الميزان والذى يمثل الحقيقة بدلا من الخيالات والأوهام . الجمهورية فى اسبانيا هى الدولة الاسبانية القديمة ، وقد تجددت بفعل تلك القوة الفتية ، قوة الشعب . انها من وجهة التجــارة والاساطيل البحرية ، الحياة وقد عادت الى ساحلين ، كان أحدهما مسيطرا على البحر المتوسط قبل فينيسيا ، والثانى على المحيط قبل انجلترا . انها الصناعة وقد ازدهرت وانتشرت حينمــا حلت التعاســة . انهــا قادس ندا لساوثامبتون ، وبرشلونة ندا لليفربول ، ومدريد ندا لباريس . انها البرتغال عائدة فى لحظة من اللحظات الى اسبانيا ، يجذبها اليها النــور والرخاء ، فالحرية هى المغناطيس الذى يضم الأقــاليم . الجمهــورية فى اسبانيا هى البرهان الخالص على سيطرة الانسان على نفسه ؛ وهى سيطرة لا جدال فيها ، سيطرة لا تؤخذ الأصوات من أجلها . انها الانتاج من غير تسعير ، والاستهلاك من غير جمرك ، والتداول بلا عوائق ، والمشغل من غير طبقة العمال الكادحين ؛ والثورة دون تدخــل الطفيليين ؛ والضمير بلا مزاعم باطلة ، والكلام بلا كمامة ، والقانون بلا اكاذيب ، والقــوة من غير جيش ، والأخاء من غير قابيل . انها العمل للجميع ، التعليــم للجميع ، والعدالة للجميع ، والغاء آلة الاعدام . انها المثل الأعلى وقــد أصبح ملموسا . وكمـا أن هناك خطافا يقــود سرب الخطاطيف (طير السنونو) ، فسوف تكون هناك أمة مثالية . ولن يكون هناك خطر . اسبانيا ملك المواطنين ، هى اسبانيا القوية ، واسبانيا الديموقراطية هى

---

(١) سادوفا ، قرية تشكيلية هزم عندها النمساويون هزيمة فاصلة فى حرب النمسا وبروسيا ١٨٦٦ ـ المترجم .

(٢) أوسترلتز ، مدينة صغيرة بتشيكوسلوفاكيا هزم نابليون عندها الروس والنمساويين عام ١٨٠٥ ـ المترجم .

اسبانيا المنيعة · الجمهورية فى اسبانيا هى الادارة الأمنية ، هى الحقيقة الصادقة الحاكمة ، هى الحرية السائدة ، هى الحقيقة السامية المنيعة · الحرية هادئة لأنها منيعة ، وهى منيعة لا تقهر لأنها معدية · من يهاجم الحرية يكتسب مبادئها : الجيش المبعوث ضدها يرتد على الطاغيـــة · ولذا فالناس يدعون الحرية وشأنها ، ويتركونها فى سلام · الجمهورية فى اسبانيا سوف تكون اشعاع الحق عند الأفق ، والوعد للجميع ؛ أما الوعيد فهو للشر وحده ؛ وسوف تكون ذلك المارد ، الحق ، واقفا فى أوروبا خلف ذلك السور ، جبال البيرينية ·

اذا بعثت اسبانيا ملكية ، بعثت صغيرة ·

واذا بعثت جمهورية ، كانت كبيرة ·

فعليها أن تختار ·

فيكتور هوجو

أوتفيل هاوس فى ٢٢ أكتوبر ١٨٦٨ :

٤

خطاب ثان لاسبانيا

اتانى نداء ثان من عدة مواضع فى اسبانيا ، من لاكورونا عن طريق عضو اللجنة الديمقراطية ، وأوبييدو ، واشبيلية ، وبرشلونة ، وساراجوسا (سرقسطة) ، المدينة الباسلة . وقادس المدينة النورية ، ومدريد ، عن لسان السيد الفاضل اميليو كاستيلار وفى النداء تساؤل . وهأنذا أجيب .

ما الموضوع ؟ انه الرق .

اسبانيا التى طرحت عن كاهلها كل المخازى القديمة : التعصب ، السلطة المطلقة ، آلة الاعدام ، القانون لالهى ، أترها تحتفظ من كل هذا الماضى بأبشع ما فيه ، الرق ؟ أقول لا ! بل لابد من الغائه ، الغاء عاجلا . هذا هو الواجب .

أهناك مجال للتردد ؟ أهذا ممكن ؟ عجبا ، ان ما فعلته انجلترا فى عام ١٨٣٨ ، وما فعلته فرنسا فى عام ١٨٤٨ ، لا تفعله اسبانيا فى عام ١٨٦٨ ؟ أتكون أمة متحررة ، وتحت أقدامها عنصر مستعبد ومكبل بالأغلال ! عجبا لهذه المتناقضات ! أن يكون النور فى داخل الدار والظلام فى خارجها ، العدالة فى داخل الدار ، والظلم فى خارجها . هنا مواطن . وهناك نخاس ! القياس بثورة لها جانب من المجد وجانب من الخزى ! عجبا ! أبعد طرد الملكية ، تبقى العبودية ! ويكون هناك بالقرب منكم انسان ملك لكم ، بل شىء من أشيائكم ! على رأسكم قلنسوة الحرية وفى يدكم سلسلة تربطونه بها ! ما هو سوط المزارع ؟ انه صولجان الملك ، صولجان ساذج مجرد من التذهيب . فاذا تهشم الصولجان سقط السوط .

الملكية مع العبيد شيء معقول · أما الجمهورية ذات العبيد فهى شيء فاجر · وما يرفع من قدر الملكية يشين الجمهورية طهارة وصفاء ·

ولكنكم جمهورية من اليوم ، ودون انتظار لأى تصويت · لماذا ؟ لأنكم اسبانيا العظيمة · انتم جمهورية ، وقد سجلت أوروبا الديموقراطية ذلك · يأيها الاسبان ! لن تستطيعوا ان تظلوا فخورين الا بشرط ان تظلوا أحرارا · التدهور مستحيل عليكم ؛ فالنمو من طبيعة الأشـياء ، والتصاغر ليس من طبيعتها · سوف تبقون أحرارا · بيد أن الحـريه متكاملة · انها شديدة الغيرة على عظمتها وصفائها · لا مهادنة ، ولا تنازل ، ولا تناقص · الحرية تستبعد الملكية من أعلى ، والعبودية من أسفل ·

من يملك عبيدا يستحق أن يكون هو عبدا · العبد من تحتك يبرر قيام الطاغية من فوقك ·

وتعتبر سنة ١٧٦٨ سنة فظيعة فى تاريخ تجارة الرقيق · ففى هذه السنة ارتكب أكبر قدر من جرائم الرق ؛ فقـد سرقت أوروبا من أفريقيا مائة وأربعة آلاف من السود ، باعتهم لأمريكا · مائة وأربعـة آلاف ! لم يشهد العالم أبدا مثل هذا الرقم المخيف من مبيعـات اللحم البشرى · حسن ! احتفلوا اذن بهذه الذكرى المئوية بالغاء الرق ؛ ولترد سنة جليلة على سنة مخزية ؛ وبرهنوا على أنه يوجد بين اسبانيا فى عام ١٧٦٨ واسبانيا فى عام ١٨٦٨ أكثر من قرن من الزمان ، توجد هـوة سحيقة لا يمكن عبورها ، تفصل بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين العدل والظلم ، بين المجد والدناءة ، بين الملكية والجمهورية ، بين الحرية والعبودية ، هاوية فاغرة دواما خلف التقدم ، يقع فيها من يتراجع الى الوراء ·

الشعب يزداد بكل الأفراد الذين يحررهم · فلتكونوا اسبانيـا العظيمة المتكاملة · ان ما يلزمكم هو ضم جبل طارق وترك كوبا · كلمة أخيرة · فى أعماق الشر يتلاقى الاستبداد والعبودية فينتجان أثرا واحدا · أمران متماثلان كأوضح ما يكون التماثل · وقد تكون أغلال الرق أشـد احكاما على السيد منها على العبد · ترى من من الاثنين يمتلك الآخر ؟ هذا سؤال · من الخطأ أن تظن أنك تملك انسانا تشتريه وتبيعه · انك أسير هذا الانسان ، وهو يمسكك بقبضته ؛ ولابد أن تقاسمه خشونته ، وفظاظته ، وجهالته ، ووحشيته ؛ والا فانك سوف تشمئز من نفسك · تعتقد أن هذا الأسود هو ملك يديك ، كلا بل أنت مملوكه · لقد أخذت منه الجسد ولكنه أخذ منك العقل والشرف · ويقوم بينك وبينه مستوى

غامض · العبد يعاقبك لكونك سيده · يالها من ثارات محزنة وعادلة . ثارات رهيبة لأن العبد الأسود الذى يسيطر عليك لا يدرك شيئا منها · رذائله هى جرائمك ، وتعاساته تغدو مصائبك · العبد روح جفول فى دارك . ساكنة فى نفسك ، تنفـــذ فيك ، وتظلم جـــوانبك ، كالســم الزعاف · آه لا يرتكب المرء هذه الجريمة الكبيرة ، جريمة العبودية دون أن يلقى جزاءه · الأخاء الذى ينكره الناس يغدو شؤما وتعسا · اذا كنتم شعبا وضاء مجيدا ، فان قبول الرق كنظام له كيانه انما يحيلكم شعبا ممقوتا · التاج على جبين الطاغية ، والطوق حـــول عنق العبد ، دائرتان متماثلتان ، تحبسان روحكم ، روح الشعب · أمجادكم كلهـــا تعيبها بقعة واحـــدة : الزنجى · فالعبـــد يفرض عليكم ظلماته · انكم لا تنقلون اليه الحضارة ، ولكنه ينقل البكم الهمجية · وأوروبا ، عن طريق الرق تطعم نفسها بلقاح أفريقيا ·

أيا شعب اسبانيا النبيل ! اليك التحرير الثانى · لقد تخلصت من الطاغية ، والآن تخلص من الرقيق ·

أوتفيل هاوس فى ٢٢ نوفمبر ١٨٦٨ ··

فيكتور هوجو

٥

الأطفال الفقراء

عيد الميلاد في عام ١٨٦٨

لم نكن الأحزان التى نعانيها لتحجب عنا وجود الفقراء • واذا تأتى لنا أن ننسى ما يقاسيه الآخرون ، فان ما نقاسيه نحن حقيق بأن يذكرنا بآلامهم ، فالحزن نداء للواجب •

أثمرت المؤسسة الصغيرة التى أنشأتها منذ سبع سنوات بدارى فى جيرنسيى لمساعدة الطفولة • وأنتن أيتها السيدات اللوانى تنصتن لحديثى بمزيد من اللطف والرقة سوف تتأثرون كثيرا لهذا الخبر الجديد •

لا شأن للمسألة بما أفعله هنا ، وانما هى تتعلق بما يحدث فى الخارج • ما أفعله شىء ضئيل لا يستحق عناء الحديث عنه •

تتميز مبرة عشاء الأطفال الفقراء هذه بشىء واحد ، تتميز بأنها فكرة بسيطة • ولذلك سرعان ما فهمها الناس ، خاصة فى بلاد الحرية ، فى انجلترا وسويسرا وأمريكا ، حيث تطبق على نطاق واسع • وانى لأذكر الواقع دون الحاح • ولكنى أعتقد أن هنـــاك نوعا من الصلة بين الأفكار البسيطة وبين البلاد الحرة •

أذكر لكم رقمين أو ثلاثة أرقام فقط حتى تحكموا بمقدار التقـــدم الذى نالته فكرة عشاء الأطفال الفقراء • وقد استقيت هذه الأرقام من انجلترا ، من لندن ، بلدكم •

لعلكم قرأتم فى الصحف الخطاب الذى وجهته الى السيدة المبجلة ليدى طومسون • لقد ارتفع عدد الأطفال الذين قدمت اليهم هذه المساعدة فى أبرشية ماريلبون وحدها فى عـــام ١٨٦٨ من ٥٠٠٠ الى ٧٨٥٠ • وتأسست جمعية للمعونة باسم « جمعية رعاية الطفل » منذ قليل ، فى

شارعى مادوكس وريجنت برأس مال قدره عشرون ألف جنيه استرلينى ٠ وهناك أخيرا واقعة ثالثة ؛ فأنتم تذكرون أننى هنأت نفسى فى مثل هـذا اليوم من العام الماضى حين قرأت فى الصحف الانجليزية أن فكرة أوتفيل هاوس قد أثمرت فى لندن لدرجة أنهم قدموا هناك معونة لثلاثين ألف طفل ٠ هـذا بديع ٠ اقرأوا اليـوم عدد صحيفة « الاكسبريس » الغراء الصادر فى ١٧ ديسمبر ، وسوف تلحظون به تقدما رائعا فى هذا الشأن ٠ كان فى لندن فى عام ١٨٦٦ ستة آلاف طفل تلقوا المعونة على الوجـه الذى أشرت اليه ؛ أصبحوا ثلاثين ألفا فى عام ١٨٦٧ ، ومائة وخمسـة عشر ألفا فى عام ١٨٦٨ ٠

أضيفوا الى رقم ١١٥٠٠٠ هذا أطفـال ماريلبون ، وعددهم ٧٨٥٠ طفلا ، وتضمهم جمعية خاصة ، تحصلوا على مجموع قدره ١٢٢٨٥٠ طفلا تلقوا المعونة ٠

ما أعظم الحبة التى توضع فى الأخدود حين يشاء الله أن يخصبها ! كم ترون عندى هنا من أطفال ؟ أربعين ٠ هذا عدد قليل للغاية ؛ لا يساوى شيئا ٠ بيد أن كل طفل من هؤلاء الأطفال ينتج فى الخارج ثلاثة آلاف طفل ، فيصبح الأربعون طفلا الموجودون فى أوتفيل هاوس مائة وعشرين ألفا فى لندن ٠

وبامكانى أن أذكر حقائق أخرى ، ولكنى اكتفى بما ذكرت ٠ اننى أتحدث عن نفسى ، ولكننى أفعل ذلك على الرغم منى ٠ ليس لى أى فضل فى كل هذا ، ولا أية جدارة ٠ ويجب أن توجه كل آيات الشـكر الى معاونيى الذين يستحقون الاعجاب والتقدير فى انجلترا وأمريكا ٠

كلمة ختامية :

اننى أجد المنفى شيئا طيبـا ٠ أولا لأنه عرفنى بهـذه الجزيرة المضيافة : ثم أتاح لى فراغا لتحقيق الفكرة التى كانت تراودنى منـذ زمن بعيد ، فكرة القيام بمحاولة عملية لتحسين أحوال الأطفال الفقـراء بصورة عاجلة مباشرة ، من الناحية الصحية المزدوجة ، أى الصحة البدنيه والصحة العقلية ٠ ونجحت الفكرة ٠ ومن أجل هذا أشكر المنفى ٠

آه ، لن أمل أبدا من أن أقول : فلنفكر فى الأطفال ! ان مجتمـع الناس هو دائما ، وبدرجة ما ، مجتمع مذنب ٠ ونحن فى هذا الخطـأ الجماعى الذى نقترفه جميعا ، والذى نسميه أحيانا القـانون ، وأحيـانا العادات والأخلاق ، لانثق الا فى نوع واحد من البرأءة : براءة الأطفال ٠

حسن ، فلنحب الطفولة ، ولنعمل على أن نغذيها . ونكسوها ، ونعطيها خبزا وأحذية ، ونشفيها من المرض ، وننير لهـــا السبيل ، ونبجلهـــا .

أما أنا ، فهل أنتم مشتاقون لمعرفة رأيى السياسى ؟ سأقوله لكم . انى من حزب البراءة ، وخاصة حزب البراءة التى تنال العقاب - لمـــاذا يا الهى ؟ - لتعاستها .

ومهما كانت الآلام فى حياتى هذه . فلن أشكو منها ؛ اذا أتيح لى أن أحقق أسمى مطمحين يمكن أن يصبوا اليهما الانسان على وجه الأرض : أن يكون الانسان عبدا ، وأن يكون خادمـا : عبـــدا لضميره ، وخادمـا للفقراء .

١٨٦٩

١

كـريت
الى السيد فولوداكى
رئيس حكومة كريت

ســـيدى :

أثر خطابك البليغ فى نفسى تأثيرا شديدا • نعم ، انك على حق فى اعتمادك على • وانني لأضع فى خدمة قضيتك النبيلة شخصى الضعيف وقدراتى القليلة • قضية كريت هى قضية اليونان ؛ وقضية اليونان هى قضية أوروبا • هذا التسلسل فى الأمور يغيب على خاطر الملوك ، وهو مع ذلك منطقى للغاية • ليست الدبلوماسية سوى مكر الأمراء ضد منطق الاله • ولكن الله على حق فى فترة معينة من الزمن • الله والحق معنيان مترادفان • ولست سوى صوت عنيد ولكنه تائه فى لجب المظالم السائدة المظفرة • ما علينا ، اننى لن أسأم ، سواء سمعنى الناس أم لم يسمعونى • تقول لى ان كريت تطلب منى ما طلبته اسبانيا • ولكن واأسفاه ! ليس فى وسعى الا أن أصيح • لقد أطلقت صيحتى قبلا من أجل كريت ، وسوف أطلقها مرة أخرى •

سوف اتجه ناحية أمريكا ، مادمت ترى فائدة فى ذلك ، وطالما كانت أوروبا صماء فلنضع آمالنا فى هذه الناحية •

وأصافحك

فيكتور هوجو

نداء الى أمريكا

استسلام شعب ما ، استسلاما مؤسفا ، للاغتصاب والتذبيح فى صميم المدنية ، خزى يدهش له التاريخ • وأولئك الذين يلطخون هذا القرن التاسع عشر العظيم بمثل هذه الوصمات يتحملون مسئولية عملهم أمام الضمير العالمى • وتكلل الحكومات الحاليـــة جبين أوروبا بالخزى والعـــار •

هناك فى الساعة التى تمر بنا مذابح من جهة ، وحديث بين الدبلوماسيين من جهة أخرى • من ناحية يقتتلون ويذبحون ويبترون الأعضاء ويبقرون بطون النساء والشيوخ والأطفال ، ويتركون جثث هؤلاء تتعفن فى الثلج أو تحت الشمس ، ومن ناحية أخرى يحررون البروتوكولات . وتنهال البرقيات الواردة من دور البعثات الدبلوماسية من كل آفاق الأرض على مائدة المؤتمر الخضراء ، فى حين تنقض العقبات على أركاديون • هذا هو المنظر • خيانة كريت وتسليمها للعدو عمل سيىء . وسياسة رديئة •

هنـاك أمران • اما أن تستمر ثورة كانديا أو تنقضى . اما أن تؤجج كريت لهيبها السامى فيستمر مشتعلا ، واما تطفئه • فى الحالة الأولى يصير هذا البلد بطلا ، ويصير فى الحالة الثانية شهيدا • وسوف تتعقد الأمور فى المستقبل بصورة رهيبة • ولابد ، ان عاجلا أم آجلا ، أن نتعامل مع الأبطال ، ونتعامل أكثر من ذلك مع الشهداء • الأبطال ينتصرون بالحياة ، أما الشهداء فينتصرون بالموت • انظروا بودان (١) • خافوا من الأشباح • ان ماتت كريت فسوف تكون ثقيلة الظل كالقبر ، عفن فوق ما فى سياستكم من عفن وسيكون لأوروبا منذ الآن بولندتان . واحدة فى الشمال والثانية فى الجنوب • ويسود النظام فى جبال سفاكيا كما يسود فى وارسو • أما أنتم يا ملوك أوروبا فسوف تستمتعون بالرخاء بين جثتين •

لا تنتمى القارة فى هذه اللحظة الى الأمم ، وانما الى الملوك • ولنقلها صريحة ، ان اليونان وكريت لم يعد لهما ما تنتظرانه من أوروبا • هل فقدنا كل أمل ؟ لا •

هنا يتغير وجه السؤال • هنا تتجلى مرحلة جديدة ، وهذا أمر مدهش •

أوروبا تتقهقر ، وأمريكا تتقدم • أوروبا ترفض دورها ، وأمريكا تقبله •

تنازل يعوضه ارتقاء • سوف يحدث أمر جلل •

---

(١) شارل بودان : اميرال فرنسى ، ولد فى سيدان (١٧٨٤ - ١٨٥٤) ومر فى عام ١٨٣٨ ومعه أربع سفن حربية فقط بحصن سان جان ديلوا أمام فيراكروز (ميناء بالمكسيك) - المترجم •

جمهورية الأمس ، اليونان ، سوف تسندها وتحميها جمهورية اليوم ، الولايات المتحدة . تراسيبولوس (١) يستنجد بواشنجنون ، ليس هناك ما هو أعظم من ذلك .

وسوف تسمع واشنجتون النداء وتأتى . ولسنا نشك فى أن العلم الأمريكى سوف يرتفع بين جبل طارق والدردنيل .

انه الفجر . المستقبل ينير الأفق . وتتجلى معالم أخاء الشعوب . التضامن عظيم .

هذا وصول العالم الجديد الى العالم القديم ؛ ونحن نحيى هذا القدوم . ولن تأتى أمريكا لنجدة اليونان فحسب وانما أيضا لنجدة أوروبا . سوف تنقذ أمريكا اليونان من الانقسام ، وتنقذ أوروبا من العار .

ان فى ذلك خروجا لأمريكا من سياستها المحلية ، ودخولها فى ساحة المجد .

فى القرن الثامن عشر حررت فرنسا أمريكا ؛ وفى القرن التاسع عشر سوف تحرر أمريكا اليونان . فياله من سداد رائع للدين .

أيها الامريكيون ، كنتم مدينين لنا بذلك الدين الكبير ، الحرية ! خلصوا اليونان ، نعطكم مخالصة بالدين . فالسداد الى اليونان سداد الى فرنسا .

فيكتور هوجو

أوتفيل هاوس فى ٦ فبراير ١٨٦٩ :

---

(١) زعيم وقائد أثينى ـ استمات بطيبة فطرد الطغاة الثلاثين من أثينا ، وتمكن بذلك من اعادة الحكم الديموقراطى فى عام ٤٠٤ ق.م ـ المترجم .

٣

الى رؤساء التحرير المؤسسين الخمسة لصحيفة « لورابيل » (١)

أصدقائى الأعــزاء :

لمـا كنت قد تلقيت تفويضا معلقا ، ولكنه غير ناجز ، فليس فى وسعى أن أظهر على منبر الخطـابة أو فى الصحافة السياسية الا لكى أواصل هذا التفويض من حيث انقطع . وأؤدى واجبا قاسيا ؛ وتلزمنى الحرية لأفعل ذلك ، كما هى الحال فى أمريكا · وتعلمون ما صرحت به فى هذا الشأن ، وتعرفون أنى لا أستطيع أن أتعاون مع أية جزيرة ، حتى تحين الساعة ، كما لا أستطيع أن أقبل أى ترشيح · يجب اذن أن أبقى غريبا بالنسبة الى صحيفة لورابيل ·

وفضـــلا عن ذلك ، فانى لم أكتب أبدا فى صحيفة « ليفينمان » ، لأسباب أخرى تفصل بالتعقيدات المترتبة على الحياة السياسية والأدبيه المفروضة على · وصدرت صحيفة « ليفيمان » فى عام ١٨٥١ بأربعـــة وستين ألف نسخة · هذه الجريدة الحية ، سوف تعيدون اصدارهـــا بعنوان « لورابيل » ·

« لورابيل » (أى التذكرة) ــ اننى أحب كل معانى هذه الكلمة ، التذكرة بالمبادىء عن طريق الضمير ؛ التذكرة بالحقـــائق عن طـــريق الفلسفة ؛ التذكرة بالواجب عن طريق الحق ؛ التذكرة بالموتى عن طريق التبجيل ؛ التذكرة بالقصاص عن طريق العدالة ؛ التذكرة بالماضى عن طريق التاريخ ؛ التذكرة بالمستقبل عن طريق المنطق ؛ التذكرة بالتقدم فى العلم عن طريق التجربة والحساب ، التذكرة بالله فى الأديان عن

---

(١) بول موريس ، أوجست فاكيرى ، هنرى روشفور ، شارل هوجو ·

طريق الغاء عبادة الأوثان . واعادة تنظيم القانون عن طريق الغاء عقوبة الاعدام ؛ تذكرة الشعب بالسيادة عن طريق الانتخابات العامة المستنيرة ؛ التذكرة بالمساواة عن طريق التعليم المجانى الالزامى ؛ التذكرة بالحرية عن طريق نهضة فرنسا ؛ التذكرة بالنور عن طريق صيحة « لتحيا العدالة ! » .

تقولون : هذى هي مهمتنا ! وأقول لكم . هذا عملكم هذا العمل أديتموه من قبل ، سواء بصفتكم صحفيين أو شعراء ، فى الكتيب ، فى النضال ، فى الكتاب ، فى المسرح ؛ فى كل مكان وكل وقت . واليوم تتناولون من جديد هذه الجريدة القوية : « لورابيل » . ستكون جريدة مشرقة وقاطعة كالحديد . فهى أحيانا سيف ، وأحيانا شعاع من نور . سوف تقاتلون وأنتم تضحكون . أما أنا ، الهرم الحزين ، فانى أصفق لكم .

تشجعوا اذن ، والى الأمام ! ما أقوى سلطان الضحك ! سوف تتخذون مكانكم فى الجماعة الباريسية اللامعة ، جماعة الصحف الضاحكة ، أتباعا لكل ذوى العزائم الصادقة .

اننى أعرف استقامتكم كما أعرف استقامتى . وفى نفسى مرآتها . ولذلك أعرف مقدما منهاجكم . لا أرسم لكم هذا المنهاج وانما أتثبت من وجوده . لست أصبر الى أن أكون مرشدا ، وانما أقنع بأن أكون شاهدا . ثم انى لا أعرف الشيء الكثير فى هذا الباب ، وعندما أنطق بكلمة الواجب . أكون قد قلت تقريبا ما يجب أن أقوله .

عليكم قبل كل شيء أن تكونوا اخوانا ، مثل للتآلف ، ولا يترتب على خطتكم أى انقسام فى صفوفنا . وستنتظرون دواما الضربة الأولى . واذا سألنى احدهم عما فى نفسى اجب بكلمتين : المسالمة والمهادنة ، الأولى للأفكار ، والثانية للناس .

ويتطلب الكفاح فى سبيل التقدم تركيز القوى ، والتصويب بدقة ، واجادة الضرب ، فلا يجوز أن تشرد قذيفة أو تضيع رصاصة فى معركة المبادىء . العدو يستحق كل ضربتنا ، فاذا اخطأناه فى ضربة كنا ظالمين فى حقه . انه يستحق أن نضربه دواما بالمدافع الرشاشة ، وألا نطلق هذه المدافع الا عليه . العدو بالنسبة الينا ، نحن المتعطشين للعدالة والمنطق والحقيقة ، اسمه الظلمات .

للطوائف الديمقراطية مظهران : فهى سياسية ، وهى أدبية . فهى فى فن السياسة قد رفعت لواء عام ١٧٨٩ ، ١٧٩٢ ، وهى فى الأدب قد

رفعت لواء عام ١٨٣٠ · هذه التواريخ ذات الاسعاع المزدوج ، التى تنير الحق من ناحيه . وتنير الفكر من ناحية أخرى . تتلخص فى كلمة واحدة : الثورة ·

ونحن ، سلالة البدع الثورية ، أبناء هذه الكوارث التى هى فى الوقت نفسه انتصارات · نفضل هرج الدراما على رسميات التراجيديا ، وضجة الشعب العميقة على الحديث المتبادل بين الملوك ، وباريس على فرساى · لقد وصل الفن مع المجتمع الى الغاية وهى « الدنيا للجميع » Onmia et emmes أما القرون الأخرى فكانت حاملة للسجان · وتجسد كل قرن منها ، فى نظر التاريخ · فى شخصيه تبلور فيها الاستثناء ·القرن الخامس عشر هو البابا· والسادس عشر هو الأمبراطور. والسابع عشر هو الملك ، والتاسع عشر هو الانسان ·

خرج الانسان ، واقفا وحرا ، من تلك الهوة الكبيرة ، القرن الثامن عشر ·

ولنبجل هذا القرن الثامن عشر ، القرن الحاسم الذى بدأ بوفاة لويس الرابع عشر ، وانتهى بموت الملكية ·

سوف تقبلون هذا الميراث · لقد كان قرنا بهيجا ورهيبا ·

فى عرفكم أن تكونوا باسمين وبغيضين · وأنا أؤيدكم فى ذلك · الابتسام نضال · البسمة التى ترمق السلطة المطلقة قوة عجيبة تسبب الشلل · لقد حبر لوسيان جوبتير · ومع ذلك لم يلجأ جوبيتر ، اله الروح ، رغم غضبه ، الى السبد · (وهنا افتح قوسا · لا تتحرجوا فى أن تستبدلوا خطوطا منقوطة بأى موضع فى كتابتى هذه يحلو لكم أن تفعلوا به ذلك · وهنا أقفل القوس) · لقد تغلبت سخرية الموسوعيين على مذهب مولينا (١) والبابوية · يا لها من أمثلة عظيمة رائعة · لقد كشف هؤلاء الفلاسفة الشجعان عما فى الضحك من قوة · السخرية من الاخطبوط أمر يبدو غريبا ، ومع ذلك فهو شىء بديع : أولا لأن الكثير من حيوان الأخطبوط له جلد رقيق يؤثر فيه وخز الابر أكثر مما يؤرث ضربات الهراوة · أما اشباه الأخطبوط من البشر ، ومنهم القياصرة ، فالتهكم يفزعهم ، وخاصة اذا كان فى هذا التهكم دعوة الى

---

(١) لوى مولينا ، من الجزويت الاسبان (١٥٣٥ ـ ١٦٠٠) صاحب مذهب « المولينية » الذى يهدف الى التوفيق بين الحرية وبين البصيرة والرحمة الربانية ـ المترجم ·

٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ـ انظر هامش الصفحة التالية ·

النور . اذكروا الديك الذي يغرد على ظهر نمر . الديك هو السهكم ، وهو أيضا فرنسا .

وقد أنبت القرن الثامن عشر سيادة التهكم . قابلوا بين القوة المادية والقوة الروحية ، احصـــوا الكوارث التى تم التغلب عليهـا ، والوحوش التى تم القضـــاء عليها . والضحايا الذين نالوا الحماية . اجعلوا فى ناحيـــة ليرن ، ونيميه ، دايريمانت ، ونوركربت ، وننن الهيسبيريد . وآنتى المخنوق ، وسيربير المكبل بالأغلال ، و (اسطبلات) أوجياس وقد نظفت . وأطلس وقد تخفف من أثقاله ، وهيزيونى وقد أنقذ ، والسبست وقد تحرر ، وبروميثيوس وقد أنجد ، واجعلوا فى فى ناحية أخرى الخرافة وقد انكشف أمرها . والنفاق وقد نزع نقابه ، ومحاكم التفتيش وقد أمحت من الوجود ، والهيئة القضائية وقد كممت ، والتعذيب وقد وصم بالعار ، وكالاس (١) وقد رد اعتباره ، ولابار (٢) وقد أخذ بثأره ، وسيرفين (٣) وقد دوفع عنه ، والأخلاق وقد تهذبت ، والقوانين وقد أصلحت ، والعقل وقد أطلقت حريته ، والضمير الانسانى وقد تخلص هو أيضا من الرخمة التى هى التعصب . استرجعوا تلك الذكرى المقدسة ، ذكرت الانتصارت لانسانية الكبيرة ، وقابلوا أعمال هرقل الاثنى عشر بأعمال فولتير الاثنى عشر . هنا عملاق القوة وهناك عملاق الروح . من الغالب ؟ أفاعى المهد هى الأوهام الباطلة . أروية (فولتير) قتل هؤلاء (أى الأوهام الباطلة) مثلما قتل « السيد » (٤) أفاعى المهد .

سوف تجرون أقلامكم بمساجلات حية قوية . هناك حق مكفول محتدم تستمتعون به ، ذلك هو حق الرد . لقد استعملت أنا الذى أتكلم هذا الحق ، تحت مسئوليتى ، بل وأسأت استعماله . ولكم أن تحكموا .

---

(١) جان كالاس ، تاجر من تولوز ، ولد عام ١٦٩٨ ، اتهم ظلما بقتل ابنه لمنعه من الارتداد عن المذهب البروتستانتى ، وأعدم على عجلة الاعدام فى عام ١٧٦٢ تنفيذا لحكم البرلمان ، ثم رد اليه اعتباره فى عام ١٧٦٥ بعد أن دافع عنه فولتير دفاعه المشهور — المترجم .

(٢) لابار ، جان فرانسوا — نبيل فرنسى ، اتهم بكسر أطراف صليب عليه صورة المسيح ، فقطع رأسه ثم أحرق (١٧٤٧ — ١٧٦٦) — المترجم .

(٣) سير بول سيرفن — بروتستانتى ، ولد عام ١٧٠٩ وحكم عليه بالاعدام فى عام ١٧٦٤ لاتهامه بالاشتراك فى قتل ابنته لمنعها من اعتناق المذهب الكاثوليكى . استطاع مع ذلك الفرار ، ونجح فولتير فى رد اعتباره بعد خمس سنوات — المترجم .

(٤) السيد — من سلالة هرقل ، البطل الأسطورى اليونانى المعروف — المترجم .

فى ذلك . فذات يوم ــ ولا بد أن تذكروه ــ فى عام ١٨٥١ ، فى عهد الجمهورية . كنت أتحدث على منبر الجمعية الوطنية ، وقلت : الرئيس لوى بونابرت يتآمر . وعندئذ صاح فى وجهى رجل وقور من أنصار الجمهورية القدامى ، اسمه السيد فيبار ــ وقد توفى وهو عضو بمجلس الشيوخ ــ صاح غاضبا : انك مفتر أثيم . فأجبته بكلام غير معقول : أنا أفضح مؤامرة لاعادة الامبراطورية . عند هذا هددنى السيد دوبان بأن يوجه الى تنبيها بمراعاة النظام ، وهى عقوبة رهيبة استحقها . وارتعدت . وكنت لحسن حظى معروفا بشىء من البلاهة ، وهذا ما أنقذنى . فقد صاح احد أعضاء الأغلبية قائلا بنوع من الشفقة : السيد فيكتور هوجو لا يعرف ما يقول ! وكان لهذا الكلام السمح وقع السحر فهدأ كل شىء ، وأخفى السيد دوبان حفيظته فى جيبه (وفى هذا الجيب كان يضع رايته عن طيب خاطر . جيب واسع . وود فى هذه المناسبة لو استطاع أن يخفى نفسه فى داخل جيبه هذا) . وهكذا ترون معى أنى قد أسأت استعمال حق الرد . ومن ثم فلتخذم هذا الحق .

جرى هذا فى زمان غريب . كنا فى عهد الجمهورية ، ومع ذلك كانت صيحة « لتحيا الجمهورية » تعتبر باعثا للفتنة والتمرد . أما أنتم فقد كنتم جميعا فى السجن ، باستثناء روشفور الذى كان وقتئذ فى الكلية ، وهو اليوم فى بلجيكا .

ولسوف تشجعون جماعة الشعراء الشبان اللامعين الذين ينهضون اليوم فى كبر من التألق والاشراق ، ويدعمون بأعمالهم ومآثرهم مبادىء هذا القرن العظيمة القوية . ولن يخلو عملكم من الشهامة والكرم . اكشفوا عن كلمة السر فى الأمل لهذا الشباب المدهش ، شباب اليوم الذى يحمل على جبينه صراحة المستقبل وطيبته واخلاصه . سوف تجمعون فى ذلك الايمان المشترك الذى لا يهن ولا يفسد تلك المجموعة الكبيرة من العقول الأبية المواظبة على الدرس والتحصيل ، التى تنبض بفرحة الاشراق ، وتملأ المدارس فى الصباح والمسارح ــ التى هى نوع من المدارس ــ فى المساء ، تبحث فى الصباح عن الحقيقة فى العلم ، وفى المساء تنشد العظمة فى الشعر أو تصفق له ، وتنشد الجمال فى الفن أو تصفق له . أعرف هؤلاء الشبان النبلاء ، شباب اليوم ، وأحبهم . انى على علم بخلجاتهم ، وأشكرهم على هذه الهمهمة الرقيقة التى كثيرا ما يرسلونها الى أذنى ، كأنها همهمة سرب بعيد من النحل . ان لهم ارادة غامضة قوية ، وسوف يصنعون الخير ، وأنا كفيلهم فى ذلك . ذلك الشباب ، هو زهرة فرنسا ، هو النورة وقد بزغ فجرها من جديد .

عليكم أن تتصدوا بهذا الشباب • ايقظوا بجميع الكلمات السحرية ، من قبيل الواجب والشرف والعقل والتقدم والوطن والانسانية والحريه تلك الذابة من الأصداء الموجودة في نفوسهم • انها انعكاسات عميقة قابلة لكل الردود العظيمه •

أصدقائي • وأنتم يا أبنائي ، هيا ، ناضلوا نضالكم الباسل ، ناضلوا من غيري • ومعي • من غيري لأن قامي المقاتل القديم لن يكون مع أقلامكم ، ومعي لأن روحي ستكون مع أرواحكم • ها ، أنشطوا ، وكافحوا ! ابحروا بجرأة صوب قطبكم الهادىء الذى لا يمكن ازعاجه ، صروب الحرية • ولكن تجنبوا الصخور ، ففي البحر صخور • وسوف يكون معي من الآن ، وفي وحدتي ، ذلك الأمل المرتقب ، صـــحيفة « لورابيل » المنتصرة ، لتغيرأحلامي القديمة • ونأمل أيضا أن نواصل « لورابيل » صدورها •

لن أعاود الكتابة في هذه الصحيفة التي احبها ، ولن أكون منذ الغد الا واحدا من قرائكم ، قارىء حزين ورؤوف • سوف تواصلون جهادكم ، وأواصل جهادي • وفضلا عن ذلك فاني لم أعد أصلح لشيء ، اللهم الا ان اعيش في عزلة مع المحيط ، أنا الشيخ المسن الهادىء القلق • هادىء لأني في اعمق أغوار الهاوية ، وقلق لأن بلدى قد يسقط في هذه الهاوية • ويمثل المشهد الذى امامي هذه القصة المفجعة ، مشهد الزبد وهو يهين الصخر • وأنشاغل بعظمة الطبيعة عن أمجاد الامبراطورية والملكية • ما أهمية أن يزيد على الناس أو ينقص منهم انسان وحيدا ! الشعوب تمضي الى مصائرها • ليس ثمة نهاية لا يسبقها اعداد وتعبئة • السنين تؤدى عملها البطىء في الانضاج ، حتى تتجهز الأمور • وبينما تتوج الكنيسة البابا في مناسبة عيده الخمسين ، أفتت أنا خبزا على سطح منزلي ، القيه الى العصافير ، ولا أشغل فكرى بأى تتويج ، ولا حتى بما يتوج أى بناء •

أوتفيل هاوس في ٢٥ أبريل ١٨٦٩ •

فيكتور هوجو

٣

مؤتمر السلام

فى لوزان

بروكسل فى ٤ سبتمبر ١٨٧٩ :

مواطنو الولايات المتحدة الأوروبية ٠

اسمحوا لى أن أطلق عليكم هذا الاسم لأن الجمهوريه الاتحاديه الأوروبية قد تأسست قانونا فى انتظار تأسيسها بالفعل ٠ انتم موجودون، فهى اذن موجودة ٠ وتسببون من وجودها باتحادكم الذى يرسم الوحدة ٠ أنتم بداية المستقبل العظيم ٠

قلدتمونى الرئاسة الفخرية لمؤتمركم ، فمسستم بذلك شغاف قلبى مسا عميقا ٠

مؤتمركم اكثر من مجرد مجلس يضم ذوى الألباب ، انه بنوع ما لجنة لصياغة قوانين المستقبل ٠ لا وجـود للصفوة الا اذا كانت تمثل جمهور الناس ، وأنتم تلك الصفوة ٠ وعليكم من الآن أن تعلنوا لأصحاب الشأن أن الحرب وبال ، والقتل خزى وعار ، حتى ولو كان عملا مجيدا أو ملكيا طنانا نفاجا ، ودم الانسان ثمين ، والحياة مقدسة ٠ اعذار رسـمى ٠

لا مناص من حرب أخيرة مع الأسف ! لست بالتأكيد من أولئك الذين ينكرون ذلك ، ترى أى حرب ستكون ؟ حرب غزو وفتح ٠ أى فتح تنتهى اليه ؟ الحرية ٠

الحرية هى أول حاجة للانسان ، أول حق له ، أول واجب عليه ٠

وتميل الحضارة بصورة حتمية الى وحدة الأسلوب ، ووحدة القياس المتردى ، ووحدة النقد ، والى انصهار الامم فى الانسانية التى هى الوحدة الكبرى . للوفاق مرادف . هو التبسيط ، لكن للثروة والحياة مرادف ، هو التداول . وأول انواع العبودية اقامة الحدود .

الحدود تعنى القيود . اقطعوا القيود ، أديلوا الحدود ، اطردوا موظفى الجمارك والجنود . وبتعبير آخر كونوا أحرارا ، وبالتالى يأتى السلام . سلام عميق ، سلام دائم لا رجوع فيه ، سلام منيع . وضع سوى للعمل ، وتبادل السلع ، والعرض والطلب . والانتاج والاستهلاك ، والجهد المشترك الفسيح ، وجاذبية الصناعات ، وحركة الأفكار ، وحركة الانسانية مدا وجزرا .

من صاحب المصلحة فى اقامة الحدود ؟ الملوك . يفرقون ليسودوا . تتطلب الحدود طارمة (تخشيبة) والطارمة تستلزم حارسا . « ممنوع المرور » عبارة نخص بها كل الامتيازات ، والمحظورات ، والرقابات ، وضروب الطغيان . وتخرج مصائب الانسانية من هذه الحدود والطوارم ، ومن هؤلاء الجنود .

ولما كان الملك هو الاستثناء ، فانه يحتاج فى الدفاع عن نفسه الى الجندى ، ويحتاج الجندى بدوره الى القتل حتى يعيش . لابد للملوك من جيوش ، ولابد للجيوش من حروب ، والا تلاشت العلة فى وجود الملوك والجيوش . ومن العجيب أن يوافق الانسان على قتل الانسان دون أن يعرف سببا لذلك . فن الطغاة أن يجعلوا من الشعب جيشا ، فيعتسف نصف الشعب النصف الآخر .

للحروب كلها حجج شتى ، ولكن ليس لها أبدا سوى سبب واحد ، هو الجيش . امحوا الجيش ، تمحى الحرب . ولكن كيف يمحى الجيش ؟ بمحو الاضطهاد .

كل شىء يتشبث بكيانه ! عليكم اذن ان تمحوا الطفيليات فى جميع صورها ، من رواتب ملكية ، وألوان التخاذل والتواكل التى تدفع لها الاجور ، وطوائف دينية تجرى على أفرادها المهايا ، وهيئات قضائية تصرف لها النفقات والمرتبات ، ووظائف ارستقراطية يبتغى أصحابها المهايا دون أن يعملوا شيئا ، وتنازل الدولة عن المبانى العامة بلا مقابل ، وجيوش دائمة . أجروا هذا المحو ، وسوف تربح أوروبا عشرة مليارات فى العام . هاكم بجرة قلم مشكلة الفاقة مبسطة .

ولكن العروس نرفض هذا التبسيط ، ومن ثم كانت العابات من حراب البنادق ٠

وتتفق آراء الملوك في نقطة واحدة : ان تستديم الحــــرب ابد الآباد ٠ ويعتقد الناس انهم يتعاركون ، أبدا ، بل انهم يتعاونون ٠ أكرر القــــول ان الجندى يجب أن يبرر وجــــوده ٠ وتأييد الجيش تأييد للاستبداد ٠ انه لمنطق رائع وقاس ولا ريب ٠ والملوك ينهكون مريضهم ، وهو الشعب ، بسفك دمائه ٠ هناك اخاء وحشى بين الأسلحة الفتاكة يترتب عليه استعباد الناس ٠

لذلك عليكم بالمضى نحــو الهـــدف الذى سميته فى موضع آخــر « استعادة الجندى فى شخص المواطن » ٠ وفى اليوم الذى تتم فيه هذه الاستعادة ، والذى يختفى فيه رجل الحرب ، ذلك الأخ العدو ، فلا يكون له وجود منفصل عن الشعب ، يصبح الشعب وحــدة واحــدة متكاملة متحابة ، وتكون المدينة كلها موافقة متناسقة ، وتضم فى ذاتها قوة ، هى قوة العمل ٠ وروحا ٠ روح السلام ، حتى تخلق الثروة من جانب ، والنور من جانب آخر ٠

فكتور هوجو

واحتجزت مشاغل عائليــــة فيكتور هوجو فى بروكسل ٠ ومع ذلك ، وبناء على الحاح شديد من المؤتمر ، صح عزمه على الذهــــاب الى لوزان ٠

وفى يوم ١٤ سبتمبر افتتح المؤتمر ٠ واليكم مــا قــاله فيكتور هوجــــو :

تعوزنى الكلمات لكى أعبر عن مبلغ تأثرى بالحفاوة التى استقبلتمونى بها ٠ وانى لأبدى للمؤتمر ولجمهور المستمعين الكرام الطيبين آيــــات تأثرى العميق ٠ أيها المواطنون ، كنتم على حق حين اخترتم مكان اجتماعكم ومداولاتكم هذا البلد النبيل ، بلد جبال الألب ، فهو قبل كل شيء بلد حر ؛ ثم هو بلد سام ٠ نعم ، هذه الطبيعة الرائعة تتواءم مع اعــــلان التصريحات الانسانية العظيمة ، ومنها : لا حرب بعد اليوم !

وثمة سؤال يسيطر على هذا المؤتمر ٠

واسمحوا لى ما دمتم قد منحتمونى هذا الشرف الرفيع باختيارى رئيسا ، اسمحوا لى أن أذكر لكم هذا السؤال ٠ وسأوضحه فى كلمات

قلائل . ماذا نريد نحن الموجودين هنا جميعا ؟ السلام . نريد السلام ، ونريده بحرارة ، نريده بالتأكيد : بين انسان وانسان ، وبين شعب وشعب ، وسلالة وسلالة ، وأخ واخ : بين هابيل وهابيل . نريد زوال الضغائن والأحقاد وخمودها .

ولكن هذا السلام ، كيف نريده أن يكون ؟ هل نريده بأى ثمن ؟ بلا شروط ؟ كلا نريد سلاما ، وظهورنا مقوسة ، ورؤوسنا مطأطئة . لا نريد سلاما فى ظل الاستبداد : لا نريد سلاما تحت ضربات العصا ؛ لا نريد سلاما تحت صولجان الملك .

أول شروط السلام هو الخلاص . ومن أجل الخلاص لابد من ثورة ، هى الثورة الكبرى ؛ أو ربما حرب : نكون مع الأسف الحرب الأخيرة . عندئذ يتم كل شيء . وعندما يصير السلام منيعا ، لا ينتهك ، يصبح سلاما أبديا . عندئذ لن نكون ثمة جيوش ولا ملك ، ويتلاشى الماضى . هذا هو ما نريده .

نريد أن يعيش الشعب وينشط ، ويشترى ويبيع ، ويشتغل ، ويتكلم ، ويحب ويفكر بحرية : نريد أن تكون هناك مدارس تصنع المواطنين ، وألا يكون هناك أمراء يصنعون المدافع الرشاشة . نريد جمهورية القارة الكبرى ، نريد الولايات المتحدة الأوروبية .

وأختم مقالى بهذه الكلمة : الحرية هى الغاية ؛ السلام هو النتيجة .

واستمرت مداولات « أصدقاء السلام » أربعة أيام . وختم فيكتور هوجو المؤتمر بهذه الكلمات : أيها المواطنون .

يقتضينى الواجب أن أنهى هذا المؤتمر بكلمة ختامية . وسأجتهد أن نكون هذه الكلمة ودية ، فساعدونى على ذلك .

أنتم مؤتمر السلام : أى مؤتمر الصلح . واسمحوا لى بهذه المناسبة أن استرجع احدى الذكريات .

فى عام ١٨٤٩ ، أن منذ عشرين سنة ، كان فى باريس ، كما يوجد اليوم فى لوزان ، مؤتمر للسلام . كان ذلك فى يوم ٢٤ أغسطس ، وهو يوم دموى ، يوافق الذكرى السنوية لأحداث سانت بارتيليمى . وكان هناك قسيسان يمثلان الشكلين المختلفين للمسيحية ، الراعى كوكيريل ، والأب دوجيرى . وأثار رئيس المؤتمر ، وهو الذى يتشرف بالتحدث اليكم فى هذه اللحظة ، أثار الذكرى المشئومة لعام ١٥٧٢ ، ووجه الخطاب الى القسين قائلا : « فليقبل كل منكما الآخر » .

وفى ذكرى هذا التاريخ المشئوم ، وامام هتافات الجمعية ، تبادلت البروتستانتية والكاثوليكية القبلات (تصفيق) .

واليوم ، تفصلنا بضعة أيام قلائل من تاريخ آخر . تاريخ مجيد ، بقدر ما كان التاريخ الأول محزنا . فنحن على قاب قوسين من يوم ٢١ سبتمبر . فى ذلك اليوم تأسست الجمهوريه الفرنسية . وكما حدث فى يوم ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ حين قال الاستبداد والتعصب كلمتهمــا الأخــيرة . الابادة ، حــدث فى يوم ٢١ ســبتمبر ١٧٩٢ أن أطلقت الديموقراطيه صيحتهــا الأولى : الحــرية ، المســاواة ، الأخــاء ! (برافو . برافو !) .

حسن ! فى حضرة هذا التاريخ الجليل ، أتذكر هاتين الديانتين كان يمثلهما قسيسان تعانقا وقبل أحدهما الآخر ؛ وأطالب تقبيلا آخر ، تقبيلا ميسورا ليس من شأنه أن يسدل ستار النسيان على أى شىء ، أطلب أن تقبل الجمهورية والاشتراكية كل منهما الأخرى (تصفيق طــويل) .

يقول أعداؤنا : ســوف ترضى الاستراكية بالأمبراطوريه عنــد الحاجة . ولكن هذا غير صحيح أعـداؤنا يقولون : الجمهوريه تجهــل الاشتراكيه . وهذا غير صحيح .

فالصيغة النهائية العليا التى ذكرتها منذ هنيهة تعبر عن الاشتراكيه فى نفس الوقت الذى نعبر فيه عن الجمهوريه .

هناك الى جانب الحرية التى تتضمن الملكية ، المساواة التى تتضمن حق العمل ؛ وهذى هى الصيغة الرائعة لعام ١٨٤٨ ! (تصفيق) .

وهناك الأخاء الذى يشمل التضامن .

وعلى ذلك فالجمهوريه والاشتراكية شىء واحد (صيحات برافو متكررة) .

لست أنا الذى أخاطبكم ، أيها المواطنون . من كانوا يسمونه فيما مضى واحــدا من جمهــورى الأمس ، ولكنى واحــد من اشتراكى أمس الأول . فاشتراكيتى ترجع الى عام ١٨٢٨ . من حقى اذن أن أتحــدث عنهــا .

الاشتراكية فسيحة ، ليست ضيقة . انها تخاطب المشكلة الانسانيه كلها ، وتحيط بالمفهوم الاجتماعى كله . وفى الوقت الذى نطرح فيــه المسألة الهامة المتعلقة بالعمل والأجر ، تنادى بحصانة الحياة البشرية

والغاء القتل بجميع صوره . وامتصاص العقوبة عن طريق التعليم • فيالها من مشكلة تحل بأعجوبة (عظيم !) • والاشتراكية تطالب بالتعليم المجانى الالزامى ، وتنادى بحق المرأة . تلك المخلوقة المساوية للرجل • (برافو !) وتنادى بحق الطفل ، الطفل الذى يتحمل الانسان مسئوليته (عظيم ! ــ تصفيق) ؛ وتنادى أخيرا بسيادة الفرد ، السيادة التى هى عين الحرية • ما كل هذا ؟ انها الاشتراكية • نعم • انها أيضا الجمهورية ! (تصفيق طويل) •

أيها المواطنون ، الاشتراكية تؤكد الحياة ، والجمهورية تؤكـد الحق • الأولى ترفع الفرد الى مرتبة الانسان ، والثانية ترفع الانسان الى مرتبة المواطن • فهل هناك توافق أعمق من هذا ؟

نعم ، نحن جميعا متفقون : ونحن لا نريد قياصرة • وانى لأدافع عن الاشتراكية المفترى عليها !

وفى اليوم الذى يطرح فيه السؤال مخيرا بين العبودية مع الرفاهيه من جهة (خبز والعاب) وبين الحرية مع الفقر من جهة أخرى ، لا يتردد انســان فى الاجــابة ، لا فى صــفوف الجمهوريين ، ولا فى صفوف الاشتراكيين • وانى أعلن وأؤكد أن الجميع سوف يفضلون خبز الحرية الأسود على خبــز العبــودية الأبيض (صيحات استحسان مستمرة « برافو ») •

علينا اذن الا نترك للعداوة فرصه البزوغ والانبات • ولنتكاتف اذن يا اخوانى الاشتراكيين ، ويا اخوانى الجمهوريين ؛ لنتكاتف بقــوة حول العدالة والحقيقة ، ونواجه العدو (نعم ، نعم ، برافو !) •

ما العــدو ؟

العدو هو شيء أكبر من انسان وأقل منه (حركة) • انه مجموعة من الأحداث البشعة التى تنقل على العالم وتبتلعه ؛ وحسن له ألف مخلب رغم أنه لا يملك سوى رأس واحد • العدو هو ذلك التجسيد المشئوم للجريمة العسكرية والملكية القديمة ، هو الذى يكمم أفواهنا وينهبنا ؛ يضع يده على أفواهنا ، وداخل جيوبنا ؛ يملك الملايين والميزانيات ، والقضــاة ، والقساوسة ، والخـــدم والحشم والقصور ، والمخصصات الملكية ، والجيوش كلها ؛ ولكنه لا يملك شعبا احدا • العدو هو ذلــك الذى يسود ويحكم ويحتضر فى هذه اللحظة (تأثر عميق) •

أيها المواطنون ، لنكن أعداء للعدو ، ولنكن أصدقاء لأنفسنا •

لنكن روحا واحدة نقاتل العدو ، وقلبا واحدا لنتحاب · آه ! أيهـــا المواطنون · الأخاء (هتاف) ·

كلمة أخرى وأنتهى ·

لنحول أنظارنا الى المستقبل · لنفكر فى اليوم الأكيد · اليـــوم المحتوم . ولعله يوم قريب ، الذى نتشكل فيه أوروبا على غرار هذا الشعب السويسرى النبيل الذى يحتفى بنا فى هذه الساعة · هـــذا الشعب الصغير له أمجاده ، وله وطنه المسمى « الجمهورية » · وله جبل اسمه « لافيبرج » (أى العذراء) ·

لـــكن لنـــا منله الجمهورية حصـــنا . ولـــكن حريتنا النقيه عبر المدنية ، كقمة جبل « بونجفراو » (١) ، ذروة عـــذراء نفيض بالأنوار (هتاف متواصل) ·

وأحيى ثورة المستقبل ·

(١) ومعناها « العذراء » من قمم جبال الألب الألمانى – المترجم ·

٤

الرد على رسالة فليكس بيات (١)

بروكسل فى ١٢ سبتمبر ١٨٦٩ :

عزيزى فليكس بيات :

قرأت خطابك الودى الرائع ٠

وأنت تعرف أنه ليس من حقى أن أتكلم باسم زملائنا فى المنفى ٠ لذلك اقتصر فى اجابتى على ما يخصنى ٠

وأظن أنه لن يمضى وقت طويل حتى يسقط حاجز الشرف الذى فرضته على نفسى تصديقا لقول الشاعر : واذا لم يبق غير واحد ، فسوف أكون هذا الواحد ٠

وعلى ذلك سأعود ٠

وبعد أن أديت واجب المنفى ، سوف أؤدى الواجب الآخر ٠

وأنا ملك لضميرى وللشعب ٠

فيكتور هوجو

---

(١) انظر الملاحظات ٠

٥

أزمة أكتوبر ١٨٦٩

الامبراطورية تميل الى الزوال • وصرنا نميز بوضوح فى كل أعمالها تلك الدلالات التى تفصح عن الأشياء التى تسير بها الى نهايتها • ففى أكتوبر ١٨٦٩ نقضى لدى بونابرت الدستور الذى صنعه بنفسه • وكان عليه أن يدعو الى الانعقاد فى يوم ٢٩ منه ما كان يسميه بمجالسيه ولكنه لم يفعل ذلك • وكان من سذاجة الشعب أن تذمر لأمر بسيط كهذا • وبدت بوادر تهدد بثورة • وأبدى بعضهم أن لفيكتور هوجو يدا فى هذا السخط والغضب ؛ وظن الناس فى لحظة ما أن الموقف فى أيدى رجلين ، أحدهما الأمبراطور الذى اعتدى على الدستور ، والآخر منفى يهيج الشعب •

ونشر السيد لويس جوردان فى ١٢ أكتوبر فى صحيفة «لوسكييل» مقالا أحدث دويا كبيرا ، بدأ بهذه السطور :

هناك فى هذه اللحظة رجلان يشغلان أكثر المراكز تباعدا فى عالم السياسة ، ويحملان أضخم مسئولية يمكن أن يحملها ضمير انسان : أحدهما جالس على العرش ، وهو نابليون الثالث ، والآخر فيكتور هوجو •

ولما كان فى هذه العبارة دعوة صريحة لفيكتور هوجو ، فقد كتب هذا الى السيد لويس جوردان ما يأتى :

بروكسل فى ١٢ أكتوبر ١٩٨٦ •

عزيزى وصديقى القديم •

جاءنى بعضهم بجريدتك « لوسييكل » وقرأت مقالك الذى أثر فى نفسى ، وشرفنى ، وأدهشنى •

وما دمت تدعونى الى الكلام ، فها أنذا أتكلم •

وأشكرك اذ مهدت لى الطريق لكى أزيل بعض اللبس والغموض ٠ فلست أول كل سئ سوى قارئ عادى من قراء صحيفة « لورابيل » . وأعتقد أنه سبق لى أن قلت هذا بوضوح كاف يعفينى من اعادة قوله ٠ ثم انى لم أنصح ولا أنصح بتنظيم أية مظاهرة شعبية يوم ٢٦ أكتوبر ٠

وقد أيدت صحيفة « لورابيل » كل التأييد فى طلبها الى ممثلى اليسار أن يأتوا عملا تشترك معهم فيه باريس كلها ٠ وما طلبته « لورابيل » هو تنظيم مظاهرة سلمية مجردة من أى سلاح ، على غرار مظاهرات شعب لندن فى مثل هذه الحالة ، ومظاهرة المائة والعشرين ألف « فينى » (١) فى مدينة دبلن منذ ثلاثة أيام ٠

ولكن اليسار رفض هذا العمل ، فكان لزاما على الشعب أن يمتنع عنه ٠

وافتقر الشعب الى ركيزته ٠

اذن فلا مظاهرات ٠

الحق فى جانب الشعب ، والعنف فى جانب السلطة ٠ فعلينا الا نتيح للسلطة أية حجة لاستخدام العنف ضد الحق ٠

لا يجوز لانسان أن ينزل الى الشارع فى يوم ٢٦ أكتوبر ٠

والشئ الذى يصدر بالفعل عن هذا الموقف هو الغاء القسم (٢) ٠ والمخرج الحقيقى للازمة هو تصريح علنى يصدر من ممثلى اليسار يتحللون به من القسم الذى أدوه فى مواجهة الأمة ، وهذا مخرج خلقى وثورى ٠ وانى لأجمع بين هاتين الكلمتين عن قصد ٠

فليمتنع الشعب ، فتشل البنادق ؛ وليتكلم ممثلو الشعب ، فيلغى القسم ٠

تانكم نصيحتاى ٠ ومادمتم قد تفضلتم بطلب رأيى ، فهاكم رأيى بأكمله ٠

وكلمة أخيرة ٠ فى اليوم الذى أنصح فيه بالثورة ، سأكون فيها ٠ ولكنى لا أنصح بها هذه المرة ٠

أشكرك على ندائك البليغ ، وهاأنذا البيه على عجل ، وأصافحك ٠

فيكتور هوجو

---

(١) الفنيون أعضاء جمعية ثورية ايرلاندية ، غايتها تخليص ايرلندا من السيطرة الانجليزية ـ المترجم ٠

(٢) يقصد قسم الولاء للامبراطور ودستور الامبراطورية ـ المترجم ٠

٦

جورج بيبودى (١)
الى رئيس اللجنة الأمريكية بلندن

أوتفيل هاوس فى ٣ ديسمبر ١٨٦٩ :

سـيدى :

وصلنى خطابك اليوم ٢ ديسمبر ، وأشكرك · وقـد انتزعنى خطابك من ذكرى الامبراطورية ، فهاأنذا أنساها وأفكر فى أمريكا · كنت أواجه الليل ، والآن استدير نحو النهار ·

نطلب منى حديثا عن جورج يبودى : وتظننى فى وهمك السمع الكريم شخصا غير شخصى . تظننى صوت فرنسـا · وخيل الي من قبل أننى صوت المنفى فحسب · مهما يكن الأمر يا سيدى فان نداء نبيلا مثل ندائك لابد أن يسمع · ومهما قل شأنى فمن واجبى أن ألبى النـداء · وهاأنذا البيه ·

نعم ، أمريكا على حق حين تفخر بهذا المواطن العالمى العظيم ، بهذا الأخ الكبير للناس ، جورج بيبودى · كان بيبودى رجلا سعيدا ، يتألم لجميع الآلام ؛ غنيا يشعر بما يشعر به الفقراء من برد وجوع وعطش · كان مكانه بالقرب من روتشيلد (٢) ، فاستطاع أن يغير هذا المكان بحيث أصبح قريبا من فانسان دو بول (القديس) · كان له مثل يسوع المسيح جرح فى جانبه ، وكان هذا الجرح هو تعاسـة الآخرين · ولم يكن ما يسيل من هذا الجرح دما ، وانما كان ذهبا ، ذهب يتدفق من قلب انسان ··

---

(١) جورج بيبودى ـ محسن أمريكى ، ولد فى دنفرس (١٧٩٥ ـ ١٨٦٩) ـ المترجم

(٢) عميد أسرة أعضاؤها من أقوى رجال المال فى أوروبا ـ أسرة روتشيلد ـ وهى أسرة يهودية ، تملك مصارف في كل بلاد العالم ـ المترجم ·

على هذه الأرض رجال يحقدون ورجال يحبون · وكان بيبودى من أهل الحب · وعلى محيا هؤلاء ابتسامة ربانية · ما هو القانون الذى يمارسونه ؟ قانون واحد ، قانون الأخاء ، قانون الهى ، قانون انسانى ، ينوع النجدات تبعا لتنوع الشدائد : يعطى المبادىء فى مكان ، والملايين فى مكان آخر ؛ يرسم فى ظلماتنا عبر القرون خطا من النور يمتد من اليسوع الفقير الى بيبودى الغنى ·

فليعد بيبودى الى بلادكم يحمل شكرنا وبركتنا ! ان عالمنا ليحسد عالمكم عليه · سوف يحافظ الوطن على رماده ، ونحتفظ قلوبنا بذكراه · ولنحمله اليكم أمواج البحر الفسيحة المضطربه ! لن يبسط العلم الأمريكى أبدا ما يكفى من النجوم فوق هذا النعش ·

وثمة مقابلة لابد لى من اجرائها · ففى مثل هذا اليوم من عشر سنوات ، فى يوم ٢ ديسمبر ١٨٥٩ ، وجهت ، أنا الوحيد المعتكف ، التماسا الى الأمة الأمريكية المجيدة من أجل المحكوم عليه بالاعدام فى هاربرزفرى · واليوم أوجه لها خطاب تمجيد · فمنذ عام ١٨٥٩ جرت أحداث عظيمة ، اذ ألغى الرق فى أمريكا · وفى مأمولنا أن يلقى فى يوم من الأيام ذلك اللون الآخر من الاستعباد ، وهو الفاقة · وعلينا الى أن يأتى العمل التقدمى الثانى ليكمل الأول ، أن نكرم رسولى العملين · فنجمع فى فكرة واحدة من التوقير والعرفان بالجميل كلا من جون براون ، صديق العبيد ، وجورج بيبودى ، صديق الفقراء ·

وانى لأشد على يدك يا سيدى مصافحا ··

فكتور هوجو

الى السيد الكولونيل بيرتون
رئيس اللجنة الأمريكية بلندن

٧

الى شارل هوجو

أوتفيل هاوس فى ١٨ ديسمبر ١٨٦٩ :

ها أنت ذا يا ولدى قد أصبت لثانى مرة · فى المرة الأولى ، منذ تسع عشرة سنة ، كنت تكافح آلة الاعدام ، وأدانوك · واليوم للمرة الثانية ، عندما دعوت الجنود الى الأخاء ، كنت تناضل الحرب ، فأدانوك أيضا · وانى لأحسدك على هذين المجدين ·

فى عام ١٨٥١ ، تولى الدفاع عنك « كريميو » ، ذلك القلب الكبير ، واللسان الفصيح ، ودافعت أنا عنك معه · وفى عام ١٨٦٠ ، دافع عنك جامبيتا الذى يعيد بقوة ذكرى بودان ، ودافع عنك أيضا جول فافر ، سيد الكلمة الرائع الذى شهدت جرأته فى يوم ٢ ديسمبر ·

كل شيء على ما يرام ، فاطمئن ·

لقد اقترفت مثلى جريمة تفضيل المجتمع الذى ينير ويعلم على المجتمع الذى يقتل ، والشعوب التى تعاون على الشعوب التى تتناصر · أنت تحارب تلك الضروب الكالحة من الطاعة السلبية التى يمارسها الجـلاد والجندى · وأنت ترفض بالنسبة للنظام الاجتماعى هـذين التمثالين الحائطيين ، اللذين يمثل احدهما رجل الجيوتين فى طرف ، وثانيهما الرجل حامل البندقية فى الطرف الآخر انك تحب « جويوم ين » أكثر ممـا تحت « جوزيف دو ميستر » (١) ، وتحب اليسوع أكثر من قيصر ؛ ولا تقبل الفأس الا فى يدى الرائد الذى يشتغل فى الغابة ، ولا السيف الا فى يدى المواطن الذى يناضل الطغيان · انك تشير الى بيكاريا كمثل

---

(١) فيلسوف دينى فرنسى (١٧٥٣ ــ ١٨٢١) ــ له عده مؤلفات أسهرها « البابا » و « أمسيات سان بطرسبرج » ، يدافع فيها بشدة عن مادىء السـلطة فى السياسة والدين ــ المترجم ·

أعلى للمشرع ، وجاريبالدى مثلا أعلى للجندى . فنالك من كل ذلك السجن أربعة أشهر ، وغرامة ألف فرنك .

نضيف الى ذلك اشتباهم فى أنك لا توافق على انتهاك القوانين بالسلاح ؛ وربما كان فى مقدورك أن تثير الضغائن فى النفوس بسبب القبض على الناس ليلا ، وأن تحض على احتقار حلف الزور .

أقول ثانية ان كل شىء على ما يرام .

كنت ابنا للجيش . وعندما ولدت ، قيد أبى اسمى فى سجلات « روبال كورس » (نام كورس (١) ، وليس هذا خطئى) ، ولذلك — وما دمت قد شرعت فى الاعترافات — فلابد أن أقر بأنى أشعر بميل طبيعى قديم الى الجيش . وقد كتبت فى موضع ما : أحب رجال السيف لأنى واحد منهم وذلك بشرط واحد : أن يكون السيف غير مدنس .

السيف الذى أحبه هو سيف واشنجتون ، وسيف جون براون ، وسيف باربيس (٢) .

ويجب أن أقول كلمة لجيش اليوم : ذلك أنه يخطىء اذا ظن أنه شبيه بجيش الماضى الذى اتصل بهذا ذلك الجيش العظيم ، منذ ستين سنة مضت ، والذى كان يسمى فى البداية جيش الجمهورية ، ثم جيش الامبراطورية ، وكان فى حقيقته الواقعة ، وفى أوروبا كلها ، يسمى جيش الثورة . وأنا أعرف كل مايمكن أن يقال ضد ذلك الجيش ، ولكن كان له وجهه العظيم . لقد هدم فى كل مكان الأوهام والسجون ، كسجن الباستيى . كان فى جعبته الانسيكلوبيديا (دائرة المعارف) . ونشر الفلسفة بفضل جنود الحرس وطبيعتهم السهلة التى لاتصنع فيها . كان رجال الجيش ينادون البورجوازى بلفظة « بيكان » (٣) ويطلقون على القسيم « كالوتان » (٤) . كان الجيش يأخذ المعتقدات

---

(١) جزيرة كورسيكا — المترجم .

(٢) باربيس ، ارمان — فرنسى من رجال السياسة (١٨٠٩ — ١٨٧٠) ممثل الشعب فى عام ١٩٤٨ . سجن فى عام ١٨٤٩ ، وأطلق سراحه فى عام ١٨٥٤ ، وغادر البلاد ، ثم مات فى لاهاى — المترجم .

(٣) لفظة فرنسية معناها الأصلى « قماش من حرير ملون » كان يصنع فى البداية فى الصين ، ثم صنع فى أوروبا ، ودرجت اللفظة على السنة الجنود الفرنسيين يقصدون بها البورجوازى — المترجم .

(٤) لفظة فرنسية دارجة تطلق بنوع من التحقير على رجال الدين — المترجم .

الخرافيـة بشـدة وعنف • وسخر شامبيونيه (١) من القديس جانفيبيه (٢) • كان الجيش هو الذى صوت ضد الامبراطورية حين أرادت أن تقيم دعائمهـا • وكان فى صفوف هذا الجيش أوديه ، والفيلادلفيون • وكان يضم ماليه ، وجيدال ، واشبيني فيكتـور دو لاهورى ، وقد قتل الثلاثة رميا بالرصاص فى سهل جرونيل • وكان بول لوى كوربيه فى ذلك الجيش • كان هؤلاء هم الزملاء القدامى لهوش ومارس ، وكليبر وديزيه •

قام ذلك الجيش ، فى طريقه عبر العواصم باخلاء كل السجون التى كانت مكتظة بالضحايا ، فمنهـا غرف التعذيب فى لاندجـراف بألمانيا ، وحجرات الحبس المظلمة فى حصن سانت آنج بروما ، وكهوف محاكم التفتيش فى اسبانيا • ومن ١٧٩٢ الى ١٨٠٠ شق بسيفه بطن هيكل الطغيان الأوروبى القديم •

غير أنه مع الأسف أقام فيما بعد ذلك بعض الملوك ، وترك آخرين منهم على العرش ، ولكنه عزل أيضا بعضهم • وقبض على البابا • كنا وقتئذ بعيدين عن منتانا • من ذا الذى حارب الجيش فى اسـبانيا وايطاليا ؟ القسـاوسة : الراعى والراهب والخورى ، انهم رؤسـاء لعصبة • بالعظمة هذا الجيش ، حتى ولو انتزع نابليون منـه ! كان الجيش فى الواقع فيلسوفا ووطنيا ، يملك شعلة الجمهورية القديمة • كان روح فرنسا ، روحا مسلحة •

لم أك وقتئذ الا طفلا ، ولكن عندى له ذكريات ، اليكم واحدة منها•

كنت فى مدريد فى عهد جوزيف ، عهد كان فيه القسـاوسة يظهرون للفلاحين الاسبان العذراء القديسة وهى ممسكة بيد فرديناند السابع فى مذنب (نجم بذيل) عام ١٨١١ ، والفلاحون يرون هذا الشىء بوضوح • كنت مع أخوى فى مدرسة الاشراف الاكليريكية ، بكليـة سـان ايزيدرو ، وكان معلمونا اثنين من رجـال الجيزويت ، أحدهما رفيق الشمائل والثانى فظ : « دون مانويل » و « دون بازيليو » • وذات يوم قادنا معلمونا الجيزويت ، بنـاء على أمـر صدر اليهم ولا ريب الى لشبونة لنشهد وصول أربع فرق عسكرية فرنسـية قادمة الى مدريد

---

(١) أسقف بينيفان • ولد حوالى ٢٥٠م واستشهد فى عام ٣٠٥م وظل راعى مدينة نابولى حيث احتفظوا بقنينة من دمه المتجمد ، تقول الأسطورة انه يتحول الى حالة السيولة فى يوم عيده وكذا فى المناسبات التى يثبت أنها خطيرة بالنسبة الى المدينة ـ المترجم •

(٢) قائد فرنسى (جان انطوان ايتين) (١٧٦٢ ـ ١٨٠٠) أشهر بالكرم والانسانية والتجرد من الأهواء الشخصية ـ المترجم •

لتدخلها • كانت هذه الفرق قد حاربت فى ايطاليا وألمانيا ، وكانت يومئذ عائدة من البرتغال • ووقف الجمهور على جانبى الطريق الذى يمر به الجنود ينظرون بلهفة الى هؤلاء الرجال الذى نقلوا الروح الفرنسية الى الظلمات الكاثوليكية ، وأذاقوا الكنيسة قوة الضربات النورية ، وفتحوا الأديرة ، وهدموا الأسوار ، ونزعوا الحجب ، وقاموا بتهوية مخازن المخلفات المقدسة ، وأزالوا قدس الأقداس • وبينما كان الجنود يمرون تحت شرفتنا ، مال دون مانويل على أذن بازيليو قائلا : هاك فولتير يمر •

فليعلم الجيش الحالى وليتأمل فى أن هؤلاء الرجال كانوا على استعداد لعصيان أى أمر يصدر اليهم باطلاق الرصاص على النساء أو الأطفال • لم يكن الجيش عائد من أركوك (١) ، ومن فريلاند (٢) لبمض الى ريكامارى (٣) •

أؤكد أنى لا أجهل كل ماعساه يقال ضد هذا الجيش العظيم الذى انقضى ، ولكن أحمد له تلك الثلمة الثورية التى شقها فى أوروبا القديمة الخاضعة لسلطان الدين • وعندما انقشع الدخان ، ترك هذا الجيش يرفلا من النور •

وكانت مصيبته التى اختلطت بمجده أنه كان مفصلا على مقاس الأمبراطورية الأولى • فليحذر جيش اليوم أن يكون مفصلا على مقاس الأمبراطورية الثانية •

والقرن التاسع عشر يحصل على ثروته أينما يجدها ، وثروته هى التقدم • وها يسجل مقدار ما تراجعه جيش من الجيوش كما يسجل مقدار تقدمه • ولا يقبل الجندى الا اذا لمس فى شخصه المواطن • الجندى مقدر له أن يهلك ، أما المواطن فمقدر له أن يعيش •

لقد أدانك القضاء الفرنسى لأنك افتقدت أن هذا (الذى ذكرته) صحيح • ونذكر بهذه المناسبة أن القضاء الفرنسى سيىء الحظ أحيانا ، فيعجز عن العثور على المتهمين بالخيانة العظمى • ويبدو أن العرش يخفى جيدا من يجلس عليه •

---

(١) أركول ، قرية ايطالية ، هزم نابليون عندما النمساويين فى ١٧ نوفمبر ١٧٩٦ — المترجم •

(٢) فريدلاند ، بلدة فى بروسيا الشرقية ، هزم عندما نابليون الروسى فى ١٤ يونيه ١٨٠٧ — المترجم •

(٣) ريكامارى ، قرية فرنسية صغيرة — المترجم •

لنتابر ولنردد اخلاصا لروح هذا القرن العظيم ، ولنبتعد عن المحاباة ، فنجر الأنوار كلها ، ولا نتجادل جدلا عقيما حول النقطة التى نسطع عندها الأنوار على خط الأفق . أما أنا الذى أتكلم ، أنا الوحيد المنعزل كما قلت قبلا ، الوحيد من حيث المكان الذى أقطن فيه ، والمنعزل من حيث المهاوى التى جعلت حول ضـــميرى . أنا غريب تمـاما عن المجادلات الكتابية التى لاتصلنى فى الكثير من الأحيان الا بعد مرور وقت طويل من تاريخها ، ولا أكتب ولا أستوحى شيئا من الأشياء التى تضطرب لها باريس ، ولكنى أحب هذا الاضطراب ، وأفرح به روحى من بعيد . أنا من أولئك الذين يحيون روح النورة اينمـا التقوا بها ، وأصفق لكل من يستبطن هذه الروح ، سواء كان اسـمه جول فافر ، أو الوى بلان ، أو جامبيتـا ، أو باربيس ، أو بانسـيل ، أو فليكس بيات . وانى لأشعر بتلك الروح القوية فى لسان « بيلتان » الفصيح القوى ، وفى سخرية روشفور اللاذعة الطنانة .

هذا يا ولدى ما كنت أريد أن أقوله لك .

الآن يبدأ شتائى التاسع عشر فى المنفى . وأنا لا أشكو من هذا . والشـتاء فى جيرنسيى ليس الا عاصـفة طويلة . هذا المحيط المتوازن كل التوازن رغم العواصف التى تكتنفه من كل جانب ، انما هو جيرة طيبة لنفس ساخطة هادئة . وليس ثمة شىء ينعش النفس مثل هذا المنظر ، منظر الغضب المهيب .

فيكتور هوجو

٨

الأطفال الفقراء

ختم فيكتـــور هوجو هذا العام ، عام ١٨٦٩ حسب عادته بعيد الأطفـــال الفقراء • وكانت هذه هى الســـنة قبل الأخيرة فى المنفى • ونشرت الصحف الانجليزية حديث فيكتور هوجو فى هذه المناسبة ، مناسبة عيد الميلاد فى أوتفيل هاوس • وننقل فيما يلى هذا الحديث •

ســـيداتى

لا أريد أن أبعث السآمة فى نفوس هؤلاء الأطفال الذين ينتظرون لعبهم ، وسأجتهد فى أن أوجز الحديث • لقد سبق لى أن قلت ، ويجب أن أعيد القول بأن هذا المشروع الأخوى العملى الصغير المحدود هاهنـا بأربعين طفلا فقط ، هو عمل ضئيل فى ذاته ، لو لم يكن قد اتخذ فى الخارج أبعادا شاسعة حسبما قدرتها الصحافة الانجليزية والأمريكية ، ولو لم يكن « عشاء » الأطفال الفقراء الذى أنشأته منذ ثمانى سنوات فى دارى فى نطاق صغير للغاية ، قد أصبح بفضـــل القلوب الطيبة الكبيرة التى أخلصت له نظاما حقيقيا ضخما بالنسبة الى العدد الهائل من الأطفال الذين تم غوتهم • ويتزايد هذا العدد باطراد فى انجلترا وأمريكا • ولابد أن تقدر وجبات العشاء المكونة من اللحم والنبيذ التى قدمت للأطفال الفقراء بمئات الألوف • وتعرفن النتائج المدهشة التى تم الوصول اليها بفضل همة السيدة المبجلة ليدى طومسون ، والقس « وود » • وقد نشرت صحيفة « ابلاستريتيد لندن نيوز » صورا تمثل القاعات الفسيحة الجميلة التى تقدم فيها وجبات عشاء الأطفال الفقراء • ولا تعد أوتفيل هاوس شيئا يذكر الى جانب كل هـذا ، اللهم الا أنها نقطة بداية • ولاتحظى الا بقدر متواضع من الشرف ، شرف كونهـــا البادئة للمشروع •

وجرت الدعـاية فى كل البــلاد بفضـــل الصحافة • وفى كل مكان

تتضاعف جهود أفضل من جهودى هذه ، وفى كل مكان يحظى مشروع معونة الأطفـال بالنجاح • ومن واجبى أن أشكر المحافل الماسونيـة على انضمامها الحمـاسى الى المشروع ، وأشكر كذلك ولنفس السبب تلك الجمعية النافعة ، جمعية المعلمين فى سويسرا الفرنسية ، وشعارها : الله ، الانسانية ، الوطن • وتصلنى من جميع الأنحاء رسائل تخطرنى بالمحاولات التى جرت فى هذا السبيل • وقد أثر فى نفسى بصفة خاصة خطابان أحدهما من هايتى والثانى من كوبا •

واسمحن لى ، ما دامت الفرصة قد سنحت ، أن أبعث بكلمة ودية الى هذين البلدين النبيلين اللذين أطلقا صيحة الحرية • ولسوف تتخلص كوبا من اسبانيا ، كما تخلص هايتى من فرنسا • واذ حررت هايتى السود منذ عام ١٧٩٢ ، فانها نصرت ذلك المبدأ الذى يقرر أنه ليس للانسان حق فى أن يملك انسانا آخر • وسوف تنصر كوبا ذلك المبدأ الآخر الذى لا يقل عظمة عن الأول ، مبدأ أنه ليس لشعب ما الحق فى أن يملك شعبا آخر •

وأعود الى أطفالنـا • مساعدة الأطفال هو أيضـا عمل من أعمال التحرير • ففى العناية بالصحة والتربية شىء من التحرير • فلنعمل على تقوية هذا الجسد الصغير الضعيف المتألم ، ولننم هذا العقل الرقيق الناشىء • ماذا نعمل اذن ؟ نخلص الجسم من المرض ، ونحرر الروح من الجهل • لقد استقبلت فكرة عشاء الأطفال الفقراء بالحفاوة فى كل مكان • وتمت الموافقة فورا على هذا النظام الأخوى • لماذا ؟ لأنه يتوافق بالنسبة الى المسيحيين مع روح الانجيل ، وبالنسبة الى الديموقراطيين مع روح الثورة •

ونحن فى انتظار ما هو أفضل من هذا • ذلك لأن اغاثة الفقراء بتقديم يد المعونة اليهم ليس الا مسكنـا وقتيـا • أما الغوث الحقيقى للبؤساء ، فانه يتم بالغاء البؤس وسوف نبلغ هذا الغرض •

لنعاون التقدم ، بمساعدة الطفولة • ولنساعد بجميع الوسائل ، بالغذاء الجيد ، والتعليم الجيد • ويجب أن تكون مساعدة الطفولة ، فى هذا الزمن المضطرب ، شاغلا من مشاغلنا الرئيسية • يجب أن يكون الطفل موضع اهتمامنا • أتعرفن لماذا ؟ أتعرفن اسم الطفل الحقيقى ؟ الطفل اسمه المستقبل •

لنمـارس الأبوة المقدسـة ، أبوة الحاضر بالنسبة للمستقبل • وما نفعله من أجل الطفولة سوف يضاعفه المستقبل مائة مرة • الطفل ،

هذه النفس الصغيرة ، هو الحقل الذى سينتج محصول المستقبل • انه يشتمل على المجتمع الجديد • فلننثر البذور فى هذه النفس ، ولنضع فيها العدالة ولبهجة •

ونحن اذ نربى الطفل ، ننشىء المستقبل • التنشئة ، كلمة عميقة ! ونحن اذ نصلح هذه الروح الصغيرة انما نباشر تربية المجهول • واذا كان الطفل صحيح الجسم ، فان المستقبل سوف يكون سليما معافى ، واذا كان الطفل أمينا ، فان المستقبل سيكون طيبا • فلنعلم هذه الطفولة الموجودة تحت انظارنا ، ونضىء لها الطريق حتى يشرق القرن العشرون بأنواره • الشعلة فى الطفل هى الشمس فى المستقبل •

١٨٧٠

١

كوبا

بدأت أوروبا التى كانت راقدة على أحداث رهيبة تفقد رؤيا الأشياء البعيدة . كان الناس على هذا الجانب من المحيط الأطلسى يعرفون بالكاد أن الثورة فى أوج اشتعالها فى كوبا . وكان الحكام الاسبان يقمعون هذه الثورة بقسوة ووحشية . وأبيدت مناطق بأكملها فى عمليات حربية . وهرب النساء ، ولجأ الكثير منهن الى نيويورك . وفى بداية عام ١٨٧٠ أرسل نساء كوبا من نيويورك الى فيكتور هوجو نداء يحمل أكثر من ثلاثمائة توقيع ، يلتمسن منه أن يندخل فى هذا النضال ، فأجاب .

الى نساء كوبا

أيا نساء كوبا ، أسمع شكواكن ، أيتها القانطات ، تخاطبننى أيتها اللاجئات ، الشهيدات ، الأرامل ، اليتيمات ، وتطلبن المعونة من انسان مغلوب على أمره . أيتها المنفيات ، انكن تقصدن رجلا منفيا . أولئك اللواتى لم يعد لهن دار ، يطلبن العون من ذلك الذى لم يعد له وطن . حقا ، لقد ضعضعتنا الرزايا ، ولم يبق لكن غير صوتكن ، ولم يبق لى الا صوتى . صوتكن يئن وصوتى يحذر . هاتان النسمتان النشيج عندكن ، والنصيحة عندى ، هى كل ما تبقى لنا . من نكون يا ترى ؟ الضعف . كلا ، اننا القوة ، فأنتن الحق ، وأنا الضمير .

الضمير هو العمود الفقرى للروح . وطالما كان الضمير مستقيما ظلت الروح قائمة . لست أملك سوى هذه القوة ، ولكنها تكفى . لقد أحسنتن صنعا بمخاطبتى .

سأتكلم من أجل كوبا ، كما تكلمت من أجل كريت .

ليس من حق أية أمة أن تنشب مخالبها فى جسد أمة أخرى . ليس من حق أسبانيا أن تفعل ذلك فى كوبا ، ولا من حق انجلترا أن تفعل ذلك فى جبل طارق . لا يملك شعب شعبا آخر ، كما لا يملك

انسان انسانا آخر ٠ الجريمة ضد أمة أبشع من الجريمة ضد الفرد ، هذا كل ما هنالك ٠ ان توسيع نطاق العبودية انما يزيد من دناءتها ٠ شعب يضطهد شعبا آخر ، جنس ينتزع الحياة من جنس آخر ، ذلك هو الأخطبوط يمتص دماء فريسته بوحشية ٠ وهذا التراكب المرعب هو حدث من الأحداث الرهيبة فى القرن التاسع عشر ٠ نشهد فى هذه اللحظة الروسيا فوق بولندة ، وانجلترا فوق أيرلندا ، والنمسا فوق المجر ، وتركيا فوق الهرسك (١) وفوق كريت ، واسبانيا فوق كوبا ٠ فى كل مكان ، شرايين مفتوحة ومصاصو دماء فوق الجثث ٠

جثث ــ كلا ٠ انى أمحو هذه الكلمة ٠ قلت من قبل ان الأمم تنزف دماءها ولكنها لا تموت ٠ كوبا تملك حياتها كلها كما تملك بولندا روحها كلها ٠

اسبانيا أمة نبيلة تستحق الاعجاب ، وأنا أحبها ٠ ولكنى لا أستطيع أن أحبها أكثر مما أحب فرنسا ٠ نعم ، لو كانت فرنسا تملك هايتى الى الآن ، لقلت لفرنسا ، تخلى عن كوبا مثلما أقول لاسبانيا ، تخلى عن كوبا ٠

ويمتثل هذا القول ، أثبت لفرنسا تبجيلى لها ٠ فالاحترام يتكون من نصائح صادقة ٠ والحب هو قول الحقيقة ٠

أيا نساء كوبا اللواتى تفضين الى فى عبارات فصيحة بأشجانكن وعذابكن ، انى أركع على ركبتى أمامكن ، وأقبل أقدامكن المتألمة ٠ لا يساوركن الشك أبدا فى أن وطنكن المثابر سوف يثاب على ما يبذله من جهد وألم ، فلن تضيع هدرا هذه الدماء التى سالت بغزارة ٠ وسوف تنهض كوبا العظيمة ذات يوم حرة ذات سيادة بين أخواتها الجليلات . جمهوريات أمريكا أما من ناحيتى ، فانى أبعث اليكن بعقيدتى مادمتن تطلبن رأيى ٠ اننى أرفع رأسى وأنظر ، فى هذه الساعة التى تغطى فيها الجرائم أوروبا ، فى هذه الظلمة التى يلمح الانسان خلالها فوق الذرى أشباحا هى آثام تلبس تيجانا ، وتحت الأكداس البشعة من الأحداث التى تغل العزائم ٠ كانت عبادتى على الدوام أن أتأمل فى الأمل ٠ ويكفى المهزوم أن يتملك المستقبل بوجدانه وبصيرته ٠ وانها لبهجة أن يبصر الانسان اليوم ما سوف يراه العالم فى الغد ٠ وفى لحظة معينة ، سوف تنبثق العدالة والحقيقة والحرية ، وتتجلى على الأفق فى بهائها وروعتها ٠ وأشكر الله أن منحنى الثقة فى ذلك منذ الآن ٠ وما بقى للمنفى من هناءة فى ثنايا الظلمات هو أن يرى شروق الفجر فى أعماق روحه ٠

أوتفيل هاوس ٠٠

فيكتور هوجو

(١) من جمهوريات اتحاد يوجوسلافيا ــ المترجم ٠

٢

من أجل كوبا

فى هذا الوقت ، طلب زعماء الجزيرة المناضلة الى فيكتور هوجو أن يعلن عن حقهم . ففعل .

طلب من أولئك الذين يقال عنهم « ثوار كوبا » تصريحا . وها هو التصريح .

فى هذا النزاع القائم بين اسبانيا وكوبا ، اسبانيا هى الثائرة ، كما كان الثائر فى صراع ديسمبر ١٨٥١ هو بونابرت .

انى لا أهتم بموضع القوة ، وانما بموضع العدالة .

يقول بعضهم : ولكن الوطن الأم ! أليس للوطن الأم حقـــوق ؟ لنتفاهم فى هذا .

ان له حقـــا ، هو حـــق الوطن الأم ، ولكن لا حـــق له فى أن يكون جلادا .

ولكن أليس فى المدنية شعوب كبرى وشعوب أصغر منها ؟ أليس للكبار وصاية على الصغار ؟ لنتفاهم فى هذا أيضا . فى المدنية ، الأخ الأكبر لا يملك حقا على أخيه الأصغر ، وانما عليه واجب ازاءه . وهذا الواجب فى الواقع يعطى حقوقا ، منهـا الحق فى الاســتعمار . وللأمم الموحشة حق فى المدنية ، كحق الأطفال فى التعليم ، والأمم المتمدنة ملتزمة لها بهذا الحق . وأداؤها هذا الدين واجب ، وهو أيضا حق . من هذا ، فى الأزمنة الغابرة ، حق الهند على مصر ، وحق مصر على اليونان ، وحق اليونان على ايطاليا ، وحق ايطاليا على الغال . ومن ذلك أيضا ، فى الوقت الحاضر ، حق انجلترا على آسيا ، وحق فرنسا على أفريقيا ، هذا

بشرط ألا يتولى النمــور تمدين الذئاب ، وبشرط ألا تملك انجلترا كلايد (١) ، وألا يكون لفرنسا بيليسيه (٢) ·

اكتشاف جزيرة لا يخول لمكتشفها الحق فى أن يضطهد أهلها ·

تلك هى قصة كوبا · لا يجوز البدء بكريستوف كولومبوس للوصول الى شاكون ·

لا اعتراض فى أن تتطلب المدنية الاستعمار ، وأن يتطلب الاستعمار الوصــاية ، ولكن الاستعمار ليس هو الاستغلال ، وليست الوصــاية هى الاستعباد ·

الوصاية تنتهى حتما ببلوغ القاصر سن الرشد ، سواء أكان القاصر هذا طفلا أم شعبا · وكل وصاية تمتد الى ما بعد فترة القصور انما هى اغتصاب ، والاغتصاب الذى يرتضيه الناس بحكم العادة أو التسامح هو عسف · والاغتصاب الذى يباشر بالقوة جريمة · وانى لأفضح الجريمة أينما أراها ·

لقد بلغت كوبا سن الرشد ، فأصبحت بذلك ملكا لنفسها ·

كوبا فى هذه اللحظة تعانى عذابا رهيبا لا يمكن التعبير عنه · انها تطارد وتضرب فى غاباتها ووديانها وجبالها ، وتقاس كل الأهوال التى يقاسيها العبد الهارب ·

كوبا تناضل مذعورة ، مروعة ، ومسفوكة الدماء ضد ضراوة الظلم بكل أشكاله · ترى هل تنتصر ؟ نعم · وحتى تنتصر ، فانها تقاسى وتنزف الدماء · وكأنه من المحتم أن تمتزج السخرية بألوان التعذيب ، اذ يبدو أننا نلمح لونا من السخرية فى هذا القدر الوحشى الذى يعطى كوبا دائما فى مجموعة حكامها المختلفين نفس الجلاد ، دون اهتمام بتغيير اسمه ، فيرسل لها جونشا بعد شاكون ، كالمهرج الذى يقلب ثوبه ·

الدم يسيل من بورتو برانتشيبى الى سنتياجو ، الدماء تجرى فى جبال « النحاس » وجبال كاركاكوناس ، وجبال جوبافوس ، وتحيل لون الأنهار أحمر ، نهر كانتو ، ونهر آى لاشيكا ·

كوبا تطلب النجدة ·

---

(١) كلايد ، أحد حكام الهند الانجليز ، وكان قاسيا · حقق لانجلترا اســتعمار الهند ـ المترجم ·

(٢) جان جاك بيليسيه ، دوق دومالاكوف ، مارشال فرنسا (١٧٩٤ ـ ١٨٦٤) ، استولى على سيباستيبول ، وعين حاكما عاما على الجزائر ـ المترجم ·

انى أشكو الى اسبانيا نفسها هذا العذاب الذى تقاسيه كوبا ، لأن اسبانيا كريمة ذات مروءة · ليس الشعب الاسبانى هو المذنب ، انما حكومته هى المذنبة ـ شعب اسبانيا كريم الشمائل انزعوا من تاريخه القسيس والملك ، تجدوا أنه لم يفعل الا كل خير · استعمر ، ولكنه كنهر النيل أخصب وأثمر ·

وفى اليوم الذى يصير فيه سـيدا ، يسترد جبل طارق ويتخلى عن كوبا ·

السيد يزيد بقدر ما يفقد من عبيد · فتحرير كوبا ينمى اسبانيا ، لأن الارتفاع فى المجد ، زيادة فى القدر · وسوف يكون للشعب الاسبانى ذلك الطمـوح ، الطمـوح فى أن يكون حـرا فى وطنه ، وعظيما فى خارج وطنه ·

أوتفيل هاوس

فيكتور هوجو

٣

لوكريس بورجيا(١)
من جورج صاند الى فيكتور هوجو

صديقى الكبير ، خرجت بعد مشاهدة مسرحية« لوكريس بورجيا » وقلبى ينبض بهجة وتأثرا • ولم يزل فى خاطرى الى الآن كل تلك المشاهد المؤثرة ، والكلمات اللطيفة أو المخيفة ، وابتسامة الفونس ديست المريرة ، وحكم جينارو المرعب وصيحة الأمومة التى أطلقتها لوكريس ، ولم يزل يرن فى أذنى تلك الهتافات التى أطلقها جمهور المشاهدين وهو يصيح « يحيا فيكتور هوجو ! » ويناديك ، واأسفاه ! كأنك ستأتى اليهم ، وكأنك تستطيع أن تسمعهم •

عندما يتحدث الانسان عن عمل خالد مثل لوكريس بورجيـــا ، لا يجوز له أن يقول : حظيت المسرحية بنجاح هائل • ولكن أقول : لقد نلت نصرا مبينا • ويسألنى أصدقاؤك أصحاب جريدة « لورابيل » ، وهم أيضا أصدقائى عما اذا كنت راغبة فى أن أكون أول من يزف اليك بشرى هذا النصر • سأفعل ذلك بالتأكيد ! فليحمل هذا الخطاب ، أيها العزيز الغائب ، صدى هذه السهرة البديعة •

ذكرتنى هذه السهرة بسهرة أخرى لا تقل عنها جمالا • أنت لا تعرف أننى حضرت أول عرض لمسرحية لوكريس بورجيـــا ، وكان ذلك على ما يقوله لى البعض ، من سبع وثلاثين ســـنة كاملة بالضبط ، يوما بيـــوم •

وأذكر أنى كنت فى الشرفة ، وشاءت الصدفة أن يكون مكانى الى جانب « بوكاج » الذى رأيته يومئذ لأول مرة • كنا أنا وهو غريبين ،

---

(١) فتاة ايطالية ، تنتمى الى أسرة ايطالية مشهورة من أصل أسبانى (١٤٨٠ ـ ١٥١٩) اشتهرت بجمالها ، وشجعت الآداب والعلوم والفنون ، اتهمت باقتراف جرائم عديدة ـ أطلق اسمها على مسرحية تاريخية لفيكتور هوجو ـ المترجم •

يجهل أحدنا الآخر • ولكن الحماسة جعلتنا صديقين ، فكنا نهتف معـــا ونقول : ما أجمل هذا ! ولم يسعنا في فترات الاستراحة الا أن نتبادل الحديث ، ونبدى افتتاننا ، ونتذاكر معا بعض الفقرات والمشاهد •

كان في النفوس وقتئذ ايمان وحماسة للأدب ، اختلجا للفور في نفسك ، وخلقا حزبا من الألفة والاخاء في الفن • وفي نهاية المسرحية ، حين نزل الستار عن الصيحة المفجعة : « أنا أمك ! » تصافحت أيدينا ، وبقيت متماسكة حتى وفاة ذلك الفنان العظيم والصديق العزيز •

وشهدت اليوم لثاني مرة « لوكريس بورجيا » كما شهدتها من قبل ، ولم تهرم المسرحية يوما واحدا ، ولم يصبها غضن أو طى ، وبقى هذا الشكل الصافي المتين كرخام باروس(١) نقيا سليما كاملا •

ثم انك لست في هذه المسرحية ، وتبرت بسحرك الذى لا يقارن به سحر عن أقوى المشاعر التى تزلزل كياننا • لقد جسدت « الأم » وسنفتها ، وانه لشيء خالد خلود القلب •

ولعل لوكريس بورجيا هي اقوى مسرحياتك وأرفعها • واذا كانت « روى بلاس » هي أكثر المسرحيات بهجة ولمعه ، فان فكرة • لوكريس بورجيا هي اكثر الافكار اثارة للعواطف ، وتأثيرا في النفس ، وتغلغلا في أغوار المشاعر الانسانية •

والشيء الذى نال اعجابى بنوع خاص ، هو البساطة الجريئة التى أقامت هذه المسرحية على الدعائم القوية لثلاثة مواقف رئيسية • وكان المسرح القديم يقوم على مثل هذه الرحابة القوية الهادئة •

وكان في الفصول الثلاثة والمناظر الثلاثة ما يكفى لبسط هذا الفعل المدهش وربطه ثم حل عقدته :

الأم وقد أهينت أمام ابنها ،

والابن وقد سممته أمه ،

والأم وقد عاقبها ابنها وقتلها •

وكان لابد ان تسيل هذه الثلاثية الرائعة من ينبوع واحد ، وكأنها مجموعة برونزية واحـدة • ألم تكن كذلك ؟ بل أعتقد أنهـا كانت كذلك •

---

(١) من جزر اليونان ، اشتهرت في الزمان الماضي برخامها الأبيض الجميل — المترجم •

وأذكر الظروف والأحوال التي ألفت فيها مسرحية « لوكريس بورجيا » بصورة ارتجالية بنوع ما ، في مستهل عام ١٨٣٣ ·

فقد قدم « لوتياتر فرانسيه » (مسرح الكوميدى فرانسيز) فى نهاية عام ١٨٣٢ العرض الأول والوحيد لمسرحية « الملك يلهو » ، وكان هذا العرض معركة ضارية ، واستمر وانتهى بين عاصفة من صفير الاستنكار وأخرى من هتافات الاستحسان · فلمن تكون الغلبة في العروض التالية ، للصفافير أم للهتافات ؟ انه لسؤال كبير ، وتجربة هامة بالنسبة الى المؤلف ···

ولكن لم تكن ثمة عروض تالية ·

ففى غداة العرض الأول ، منع عرض « الملك يلهو » بالأمر ، ولم يزل ينتظر على ما أعتقد عرضه الثانى · ومع ذلك فأوبرا « ريجوليتو » (١) تمثل على خشبة المسرح كل يوم ·

وسببت هذه المصادر العنيفة ألما شديدا للشاعر · ولابد يا صديقى أنك عانيت من جرائها لحظة قاسية من الألم والغضب ·

ولكن جاء فى اللحظة نفسها هاريل ، مدير مسرح « بورت سان مارتان » ، يطلب منك مسرحية لمسرحه وللآنسة جورج · وكان فى حاجه عاجلة الى هذه المسرحية · ولم يكن لمسرحية « لوكريس بورجيا » وجود الا فى قريحتك ، بل ان بناءها لم يكن قد بدأ بعد · ولكن لم يكن لذلك أهمية ، اذ كنت تريد أن تنال ثأرك فى الحال ، فقلت لنفسك ما قلته للجمهور من قبل فى مقدمة « لوكريس بورجيا » نفسها : « ان اخراج مسرحية جديدة بعد المسرحية الملغاة بستة أسابيع لهو أسلوب لمصارحة الحكومة برأيك فيما فعلته هى ، ويثبت لها أن جهدها يذهب أدراج الرياح ، وأن الفن والحرية قديران على الظهور ثانية فى ليلة واحدة من تحت القدم الحزقاء التى داست عليهما » ·

وشرعت فى العمل للتو · وفى غضون أسابيع ستة كانت مسرحيتك قد كتبت ، وحفظت ، وجرت عليها التدريبات ، ومثلت · وفى يوم ٢ فبراير ١٨٣٣ ، بعد انقضاء شهرين على معركة « الملك يلهو » كان أول عرض لمسرحية « لوكريس بورجيا » أعظم نصر فى حياتك المسرحية ·

---

(١) ريجولينو ــ أوبرا من أربعة فصول ــ من نص ايطالى لبيافيه (ترجمة فرنسية لادوار دوبريه) ــ موسيقى فيردى ــ وهى اخراج موسيقى أوبرالى لمسرحية « الملك يلهو » لفيكتور هوجو ــ المترجم ·

ومن الطبيعى أن يكون هذا العمل الذى تم فى كرة واحدة متينا ، خالدا ، وأن يصفق له الجمهور بالأمس ، كما صفق له منذ أربعين سنة وكما سيصفق له بعد أربعين سنة ، وكما سيصفق له على الدوام .

كان تأثيره فى النفوس قويا جدا منذ الفصل الاول ، وازداد قوة فصلا بعد فصل ، حتى كان الانفجار الكبير فى الفصل الأخير .

والأمر العجيب ، أننا نعرف هذا الفصل الاخير ، معرفة بوجداننا ، ونترقب دخول الرهبان ، وظهور لوكريس شورجيا ، وطعنة سكين ابنها جينارو .

ومع ذلك فقد انفعلنا ، وارتعبنا ، وتلاحقت أنفاسنا ، كما لو كنا نجهل كل ما سوف يحدث . وأرسلت أول نغمة فى صلاة الموتى قطعة من أغنية الخمر ، أرسلت رعدة فى الأوصال . وكنـــا نأمل أن يتعـــرف ابن لوكريس بورجيا على أمه ويصفح عنها ، ولا يقتلها . ولكن لا ، انك لم ترد ذلك أيها الاستاذ العنيد ، فلابد عندك من التكفير عن الجريمـــة ، ولابد من ارتكاب جريمة القتل العمياء ، قتل الابن أمه للاقتصاص من كل هذه الآثام التى قد تكون هى أيضا عمياء .

وأخرجت المسرحية وقبلت بصورة مدهشة على هذا المسرح ووجدت عليه مكانها المناسب .

وكانت مدام لوران زائعة حقا فى دور لوكريس . ولا أنكر الصفات العظيمة التى تتحلى بها الآنسة جورج ، من جمال وقوة وأصالة ، ولكنى أقر بأن موهبتها لم تؤثر فى نفسى الا عندما تأثرت من الموقف نفســـه . ويبدو لى أن مارى لوران قد دفعتنى هى بنفسها الى البكاء ! وكان لها فى الدور الأول مثلما كان للآنسة جورج ، صيحتها الرهيبة ، صيحة اللبؤة المجروحة : « كفى ! كفى ! » ، ولكنها كانت فى الفصل الأخير ، عندما زحفت عند أقدام جينارو ، ذليلة رقيقة مبتهلة خائفة خوفا شديدا ، لا لأنها سوف تقتل ، وانما لأنها ستقتل بيد ابنها ، لدرجة أن القلوب كلهـــا كانت تذوب كقلبها ومع قلبها . ولم يجرؤ أحد على التصفيق ولا التحرك وكتم الناس أنفاسهم . ثم نهض جمهور النظارة كلهم يستدعونها ويهتفون لها ولك فى وقت واحد .

ولم تبرز شخصـــية « ألونفس دينست » بمثل الصـــدق والروعة

اللذين تجليا فى ممثيل ميلانج (١) ، فما اشبهه ببونجتون (٢) أو بتيسيان (٣) • وليس ثمة انسان اشبه بأمير ، بل بأمير ايطالى من امراء القرن السادس عشر من ميلانج ، فهو شرس ، وهو رقيق الحاشية • وهو كفنان ، يعد انتقامه ، ويشكله ، ويتذوقه ، بقدر واحد من القسوة والرشاقة • وانا لنعجب به فى هلع وهو يستخدم مخالبه القطيفية كأنه نمر ملكى جميل •

أما تاياد فان له وجه جينارو المفجع القاتل ، واستخدم عبارات رائعة تحمل طابع الشراسة المتعالية النافرة فى المشهد الذى يكون فيه جينارو قاضيا وجلادا •

وأما « بريزيل » فكان رائعا فى ثياب نبيل اسبانى مزيف «هيدالجو» وهو يمثل شخصية « جوبيتا » الشيطانية ، بمشيتها وحركتها العريضة •

وأما الشبان الخمسة الأشراف ، الذين أدوا أدوارهم أداء مشرفا فنانون ذوو كفاءة حقة ، على رأسهم « شارل لوميتر » ، فيبدو عليهم كأنهم قد خرجوا من احدى لوحات جيوجيونى أو بونيفاسيو •

وأما الأخراج فهو على قدر كبير من الدقة والاحكام ، والثراء الذى يعيد احياء ايطاليا العظيمة الرائعة كلها فى عهد النهضة ، فى صورة تخلب الأنظار • لقد عاملك السيد رافائيل فبلكس معاملة جديرة بالملوك ولكنه عاملك أكثر من ذلك بأسلوب فنى •

ولكن ـ أرجو ألا يغضب منى المخرج لقولى هذا ـ هناك من احتفى بك أكثر من حفاوته بك ، ذلك هو الجمهور ، أو بالأحرى الشعب •

فكم من هتافات لاسمك ولعملك !

كنت سعيدة للغاية وفخورة من أجلك لهذه الهتافات الصادقة المشروعة التى تستحقها مائة مرة أيها الصديق الكبير • وليس فى عزمى أن أمدح هاهنا قدرتك وعبقريتك ، ولكن بوسعى أن أزجى لك الشكر لما أعهده فيك من صفات العامل القدير الذى لا يعرف كلالا فى عمله •

وحين يفكر الانسان فيما صنعته من قبل فى عام ١٨٣٣ ! لقد

---

(١) اتيين ماران ميلانج ، ممثل وحفار فرنسى (١٨٠٨ ـ ١٨٧٥) ـ المترجم •

(٢) ريتشارد باركس بونجتون ، مصور انجليزى ، اشتهر بنضارة الوانه ، وبضرب من الجمال الصافى الارستقراطى (١٨٠١ ـ ١٨٢٨) ـ المترجم •

(٣) تيسيان ـ مصور ايطالى ذائع الصيت (١٤٧٧ ـ ١٥٧٦) ـ زعيم المدرسة الفينيسية فى التصوير ـ المترجم •

جددت الشعر الغنائى ، وأعطيت فى مقدمة « كرومويل » كلمة السر للثورة المسرحية ، وكنت أول من كشف الحجاب عن الشرق فى « الشرقيات » ، وعن العصر الوسيط فى « نوتردام دوبارى » .

وكم من أعمال وروائع ظهرت منذ ذلك الحين ، كم من أفكار تحركت وأشكال اخترعت ! ومحاولات ومغامرات جريئة واكتشافات !

وأنت مع ذلك لا تستريح ! كنت تعلم بالأمس فى جيرنسى أنهم يعيدون عرض لوكريس بورجيا فى باريس ، وتحدثت فى هدوء وسكينة عن الفرص المتاحة لهذا العرض . ثم كنت نائما فى الساعة العاشرة ، فى اللحظة التى كانت فيها قاعة المسرح تدعو ميلانج ومدام لوران للظهور بعد الفصل الثالث ، حتى تستطيع أن تصحو حسب عادتك فى الصباح المبكر . وقيل لى أنه فى اللحظة التى أختم فيها خطابى هذا ، تشعل أنت مصباحك ، وتشرع فى هدوء فى عملك الذى بدأته من قبل ؟

فيكتور هوجو

من فيكتور هوجو الى جورج صاند

أوتفيل هاوس فى ٨ فبراير ١٨٧٠

كنت بفضلك حاضرا فى هذا العرض ، ورأيت كل شىء خلال أسلوبك الرائع : المسرح ، والمسرحية ، وبريق المشاهد ، والصالة المشرقة والممثلين الأقوياء المؤثرين الذين يستثيرون انفعالات الجماهير ، وتلك الرؤوس المنتبهة ، والشعب المتأثر ، وأنت ، المجد ، تصفقين .

منذ عشرين سنة ، وأنا محجور على . لقد صادر أملاكى حفظة الاملاك ، وصادرت حكومة الانقلاب مجموعة أعمالى ، وعزلت مسرحياتى الموبوءة فى الحجر الصحى ، وارتفع العلم الأسود يرفرف فوقى . ومنذ ثلاث سنوات ، صرحوا بخروج « هيرنانى » من « الليمان » ، ولكنهم سرعان ما أرجعوها اليه فى أقرب وقت مستطاع ، لأن الجمهور لم يبد قدرا كافيا من الكراهية لذلك اللص قاطع الطريق . واليوم يوم « لوكريس بورجيا » ، فها هى ذى قد تحررت ، ولكن انكشف سترها واشتبه الناس فى عدواها ، ترى هل يتركونها خارج سجنها مدة طويلة ؟

لقد منحتيها « تصريحا حريزا بالمرور » ، أنت سيدة هذا القرن العظيمة النفس النبيلة ، الخلف الحى ، صاحبة الحق فى الكلام الصريح القوى .

وجاءنى خطابك على الرحب والسعة · ان وحدتى عرضة للكثير من الاهانة والسب ، ويقول الناس عنى كل ما يريدون قوله · ولكنى رجل صموت هادىء · ان فى التغاضى عن القدح والوشاية قوة · وأنا أملك هذه القوة · ثم انه من الطبيعى ان تدافع الامبراطورية عن نفسها بكل الوسائل · الأمبراطورية هدفى وأنا هدفها · ومن ثم تنطلق ضدى الكثير من القذائف التى تسقط ، لحظها ، فى الماء ، لأن عليها أن تجتاز بحرا · ومهما كان أمر هذه القذائف ، فأنها انما تثبت جمودى وانعدام حساسيتى فالاهانة تزيدنى صلابة فى ايمانى وارادتى ، وتجعلنى أبتسم للثلب · ولكن أمام العطف والرضا والصداقة والمودة القوية الرقيقة التى يبديها الشعب ، أشعر ، انا الشيخ البسيط المفكر ، اشعر بقلبى يذوب · أحقا اذن أنى محبوب بعض الحب !

وفى الوقت الذى تخرج فيه « لوكريس بورجيا » من السجن ، يدخله أبنى شارل · وهكذا هى الحياة · فلنتقبلها ·

أما أنت ، فانك خليقة بأن تجعلى من حياتك التى عانت هى أيضـــا الكثير من الآلام ، نورا ساطعا · وسوف يتوج رأسك فى المستقبل بالأكليل المهيب اللائق بالمرأة التى دافعت عن المرأة · ان عملك فى مجموعه معركة وماهو معركة فى الحاضر ، سيغدو نصرا فى المستقبل · ومايكون مع التقدم يكون مع اليقين · وما يرقق المشاعر عند قراءة ما تكتبين ، انما هـــو سمو قلبك · انك تبذلين هذا القلب كله فى الفكر والفلسفة والحكمة والتعقل والحماسة فيالك من كاتبة قديرة ! وسوف أفرح عما قريب لأنك ستفوزين بالنجاح ، فأنا أعلم أنهم يجرون التدريبات على مسرحية لك ·

وانى لأشعر بالسعادة فى كل مرة أتبادل فيها معك بعض الحديث · ان أحلامى فى حاجة الى تلك الومضات من النور الذى ترسلينه الى · واشكرك لأنك تتجهين ناحيتى من وقت لآخر ، من أعلى القمة التى تقفين فوقها ، أيتها النفس العظيمة ·

يا صديقتى المجيدة ، اننى اركع عند قدميك ·

فيكتور هوجو

٤

واشنجتون

طالعتنا صحيفة « رسالة أوروبا » عدد ١٢ مارس ١٨٧٠ بما يأتى :

« اجتمع بعض مواطنى الولايات المتحدة فى فندق لانجهام هوتيل للاحتفال بعيد ميلاد واشنجتون • وكان من بين الأنخاب التى قدمت النخب الآتى : الى فيكتور هوجو صديق أمريكا ، وحامل لواء التجديد فى العالم القديم ! » •

« وكلف المواطنون الكولونيل بيرتون الذى ترأس الوليمة أن يبعث الى المنفى فى جيرنسى بنخب المواطنين الأمريكيين • ومن ثم بادر فيكتور هوجو بالاجابة :

أوتفيل هاوس فى ٢٧ فبراير ١٨٧٠

سيدى

تأثرت تأثرا عميقا من النخب النبيل الذى بعثت به الى • أشكرك وأشكر أصدقاءك المبجلين • نعم ! يجب أن يكون لنا « ولايات متحدة أوروبية » الى جانب الولايات المتحدة الأمريكية ، وجدير العالمين أن يشكلا جمهورية واحدة • وسوف يأتى هذا اليوم ، وعندئذ يقوم سلام الشعوب على هذا الأساس المتين الأوحد ، وهو حرية الرجال •

اننى رجل لا أنشد الا الحق ، ولا شىء أكثر من الحق • وثقتك تشرفنى وتؤثر فى نفسى • وانى لأشد على يدك الصديقة •

فيكتور هوجو

٥

هينيت دوكيسلر

استهل عام ١٨٧٠ بالنسبة الى فيكتور هوجو وفاة صديق له ٠ وكان فيكتور هوجو قد استضاف في داره منذ عدة سنوات رجلا مقداما من المغلوبين على أمرهم في أحداث ديسمبر ، هينيت دو كيسلر ٠ وكان الاثنان قد تصافحا بالأيدى لاول مرة في صباح يوم ٣ ديسمبر بشارع سانت مرجريت على بعد خطوات قلائل من متراس بودان الذى رفع فى نفس اللحظة التي وصل فيها فيكتور هوجو ٠ بدأت هذه الأخوة عند المتاريس واستمرت فى المنفى » ٠

وفى يوم ٦ أبريل ١٨٧٠ توفى كيسلر الذى أضناه الحنين الى الوطن ولكن بقى مع ذلك قوى الروح ٠ وكان قبره في جبانة « فولون » بالقرب من بلدة « سان بيير »، وعليه حجر نقشت عليه هذه الكتابة :

الى كيسلر

وفى اسفل الحجر ، هذه العبارة : زميله فى المنفى

فيكتور هوجو

وفى يوم ٧ أبريل ، أدلى فيكتور هوجو على قبر كيسلر بالحديث الآتى :

فى غداة كمين عام ١٨٥١ ، مع بزوغ فجر ٣ ديسمبر ، أقيم متراس فى ضاحية سانت انطوان ، متراس خالد الذكر ، سقط عنده أحد نواب الشعب ٠ واعتقد الجنود أنهم كانوا مخطئين ٠ فالمتراس الذى هدم فى باريس ، أقيم من جديد فى المنفى ٠

وظهر متراس بودان ثانية وللفور ، لا فى فرنسا ، وانما فى خارج

فرنسا ، ظهر مشيدا لا بالبلاطات والحجارة وانما بالمبادىء ، وتحول من شيء مادى الى شيء مثالى ، أى شيء رهيب . لقد شيد المنفيون هذا المتراس الشامخ بأنقاض العدالة والحرية ، واستخدموا فيه كل حطام الحق ، مما جعل منه شيئا فخما ومهيبا . وبقى المتراس من ذلك الحين قائما هناك فى وجه الأمبراطورية ، يقطع عليها سبل المستقبل ، ويمحو من أمامها الأفق . انه شاهق كالحقيقة ، متين كالشرف ، مضروب بالمدافع كالعقل ولا يزال الناس يموتون عنده . فبعد بودان ـ نعم ، فالمتراس هو نفسه ـ ماتت عنده بولين رولان ، ومات ريبيرول ، وشارا وجزافييه دورير ، ومات منذ هنية كيسلر .

واذا شئنا أن نميز بين المتراسين ، متراس ضاحية سانت انطوان ومتراس المنفى ، وجدنا كيسلر همزة الوصل بينهما ، اذ كان ينتمى الى الاثنين ، مثل الكثير من المنفيين .

اسمحوا لى أن أمجد هذا الكاتب الموهوب ، والرجل الباسل الذى كان يتمتع بكل ضروب الشجاعة ، من شجاعة القتال الحية الى شجاعة المحنة البطيئة ، من البسالة التى تتصدى لطلقات البنادق الى البطولة التى ترتضى الحنين الى الأوطان . كان مناضلا وكان صبورا .

كان كاثوليكيا من أنصار الملكية مثل الكثير من رجال هذا القرن ، ومثلى انا الذى اتحدث فى هذه اللحظة . وليس الانسان مسئولا عن بدايته . وخطأ البداية يزيد من جدارة النهاية لصادقة .

كان كيسلر أيضا ضحية لذلك التعليم المقوت الذى هو ضرب من الكمائن المنصوبة للطفولة ، يخفى التاريخ عن المدارك الصغيرة ، ويزيف الوقائع ، ويشوه النفوس . ونتيجة ذلك : الأجيال التى عميت قلوبها . فاذا جاء الطاغية استطاع أن يموه كل شيء فى نظر الامم الجاهلة ، كل شيء حتى ارادتهم ، بل يستطيع أن يزيف الانتخابات العامة . عندئذ نشهد هذه الظاهرة ، نشهد شعبا محكوما بموجب توقيع مغتصب ، وهذا ما يسمى الاستفتاء العام . وكيسلر ، مثل الكثير منا ، أصلح تعلمه وقومه ، وطرح عنه الأوهام التى وضعها مع اللبن ، وسلخ الطفل القديم ، لا الرجل القديم من اهابه ، وتخلص خطوة خطوة من آثار الأفكار الخاطئة ، ودخل فى ساحة الافكار الحقيقية ، ونضج ، وكبر ، وتبصر بالحقيقة الواقعة ، واستقام بفضل المنطق ، فتحول من ملكى الى جمهورى وما أن أبصر الحقيقة حتى أصبح وفيا لها . ولم يكن ثمة وفاء أعمق وأصلب من وفائه . ورغم أنه عانى من الحنين الى الوطن ، الا أنه رفض العفو العام عنه . وقد أكد عقيدته بالموت .

كانت ارادته أن يحتج حتى النهاية • وبقي منفيا لشدة حبه للوطن• وكان تدهور فرنسا يعتصر قلبه • وظل يرمق بعينه تلك الأكذوبة التى هى الامبراطورية ، فكان ساخطا ، يرتعد خجلا من العار ، ويقاسى • ودام نفيه وغضبه تسعة عشر عاما • وها هو أخيرا قد نام •

نام • لا • انى أسحب هذه الكلمة • الموت لا ينام • الموت يعيش • الموت تحقيق عظيم • الموت يمس الانسان بكيفيتين : يجمده ، ثم يبعثه حيا • أنفاسه تطفىء ، نعم ، ولكنه يشعل من جديد • نحن نرى العينين اللتين يغلقهما الموت ، ولكنا لا نرى العيون التى يفتحها •

وداعا يا زميلي القديم ــ سوف تحيا اذن الحياة الحقة ! سوف تمضى حتى تجد العدالة والحقيقة والأخاء والوفاق والحب في الصفاء الفسيح • ها أنت ذا تطير في الضياء • وسوف تعرف السر العميق لهذه الأزهار ، وهذه الاعشاب التى يميلها الريح ، وهذه الأمواج التى نسمع هديرها هناك ، وهذه الطبيعة العظيمة التى تتقبل القبر فى ليلها ، والروح فى نورها • سوف تحيا حياة النجوم • تلك الحياة المقدسة التى لا تنطفىء• سوف تذهب الى حيث الارواح المنيرة التى أضارت وعاشت ، والمفكرين والشهداء والرسل والانبياء والرواد الأوائل ومحررى الشعوب • سوف تشهد كل تلك القلوب الوهاجة فى صورتها المشعة التى اضفاها الموت عليها • اسمع ، سوف تقول لجان جاك أن منطق الانسان قد ضرب بالعصى وتقول لبيكاريا ان القانون قد أصبح فى حالة من الخزى والعار ، يستخفى بسببها لكى يقتل ، وتقول لميرابو أن عام ١٧٨٩ قد أزرى به علنا ، وتقول لدانتون أن الاقليم قد غزته عصبة أسوأ من الاجنبى ، وتقول لسان جوست أن الشعب لا يتمتع بحق الكلام ، وتقول لمارسو ان الجيش ليس له حق التفكير ، وتقول لروبسبيير ان الجمهورية قد طعنت بالخنجر ، وتقول لكامبى ديمولان ان العدالة قد ماتت • وتقول للجميع ان كل شىء عـلى ما يرام ، وان هناك فرقة باسلة تقاتل فى داخل فرنسا قتالا اشد من ذى قبل ، واننا نحن الضحايا المتطوعين فى خارج فرنسا • النفر من المنفيين الباقين على قيد الحياة ، مازلنا صامدين ، مصممين على الا نستسلم ، واقفين على تلك الثغرة الفسيحة التى يسمونها المنفى ، ومعنا معتقداتنا ومعنا أشباحهم !

٦

الى بحارة المانش

تسلمت من يدى الكابتن هارفى المحترم ، الرسالة الجماعية التى وجهتموها الى ، ونشكروننى فيها لأنى أهبت لبحر المانش هذا كتابا (١) · ايه لكم أيها الرجال البواسل ، انكم تفعلون أكثر من مجرد اهداء كتاب لبحـــر المانش ، انكم تهبـــون له حيـــاتكم ، وأيامكم ، ولياليكم ، وكدكم وسهادكم ، وشجاعتكم ، مقطونة سواعدكم ، وقلوبكم ، ودموع نسائكم اللواتى يرتعدن فرقا بينما انتم تكافحون ، ووداع الأطفال والخطيبات والآباء المسنين ، والدخان المتصاعد من أكواخكم والذى تزجيه الرياح · البحر هو الخطر الكبير ، والكد الكبير ، والضرورة الملحة العاجلة · انكم تعطونه كل شيء ، وتقبلون منه ذلك الكرب الشديد الذى يحل بكم حين تختفى الشواطىء عن الانظار · ويثور سؤال منجع فى كل مرة ترحلون فيها : هل سترون ثانية أولئك الذين تحبونهم ؟ ويختفى الشاطىء مثلما يختفى الديكور الذى تحمله يد وتخرج به من فوق خشـــــبة المسرح · « اختفاء الأرض عن الأنظار » ، يالها من عبارة مؤثرة ، يشعر الانسان معها أنه قد ابتعد عن الأحباء · وأنتم أيها الرجال البواسل ، تكرسون أنفسكم للبحر · اننى ألمح بين توقيعاتكم أســـماء أولئك الذين كانوا أخيرا فى دنجينيس من المتقدمين الأبطال (٢) · لا شيء يعيبكم · تعودون الى الميناء ثم تبحرون ثانية ·

حياتكم تحد مستمر لصخور البحر ، وللصدفة ، وفصول السنة ، وجروف الماء ، ومكامن الريح · تمضون هادئين على مرأى البحر الجبار ، وتدعون العواصف تعبث بشعور رؤوسكم ، أنتم الصامدين المثـــابرين أبد الآباد ، أنتم البحارة الأشداء ، تشقون عباب الماء ، حيث لا حدود

---

(١) كتاب : « المناضلون فى البحر » ·

(٢) الدريدج وويندهام ·

على الاطلاق ، وحيب المغامرة ممكنة في كل مكان · تمضـــون فى ذلك الفضاء اللانهائى ، نتحدون المجهول · تلك الصحراء ، صحراء اللجب والضوضاء ، لا ترهبكم · انكم تتميزون بفضيلة رائعة ، اذ تعيشـــون وحيدين مع المحيط فى داخل دائرة الأفق المشؤومة · المحيط لا يفرغ ولا ينضب له معين · وأنتم يشر فانون ، ولكنكم لا تخشونه · لن نكون لحم زوبعته الاخيرة ، ولكنه سيأخذ منكم أنفاسكم الاخيرة · ومن ثم كان فخاركم الذى أقدره · وبدات معكم عاداتكم الجسورة منذ الطفولة عندما كنتم تركضون عارى الاقدام على رمال الساحل ، مختلطين بمد البحر ، وأشعه الشمس تلفح بشرتكم ، والرياح العاصفة تنمى أجسامكم · ويتقدم بكم العمر وسط الزوابع · انكم لا ترهبون المحيط ، وتستمعون بألفته الوحشية · فطالما لعبتم وأنتم صغار مع لجته الهائلة · أنتم لا تعرفوننى الا قليلا · اننى فى نظركم شبح من الأغوار على صخرة بعيدة · ومن لحظة الى أخرى تلمحون فى القمامة ذلك الشبح وتمرون · ومع ذلك فمن خلال هدير اللجج ودوى الزوابع ، جاء الى دياركم ذلك النوع من اللفظ الغامض الذى يصنع كتابا ، فاذا بكم تستديرون ناحيتى بين ريحين وتشكروننى · وأحيبكم ·

سأقول لكم من أكون · أنا واحد منكم · انا بحار ، مقاتل من مقاتلى الدوامة · فوق رأس ريح عاصفة هادرة · أرتعد والماء يقطر على جسدى ولكنى أبتسم ، وأحيانا أغنى مثلكم ، غنـاء مريرا · أنا مرشد · فشل لم يخطىء ، ولكنه غـرق · تقول البوصلة « انه على صـواب ، ولكن الزوبعة تثبت أنه مخطىء · فى نفسه ذلك القدر من اليقين الذى تخلقـه الكارثة بعد مرورها : له الحق فى أن يخاطب الربانية بمـا فى خطاب الفريق من فوة ويقين · أنا فى ظلام الليل ، انتظر فى هدوء ما سـوف يكون عليه النهار القادم ، دون أن توقع منه الشىء الكثير ، فاذا كان بعد الغد يوما مكفولا ، فان الغـــد لبس كذلك ، والانجـــازات الحالة نادرة الحدوث ، لقد شهدت مثلكم ، أكثر من مرة ، وأنا غير مطمئن ، بزوغ فجر منحوس · وحتى يأتى الأوان ، فأنا مثلكم فى العاصفة ، وفى القمامة وفى الصاعقة · وحولى أفق يتزلزل أبدا · أشهد حركة تلك الموجة المسماة بالواقعة · ولما كنت تحت رحمة الاحداث ، مثلكم وانتم تحـت رحمـــة الرياح ، فانى أدركت جنونها الظاهرى ومنطقها العميق · أشعر أن العاصفة ارادة وأن ضميرى عاصفة أخرى ، وأنهما فى الواقع متفقان · وأثابر وأقاوم ، وأناضل الطغاة كما تناضلون الاعاصير ، وأدع وحوش المستنقعات الأسنة وكلاب الظلمات تعوى كلها حولى ، وأودى واجبى ، لا يؤثر فى الحقد والضغينة بأكثر مما يؤثر فيكم الزبد ·

انني لا أرى النجم ، ولكنى أعلم آنه ينظر الى ، وهذا يكفينى .
هذا أنا ، فأحبونى .

لنستمر ، ولنؤد مهمتنا ، أنتم من جانبكم وأنا من جانبى ، أنتم بين اللجج ، وأنا بين الناس . ولنمض فى عمليات الانقـــاذ . نعم ، لننجز وظيفتنا وهى وصاية ، ولنسهر ونراقب ولا نهمل أية اســـتغاثة حتى لا تضيع أدراج الرياح ، ولنمد أيدينا الى كل من يغوص فى الهاوية ، ولنكن رقباء الفضاء المظلم ، ولا نتبح الظهور لما يجب أن يختفى ، ولنرمق تلك الاشياء التى تفر فى الظلمات ، فأرمق أنا الماضى ، وترمقون أنتم شبح السفينة . ولنثبت أن العناصر المضطربة يمكن الملاحة فيها . فقد تتنوع السطوح ولكن القرار واحد ، هو الله . أما أنا المتحدث اليكم ، فأنى ألمس هذا القرار الذى نسميه الحقيقة والعدالة . ومن يسقط من أجل الحق يسقط فى الحقيقة الحقة . ولنمط بهذا الأمن أنتم تتبعون البوصلة وأنا أتبع الضمير . اخوانى ، المناضلون البواسل ، ضعوا ثقتكم فى موج البحر ، ولأضع ثقتى فى القدر . أين اليقين ان لم يكن فى تلك الحركة الخاضعة لحكم المستوى الثابت ؟ واجبـــكم مماثل لواجبى .
ولنكافح ، ونبدأ من جديد ، وتثابر مع تلك الفكرة ، فكرة ان البحـــر العالى يمتد الى ما وراء البصر ، وأن الملاحة الكبرى تستمر حتى اخارج الحياة ، وأننا سنلحظ ذات يوم الشبه بين المحيط اللجى وبين القبر الذى يضم الارواح . اللجة التى تفكر هى الروح البشرية .

فيكتور هوجو

٧

المنقذون

اوفيل هاوس فى ١٤ ابريل ١٨٧٠

سادتى ضباط ميناء « سانت بيير »

فى هذه اللحظة ، لحظة الكوارث وحوادث الفرق ، يجب ان نشجع رجال الانقاذ • وعلى كل انسان أن يشكرهم ويبجلهم في حدود قدرته • والانقاذ فى الموانىء هو دائما من المواضيع التى تشغل الأذهان •

ان أملك عائمة لارشـاد السفن ، وحزام انقاذ نموذجين صنعهما خصيصا أحلى الصانع البارع « ديكسون » من ساند رلاند • وقد انتظر طويلا الى أن يتاح لى استخدامها ، ولكن يبدو لى أنه من الأفضل استخدامها منذ اليـوم ، وذلك بأن أمنح هذين الجهـازين الكفيلين بانقاذ الحيـاة البشرية لمن أنجز فى هذه الجزيرة أكبر عدد من عمليات الانقاذ ، تقديرا عاما لفضله •

ولابد انكم أدرى منى بهذا الموضوع ، فارجو ان تتفضلوا باخطارى عنه ، ولى الشرف بأن أسلمكم الحزام والعائمة فى الحال لتقديمها اليه •

وتقبلوا صادق الرد •

فيكتور هوجو

وعلى أثر وصول هذا الخطاب ، اختير الكابتن ابراهام مارتن « ناظر الميناء » باعتبار أنه قد أجرى فى حياته حوالى خمس وأربعين عملية انقاذ ومن ثم سلم اليه جهازا لانقاذ اللذان كتب عليهما السيد فيكتور هوجو بخط يده :

ومهدى الى الكابتن ابراهام مارتن تقديرا عاما لفضله •

٨

العمل فى أمريكا

أوتفيل هاوس فى ٢٢ أبريل ١٨٧٠ ·

أبلغتنى أيها الجنرال نبأ طيبا ، ذلك هو اتحاد العمال فى أمريكا الذى سوف يكون شبيها باتحاد الملوك فى فرنسا ·

العمال جيش ، والجيش يلزمه رؤساء ، وأنت من الرجال المشار اليهم كقادة ، بفضل فطرتك الثورية والحضرية · أنت من أولئك الذين يعرفون اسداء النصح المستطاع الى الشعب دون الخـــروج من نطاق العدالة والحقيقة ·

أنت تعرف أن الحرية وســيلة وهدف فى وقت واحــد · ومن ثم انتخبك العمال لتكون ممثلهم فى أمريكا · فأهنئك وأهنئهم ·

العمل اليوم هو الحق الأكبر ، كما هو الواجب الأكبر ·

وينتمى المستقبل من الآن الى رجلين : الرجل الذى ينكر ، والرجل الذى يعمل ·

والحقيقة ان هذين الرجلين رجل واحد ، لأن التفكير هو العمل ·

اننى من أولئك الذين جعلوا من الطبقات الكادحة شغلهم الشاغل فى الحياة · ومصير العامل فى كل مكان ، فى أمريكا وفى أوربا ، يجذب أشد اهتمامى ويؤثر فى نفسى ويحرك عطفى وحنانى · يجب أن تصبح الطبقات الكادحة طبقات سعيدة ، والرجل الذى كان يشتغل حتى اليوم فى الظلمات ، يجب أن يعمل من الآن فصاعدا فى النور ·

انى أحب أمريكـــا كوطن · والجمهـــورية العظمى ، جمهـــورية واشنجتون وجون براون ، هى فخر من مفاخر المدنية · عليها ألا تتردد فى الاضطلاع بنصيبها فى حكم العالم بقوة واقتدار · وعليها من الوجهة الاجتماعية ، أن تحرر العمال ، ومن الوجهة السياسية أن تنقذ كوبا ·

عيون أوروبا ترمق أمريكا . وما ستعمله أمريكا سوف تجيد عمله . ومن حسن طالع أمريكا أنها حرة مثل انجلترا ، ومنطقية مثل فرنسا .

وسوف نصفق لها بحماسة وطنية من أجل ضروب التقدم التى تفوز بها . ونحن مواطنون لكل أمة عظيمة .

أيها الجنرال ، قدم يد المعونة الى العمال فى اتحادهم القوى المقدس .

وأصافحك ؟

فيكتور هوجو

٩

الاستفتاء الشعبى

فى ربيع عام ١٨٧٠ ، أحس لوى بونابرت على ما يبدو بزعزعة غامضة ، وبالحاجة الى مساندة الشعب له · ومن ثم طلب الى الأمة أن تؤيد الامبراطورية بالتصويت لها · واستشار بعض الناس فى فرنسا فيكتور هوجو فى هذا الأمر ، وطلبوا اليه أن يبدى ما يجب أن يكون عليه هذا التصويت ، **فأجاب :**

لا ·

نعبر هذه الكلمة فى حرفين عن كل شىء · وما تتضمنه خليق بأن يملأ مجلدا ·

هذا الرد قائم فى وجه الامبراطورية منذ تسع عشر سنة · ويشعر أبو الهول الغامض هذا بأن هذه الكلمة هى مفتاح سره ولغزه ·

تكفى كلمة « لا » ردا على كيان الامبراطورية كلها ، وعلى كل ما تريده ، وتحلم به ، وتعتقد فيه ، وتستطيع عمله بالفعل ·

لا ، هى حكم القضاء ·

كتب أحد منفيى شهر ديسمبر فى كتاب نشر فى عام ١٨٥٣ فى خارج فرنسا يصف نفسه قائلا : « الفم الذى يقول لا » · كانت كلمة « لا » هى الرد على ما يسمونه « العفو الشامل » · وسوف تكون « لا » الرد على ما يسمونه « الاستفتاء الشعبى » ·

ويحاول الاستفتاء الشعبى أن يصنع معجزة ، يحاول أن يحمل الضمير الانسانى على قبول الامبراطورية ·

المسألة أشبه بمحاولة جعل الزرنيخ صالحا للأكل ·

استهلت الامبراطورية بهذه الكلمه : النفى ، ونريد أن ننتهى بهذه الكلمة : التقادم . لكن ما أصعب تحويل الكلمة الأولى الى الثانيه(١) . ما أسهل أن ينصب الانسان نفسه قيصرا ، وينقض القسم . ويعبر نهر الروبيكون (٢) ، ويرمى التقدم الانسانى كله فى ليلة واحدة فى كمين ، ويقبض فجأة على الشعب فى تشكيله الجمهورى العظيم فبضعه فى سجن ماراس (٣) ، ويمسك الأسد فى مصيدة ، ويدبر المكائد ليفسخ وكالة النواب ، ويحطم سيوف الجنرالات . ويرسل الحقيقة الى المنفى ، ويقصى الشرف ، ويسجن القانون ، ويصدر أمره بالقضاء على الثورة ، ويمحو أعوام ١٧٨٩ ، ١٧٩٢ ، ويطرد فرنسا من فرنسا ، ويضحى بسبعمائة رجل ليدمر بلده سباستيبول الصغيرة ، ويشترك مع انجلترا ليعرض صورة أوربا المخربة للدمار والآثار على الصين ، ويدهش الهمج بهمجيتنا ، ويهدم قصر الصيف (فى الصين) ليقتسم نزواته مع ابن لورد ايلجن الذى نهب البارتينون ، ويزيد ألمانيا وينقص فرنسا بمعركة سادوفا ، ويأخذ لوكسمبورج ثم يتخلى عنها ، ويعد أحد الارشيدوقات (٤) بمنحه مدينة مكسيكو ثم يعطيه بدلا منها مدينة كويريتارو (٥) ويمنح ايطاليا خلاصا يؤول الى مجمع الأساقفة ، ويرمى جاريبالدى برصاص البنادق الايطالية فى اسبرومونتى ، ورصاص البنادق الفرنسية فى منتانا ، ويثقل الميزانية بدين يبلغ ثمانية مليارات ، ويتخلى عن نصرة اسبانيا الجمهورية ، ويشكل محكمة عليا تصم آذانها عن طلقات المسدسات ، ويهدم كرامة القضاة بتبجيل الأمراء ، ويحرك الجيوش ، فيرسلها ثم يستدعيها ،

---

(١) « النفى » بالفرنسية Prescripian ، و « التقادم » Prescription (أى اكتساب الحقوق أو فقدها وسقوطها بمضى المدة) . وتختلف الكلمتان ، الواحدة عن الأخرى فى حرف واحد . ومن ثم يقول المؤلف : « ليس هنا الا حرف صغير متغير ، ولكن ليس ثمة شىء أصعب من اجراء هذا التغيير — المترجم .

(٢) الروبيكون ، نهر صغير كان يعتبر الحد الفاصل بين ايطاليا وبلاد الغال فى داخل الألب فى العصور القديمة . أصدر السيناتو (فى روما) قرارا مشهورا يدين بالخيانة كل من يجرؤ على اجتياز هذا النهر بجيش أو عصبة من الأفراد، وذلك حماية لمدينة روما من غارات قوادها الذين يعودون من بلاد الغال منتصرين . ولكن ازدرى بهذا القرار وعبر النهر وزحف على روما متحديا السيناتو واستولى على زمام الحكم . ومن ثم أصبحت عبارة « اجتياز الروبيكون » كناية للاستيلاء على الحكم بالقوة — المترجم .

(٣) مازاس — سجن مشهور (بحجرات للحبس الانفرادى) ، شيد فى باريس من ١٨٤٥ الى ١٨٥٠ فى شارع مازاس (اليوم شارع ديديرو) — هدم فى عام ١٨٩٨ — المترجم .

(٤) الأرشيدوق ، لقب كان يطلق على أمراء النمسا — والمقصود هنا الامبراطور ماكسيمليان (١٨٣٢ — ١٧٦٧) الذى نصبه الفرنسيون امبراطورا على المكسيك فى عام ١٨٦٤ ، ثم تخلى عنه نابليون الثالث ، فقبض عليه فى كويرتارو حيث أعدم رميا بالرصاص — المترجم .

ويسحق الديمقراطيات ، ويحفر المهاوى ، ويزحزح الجبال ، كل هذا ميسور . ولكن ابدال كلمة « التقادم » كلمة « النفى » أمر مستحيل .

أيمكن اقصاء الحق ؟ نعم يمكن ذلك . أيمكن أن يسقط الحق بالتقادم ؟ لا

ان نجاحا مثل نجاح يوم ٢ ديسمبر ليشبه الميت من حيث أنه يعفن فورا ، ويختلف عنه من حيث أنه لا يغوص فى أغوار النسيان . المطالبة بالاسترداد ضد مثل هذه الأعمال حق دائم أبدى . ليس هناك حدود شرعية أو أخلاقية فى هذا الموضوع . ولا يمكن الدفع بسقوط الحق ضد الشرف والعدالة والحقيقة ، فلا يستطيع الزمن أن يفعل شيئا بهذه الأشياء . الشرير الذى يستمر فى غيه انما يضيف الى جريمته الأصيلة جريمة الاستمرار ولم تعتبر أعمال تيبيريوس(١) أبدا ، فى نظر التاريخ ولا فى نظر الضمير الانسانى أمرا واقعيا .

قدر نيوتن أن المذنب (النجم ذا الذنب) يستغرق مائة ألف عام حتى يبرد . هناك جرائم فظيعة لابد أن يمر عليها أكثر من هذا الزمن حتى تخمد .

ان أسلوب العنف السائد فى هذا الزمن لا جدوى منه ، والاستفتاءات الشعبية لا حول لها ولا قوة فى هذا السبيل . ويعتقد أسلوب العنف أن له الحق فى الحكم ، ولكن ليس له هذا الحق .

الاستفتاء الشعبى أمر غريب . والانقلاب السياسى يجعل من نفسه قطعة ورق . فبعد طلقات المدافع ، يأتى الاقتراع . المدفع المشروخ ، يتبعه صندوق الانتخابات المشقوق . أيها الشعب ، اعط صوتك بأنه لا وجود لك . وبصوت الشعب . ويحصى السيد الأصوات ، ويحصل منها على العدد الذى أراد الحصول عليه ، ويضع الشعب فى جيبه . ولكنه لا يلحظ أن ما يظن أنه قد استولى عليه انما هو شىء لا يمكن امساكه . لا تستطيع الأمة أن تتنازل عن سلطانها . لماذا ؟ لأنها شىء يتجدد . والتصويت أمر يمكن تكراره مرة بعد أخرى . ان حمل الأمة على التنازل بصورة ما عن سيادتها ، واستخلاص الأبدية من لحظة وقتية ، واعطاء عملية التصويت العام الذى يقتصر على التعبير عن الحاضر أمرا

---

(١) امبراطور رومانى (١٤ ــ ٣٧م) ــ كان مكروها جدا فى روما لقسوته الشديدة ، وكان شديد الخوف على حياته ، يشك فى كل الناس ، والغالب أنه كان مختل القوى العقلية فى أواخر أيامه ــ المترجم .

بالتعبير عن المستقبل ، عمل باطل من نفسه ، فما أشبه ذلك بمن يأمر « الغد » بأن يسمى نفسه « اليوم » !

ما علينا . لقد تم التصـويت ٠ واعتبر السيد نتيجته موافقه ٠ ولم يعد هناك شعب ٠ وهذه الأعمال تضحك الانجليز ٠ كيف يأتى لأمه أن تتحمل الانقلاب السياسى ، والاستفتاء الشعبى ، وتقبل هذا الهوان ؟ ان انجلترا لتهنأ فى هـذه اللحظة باحتقار فرنسا قليـلا احتقروا اذن المحبط ٠ لقد ضرب اجريركيس (١) المحبط بالسوط ٠

يدعوننا الى التصويت على اكمال جريمة ٠ وتعتقد الامبراطوريه بعد ممارسة الحكم تسع عشرة سنة أنها مازالت قائمة متماسكه ، وتعرض علينا منجزاتها التقدمية ، وتقدم لنا الانقلاب السياسى متمشيا مع وجهة النظر الديموقراطية ، وليلة ديسمبر متسقة مع الحصـــانة البرلمانية ، والمنبر الحر مقيدا فى جزيرة كايين ، وسجن مازاس فى صورة التحرير ، وانتهاك القوانين كلها فى شكل حكومة حرة ٠ كلا ، اننا لا نعترف بكل هذه الأفضال ٠

نحن ، مواطنى الجمهورية القتيلة ، نحن المفكرين المجسين لسيادة العدالة ، ننظر الى الوهن الحتمى الذى يلازم تقادم العهد بالخيانة ، ونريد استغلال هذا الوهن ، وننتظر ٠

والى أن يأتى هذا الأوان ، نهز أكتافنا سخرية أمام هذا الاجراء الذى يسمى استفتاء شعبيا ٠

الى أوروبا التى لم تنزع ســـلاحها ، وفرنسا التى لا نفوذ لها ، وبروسيا الى ليس لها قوة توازن قوتها ، وروسيا التى ليس ثمة رادع يردعها ، واسبانيا التى لا ركيزة لها ، واليونان من غير كريت ، وايطاليا من غير روما ، وروما من غير الرومان ، والديموقراطية بلا شعب ، الى كل هؤلاء نقول لا ٠ الى الحرية المدموغة بالطغيان ، الى الرخاء المترتب على الكارثة ، الى العدالة التى تجرى باسم متهم ، الى هيئة القضاء التى تحمل حروف ل٠ن٠ب٠ (لوى نابليون بونابرت) ، الى عام ١٧٨٩ وهو يحمل طابع الامبراطورية ، الى يوم ١٤ يولية مضافا اليه يوم ٢ ديسمبر لبكمله ، الى الاخلاص وقد صدرت به يمين كاذبة ، الى التقدم الذى يفضى الى التقهقر ، الى الصلابة الموعود بها طريق الخراب ، الى النور الذى

---

(١) ملك الفرس (٤٨٥ ــ ٤٦٥ ق٠م) ــ بنى جسرا من الفن عبر الدردنيل ، وعزا بلاد الاغريق ، ولكن اسطوله تحطم فى موقعة سلامبس ٠٠٠٠ المترجم ٠

أنعمت به الظلمات ، الى البندقية خلف الصعلوك ، الى الوجه خلف القناع، الى الشيخ خلف الابتسامة ، الى كل هؤلاء نقول لا ٠

وفضلا عن ذلك فانه اذا كان مدبر الانقلاب السياسى مصمما أن يوجه الينا نحن الشعب سؤالا ، فانا لا نقر له الا بحق توجيه هذا السؤال :

« هل من واجبى أن أغادر قصر التويليرى الى سجن الكونسييرجيرى(١) ، وأضع نفسى تحت تصرف العدالة ؟ » نابليون ٠

نعم ؟

أوتفيل هاوس فى ٢٧ أبريل ١٨٧٠ ٠

فيكتور هوجو

---

(١) سجن مشهور بداخل قصر العدالة بباريس ، وكان يسجن به المحكوم عليهم بالاعدام فى عهد الارهاب ، قبل أخذهم الى المقصلة ــ المترجم ٠

١٠

الحرب فى أوروبا

اندلعت نيران الحرب فى يولية ١٨٧٠ ، ونصب آل هوهنزولرن ، حكام بروسيا الفخاخ لفرنسا فوقعت فيها • واعتقد فيكتور هوجو أن فرنسا مسلحة ، ومن ثم اطمأن مقدما الى أنها سوف تنتصر • ومع ذلك فانه كان متكدرا من أجل هذه الحرب ، يفكر فى الدماء التى سـوف تسفكها •

وكتب الى نساء جيرنسى الخطاب الذى نقرأه فيما يلى والذى نشرته الصحف الانجليزية باعتبار أنه موجه الى نساء انجلترا كلها •

وفى غضون حصار مدينة باريس ، كانت بالات صغيرة من الخرق المعدة كضمادات للجرحى ترسل من انجلترا الى فيكتور هوجو الذى كان يجعلها نصفين متساويين ، كما تعهد بذلك فى خطابه ، فيخصص نصفها للجرحى الفرنسيين ، والنصف الثانى للجرحى الألمان • وتكفل السيد « دو فلافينى » رئيس اللجنة الدولية (الصليب الأحمر) بأن يحمل الى القيادة العليا بفيرساى بالات الخرق التى أعدها فيكتور هوجو لترسل الى المستشفيات الألمانية المتنقلة •

الى نساء جيرنسيى

أوتفيل هاوس فى ٢٢ يولية ١٨٧٠ •

سـيداتى

طاب لبعض الرجال أن يحكموا بالموت على قسم من البشر ، ومن ثم يجرى الاعداد لحرب طاحنة • ليست هذه حربا فى سبيل الحرية ، ولا فى سبيل الواجب ، ولكنها حرب نزوة وهوى • سوف يقتل شعبان ارضاء

لمزاج أميرين ، وفى حين يسعى المفكرون الى التقدم بالحضارة ، يسعى الملوك الى اتقان الحرب التى سوف تكون رهيبة ٠

ويعلن بعضهم عن أعمال رائعة ٠ فهناك بندقية تردى اثنى عشر رجلا ، وموقع يقتل ألف رجل ٠ ولن يسيل الماء الحر الصافى بغزارة فى نهر الرين النابع من جبال الألب ، ولكن دماء الرجال هى التى سوف تسيل ٠ وسوف تبكى أمهات وأخوات وبنات وزوجات ٠ وسوف تلبسن جميعا ثوب الحداد ، بعضكن بسبب مصابهن ، والبعض الآخر بسبب مصاب الآخرين ٠

سيداتى ، كم من مذابح ! وما أشد الصدمة التى سوف تصيب كل هـؤلاء المقاتلين المناكيد ! اسـمحن لى أن أتوجه اليكن برجاء ٠ فما دام هؤلاء العميان ينسون انهم اخوة ، فجدير بكن ان تكن لهم أخوات ٠ قدمن لهم يد المساعدة ، وأعددن لهن الضمادات ٠ فكل الأقمشـة القديمة فى بيوتنا ، والتى لم تعد صالحة لشىء يمكن أن تنقذ هناك حياة الجرحى ٠ وانه لشىء بديع أن ينقطع كل نساء هذا البلد لهذا العمل الأخـوى ، وسوف يكون ذلك مثلا عظيما وخيرا كبيرا ٠ اذا كان الرجال يرتكبون الشرور ، فعليكن أيتها النسوة أن تتكفلن بالعلاج ٠ وطالما كان هناك ملائكة شر على وجه الأرض ، فكن أنتن ملائكة الخير ٠

فاذا صدقت عزيمتكن ، فسوف يكون من المستطاع الحصول على كمية كبيرة من قماش الضمادات فى مدة قصيرة ٠ وسوف نجعل منها حصتين متساويتين ، نرسل واحدة منها الى فرنسا والثانية الى بروسيا ٠

وانى لأضع آيات احترامى تحت أقدامكن ؟

فيكتور هوجو

ملاحظات

١٨٥٣

افتراءات الامبراطورية
خطاب شارل هوجو

يعرض الخطاب التالى الموجه الى الصحف الأمينة فى خارج فرنسا فكرة عن افتراءات الصحافة البونابرتية ضد المنفيين ·

جيرسيى فى ٢ يونية ١٨٥٣ ··

سيدى المحرر ·

« نشرت جريدة لاباترى المقال التالى الذى أعادت نشره الجرائد الرسمية فى الأقاليم ، والذى طالعته فى جريدة « اتحاد السارت » (١) عدد ١١ مايو ·

« وقع فى جيرسيى حادث يستحق التنويه لما فيه من عظمة وفائدة · فقد توفى فى الجزيرة فرنسى معتقل فيها ، فألقى السيد فيكتور هوجو على قبره خطابا طبع فى صحيفة ذاك البلد ، صور فيه فرنسا كما لو كانت مغطاة فى هذه اللحظة بالمشانق السياسية · وكتب الينا بعضهم أن هذه الاكذوبة التى يستحق قائلها أن يطالب من أجلها بوضعه فى مصحة للأمراض العقلية ، قد أحدثت سخطا شديدا بين سكان جيرسيى الهادئين دواما ، لدرجة أنهم حرروا التماسا ملأوه بالتوقيعات ، يطلبون فيه منع المظاهرات التى من هذا النوع والتى دأب المنفيون الفرنسيون على القيام بها ، فتستثير فى نفوس السكان كلهم اشمئزازا شديدا ؟

شين شيلار

هذا الخطاب يشتمل على ادعاءين ، يتعلق أحدهما بخطبة السيد السيد فيكتور هوجو ، أما الثانى فانه يتعلق بالأثر الذى أحدثه الخطاب فى جيرسى ·

---

(١) السارت ، مقاطعة فى شمال غربى فرنسا . يجرى فيها نهر سارت ـ المترجم ·

أما فيما يختص بالخطبه ، فالرد بسيط · فما دامت هذه الخطبه التى نقض فيها فيكتور هوجو نقضا نهائيا ، مهما كان المستقبل ، كل فكرة من المشانق السياسية والعقوبات الثأرية الدموية ، وذلك باسم منفيى جيرسيى الذين فرضوه فى هذا الشأن ، وبتأييد كل المنفيين الجمهوريين الأوفياء لسابقة فبراير الكبرى — مادامت هذه الخطبة قد سببت مثل هذا السخط الشديد فى جيرسيى ، على حد قول صحيفه « لاباترى » فانها سوف تستثير فى فرنسا بالتأكيد سخطا لا يقل فى شرته عن هذا السخط ، ولن يكون فى وسع « لاباترى » أن تفعل شيئا أحسن من أن تنشر هذه الخطبة · ونحن نتحداها أن تفعل كذلك · وقد أودعت البريد اليوم نسخة من الخطبة بعنوان محرر صحيفة لاباترى ·

وأما فيما يتعلق بالتأثير الذى أحدثه الخطاب فى جيرسى ، فانى أقتصر فى ردى على الوقائع ·

ففى جيرسى أربع صحف تصدر بالفرنسية وهى « لاكرونيك » و « لامبارسيال » و « لوكونستتسيوديل » ، و « لاباترى » · ونشرت الصحف الأربع كلها خطاب والدى بنصه ، وسجلت فى اليوم نفسه الأثر الذى أحدثه هذا الخطاب · وأذكر فيما يلى ما كتبته فى هذا العدد :

قالت الكرونك : « كان الاهتمام شديد بالحفل · وكان معروفا أن السيد فيكتور هوجو سوف يحدثها فى هذه المناسبة ، فرغب كل انسان فى أن يسمع هذا الصوت القوى العظيم · ولذلك ، فقبل وصول الموكب الجنازى بوقت طويل ، تقاطر حول القبر جمع كبير من الأشخاص جاءوا من المدينة على الأقدام أو فى العربات · وعندما دخل الموكب الجبانة ، دار حول الحفرة التى أعدت لاستقبال جثمان المتوفى · ولما استقرت الجثة فى مثواها الأخير ، كشف الجميع عن رؤوسهم · وفى وسط السكون التام القى السيد فيكتور هوجو بصوت قوى النبرات خطابه الرائع الذى ننشره فى هذا المكان · (يلى ذلك الخطاب) ·

« وردد المنفيون كلهم هذه الصيحة ، ثم أقبل كل واحد منهم فى خشوع وهدوء ووضع حفنة من تراب الأرض على نعش أخيهم المتوفى · أما الخطاب الذى ألقى فى هذه المناسبة فانه سوف يترك ذكرى خالدة فى سجل هذه الجبانة الصغيرة بأحرار قرية سانت جان · وسوف يأتى اليوم الذى يعرض فيه على الأجانب الموضع الذى وجه فبه فيكتور هوجو ، الخطيب المنوه والساعد العظيم الى اخوانه المنفيين كلماته النبيلة المؤثرة التى سوف يكون لها صدى عالمى شامل ، ويسجلها التاريخ بعناية » ·

وقالت صحيفة لوكو نستتنسيونيل (فى جيرسى) بعد أن نشرت الخطاب :

« أسعد الحظ عددا كبيرا من سكان جيرسى الذين جاءوا الى جبانة سانت جان بسماع مثل هذه العبارات على لسان ضيفنا العظيم » .

أما صحيفة « لاباترى » (فى جيرسى) فقد نشرت السطور التالية قبل الخطاب :

« اتجه الموكب صوب سانت جان ، فى أتم نظام وهدوء وورع . وهناك ألقى فيكتور هوجو فى حضور حشد كبير من الناس الذين جاءوا لسماعه ، الخطاب البديع الذى نشره فيما يلى » .

وأخيرا كتبت صحيفة « لامبارسيال » (فى جيرسى) .

« أخرجت الجثة من عربة الموتى ، وحملت على الأذرع حتى حافة الحفرة ، وعندما أنزلت فيها ، وقبل أن تغطى بالتراب ، نهض فيكتور هوجو الذى كان الجميع ينتظرون سماعه بفروغ صبر ، فألقى فى سكون تام وخشوع ، ووسط أكثر من أربعمائة مستمع ، وبذلك الصوت القوى المليء الذى طالما دافع به عن الجمهورية ، وبتلك النبرة التى لا تقاوم والتى هى وليدة العقيدة والايمان بأفكاره ، نقول انه القى الخطاب التالى الذى زادت خطورته بتأثير المكان والظروف . ولذلك فانه لقى آذانا مصغية فى نهم لا يتسنى لنا وصفه ولا يمكن مقارنته الا بالتأثير القوى الذى أحدثه » .

وكان لهذه الصحيفة « لامبارسيال دوجيرسى » فكرة صحيحة بنوع ما عن حسن نية بعض الصحف الفرنسية ، ولكنها ، فى هذا الموضوع ، نسبت خطأ الى صحيفة لوكونستتسيونيل فكرة لابد أنها قد طرأت على صحيفة لاباترى . واليكم ما قالته صحيفة لامبارسيال (الباريسية) عندما نشرت خطاب أبى وتقريرها للأثر الذى تركه الخطاب :

« سوف تحكى لنا بلا شك صحيفة لوكونستتسيونيل الصادقة بعد بضعة أيام كم من رجال الشرطة لزم استخدامهم لحفظ النظام خلال جنازة جان بوسكيه ، ثانى المنفيين فى يوم ٢ ديسمبر الذى توفى منذ عشرة أيام ، وتقص علينا بالتأكيد بصراحتها واخلاصها المعتادين كم كانت السلطات مضطرة لاستدعاء كتائب الجيش لقمع الشغب الذى استثارته الكلمات الملتهبة التى ألقاها الخطيب العظيم بذلك الصوت القوى الشديد التأثير على المشاعر » .

وفى استطاعتى يا سيدى المحرر أن أكتفى بهذا الرد ، ومع ذلك أرجو أن تسمح لى بأن أضيف اليه حدثا ، لا فكرة . فقد نشرت صحيفة « **لاباترى** » (الباريسية) التى نهين اليوم والدى المنفى ، نشرت منـذ عامين ، فى شهر يوليو ١٨٥١ مقالا تسب فيه صحيفة « **ايتينمان** » . فطلبنا الى صحيفة « لاباترى » اما انكار المقال أو رد الشرف بالسلاح . وفضلت « لاباترى » سحب المقال ، فعلت ذلك بالعبارات الآتية : « أمام التفسيرات التى تبودلت بين شهود السيد شارل هوجو وبين شهود السيد ماير ، صرح السيد ماير بأنه يسحب مقاله دون شرط أو تحفظ » .

ويلاحظ أن محرر الباترى ، مقترف الاهانة ، وساحب المقال ، يدعى السيد ماير ، وانه أقدم فيما بعد على عمل يتسم بالشجاعة ، اذ نشر فى باريس فى ديسمبر ١٨٥١ كتابا بعنوان « قصة ٢ ديسمبر » : فى عام ١٨٥١ ، أهانت الباترى ثم سحبت الاهانة ، وكنا وقتئذ حاضرين . واليوم تعاود الباترى اهانتها ، ولكننا غائبون » .

وليس من شك يا سيدى المحرر فى انك تريد أن تساعد المنفيين على دفع الافتراء ، والتفضل بنشر هذه الرسالة .

وأرجو يا سيدى أن تتفضل بقبول خالص شكرى وعظيم مودتى الأخوية .

شارل هوجو

١٨٥٤

قضية تابنر

استخرجنا من صحيفة « لاناسيون » عدد ٨ فبراير ما يلى :

« نعود لآخر مرة الى موضوع اعدام تابز من أجل الحركة الجديرة بالذكر التى سبقته ·

« ففى يوم ١٠ يناير ، وجه فيكتور هوجو الى سكان جيرنسيى نداء الديموقراطية ولقى حديثه المنفى الجمهورى الورع آذانا مصغية ، وتردد صداه فى كل النفوس ، فقدم سبعمائة مواطن انجليزى الى الملكة التماسا بالعفو عن المحكوم عليه ·

« وفى يوم ٢١ ، أعلنت صحيفة لاكرونيك دوجيرسيى أن البلاط قد اهتم بالالتماس ، فحوله فى يوم الخميس ١٩ الى الوزير · ووافق لورد يالمستون على التأجيل ثمانية أيام · وكان هذا بداية نصر للديمقراطية ، وأملا فى النصر التام على الجلاء فى هذه المناسبة المشهودة ·

« وكان السبعمائة مواطن انجليزى قد اعلنوا فى التماس العفو الذى قدموه استجابة لنداء فيكتور هوجو عن مبدأ حصانة الحياة البشرية ، وقالوا ان عقوبة الاعدام يجب أن تلغى ·

« وفى يـوم ٢٨ طلعت علينـا صحيفة « لوستار » فى جيرنسيى بالحكم الصادر على تابنر ، وقالت ان التنفيذ سوف يتم فى يوم ٣ فبراير· وفى يوم ٣ فبراير شنق تابنر (شنق يوم ١٠ فبراير بعد أن تأجل التنفيذ مرة ثانية) ·

« لم تكن الديمقراطية تعمل حسابا لسفير السـيد بونابرت فى لندن ·

« ولا يمكن أن ينسى هذا النضال حول المشنقة فى سـجلات الزمان ·

« يبدو لنا فى جيرنسيى أن العالم الوثنى قد صعد الى المشنقة مع تابنر • لقد أبلغت الثورة المقبلة صوت المستقبل الى المجتمع الجديد ، على لسان فيكتور هوجو ، وأصدرت حكم الانسانية ضد قوانين المجتمع الملكى الدموية •

« وظفر الجلاد الانجليزى برأس انسان جديد ، ولكن الديمقراطية فضحت الجلاد من فوق صخور المنفى ، وفازت عليه بنصر من تلك الانتصارات الأدبية التى لا يعوض عنها رأس قاتل •

« وكسب سفير الامبراطورية قضية المشنقة أمام لورد بالمرستون ، ولكن ممثل الجمهورية كسب قضية المستقبل أمام أوربا •

« فمن ذا الذى نال شرف هذا اليوم ؟

« من ذا الذى يتحمل مسئولية شنق رجل آخر ؟ من من الاثينيين يحق له أن ينظر فى وجه الآخر ، أمام جثة تابنر ، فيكتور هوجو أم السيد فاليتسكى ؟ (١) الديمقراطية المنفية أم الامبراطورية القائمة والقوية بدرجة تتيح لها أن تعلق مشنقة جيرنسيى جثة سبرية تذكارا للنصر ؟ » • الديمقراطية المنفية أم الامبرطورية القائمة والقوية بدرجة تتيح لها أن تعلق مشنقة جيروسيى جثة بشرية تذكارا للنصر ؟ » •

ونطالع فى صحيفة « لوم » فى ١٥ فبراير :

« لدول العالم وحكوماتها عادة قبيحة ، وذلك أنها ترفض شفاعة الافكار ، الافكار المبتهلة القوية • فكل ضروب السلطة والقوة وكذا الدولة شحيحة بوجه عام من ناحية منح الحريات والعفو عن الجرائم : فالقوة غيورة ، وهى اذا لم تقطع الرقاب كما يحدث فى باريس سواء بالقتال المسلح ، أو بنصب الكمائن ، فان لها كما فى لندن دفوعا صغيرة « بعدم قبول النظر فى الدعوى » أو مقتضياتها السياسية ، أو قضاءها الشرعى •

« ومع ذلك فقد يحدث أحيانا أن هذه العادة تكلف أصحابها ثمنا غاليا ، وأن السلطة التى لا تعرف العفو تلقى عقابا قاسيا ، يحدث ذلك حين تسهر نفس عظيمة ذات طبيعة انسانية عميقة الجذور خلف أدوات الاعدام ، خلف الحكومات • من ذلك أن الرجل الذى شنق فى جيرنسى منذ قليل قد دافع عنه وهو حى فيكتور هوجو ، فلما سرت فى أوصاله برودة الموت جعله فى حماه • والقى على هذا التعس الملطخ بالجريمة

---

(١) ابن نابليون الأول من عشيقته ماريا فاليفسكا البولندية التى بقيت مخلصة له حتى النهاية — المترجم •

كساء الأمل الثمين ، وميثاق الحصانة الكبير الذى ينيح النوبة والغفران غير أن السلطة فى لندن قد صمت أذنيها عن هذا الصوت ، كما صمتها عن السبعمائة صدى التى استثارها هذا الصوت فى الجزيرة الصغيرة المتأثرة ، فشنق تابنر بعد تأجيلات ثلاثة كانت بالنسبة الى هذا الرجل المقضى عليه بالموت فرصا ثلاث للحياة ، ثلاثة أسحار ! ولكن ها هى روح الفلسفة المنتقمة تعود صلبة صلابة القانون ، فتميل فوق الجثة التى لم تزل دافئة ، وتجس الجروح ، وتحكى الصراعات الرهيبة التى عاناها ذلك الجسد المحتضر البائس وطفراته وايماءاته ورعشاته الأخيرة ، ونظراته التى تكاد تنطفىء خلال الدماء ، واشفاق الجمهور المحتشد اشفاقا ممزوجا بالسخط واللعنات .

« قولوا لنا ماذا يا ترى جناه القانون والحكومة والمنل الأعلى من هذا الاعدام الذى لم يجرؤ على مواجهة الميدان العام الحر ، والذى يذكر الجميع بتفاصيله البشعة بمآسى المجزرة ، والذى فضحته للعالمين مرافعة عظيمة .

« ونحن نعلم ان هذه الصفحات البليغات لن نمحو عقوبة الاعدام ، ولن تعيد الحياة الى المحكوم عليه الذى صرعته العدالة . ولكن مشنقة جيرنسيى سوف يراها الناس من جميع بقاع العالم ، ولكن الضمير الانسانى الذى ربما قد أنامه نجاح الجريمة سوف يتحرك فى كل أعماقه، وسوف ينقطع حبل تايز ان عاجلا أم آجلا ، كما انكسرت عجلة التعذيب فى القرن الماضى « تحت كالاس » .

« أما نحن ، رجال المذهب الجديد . فمهما كان المستقبل ، ومهما كانت مصائر الناس ، فانا سعداء وفخورون لان مثل هذه الاعمال والاقوال العظيمة تخرج من صفوفنا . وانه الأمل وفرحة ، وانه لعزاء فائق لنفوسنا طالما أن الوطن قد أغلقت أبوابه دوننا ، أن نرى الفكرة الفرنسية تسطع فى المنفى فوق خيامنا . أليست فكرة فرنسا هى أيضا شمس فرنسا ؟

« انظروا كم تتجلى الأدوار واضحة للعيان ، حتى تتم المعرفة بصورة قاطعة ولا ريب ! العدالة تحكم وتدين لأنها ، والحق يقال ، مرتبطة بالنصوص ، والسياسة الحرة السائدة تؤيد العدالة وتضمن سريان قانون الدم . أما قساوسة الاديان كلها ، وهم رسل الرحمة والاحسان ، فانهم يتوارون ، فلا يظهرون الا من أجل النزع الاخير ـ ومن ذا الذى يلبى نداء العفو ؟ الرأى العام ـ ومن الذى يطلبه ؟ منفى . المجد له !

وهكذا نجد الاديان والحكومات فى جانب ، والشعوب والافكار فى جانب آخر . الحياة معنا والموت معهم .. وسوف تنفذ الأقدار ! »

شن ريبيرول

ونطالع فى صحيفة « لاناسيون » عدد ١٢ ابريل ١٨٥٤ :

« كان لقضية دابير صدى قوى ، وترتب عليهـا أخيرا فى أمريكا حادث مدهش للغاية وغير متوقع بالمرة . ونحن نعرض الحادث على أصحاب العقول النيرة لنتأمله وتتدبره .

« ففى اوائل شهر فبراير الماضى حكم بالاعدام فى كويبيك (كندا) على شخص يدعى جوليان بتهمة اغتيال رجل يدعى بيير ديون ، وهو حموه. وفى اللحظة ذاتها أتت الصحف الأوروبية الى كندا بالرسالة التى وجهها فيكتور هوجو الى أهالى جيرنسى طالبا العفو عن تابنر .

« ونشرت صحيفة المونيتور الكندية فى عـدد ١٦ فبراير الموجـود تحت أنظارنا نداء فيكتور هوجو الى أهالى جيرنسيى ، واتبعته بالملاحظة التى نطالعها فيما يلى :

« ألم يأت هذا التفنيد القوى لعقوبة الاعدام فى الوقت المناسـب لرسم السلوك الواجب اتباعه ازاء القاتل التعس ديوت ؟ » .

« والكم الآن ما نطالبه بعد أيام قلائل فى صحيفة « لويبيى » التى تصدر فى موزيال : « خفف حكم الاعدام الصادر ضد جواليان لقتله حماه فى كوبيك ، واستبدلت به عقوبة السجن المؤبد فى اصلاحية المجرمين الاقليمية » .

وتضيف الصحيفة الكندية :

« لقد رفع فيكتور هوجو صوته الفصيح فى نفس اللحظـــة التى كانت فيها حياة جوليان وموته يتأرجحان على كفتى الميزان . وعلم كل الذين يحبون الانسانية ويحترمونها ، ويرون التفكير عن الجريمة لا فى القتل الذى يتم فى هدوء (الاعدام) ، وانما فى ساعات طويلة من الندم تمنح للمذنب ، علموا بسرور نبأ هذا الحدث الذى يحل مسألة من أهم مسائل الفلسفة الاجتماعية حلا ضمنيا .

« ويمكن القول بأن عقوبة الاعدام أصبحت فى كندا ملغاة بحـــكم الواقع .

« يا لقوة الفكر المقدسة ! انها تتسع كالأنهار ، فهى خيط رفيع من الماء فى منبعها ، ومحيط عند مصبها ، وهى نفثة على بعد خطوتين ، تغدو اعصارا على بعد الفى فرسخ . والحديث الذى برح جيرسبى ، ويبدو أنه لم يستطع أن يعوض مشنقة جيرنسيى ، يعبر هو نفسه المحيط الاطلسى وينتزع عقوبة الاعدام فى كندا . ولم يستطع فيكتور هوجو أن يفعل فى

أوروبا شيئا من أجل تابنر الذى كان يحتضر أمام عينيه • ولكنه أنقذ فى أمريكا جوليان الذى لا يعرفه • فالخطاب المكتوب من اجل جيرنسيى يصل الى عنوانه فى كويبيك •

« ولنقل ، تمجيدا لرجال القضاء فى كندا ، أن النائب العام الذى كان قد حكم بالاعدام على جوليان ، تدخل بحماسة حتى لا ينفذ الحكم فى المتهم • ولنمجد حاكم كندا الجنوبية ، الجنرال روان الذى استوعب النقدم وأيده • لامراء فى أنه سوف يخالجه الشعور بأداء الواجب والخلاص من المسئولية حين يطالع فى هذه اللحظة الخطاب الذى بعثه فيكتور هوجو الى لورد بالمرستون ، وختم به كفاحه عند قاعدة المشنقة فى جيرنسيى •

« وثمة شىء أعظم من الواقع نفسه ، يخلص لنا من القصة التى حكيناها آنفا • ذلك أن ما تخنقه السلطة والاضطهاد حاليا فى قارة ، يبعث حيا وللفور فى قارة أخرى • ولهذه الخفقة التى ينبض بها قلب الانسانية الكبير الذى يختنق فى جيرنسيى رجعة فى كندا • وتقترب اللحظة التى لن يكون للنوع الانسانى فيها غير روح واحدة ، بفضل الديموقراطية ، والفكر ، والصحافة •

ضروب الوحشية فى حرب القرم

خلاصة رسالة بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٨٥٤

« وقع أمس الجمعة حادث شديد الغرابة يستحق نقدا مريرا • فقد صدرت اشارة من البارجة « لامبيرير » (الامبراطور) الى كل السفن تطلب اليها أن ترسل مرضاها الى ظهر السفينة « كانجارو » •• وأثناء النهار ، أحيطت السفينة الأخيرة بمئات المراكب المحملة برجال مرضى ، وسرعان ما امتلأت بهؤلاء المرضى حتى غصت بهم • وقبل أن يجن الليل كانت السفينة تحتوى على حوالى ألف وخمسمائة من العجزة من كل الفئات ، يقاسون على ظهرها الآلام • وكان المنظر الذى يتبدى للعين رهيبا ، والتفاصيل مخيفة لدرجة لا أستطيع معها الخوض فى وصفها • وعندما حانت لحظة الايجار ، أجابت الكانجارو على أمر الرحيل باشارة تقول فيها « المحاولة خطرة » فأجابت لامبيرير باشارة تقول « ماذا تعنى ؟ » فردت الكانجارو « لا تستطيع السفينة أن تترك كما تريد » • وبقيت الكانجارو طول اليوم ملقبة مراسيها ، ورافعة اشارة تقول « أرسلوا سفنا للنجدة » • وأخيرا صدرت أوامر لنقل جزء من هذه الحمولة المحزنة الى سفن أخرى قاصدة هى الأخرى الى القسطنطينية •

« ومات الكثيرون على ظهر السفينة • وجرت مشاهد تتقطع لها الأفئدة ولكن لا فائدة مع الأسف من وصفها • ومع ذلك فقد كان واضحا أن الخدمة الطبية لم تكن كافية لا على ظهر السفينة ولا على البر • لقد رأيت بعيني رأسي رجالا يموتون على الشاطىء ، وعلى خط السير ، وعند استراحات الجنود في العراء دون أي اسعاف طبي ، وحدث ذلك على كثب من أسطول يضم خمسمائة مركب شراعي ، وعلى مرأى من مقر قيادة الجيش • اننا في حاجة الى عدد أكبر من الجراحين ، في الأسطول وفي الجيش • ولا أثر للمعونة الطبية على الاطلاق في الكثير من الأحيان ، وكثيرا ما تصل متأخرة بعد فوات الاوان » •

(جريدة التايمز في ٣٠ سبتمبر ١٨٥٤)

خلاصة رسالة من القسطنطينية في ٢٨ سبتمبر ١٨٥٤ :

« من المستحيل على أي انسان أن يشهد المناظر المحزنه في هذه الايام الأخيرة ، دون ان يدهش ويغضب من عدم كفاية خدماتنا الطبية• أما الطريقه التي يعامل بها جرحانا ومرضانا فانها لا تليق الا بالمتوحشين في داهومي • كانت الآلام على ظهر السفينة « فولكان » قاسية • كان بهذه السفينة ثلاثمائه جريح ، ومائة وسبعون مصابا بالكوليرا ، وكل هؤلاء تحت رعاية أربعة من الجراحين ! كان منظرا مخيفا ، والجرحى يمسكون بتلابيب الجراحين عندما كان هؤلاء يشقون طريقهم خلال أكداس الموتى والمحتضرين ، ولكن الجراحين ينزعون أنفسهم من قبضتهم ! ولابد أن نتوقع ، ولعلنا في ذلك على صواب أن يتلقى الضباط الاسعافات الأولية قبل غيرهم ، ويحتكروا وحدهم دون شك معونة الاطباء الاربعة • لذلك كان من الخطأ بالتأكيد أن تشحن السفن بحشود من الجرحى دون أن يكون هناك من يقدم اليهم المعونات الطبية والجراحية ، ويوفر لهم المطالب الضرورية العاجلة • ووصل عدد كبير منهم الى سكوتاري دون أن يمسهم الجراح ، منذ أن سقطوا مصابين برصاص الروس على مرتفعات آلما •• وكانت جروحهم متيبسة وقواهم منحطة عندما حملوا من السفن لنقلهم الى المستشفى حيث تأتي لهم لحسن الحظ أن يحصلوا على المعونات الطبية •

« بيد أن كل هذه الفظائع تتلاشى اذا قورنت بحالة ركاب السفينة كولومبو التعساء • فقد أبحرت هذه السفينة من القرم في يوم ٢٤ سبتمبر ونقل المجروحون الى ظهرها قبل أن تنشر قلوعها بيومين • وعندما رفعت المراسي ، كان بالسفينة سبعة وعشرون ضابطا جريحا ، وأربعمائة واثنان وعشرون جنديا جريحا ، ومائة وأربعة من الاسرى الروس ، ومجموع

هؤلاء خمسمائة وثلاثة وخمسون شخصا ٠ وكان حوالى نصف الجرحى قد ضمدت جروحهم قبل أن يوضعوا على ظهر السفينة ٠ وكان هناك ، لتلبية مطالب هذا الحشد من الآلام ، أربعة اطباء ، منهم جراح السفينة الذى كان مستغرقا فى العناية بطاقم السفينة الذى كان افراده يمرضون دائما فى هذا الفصل من السنة وفى هذه البقاع وكانت السفينه مغطاه تماما بأشكال آدميه ملقاة على أرضيتها ، فان من المستحيل عبادتها ٠ ولم يكن الضباط يستطيعون الانحناء لرؤية أجهزة السكستانت (السداسيه) ، ومن ثم سارت السفينة على غير هدى ، وبقيت فى البحر اثنتى عشره ساعة أكثر من اللازم بسبب هذا التعويق ٠ ووضع المرضى الذين كانت حالتهم أســوأ من غيرهم على الجزء الخلفى من السفينة ٠ وبعـــد يوم أو يومين اصبحوا مجرد كومة من الاجسام المتعفنه ! وكانت الاصابات المهمله ، من الطلقات النارية تخرج منها ديدان تجرى فى كل الاتجاهات ٠ وتسمم غذاء الركاب التعساء ٠ وكانت المواد الحيوانية المتعفنة تفوح منها رائحـــة تتقزز منها النفس لدرجة أن الضباط وأفراد الطاقم عانوا من الغثيان ، وأن ربان السفينة لم يترك الى اليوم مريضا بسبب هذه الايام الخمسة التى انقضت فى تعس وشقاء ٠ والقيت فى البحر كل ملاءات السرائر التى تبلغ الألف وخمسمائة ملاءة ٠ ومات ثلاثون رجلا خلال الرحلة ٠ واشتغل الجراحون بأقصى جهد ممكن ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا الا شيئا قليلا جدا وسط هذا العدد الكبير من المرضى ٠ ولذلك مر الكثير من هؤلاء التعساء لاول مرة بين يدى الطبيب فى سكوتارى ، أى بعد انقضاء ســتة أيام على المعركة !

« ان الاشارة الى الأخطاء والحديث عن عدم كفاية الرجـــال الذين يبذلون غاية جهدهم ، مهمة عسيرة مؤلمة ٠ ولكن حدث اهمال يؤسف له منذ وصول الباخرة ٠ فقد ترك ستة وأربعون رجلا على ظهر الســـفينة يومين آخرين ، فى حين أنه كان بالامكان ، بشىء من الجهد الاضـــافى وضعهم فى المستشفى فى مكان أمين ٠ والسفينة موبوءة تماما ، وسوف يستخدم للحال عدد كبير من الرجال لتنظيفها لتوقى خطر التيفوس الذى يظهر عادة فى مثل هذه الظروف ٠ وثمة نقالتان للجنود قطرتهما السفينة كولومبو ، وكانت حالتهما سيئة للغاية مثل حالة كولومبو تقريبا » ٠

(جريدة التايمز فى يوم الجمعة ١٣ أكتوبر ١٨٥٤)

« ٠٠ أدى الأتراك خدمات طبيه فى التحصينات ٠ ويقاسى هـؤلاء المساكين من الدوسنتاريا والحميات والتيفوس ٠ وليس عندهم أية خدمات طبية ، ولا وقت عند جراحينا لرعايتهم » ٠

(التايمز ، رسالة بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٨٥٤)

والمقالة التالية مأخوذة من رســالة موجهة الى صحيفة « المورنيخ بوست » ومؤرخة ٨ نوفمبر ١٨٥٤ من بالاكلافا :

« ولكن لا فائدة من التأكيد على هذه التفاصيل المؤلمة : وانما يكفي القول بأنه كان يرقد بين هياكل حوالى مائتى حصان مقتول او مجروح جثث جنود مدفعيتنا الانجليز والفرنسيين ، وكلهم قد بترت أعضــاؤهم وشوهوا بدرجة ما . فبعضهم فصل رأسه من رقبته ، وكأن بلطة قطعته ، وآخرون فصلت سيقانهم من أردافهم ، وآخرون قطعت أذرعهم . وآخرون ضربوا فى صدورهم أو بطونهم أو سحقوا كما لو كانت آلة قد هرستهم . ولم يكن الحلفاء وحدهم هم الممددين هناك ، بل كان هناك على العكس من ذلك عشرة من الروس فى مقابل واحد منا . والفارق بينهم أن الروس قتلوا كلهم برصاص البنادق قبل أن تطلق المدفعية قذائفها . وفى هذا المكان أرسل الروس سيلا متواترا من القنابل طول الليل ، ولكن القنابل كانت تنفجر على جثث الموتى .

« وبعد أن يجتاز الانسان الطريق المؤدى الى سباستبول ، بين أكداس من جثث الموتى الروس ، يصل الى المكان الذى اضطر عنده رجال الحرس الى الكف عن الدفاع عن الاستحكامات التى تشرف على وادى اينكرمان . وهناك نجد موبانا كثيرين كمونى العدو . وعلى عرض الطريق تمدد خمسة من رجال الحرس جنبا الى جنب وقد قتلوا بقذيفة واحدة بينمـــا كانوا يطلقون الرصاص على العدو ، وهم راقدون فى نفس الوضع ، ضاغطين على بنادقهم بأيديهم المتقلصة ، وعلى وجوههم نفس التقطيب الرهيب المؤلم . ووراء هذه الجماعة ، يرقد الجنود المشاة من المقاتلين والحرس الروس ، غليظين كالأوراق بين جثث القتلى .

« وعلى يمين الاستحكامات ، الطـــريق الذى يـؤدى الى بطارية « المدفعين » ، ويمر الطريق عبر دغل كثيف ، ولكنه طريق زلق بسبب الدماء التى تغطيه ، وقد النوت الأيكات راقدة على الأرض واكتظت بالموتى . ويبدو المنظر رهيبا اذا شوهد من ناحية البطارية ، رهيبا بدرجة تفوق كل وصف . ووقفت على الحاجز فى حوالى الساعة التاسعة مساء ، وشعرت بقلبى يغوص بين ضلوعى كما لو كنت أشهد المذبحة نفســها . وكان القمر بدرا يضىء الأشياء كلها ، كما لو كانت الدنيا نهارا . وأمــامى وادى اينكرمان ونهر تشيرنايا يتلوى بصــورة رائعة بين المرتفعات كما لو كان شريطا من الفضة . منظر رائع خليق بأن يبارى أبدع مناظر العالم من حيث الاصالة والطرافة . ومع ذلك فانى لم اتذكر أبدا وادى اينكرمان الا وانتابنى شعور بالتعزز والفزع ، ذلك لأن اكثر من خمسة آلاف جثــة

كانت راقدة حول المكان الذى انظر اليه · وكان هناك الكثير من الجرحى · وقرعت أذنى ، قرعا جلبا مشؤوما ، التأوهات البطيئة المؤلمة التى كانت تصدر منهم وهم يحتضرون · وأكثر من هذا ايلاما للنفس ما كنت اسمعه من الصرخات المبحوحة ، والحشرجة القانطة الصادرة من الذين كانوا ينازعون سكرات الموت ·

« وكانت عربات الاسعاف التى تبذل أقصى الجهد لكى تصل بأسرع ما يمكن تتلقى حمولتها من المصابين المتألمين ، وتستخدم فى نقلهم كل شىء حتى الأغطية ·

« وفى خارج المدفعية ، كان الروس راقدين مثنى وثلاث ، بعضهم فوق بعض · أما فى الداخل ، فكان المكان مكتظا برجال الحرس الروس من الكتيبة الخامسة والخمسين ، والكتيبة العشرين · وكان فى المستطاع بنظرة واحدة تمييز مواطنينا المساكين بقوامهم الفارع الجميل رغم أن الثياب الرمادية الواسعة المضرجة بالدماء قد أصبحت متشابهة فى منظرها الخارجى · وكان الرجال راقدين فى الوضع الذى سقطوا عليه ، مكدسين فى أكوام · فهنا واحد من جنودنا فوق ثلاثة أو أربعة من الروس وهناك روسى فوق ثلاثة أو أربعة من جنودنا · وثمة بعض الجنود فاظت روحهم والابتسامة على شفاههم ، ويبدون كأنهم نائمون · وآخرون تقلصت ملامحهم بصورة بشعة ، وتدل عيونهم الجاحظة وتقاطيع وجوههم المنتفخة على أنهم قضوا وهم ينازعون من الموت السكرات ، ولكن فى ملامحهم سيما التهديد حتى النهاية · والبعض راقدون كما لو كانوا قد استعدوا للدفن وكأن يد أحد الأقارب قد جمعت ورتبت أطرافهم المبتورة ، فى حين كان آخرون ولم يزاولوا فى أوضاع القتال ، واقفين نصف وقفة أو راكعين نصف ركعة ، ضاغطين على سلاحهم ، أو يمزقون خرطوشا ، والكثير منهم ممددون وأيديهم مرفوعة الى السماء وكأنهم يتفادون ضربة أو يتلون دعاء · وكان آخرون عابسين عبوسا عدائيا يعبر عن عن الخوف أو الحقد وكأنهم قد ماتوا بالفعل يائسين · ونشر ضوء القمر على هذه الأشكال شحوبا خارقا للعادة ، وجعلت الريح الرطبة الباردة التى كانت تكتسح التلال ، تهز غصون الاشجار فوق هذه الوجوه المقلوبة ، فكان الظل يضفى عليها مظهرا حيويا بشعا · وبدا الموتى وكأنهم يضحكون ويوشكون أن يتكلموا · ولم يكن هذا المكان وحده هو الذى يبدو وكأنه ينبض بالحياة ، وانما كان ميدان القتال كله على هذه الصورة ·

« وعلى طول التل ، كانت جماعات صغيرة ومعها محفات تبحث عن أولئك الذين لم يزاولو أحياء ، وجماعات أخرى تحمل المصابيح وتقلب

أجساد الموتى بحثا عن الضباط الذين علم أنهم قتلوا ولكن لم يعثر عليهم احد • وكان هناك أيضا نسوة انجليزيات لم يرجع أزواجهن أو آباؤهن يجرين هنا وهناك ويطلقن صيحات مؤلمة ، يقلبن فى لهفة وجوه موتانا ناحية ضوء القمر ، يائسات ، وهن أحق بالرثاء من الراقدين على الأرض » •

(المورننج هيرالد ، فى يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر ١٨٥٤)

« •• كنا نسمع ارتطام الأكواب ، وصوت الزجاجات وهى تتكسر • وهنا وهناك فى الظلام شمعة صفراء أو قنديل تحمله يد ، ونسوة جاثلات بين الجثث ، يتفرسن فى الوجوه الشاحبة ، وجها بعد وجه ، هذه تبحث عن ابنها ، وتلك عن أبيها ، وأخرى عن زوجها •

(من كتاب « نابليون الصغير » صفحة ١٢٣) .

١٨٦٠

نداء موجه من جزيرة جيرسيى الى فيكتور هوجو

سيدى

قررت لجنه اصدقاء جزيرة صقلية أن تدعو لعقد اجتماع عام يحضره سكان جيرسيى فى يوم ١٣ يونية ١٨٦٠ ، بغرض التعبير عن تعاطفهم مع شعب صقلية الذى يناضل بقوة السلاح فى سبيل الحرية ضد اضطهاد كريه وممقوت ، ومن ثم يلتمس الموقعون أدناه بكل احترام التشرف بحضورك واشتراكك القيم فى هذا الحفل ٠

ان قضية صقلية لتستحق اهتمام كل من هم جديرون بلقب انسان، وكل انسان يقدر الأنظمة الحرة ، وكل صديق للحرية وللجنس البشرى٠ ونحن مقتنعون بأن قضية مقدسة مثل هذه لابد أن نحظى بعطفك الشديد٠ لقد كرست عبقريتك للحرية والعدالة والانسانية،وسوف يشرف جزيرتنا الصغيرة صوتك البليغ الذى يرتفع فى جيرسيى لصالح أهل صقلية ، ويسهم هذا الصوت فى استدرار عطف انجلترا وفرنسا وأوروبا كلها على هذا الشعب الباسل الذى يكافح ضد قوى تفوق كثيرا قوته ، من أجل أثمن شىء فى هذه الحياة ٠ ولسنا بمبالغين اذا أكدنا أن بلاغتك سوف تنفث قوة جديدة فى قلوب المقاتلين من أجل الحرية ، الذين هم منتصرون ولكنهم مجهدون ، وسوف تبعث الرعب فى نفوس أعدائهم ٠

نعم يا سيدى ، ان مرافعاتك المضطرمة فى صالح الحرية والانسانية واحتجاجاتك ضد الاستبداد والقسوة ، سوف يتردد صداها فى معسكر جاريبالدى وتدق أجراس البأس فى أذنى ملك نابولى المجلل بالعار ٠

نعود فنكرر التماسنا لمعونتك ، ومع تعبيرنا بالاحترام لك والاعجاب بشخصك نتشرف بأن نكون ٠٠ الخ

(يلى ذلك التوقيعات)

١٨٦٢

مأدبة بروكسل

نشر السيد جوستاف فريد بركس ، وهـــو من أبرع الكتـــاب الصحفيين الفرنسيين والبلجيك فى عـــام ١٨٦٢ عن مـأدبة بروكسل صفحات لامعة كان لها وقتئذ دوى كبير ، وسوف تكون مرجعا فى يوم من الأيام لأنها بعض من تاريخ عصرنا السياسى والأدبى (١) • كانت مأدبة بروكسل لقاء مشهورا جمع أصحاب الفكر والشهرة الذين قدموا من جميع أنحاء العالم المتحضر للاحتجاج مع رجل منفى ضد الامبراطورية • ونجد فى المقـــال البليغ الذى كتبه السيد جوستاف فـريد بركس كل تفاصيل هذه المظاهرة اللامعة • وترأس المأدبة السيد فيكتور هوجو ، والى يمينه عمـــدة مدينة بروكسل ، والى يساره رئيس مجلس النواب • وتكلم خطباء عظـــام ، منهم لوى بلان ، وأوجين بيللبتان • ثم تحدث باســـم الصحافة من مختلف البلاد صحافيون مشهورون ، منهم السادة بيراردى عن بلجيكا ، ونيفتزر عن فرنسا ، وكويسنا عن اسبانيا ، وفيرارى عن ايطاليا ، ولو عن انجلترا • وشكر السيدان المبجلان لاكروا ، وفيربويكهوفن ناشرا كتاب « البؤساء » مؤلف الكتاب باســـم المكتبة الدولية • وحيـا شانفلورى فيكتور هوجو باسم الكتاب الناثرين • وحياه تيودور دوبانفيل باسم الشعراء • ولم يسمع أحد قط أنبل من الأحاديث التى ألقيت • وكان الحفل هاما ومهيبا •

وفى ذلك الوقت كان عمدة بروكسل رجلا شريفا يدعى فونتينا ؛ وهو الذى حمل النخب الى فيكتور هوجو قائلا له :

« يسرنى أن أرحب بكم أيها الســـادة الذين تزورون بلجيكـــا ، والمخلصين اخلاصا شديدا لقوميتها ، السعداء سعادة عميقة بالأنظمـــة الحرة التى تحكمها ؛ انتم أيها الســـادة الذين تخلب مواهبكم ألبابنا ، وتواسى نفوسنا ، وتسمو بها • ولكن هناك ، بين هذا الجمع الكبير من

---

(١) « ذكرى المادبة المقامة لفيكتور هوجو فى بروكسل •

الأسماء اللامعة ، اسما ألمع منها ، ذكرته منذ هنيهة ، وهو فيكتور هوجو ، صاحب المجد الذى يستغنى بمجده عن كل ما أستطيعه من ثناء .

« اننى أقدم نخبـــا للكـاتب العظيم ، للشـــاعر الكبير ، لفيكتور هوجو ! » .

فنهض فيكتور هوجو وأجاب قائلا :

ســـادتى :

« أشرب فى صحة عمدة بروكسل .

« لم يسبق لى أبدا أن قابلت السيد فونتينا . اننى أعرفه منـــذ أربع وعشرين ساعة ، وأحبه . لماذا ؟ انظروا اليه وسوف تفهمون . ليس هناك طبيعة أكثر صدقا وصراحة من هذه الطبيعة ، مرسومة على وجه أطيب من هذا الوجه . يده التى تصافح الأيدى تعبر عن كل ما فى روحه ، وحديثه حديث ود وتعاطف . اننى اكرم وأحيى فى شخص هذا الرجل اللطيف الممتاز المدينة النبيلة التى يمثلها .

« والواقع أننى سعيد الحظ مع عمد مدينة بروكسل ، ويبدو أنه قد قدر لى أن أحبهم دائما . فمنذ أحد عشر عاما ، حينمـــا وصلت الى بروكسل فى يوم ١٢ ديسمبر عام ١٨٥١ ، كانت أول زيارة تلقيتها ، زيارة عمدتها السيد شارل دوبروكير ، وهو أيضا رجل ذو فكر ثاقب رفيع ، وروح قوية طيبة وقلب كـريم . وأقمت فى « الميـدان الكبير » ببروكسل ؛ وأقول بهذه المناسبة ، انه أثر عظيم كامل ، يضم دار البلدية الفخمة التى تحف بها منازل بديعة . وكان السيد شارل دوبروكير يمر بدارى كل يوم تقريبا ، وهو فى طريقـــه الى دار البلدية ؛ فيدفع بابى ويدخل . وكان يلبى للفور كل ما أطلبه من أجل زملائى البواسل فى المنفى ، وهو نفسه رجل باسل ، قاتل وراء متاريس بروكسل . وكان يزودنى بالمودة والاخاء والبهجة . وواسانى فى مصاب الوطن وآلامه . كان من أمر الأشياء على دانتى أن يرقى سلم الأجنبى ؛ أما شارل « بروكير فانه كان يشعر بالفرحة عندما يرقى سلم المنفى . انه رجل شجـــاع ونبيل وطيب . حسن ؛ هذه الحفاوة الحارة الكبيرة التى استقبلنى بهـــا السيد دوبروكير فيما مضى ، حظيت بمثلها ثانية لدى السيد فونتينا . وجدت عنده نفس الظرف ، والخلق الطيب ، والحفاوة الجميلة ، والروح السمحة ، والوجه الطلق . الرجلان مختلفان ، ولكن القلبين متماثلان . اسمعوا . قمت بجولة فى بلجيكا ، وذهبت الى كل مكان فيها تقريبا .

من الروابى الى غابات « أردين » ؛ وكنت فى كل مكان التقى باسمه واسمع ثناء عليه . انه محبوب فى أصغر قرية كما هو محبوب فى العاصمة . هذه الشعبية لا تنبع من رنين الأجراس ، وانما من الأمة .
ويبدو عمدة بروكسل هذا كما لو كان عمدة بلجيكا كلها . العزة لمثل هؤلاء العمد . انهم أعزاء لنا عن جدارة .

« أشرب نخب السيد فونتينا المبجل ، عمدة بروكسل ، وأهنىء هذه المدينة الشهيرة اذ جعلت على رأسها واحدا من هؤلاء الرجال الذين يتمثل فى أشخاصهم كرم الضيافة والحرية : كرم الضيافة الذى كان فضيلة الشعوب القديمة ، والحرية التى هى قوة الشعوب الجديدة .

١٨٦٣

الى أعضاء اجتماع جيرسيي من اجل بولندا

أوتفيل هاوس فى ١٧ مارس ١٨٦٣ :

سادتى :

أعانى فى هذه اللحظة من التهاب مزمن فى الحلق يمنعنى من تلبية دعوتكم التى شرفتمونى بها ، فأرجو قبول أسفى الشديد ·

التعاطف وجود ، ولذلك فانى سأكون بينكم بروحى ، وأشارك من أعماقى أفكاركم الكريمة ·

مقتل أمة أمر مستحيل · الحق هو النجم ، يأفل ولكنــــه يظهر من جديد · والمجد سبب ذلك ، وتثبته كذلك فينيسيا وبولندا · وبولندا تتألق فى اللحظة الحالية · انها لا تحيـــا كل حياتها ولكنهــــا فى أوج مجدها · واذ عاد الى بولندا المجهدة الدامية الناهضة كل ضيائها ، فانها تبهر العـــــالم ·

الشعوب تحيا ، والطغاة يموتون : هذا هو القانون الأعلى · وعلينا أن نذكر دواما بهذا القانون ذلك الأمراطور الأثيم الذى يعسف فى هــذه اللحظة أمتين ، فتشقى احداهما ، وتنسر بل الثانية بالعار · وليست بولندا التى يخنقها ذلك الأمبراطور هى أحق الأمتين بالرثاء ؛ وانمـــا الأحق بالرثاء هى الروسيا التى يجلب لها الخزى · ومما يحط بقدر شعب من الشعوب أن يقدم على هلاك شعب آخر · أتمنى لبولندا أن تسترد حريتها ، وأتمنى للروسيا أن تسترد شرفها · وأنا لا أتمنى هذين البعثين فحسب ، وانما انتظرهما ·

نعم ، ان الشك فى هذا الأمر كفر ، ومشاركة بنوع ما فى الاثم · نعم ، لأن بولندا سوف تنتصر · ذلك لأن موتها النهائى هو بالتقريب موت لنا كلنا ؛ فبولندا جزء من قلب أوروبا · وفى اليوم الذى تخمد فيه آخر خلجة فى حياة بولندا ، تحس فيه المدنية كلها ببرودة القبرة ·

اسمحوا لى أن أطلق من بعيد هـذه الصيحة التى سـوف يتردد صداها فى أرواحكم : ــ

لتحيا بولندا ! ليحيا الحق ! لتحيـا حـرية الناس واستقلال الشعوب !

واسمحوا لى فى هذه المناسبه أن أبعث بتمنياتى بالسعادة الى جزيرة جيرسيى العزيزة على نفسى ، والى سكانها الممتازين · وتقبلوا يا أصدقائى تحيتى القلبية ؟

فكتور هوجو

١٨٦٤

العيد المئوى لشكسبير

أحاط لوى بلان فيكتور هوجو علمـا برغبة لجنة العيـد المئوى لشكسبير فى ضمه لعضويتها وضم ابنه فرانسوا فيكتور هوجو ، مترجم أعمال شكسبير · فكتب فيكتور هوجو الى السيد ن · هيبويرت ديكسون سكرتير لجنة شكسبير فى لندن :

أوتفيل هاوس فى ٢٠ يناير ١٨٦٤ :

سـيدى :

الرسالة التى أبلغها اياكم صـديقى العزيز النبيل السيد لوى بلان ، هى فى رأيى الرد على خطاب وصلنى منه ، واليكم هذا الرد :

أوتفيل هاوس فى ١١ أكتوبر ١٨٦٣ :

عزيزى لوى بلان :

نشرت الجرائد خلال اشهر يونية ويولية وأغسطس عددا من اخطارات القبول الصادرة من أشخاص مبرزين دعوا الى عضوية لجنة شكسبير · ولم يكن نجلى ، مترجم أعمال شكسبير قد دعى الى هذه اللجنة · ولكنه دعى اليها اليوم · وأرى أن دعوته قد تأخرت كثيرا ·

ولم أكن أنا أيضا قد دعيت فى غضون هذه الشهور الثلاثة ، ولكن لا أهمية لذلك · انما المسألة تتعلق بابنى ، وأنا أشعر بالاهانة فى شخص ابنى · أما من ناحيتى ، فكرامتى لم تمس ، ولست عرضة لأية اهانة · ولن أكون أبدا عضوا فى لجنة شكسبير ؛ ولكن طالما أن السيد لوى بلان سيكون عضوا بها ، فان فرنسا سوف تجد فيه خير من يمثلها ·

فيكتور هوجو

وجاء الخطاب الودى الذى حررته لى يا سيدى بتاريخ ١٩ ينـاير ١٨٦٤ باسم لجنة شكسبير ، فبدل موقفى تجاه اللجنة ، ولكنه ترك فى نفسى مع ذلك أسفا ـ اسف لا يشعر به فى الحقيقة سواى ·

واسمح لى أن أوضح لك ماهية هذا الأسف ٠

لو كانت الدعوة الودية التى شرفتنى بتوجيهها الى اليوم قد وجهت الى منذ ستة اشهر ، كما وجهت الى العديد من الأشخاص المبجلين الذين تذكر أسماءهم ، لكان فى مقدورى فى تلك اللحظة ، وقد اخطرت بالأمر مقدما ، أن أدبر أمورى بحيث أتمكن الاشتراك فى جلســات اللجنــة ، ولكان هذا بالنسبة الى واجبا وسعادة ٠ واذ لم أكن قد دعيت الى الاشتراك فى اللجنة فانى لم أجد أية صعوبة منــذ ذلك الحين فى قبــول عــروض وارتباطات تستغرق اليوم كل وقتى ، وتخلق لى التزامات عمل ملحة ٠ هذه الارتباطات التى التزمت بها على أثر سوء التفــاهم الذى تفضلت بتفسيره لى ، لم تترك لى الحرية فى أن أجتمع معكم ، وسوف تحرمنى حسب الظواهر كلها ، بسبب الأعمال العاجلة الملحة التى نفرضها على من شرف حضور اجتماعكم العظيم ٠ فى لندن يوم ٢٣ أبريل ٠ وانهــا لخسارة بالنسبة الى ، ولكنى أكرر القول بانها خسارة بالنسبة الى فقط ٠ بل انها خسارة طفيفة من وجهات النظر الأخرى ٠ فحضورى كغيابى أمر لا أهمية له ٠

وسوء التفاهم الذى فسرته فى خطابك تفسيرا رقيقا ، الى جانب هذه الخسارة الطفيفة أمر يمكن اصلاحه والتعويض عنه ٠ فلجنة شكسبير التى نتكلم بلسانها ، تبدى رغبتها الكريمة بأن يدون اسمى فى قائمتهــا المحترمة ٠ وانى لأبادر بالموافقة على هذه الرغبة ، وآسف لعدم استطاعتى اكمال هــذا التعاون الاسمى بتعاون فعال ٠ أما بخصوص الحفل المجيد الذى تعدونه من أجل رجلكم العظيم ، فلن استطيع حضوره الا بقلبى فقط ، ولكنى ســـوف أكون حاضرا فيه بشخص ابنى فرانسوا فيكتور الذى سوف يكون سعيدا بأن يتخذ بينكم المحل المجيد الذى تقدمونه له ، بعد أن أبديتم تفسيركم الممتاز

وسوف يكون يوبيل يوم ٢٣ أبريل عيد انجلترا الحقيقى ، انجلترا النبيلة التى يمثلها منبرها البليغ الفخور ، وصحافتها الحرة المدهشــة صاحبة السيادة ، والتى لها كل ألوان المجد التى تحظى بهــا الشعوب الجديرة بالشعراء العظام ٠ وانجلترا جديرة بشكسبير ٠

وأرجو يا سيدى أن تتفضل بتبليغ اللجنة هذه الرسالة ، وتتقبل منى أصدق مشاعر المودة ٠

فيكتور هوجر

١٨٦٥

عقوبة الاعدام

الفترة التالية ماخوذة عن صحيفة « أوروبا » :

تزداد الدلائل التى تبشر بالغاء عقوبة الاعدام طهورا وجلاء يوما بعد يوم ، فى جميع الأنحاء . واذ يزداد عدد الأحكام التى تنفذ ، فانها تعجل بذلك الغاء آلة الاعدام ، عن طريق استثارة الضمير العام . وقد تسلم السيد فيكتور هوجو منذ قليل ، وفى غضون أسبوع واحد رسالتين فى شأن عقوبة الاعدام ، بين الواحدة والأخرى بضعة أيام ، احداهما من ايطاليا والثانية من انجلترا . كتب الرسالة الأولى الى فيكتور هوجو اللجنة الايطالية المركزية بتوقيع « كونت فرديناند تريفولزيو . ودكتور جورج دى جيولينى ، والمحامى جان كابريتى ، ودكتور البرت سارولا ، ودكتور جوزيف موسى المستشار الاقليمى ، ودكتور فريدريك بونولا » . ويعلن هذا الخطاب المؤرخ من ميلانو فى أول فبراير فيكتور هوجو بتنظيم اجتماع شعبى كبير فى ميلانو من أجل الغاء عقوبة الاعدام ، ويرجو المنفى فى جيرنسيى أن يبعث من فوره برقية الى شعب ميلانو المجتمع فى هذا اللقاء ببعض الحديث الذى من شأنه « توليد صدمة كهربائية فى ايطاليا كلها » كما جاء فى الخطاب . وكانت اللجنة تجهل أنه لا توجد لسوء الحظ اسلاك تلغرافية فى جيرنسيى . أما الرسالة الثانية المرسلة من لندن ، والصادرة من المحسن الانجليزى المعروف السيد « ليلى » فانها تشتمل على تفاصيل قضية رجل ايطالى يدعى « يولبونى » حكم عليه بالشنق من أجل طعنة بالسكين طعنها خلال معركة فى حانة ليلية ، وترجو فكتور هوجو أن يتدخل لمنع اعدام هذا الرجل .

الى السادة أعضاء اللجنة الايطالية المركزية لالغاء عقوبة الاعدام .

أوتفيل هاوس ، السبت ٤ فبراير ١٨٦٥ :

ســـادتى :

لا يوجد فى جيرنسيى تلغراف كهربى . وقد وصلنى خطابكم اليوم ٤ منه ، ولن يرحل البريد القادم الا يوم الاثنين ٦ منه . وانى لشديد الأسف لعدم استطاعتى الاجـــابة على ندائكم النبيل المؤثر فى الوقت المناسب . وكم كان يسعدنى أن يصل هتافى الى شعب ميلانو وهو ينجز عملا عظيمـــا .

حصانة الحياة البشرية هى أم الحقوق ، هى الحق الذى ينبع منه كل المبادىء . هذا الحق هو جذر الشجرة ، وباقى المبادىء هى الغصون . أما آلة الاعدام فانها جريمة مستمرة . انها أوقح اهانة يمكن أن تصيب كرامة الانسان والمدنية والتقدم . وفى كل مرة تقام فيها آلة الاعدام ، تصيبنا صفعة . هذه الجريمة ترتكب باسمنا .

كانت ايطاليا أم الرجال العظام ، وهى أم المثل الكبرى . ولست أشك فى أنها سوف تلغى عقوبة الاعدام . وسوف تنجح لجنتكم المشكلة من هذا العدد الكبير من الرجال العظام الكرام . وسوف نشهد عمـــا قريب هذا المنظر الجديد بالاعجاب : ايطاليا وقد حذفت منها آلة الاعدام ، وأضيف اليها روما وفينيسيا .

أصافحكم بيدى ، وأنا صديقكم ..

فيكتور هوجو

ورد فيكتور هوجو على الخطاب الوارد من انجلترا فقال :

الى السيد ليللى ، ٩ سانت بيتر يتراس ، نوتنج هيل ، لندن .

أوتفيل هاوس فى ١٢ فبراير ١٨٦٥ .

سيدى

يشرفنى أن توجه خطابك الى ، واشكرك على ذلك .

ستقام مشنقة ، وأنت تنبهنى الى ذلك ، وتعتقد أننى قـــادر على هدمها . ولكننى لا أملك مع الأسف هذه القدرة . لم استطع انقاذ تابنر ، ولن استطيع انقاذ بوليونى . فالى من أوجه الخطاب ؟ الى الحكومة ؟ الى الشعب ؟ اننى أجنبى فى نظر الشعب الانجليزى . ومنفى فى نظر الحكومة الانجليزية . فأنت ترى أننى أقل من لا شىء . ولكننى بالنسبة الى انجلترا صوت من الأصوات ، قد يكون لجوجا ، ولكنه صوت عاجز بالتأكيد . لا أستطيع يا سيدى أن أعمل شيئا ؛ فارث لبوليونى وارث لى .

لو كان بوليبونى فى فرنسا لحكم عليه بعقوبة مؤقتة فى جريمة القتل دون سبق اصرار . أما العقوبات الانجليزية فانه يعوزها هذا المخفف العظيم ، وهو : الظروف المخففة .

فلتفكر انجلترا الفخورة فى هذا الامر . فهى فى اللحظة الحاضرة لا يرقى تشريعها الى مستوى التشريع الجنائى الفرنسى الذى هو مع ذلك كثير العيوب . وانجلترا من هذه الناحية متأخرة عن فرنسا . فهل تريد انجلترا ان تستعيد فى لحظة واحدة كل المجال الذى فقدته ، وتسبق فرنسا ؟ فى استطاعتها ذلك ، وما عليها الا أن تخطو خطوة واحدة ، فتلغى عقوبة الاعدام .

هذا الشىء العظيم جدير بهذا الشعب العظيم . وانى أدعوها الى ذلك .

لقد ألغيت عقوبة الاعدام فى الكثير من جمهوريات أمريكا الجنوبية ؛ وسوف تلغى ، ان لم تكن قد ألغيت من قبل فى ايطاليا والبرتغال وسويسرا ورومانيا واليونان . ولن تتأخر بلجيكا فى الاقتداء بهذه المثل الرائعة . ومما يدعو الى الاعجاب أن تقدم انجلترا على هذه المبادرة وتبرهن ، بالغائها المشنقة ، على أن أمة الحرية هى أيضا امة الانسانية .

ولا حاجة بى الى القول يا سيدى بأنى أترك لك حرية الانتفاع بخطابى على الوجه الذى تستصوبه .

وأرجو قبول اسمى مشاعر الود ..

فيكتور هوجو

ونضيف جريدة « رسالة أوروبا » بعد أن ذكرت هاتين الرسالتين :

« انه لما يؤثر فى النفس أن نرى خصوم الجلاد . يتوجهون صوب صخرة جيرنسيى ليطلبوا العون والمساعدة من ذلك الذى هزت يده القوية المشنقة من قبل ، وسوف ينجح فى هدمها . ان منظر « الجمال خادم الحقيقة » هو أعظم المناظر . ومن الطبيعى أن يقيم فيكتور هوجو من نفسه محامى الرب ليطالب بحقوقه الثابتة على حياة الانسان ، تلك الحقوق التى اغتصبتها عدالة الانسان . من الجدير بأن يتكلم باسم الاله ، ان لم يكن هذا العبقرى ! » .

١٨٦٦

الثورات التى أخمدت

أوتفيل هاوس فى ١٨ نوفمبر ١٨٦٦ :

أثر فى نفسى كثيرا ذلك النداء الكريم الذى وجهه الصحافى البليغ الموقر رئيس تحرير جريدة « الشرق » · ولكن فات الأوان لسوء الحظ · فمن جميع الأنحاء يعلنون أن الثورة قد خمدت · وها هو مع الأسف نعش جديد ينفتح للشعب ، ثم يغلق ·

أما أنا ، فهذى منذ سنتين هى المرة الرابعة التى يصلنى فيها نداء من هذا النوع متأخرا كثيرا · فثوار هاييتى ورومانيا وصقلية قد وجهوا الى نداءهم ، ولكنهم فعلوا ذلك متأخرين · ويعلم الله أننى كنت حلمها بأن أقدمهم بغيرة وحماسة ! ولكن ألا يجدر بنا أن نتفاهم فيما بيننا بصورة أفضل ؟ لم لا يخطر رجال الحركة بهذه الأمور رجال التقدم ؟ لم لا يتفق المحاربون بالسيف مع المحاربين بالفكر ؟ يجب المطالبة بمعاونتنا مقدما لا مؤخرا · فلو أخطرت بالأمر فى الوقت المناسب لكنت حريا أن أكتب ما يناسب الحال ، ولاستطاع الجميع أن يتعانوا فى سبيل نجاح الثورة عامة ، وخلاص الكافة · بلغوا صديقى المبجل هذا الكلام ·

وتقبلوا تحيتى القلبية العاجلة ؟

عشاء الأطفال الفقراء

لعله المفيد ، لكى نوضح للأذهان ما قد يكون القارىء قد طالعه فى هذا الكتاب فى موضوع المشروع الصغير الخاص بعشاء الأطفال الفقراء ، أن ننشر تقريرا من تقارير الصحافة الانجليزية ·

اليكم خطاب اللبدى طومسون ، ومقال جريدة « اكسبريس » الذى تحدث عنه فيكتور هوجو فى خطابه ·

الى فيكتور هوجو

٣٥ ، شارع ويمبول ، لندن ، ٣٠ نوفمبر ١٨٦٦ ٠

سيدى العزيز ـ بعد الاهتمام الذى أوليته بنجاح مشروعنا الخاص بعشاء الأطفال الفقراء ، يسرنى كثيرا أن أرسل اليك تقرير العام الماضى ٠ وتسير خطتنا سيرا حسنا ٠ وقد بدأت منذ قليل العمل للسنة القادمة ٠ أعلم أنك تتمتع بصحة جيدة ، وأنك تشهد فكرتك الجليلة تزداد انتشارا ٠

وتفضل بقبول عميق الاحترام ؟

كيت طومسون

« من المزايا النادرة التى تتمتع بها هذه المنشأة الخاصة بعشاء الأطفال الفقراء بين غيرها من المؤسسات الخيرية ، أنها بسيطة ومباشرة وعملية وسهلة المحاكاة ، لا تتطلب مذهبا معينا أو نظاما خاصا ٠ ولا يجوز نسيان الرجل الذى كان أول من أبدى فكرة عشاء الأطفال المعوزين ٠ وندين انجلترا فى الزمان الماضى بالفضل الكبير للمنفيين السياسيين الفرنسيين ٠ وندين « جمعية عشاء الأطفال الفقراء » هذه نشأتها لذلك القلب الكريم ، قلب شاعر عصرنا الكبير . فيكتور هوجو الذى يقدم كل أسبوع منذ عدة سنوات ، فى داره بجرنسى وبماله الخاص وجبات عشاء لأربعين طفلا فقيرا ، لا يلتفت بشأنهم الى الجنس أو الدين وانما الى الفاقة فحسب ٠ وفى عيد الميلاد ، يزيد فيكتور هوجو عدد هؤلاء المدعوين الصغار ، ويزودهم لا بالغذاء والشراب فحسب ، وانما بتشكيلة منتقاة من هدايا لبث البهجة والسلوى فى قلوبهم الفتية وأخيلتهم الصبيانية ، دون أن ينسى تغذية أفواههم الجائعة وكسوة أعضائهم المرتجفة ٠ وفى لندن جمعية تشكلت على غرار مشروع فيكتور هوجو ، توجه النداء الى كل « أولئك الذين يشفقون على الأطفال التعساء الذين يرتدون أسمالا بالية ، ويكادون يموتون من الجوع فى هذه العاصمة الشاسعة » ٠

« وقد بلغ عدد وجبات العشاء التى قدمت فى عام ١٨٦٧ فى سبع وثلاثين قاعة طعام خاصة حوالى ٨٥٠٠٠ وجبة ٠ ومن ذلك الحين قدمت هبات جديدة تمثل ٣٠٠٠٠ وجبة ٠ وبلغ اجمالى النفقات وقتئذ ٩١٤ جنيها ، والمجموع الكلى لوجبات العشاء ١١٥٠٠٠ » ٠

(جريدة اكسبريس فى ١٧ ديسمبر ١٨٦٦)

عيد الميلاد فى أوتفيل هاوس

الصفحة التالية منقولة من جريدة « لاجازيت دوجيرنسى » بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٨٦٦ :

« فى يوم الخميس الماضى ، تدفق جمهور أنيـق على منزل السيد فيكتور هوجو ليشـهد التوزيع السـنوى للملابس واللعب الذى يجريه السيد فيكتور هوجو للأطفال الفقراء الذين يتعهدهم برعايته . **وكان الحفل يشمل كالعادة :**

١ ـ وجبة خفيفة من الشطائر والحلوى من عجين (جاتوه) ، والفاكهة ، والنبيذ .

٢ ـ توزيع الملابس .

٣ ـ شجرة عيد الميلاد نثرت عليها مجموعات من اللعب . وقبل توزيع الملابس ، وجه السيد فيكتور هوجو خطابا الى الحاضرين .

واليكم ملخصا لما أمكننا جمعه من هذا الخطاب .

« سـيداتى :

« تعلمن الغاية من هذا الاجتماع الصغير . هذا هو ما أسميه عيد الأطفال الفقراء ، اذ لا أجد له اسما أبسط من هذا الاسم . وأود أن أتحدث عن هذا العيد بأشد العبارات تواضعا وبساطة ، وأن أستعيد لهذا الغرض بساطة أى واحد من الأطفال الذين يستمعون الى .

« هدفى أن أحسن الى الأطفال الفقراء فى حدود قدرتى . وليس لى فى هذا العمل أى فضل صدقونى ، وما أقوله هذا أشعر به شعورا عميقا ، فما يستطيع الانسان أن يفعله هو ما يجب عليه أن يفعله . هل تعرفن شيئا أشـد اثارة للحزن من عذاب الأطفـال ؟ اذا قاسينا نحن الرجال ، فاننا ننال فى الحقيقة ما نستحقه ، أما الأطفال فانهم أبرياء ، والبراءة هى التى تقاسى ، وهذا أقسى ما فى الدنيا من ألوان الحزن . وهنا تعهد الينا العناية الالهية بجزء من وظيفتها الخاصة . فالله يقول للانسان : انى أعهد اليك بالطفل . والله لا يعهد الينا بأطفالنا وحدهم لأن العناية بهم أمر طبيعى للغاية ، والحيوانات تؤدى هذا الواجب الطبيعى بصورة أفضل أحيانا من أداء الانسان له ، ولكنه يعهد الينا بكل الأطفال الذين يقاسون . رسالتنا الكبرى هى أن نكون آباء وأمهـات للأطفال الفقراء . وشـعور الأمومة نحو الأطفال هو شـعور الأخوة نحـو الانسانية » .

« ويذكر السيد فيكتور هوجو بعد ذلك نتائج عمل أدته الأكاديمية الطبية في باريس منذ ثمانية عشر عاما في صحة الأطفال . وقد اظهر التحقيق الذى أجرى فى هذا الشأن أن معظم الأمراض التى تودى بحياة الكثير من الاطفال الفقراء تتسبب من سوء تغذيتهم وحدها ، وأنهم اذا استطاعوا أن يأكلوا لحما ويشربوا نبيذا مره واحدة فقط كل شهر ، فان هذا يكفى لوقايتهم من جميع العلل التى تنتج من فقر الدم ، لا أمراض الدرن وحدها ، ولكن أيضـا على القلب والرئتين والمخ . ومن شـأن الانيميا ، او فقر الدم ، فضلا عن ذلك ، ان يجعل الأطفال عرضة لمجموعة من الأمراض المعدية كالخناق والدفتريا التى يكفى لوقايه الاطفال منها أن يتناولوا غذاء جيدا مرة واحدة كل شهر .

« وقد دهش السيد فيكتور هوجو دهشا عميقا من نتائج هذا العمل الذى أنجزته الاكاديمية . ولما كان منهمكا فى باريس بمشاغل الحياة العامة ، لم يكن لديه وقت لينظم فى وطنه وجبات العشاء للأطفال الفقراء . ولكنه يقول انه استفاد من الفراغ الذى وفره له أمبراطور الفرنسيين فى جيرنسى ليعمل على تنفيذ فكرته .

« وخطر له أنه اذا كان عشاء طيب يتناوله الطفل مرة واحدة كل شهر يفيده فائدة كبيرة ، فان عشاء طيب يتناوله كل خمسة عشر يوما لابد ان يأتيه بفائدة اكبر ، ومن ثم فانه يقدم الغذاء لاثنين وأربعين طفلا فقيرا ، يأتى نصفهم - أى واحد وعشرون طفلا — الى داره كل أسبوع . ويريد فى نهاية السنة أن يهيئ لهم البهجة الصغيرة التى يتمتع بها كل الاطفال الأغنياء بين أسرهم ، يريد أن يتمتعوا بعيد « الكريسماس » . ويتضمن هذا العيد السنوى الصغير ثلاثة أقسام :

وجبة غـــذاء خفيف ، توزيع الملابس ، توزيع اللعب . ذلك لأن الفرح ، كما يقول السيد فيكتور هوجو ، جـزء من الصـحة بالنسبة الى الطفولة . ولذلك فانى أهدى لهم كل سنة شجرة عيد ميلاد صغيرة . واليوم هو خامس حفل ننظمه لهذا العيد .

ويستمر السيد فيكتور هوجو قائلا : والآن ، لماذا أقول كل هذا ؟ الفضل الوحيد فى أداء العمل الطيب (اذا كان ثمة عمل طيب) هو فى السكوت عنه . وجدير بى أن أصمت حقا اذا كنت لا أفكر الا فى نفسى . ولكن غايتى ليست أن اعمل خيرا لأربعين طفلا فقيرا فحسب ، وانما غايتى بنوع خاص أن أعطى للناس مثلا نافعا . ذلك هو عذرى » .

« وقد اقتدى الناس بالمثل الذى قدمه السيد فيكتور هوجو اقتداء

حسنا لدرجة أن النتائج التى حصلوا عليها تدعو الى الاعجاب حقا · وله أن يذكر فى هذا الصدد أمريكا والسويد وسويسرا حيث يغتذى بانتظام عدد جسيم من الأطفال الفقراء ، وايطاليا بل وحتى اسبانيا التى بدأ فيها هذا العمل الطيب ، ولكنه لن يتكلم الا عن انجلترا وعن لنـدن ، ومعه الأدلة ·

« وهنا يقرا السيد فيكتور هوجو فقرات مقتبسة من رسالة كتبها لجريدة « لوبوتى جورنال » أحد السادة الانجليز الأفاضل ·

« واذا صـدم بعض السـادة الأبرار ، وعلى رأسـهم الكونت دونشافنسبيرى بالمشهد المفجع الذى نتجلى به مدارس الأحياء الفقيرة فى لندن ، وتأثروا تأثرا عميقا بمرأى الأطفـال الشاحبى الوجـوه الهزيلى الأجسام الذين يترددون على هذه المدارس ، وفزعـوا من تفشى الهزال ، تفشيا سريعا بين سكان المدن ، هزال من شـأنه أن يستبدل بجنسنا الانجلو ساكسونى القوى جسـا ضعيف الأعصـاب واهن القوى ، فقد أسس هؤلاء السادة جمعية عشاء الأطفال الفقراء ·

« الاحسان شىء لطيف للغاية · وتبرع الانسان بشىء قليل من فائض ماله عمل يجلب سعادة جميلة ، لا شك أنها نافعة ، ومن ثم فانا لا نستطيع أن نقاوم الرغبة فى تعريف فرنسا بهذا الابتكار فى مضـمار الخير والاحسان ، وهذه التجربة الجديدة التى شرعت فى اجرائها انجلترا ، بلدنا القديم ·

« واضاف السيد فيكتور هوجو قائلا : فى هذه المدرسة وحدها ثلاثمائة وعشرون طفلا · تصـوروا اذن هذا العـدد وقد زاد أضعافا · ما أعظم الخير الذى سوف سوف تحظى به الطفولة !

« ثم قرأ السيد فيكتور هوجو رسالة كتبها الى جريدة التايمز السيد فولار سكرتير المؤسسة التى أنشأها فى لندن الأب وود على نسق منشأة أونفيل هاوس :

« الى محرر جريدة التايمز » ·

« سـيدى » ·

« تفضلت فى العام الماضى بنشر رسالة فى التايمز أوضحت فيها التحسن الكبير الذى طرأ على صحة الأطفال الفقراء بمدرسة « أصحاب الثياب الرثة بوستمنستر » ، وهو تحسن نتج من الطريقة المنتظمة التى يقدم بها لكل طفل وجبة عشاء كل خمسة عشر يوما ، والتى شجعت سائر الأشخاص لهم هذه الفرصة أن يفعلوا الشىء نفسه ان أمكن بمدارسهم ·

« ومرت سنة أخرى بمزيد من التجربة ، أكدت بصورة اقوى كل ما قلته آنفا بشأن الأثر الطيب الناتج من هذه الوجبات ، وهى نسبة تعادل فى قوتها نتائج السنين الماضية ، فكانت صحة الاطفال بالمدرسة طيبة بصفة عامة ، ولم تصب الكوليرا أى طفل . ويؤسفنى مع ذلك أن أقول ان الأموال المكتتبة لهذا العشاء والتى لم تتقدمها ابدا منذ ثلاث سنوات سوف تنفذ عما قريب ، وآمل أن تتفضلوا بنشر دعوة فى صحيفتكم لتقديم المعونة حتى أستطيع الاستمرار فى تقديم نفس العدد من وجبات العشاء هذا الشتاء .

وليم مولار

(يتبع هذا حساب التكلفة لكل وجبة عشاء ، ولوجبة عيد الميلاد) — التايمز فى ٢٧ ديسمبر ١٨٦٦ .

« وعبر السيد فيكتور هوجو عن أمله فى أن تختفى كلمة « اصحاب الثياب الرثة » قريبا من اللغة الانجليزية الجميلة النبيلة ، وأن تختفى أيضا هذه الطبقة نفسها .

« وأبرز السيد فيكتور هوجو هذه الظاهرة بقوة ، ظاهرة أن الكوليرا لم تصب واحدا من الأطفال الذين اغتذوا على هذا النحو ، وسط الرزايا العظيمة التى أنزلها هذا الوباء فى لندن فى الصيف الماضى . ويعتقد أنه ليس فى مقدور الانسان أن يقول شيئا أقوى من هذا فى صالح المشروع ، ويعرض هذه النتيجة على الحاضرين ليتأملوها .

« ويقول السيد فيكتور هوجو فى ختام حديثه : هذا يا سيدانى ما يبرر لى أن أحكى ما يجرى ها هنا ، ويبرر الدعاية المعمولة لهذا العشاء الذى يقدم لأربعين طفلا . ذلك لأنه يترتب على هذا الأصل المتواضع تحسن كبير فى أحوال الطفولة البريئة المعذبة . واجبنا هو تخفيف متاعب الأطفال ، وصنع الرجال . ولن أضيف الى هذا كلمة واحدة . هناك وسيلتان لبناء الكنائس : أن تبنى بالحجارة ، وأن تبنى باللحم والعظم .

الفقير الذى أحسنت اليه وآسيته هو كنيسة شيدتها ، يرتفع منها الدعاء والعرفان بالجميل والحمد لله سبحانه » .

(تصفيق مستمر)

١٨٦٧

عشاء الأطفال الفقراء

الفقرة التالية منقولة من الصحف الانجليزية :

« طبقت فكرة السيد فيكتور هوجو ــ فكرة العشاء الأسبوعى للأطفال ــ فى لندن على نطاق واسع للغاية ، وأعطت نتائج مدهشه · وقد قدمت المعونة لستة آلاف طفل فى لندن وحدها · وننشر فيما يلى الرسالة التى كتبتها الليدى طومسون ، أمينة صندوق « مائدة عشاء الأطفال » للسيد فيكتور هوجو :

« لندن فى ٢٢ أكتوبر ١٨٦٧ ، ٣٥ سارع ديمبول ·

« سيدى العزيز ــ أستبيح لنفسى أن أرسل لكم النشرة التى تعلن عن الموسم الثانى لمشروع « مائدة عشاء الأطفال » فى حى ميريلبون بلندن ·

« لقد حظى الموسم الماضى بأكبر نجاح ، واذ اتفضلت بقراءة التقرير المرفق طيه ، فانك سوف ترى أن قرابة ستة آلاف طفل قد تناولوا العشاء فى غضون الشهور القلائل التى أعقبت تنظيم هذا المشروع ·

« ولما كان انشاء مشروع العشاء فى الحى يرجع الفضل فيه الى فكرتك ومبادئك ، والكلمات التى ألقيتها فى هذا الشأن ، ولكى أستشهد بقيمة هذه الوجبات وشيوعها لدى كل الأشخاص الذين عرفوها ، فانى أحدثك فى شأن هذه المعلومات التفصيلية ·

« واسمح لى أن أعبر عن عميق احترامى وشكرى اللذين يثيرهما فى نفسى عطفك الكريم على الفقراء ·

وتفضل ··· الخ ·

كيت طومسون

« ويعقب هذا الخطاب التحرير الذى يتضح منه أنه قد قدمت سبع وسبعون وجبة عشاء خلال تسعة أشهر ، وفى كثير من الأحيان وجبتان ، وأحيانا ثلاث وجبات يومية للعدد الكبير من الطلبات ·

« وبلغ مجموع الوجبات التى قدمت ٥٥٤٢ ، منها ٤٨٢٠ قدمت فى القاعة ، ٧٢٢ أرسلت الى منازل أطفال مرضى · وظهرت فائدة الغذاء الجيد بوضوح فى كلتا الحالتين · ولوحظ أن عادة الجلوس الى مائدة معدة اعدادا جيدا كان لها أثر طيب على الأطفال ، لأن وجبات العشاء هذه هى أيضا مصدر لسعادة الأطفال وسرورهم · بالاضافة الى الطعام الجيد اللذيذ الذى يقدم لهم ، الأمر الذى قلما يصادفونه · وان الفرحة التى تبعثها الوجبات فى نفوسهم لتعادل وحدها الجهد والمال اللذين تكلفهما هذا العمل » ·

« بريد أوربا فى ٢٢ نوفمبر ١٨٦٧ »

١٨٦٩

نطالع فى جريدة « بريد أوروبا » ما يلى :

وقعت تحت أنظارنا رسالة حقيقية(١) من فيكتور هوجو ، معنونة باسـم مؤلف كتاب « مارى دوفال » الذى أرسـل نسخة من كتابه الى فيكتور هوجو :

بين رسالتك يا سيدى وبين ردى عليها فترة حداد . واليوم أخرج من هذا الدليل الداجى ، ليل الآلام الأولى ، وأبدأ فى تنسم الحياة .

قرأت كتابك الممتاز . كانت مدام دورفال أعظم ممثلات هذا العصر ، ولم يكن ثمة نظير لها سوى الآنسة راشيل التى ربما كانت تفوقها لو انها اضطلعت بأداء الفن الحى ، الدراما التى تمثل الرجل ، والدراما التى تمثل المرأة ، الدراما التى هى قلب الانسان ، بدلا من أن تمثل التراجيديا الميتة . لقد تحدثت عن مدام دورفال كما ينبغى أن يكون الحديث . وانى لأشكرك وأنا متأثر من ذلك . مدام دورفال هى بعض من فجر عنصرنا . لقد سطعت فيه كما يسطع النجم العظيم .

كنت أنت طفلا عندما كنت أنا شابا . وأنت اليوم رجل ، وأنا شيخ . ولكن لنا ذكريات مشتركة . شبابك المشرق يتاخم شبابى الآفل . ومن ثم كان افتتانى بكتابك الجيد النبيل . فى هذا الكتاب روح وقلب وأسلوب ، فيه تلك الحماسة المقدسة التى هى فضيلة العقل .

الرومانسية (وهى كلمة مجـــردة من المعنى ، فرضها أعداؤنا ، بازدراء) هى الثورة الفرنسية فى الأدب ، وأنت تفهم ذلك ، وأهنئك من أجل ذلك .

وتقبل خالص التحية .

فكتور هوجو

أوتفيل هاوس فى ١٥ يناير ١٨٦٩ .

---

(١) وضع خط تحت هذه الكلمة فى الجريدة بسبب كثرة الرسائل التى تحمل كذبا اسم فيكتور هوجو والتى نشرتها بعض الصحف المفترية .

الى السيد جاستون تيساندييه

«اننى يا سيدى أومن بكل ضروب التقدم • فالملاحة الجوية تأتى فى أعقاب الملاحة البحرية ، وعلى الانسان أن ينتقل من الماء الى الهواء • وفى كل مكان يتنفس فيه الانسان نسيم الحياة ، يستطيع أن ينفذ فى الخليقة • حدودنا الوحيدة هى الحياة نفسها ، ويجب أن يتوقف الانسان عند نهاية عمود الهواء الذى يمنع ضغطه انفجار أجهزتنا • ولكن الانسان يريد أن يبلغ هذا الحد ، بل أنه يستطيع أن يبلغه ، ومن واجبه أن يبلغه ، وسوف يبلغه • وأنت تبرهن على ذلك • وانى لشديد الاهتمام برحلاتك الجريئة النافعة • ويتمتع زميلك البارع الجسور مسيو دو فونفبيل بملكة العلم الحقيقى الجليل • ولعلى أتمتع أنا أيضا بذلك التذوق البديع للمغامرة العلمية • المغامرة فى دنيا الواقع ، والافتراض فى دنيا الفكر ، هما الأسلوبان الكبيران فى أساليب الاكتشاف • ولا مراء فى أن المستقبل للملاحة الجوية • وواجب الحاضر هو العمل للمستقبل • وأنت تؤدى هذا الواجب • أما أنا ، الوحيد ، المتيقظ رغم وحدته ، فانى أتابعك بعينى ، وأهيب بك أن تتشجع » •

ابريل ١٨٦٩ •

ونطالع فى جريدة « كرونيك دوجيرسى » •

فيكتور هوجو ضد عقوبة الجلد

« تلقينا من أحد مراسلينا الخطاب التالى ، وهو رد الشاعر الكبير على الرجاء الذى قدمه اليه المراسل بأن يستخدم نفوذه واعتباره من أجل منع الحكم بعقوبة الجلد فى جميع المحاكم بالممتلكات الانجليزية • واننا نشكر فيكتور هوجو على غيرته » •

أوتفيل هاوس فى ١٩ ابريل ١٨٦٩ •

استلمت يا سيدى خطابك الممتاز • وسبق لى أن طالبت علناً وبشدة (فى رسالتى الى جريدة بوست) بالغاء هذه العقوبة المخزية ، عقوبة الجلد التى تشين القاضى أكثر مما تشين المحكوم عليه • وسوف أعيد المطالبة بالتأكيد ، اذ يجب أن يختفى العصر الوسيط • لقد أطلق عام ١٧٨٩ صيحة الانذار •

ولك اذا شئت أن تنشر خطابى هذا ٠
وارجو أن تقبل خالص مشاعر المودة ؟

فيكتور هوجو

أونفيل هاوس فى ٣٠ مايو ١٨٦٩ ٠

عزيزى الفونس كار ٠

لك أن تنشر هذا الخطاب اذا شئت ٠ أما أنا ، فانى لا أطلب نشره، ولا أبدى سببا لذلك ٠ انما هى دلالة من صداقتى الى صداقتك فحسب ٠

عرض عليهم بعضهم صفحة من انشائك ، وهى صفحة خلابة ، تشير فيها الى قائلا اننى «كنت فيما مضى كثير التردد على قصر الاليزيه» ٠ واسمح لى أن اقول لك بكل صراحة أنك مخطىء فى هذا ٠ لم أذهب الى قصر الاليزيه الا أربع مرات فى المجموع ٠ وفى استطاعتى أن أحدد تواريخ هذه الزيارات ٠ ومنذ استنكار « الرسالة لىا ادجارينى » لم أضع قدمى فيها ٠

فى عام ١٨٤٨ ، كنت من الأحرار فحسب ٠ ولم أصبح جمهوريا الا فى عام ١٨٤٩ ٠ وظهرت لى الحقيقة مغلوبا على أمرها ٠ وبعد ١٣ يونية ، حين رأيت الجمهورية صرعى ، صدمنى حقها ومس مشاعرى ، خاصة وانها كانت تحتضر ٠ عندئذ ذهبت اليها — الى الجمهورية — وانضممت الى الجانب الأضعف ٠

ولعل أقصى هذا الأمر فى يوم من الأيام ٠ وأولئك الذين يعتبون على لأنى لم أكن جمهوريا من قبل محقون فى عتبهم ٠ لقد وصلت الى الحزب الجمهورى متأخرا ، وصلت فى الموعد المناسب لأنال نصيبى من النفى ٠ ونلت نصيبى ٠ وهذا حسن ٠

صديقك القديم
فيكتور هوجو

« لم يساور هوجو أى شك فى أنى سوف أنشر رده ٠

« هناك جمال ، بل وشى من الدلال فى أن يعترف رجل على مثل هذا القدر من الذكاء بأنه أخطأ ، شأنه فى ذلك شأن المرأة التى تتمتع بحسن لا نزاع فيه ، ونقول مع ذلك : أنا اليوم قبيحة المنظر » ٠

الفونس كار

واليكم مقتطفات من الرسالة البديعة التى حررها فلبكس بيات ٠ ومن المعلوم أن فيكتور هوجو قد تمسك بقراره رغم العبارات البليغة المبرة التى حررها فلبكس بياب ٠

فى الخارج أم فى الداخل

عزيزى فيكتور هوجو :

« يفعل الطغاة البارعون فى مهنتهم برعاياهم ما يفعله الطفل بثمار الكرز ، اذ يبدأ بأسدها احمرارا ٠ وهم يتبعون الدرس النافع القديم الذى أعطاه اياهم أستاذهم تاركوينيوس(١) فيقطعون أعلا السنابل فى الحقل ، وهم يستقرون ويوطدون مراكزهم على هذا النحو ، ويبذلون غاية وسعهم لاستبعاد الصفوة الممتازة من أعدائهم ، فيقتلون البعض منهم ، ويطردون البعض الآخر ، ويحتفظون بالباقى ٠ يطرحون الروح ، ثم يقبضون على الجسد ٠ وها هم أولاء مطمئنون لعشرين سنة ٠ والتاريخ يؤكد أن كل شـخص وصـولى يرتفع باقصـاء الأحـرار ، ولا يسـقط الا عندما يسترجعهم ٠

« فاذا صح هذا ، فانى أتساءل اذن عمـا يكون واجب المنفيين ٠ الواجب ؟ لا ، هذه الكلمة غير صحيحة هنا ، لان الموضوع ، والحمد لله ، خاص بالوسيلة أكثر منه بالمبدأ ٠ والسلوك ؟ ولا حتى هذا ، ففى السلوك لون اخلاقى زائد عن الحد ٠ أقول هذا لان المسألة تتعلق بتكنيك (حيله ، أو تصرف) المنفيين ٠ يبدو لى أن تكتيكهم هذا يتشكل على حسب تكتيك الحاكم الذى يقضى بالمنفى ٠ فما عليهم الا أن يتخذوا الموقف المضـاد لتصرفاته ٠ فاذا طردتهم الدكتاتورية لظنها أنهم أقوياء ، فعليهم أن يعودوا عندما تعتقد أنهم ضعفاء ٠ والاستبداد فى الحقيقة لا يخشى سـوى الاشباح ٠٠ ويخشى الحاضرين أكثر من الغائبين ٠ يأتى المحررون دائمـا من الخارج ، ولكنهم لا ينجحون الا فى الداخل ٠ ذلك هو على الأقل ما حدث فى الماضى ، والماضى يدل على المستقبل ٠

« ٠٠ ولا ريب فى أن الرجل المنفى قد أصبح فى الخارج جـديرا بالوطن ، فله خدماته ، وله مخاطره ٠ وقد كشف لهم ابنك شارل عن هذه الخدمات والمخاطر بشاعرية طبيعية موروثة ، تجعلنى أومن بحق النبالة ــ لو لم أكن على هذه الدرجة من القبح ٠

---

(١) اسم أسرة تربعت قديما على عرش روما فى القرن السادس قبل الميلاد ــ المترجم ٠

« ولكن ، لنكن عادلين مع الفضائل فى الداخل • وليست الفضائل فى الخارج فى حاجة الى المزيد من الاطراء لكى تستطيع التعرف عليها • ان من ينكر جدارتك فانما هو ينكر السماء • أما أنا ، تلك الحصاة المتنقلة التى تتقاذفها الأقدار من سجن الى سجن ، وفى سويسرا وسافوا وفرنسا وهولندا وبلجيكا . فقد عرفت الشرطة الاوروبية كلها ، ولست أفخر بذلك ولا أشكو منه ، فليس فى الأمر ما يستحق الفخر أو الشكوى• وأما أنا وأصدقائى الذين وشى بعضهم بنا كما وشى بعض أعضاء مجلس الشيوخ بمارا . ووشى أحد السفراء بيلتيلبه . وتنكرنا فى صورة جى فوكس ، وعلقت صورنا من أجل « رسائل الى الملكة » ، وسببنا لك شيئا من المتاعب فى جيرسيى ، وقبض علينا ، وحوكمنا ، وهددونا بقانون الأجانب فى قضية « أورسينى » ، وبتسليمنا لدولتنا من أجل « الكومون الثورى » ، فانا قد نلنا نصيبنا من المحن واستمتعنا بأمان المنفى فى لندن ، كما استمتعت أنت به فى جيرسيى •

« •• قلت ان الواجب ، كالخطر ، لا شأن له بموضوع الدعوى ، فهو يؤدى بشجاعة فى انجلترا ، كما يؤدى بشجاعة فى فرنسا ، فى الخارج كما فى الداخل ، ولكن بقدر من الجدوى والفائدة على أقل ما أعتقد يؤدى بمزيد من التألق والضياء . وانما بمفعول أضعف ، بمزيد من الحرية والفخار الشخصى وانما بقدر من فظائع محاكم الأمن العام • واذا كانت قضية بودان ، وهى قضية شبح رجل مات ، قد أيقظت باريس ، فما بالنا بقضية « الشبح الأكبر » كما تسميك صحيفة « لوكنستتسيونيل » ، قضية شبح رجل حى ، قضيه فيكتور هوجو ! لقد أثار تيرتيه اسبارطة • ثم ثم قضية ليدرو . ولوى بلان . وكينيه ، وباربيس •• سوف يهدم قصر العدالة (وزارة العدل) • كان لسوفوكل(١) قضية التى ربحها ، وكان له شعرك الأبيض ، ولك أنت أمجاده •

« وأدرك ابنك فرانسوا ، أخو شارل ونديده فى الموهبة ، أدرك بنفسه ، وبنظرة أبوية ، الضرر الذى سببه لنا العفو الشامل • قال بحق ان لجيش المنفى مرشديه وأعلامه • وجاء العفو الشامل فسرح هذا الجيش وشتته وفرقه فى الداخل • وانهزم الجيش • عودة أخيل ، سقوط هكتور (٢) • ويموت أخيل . حقيقة ، ولكن طروادة تسقط • اذا كان

---

(١) شاعر يونانى فى القرن السابع قبل الميلاد ، حفز باغانيه شجاعة أهل اسبارطة فى حرب ميسينا الثانية — المترجم •

(٢) أخيل وهكتور من الأبطال الصناديد فى حرب طروادة « الالياذة » — المترجم •

الاقوى ينتظر انتصار الاضعف ، فقد انقلبت أحوال العالم • وداعا اذن بتروكلوس وجنده الميرميديون (٢) •

« ولم يرد أبدا فى خاطرى فكرة أنك مستريح فى ضحيتك ! اسلحتك تبرق فى الفضاء الشاسع كما تبرق الصاعقة • ولكنها تضيع فيهـــا أيضا • وهى خليقة بأن تفوز اذا تركزت فى الخارج وفى الداخل • عذرا فالصراحة من شيم الجمهورية ، وهى ليست عندى كما هى عندك ، فى مم من ذهب ، ولكنها من حديد • ما أشد الصدمة التى نصاب بها باريس اذا رجعتم اليها كلكم فى يوم ٢٢ سبتمبر !

« لقد جعلت من قصة « الرجل الضحوك » حدثا هاما ، وسوف نجعل من « الرجل الباكى » زلزالا !

« ومع ذلك فهذى مجرد فكرة • والتاريخ نفسه لا يأمر بشىء ، وانما يسدى النصح فحسب • والنصيحة لا تكتسب أية قوة اذا صدرت منى • أننى أعرض عليك أو بالأحرى أرفع اليك رأيى فى جرأه وتواضع ، فخذ النصيحة بما هى أهل له • ثم انى أضيف الى ذلك أنه ليس فى الشئون الانسانية شىء مطلق ، وأن أمور الماضى قد تخطىء بالنسبة الى المستقبل •

« وعلى هذا فان على كل انسان فى النهاية أن يقدر مصلحته الشخصية الاحترام والحرية لكل عقيدة ! ولعقيدتك أنت بصفة خاصة • ان لك ما للنجوم من المزايا ، مع كونك أشد روعة فى غروبك منك فى شروقك ! ولعله من الأوفق لك أن تبقى فى سمائك النارية ، مثل اله هوميروس ، لنغير المعركة • لكل شىء مهمته ، المنار يحمل الشعلة ، والموجة تحمـــل السفينة • فليكن الأمـــر كذلك ! ولكن مهما كان القرار المتخـــذ ، سواء تصرف الانسان بالجملة أو بالتفصيل ، فى موضع واحد أو فى مواضع مختلفة ، متجمعة أو مبعثرة ، عن بعد أو عن قرب ، بالداخل او بالخارج فى فرنسا أو فى الصين ، فالأمر سيان ، والواجب سوف يؤدى ، والشرف سليم فى كل مكان ، ان لم يكن النصر فى كل مكان !

« والشىء المهم بنوع خاص ، وقبل كل شىء ، أن نكون متحدين ، والا فنحن هالكون •

« لنكن متحدين ، فى الخارج أو فى الداخل ، حبا فى الحق ! لقـــد أعجبت بتوصيتك العظيمة فى بداية صدور جريدة « لورابيل » هذا هو الخلاص •

---

(١) بتروكلوس بطل اغريقى ، صديق أخيل ، اشترك معه فى حرب طروادة • قتله هكتور • والميرميديون جنوده ويتميزون بقصر القامة — « الالياذة » — المترجم •

« الى الأمام اذن جميعا ! غائبين كنا أم حاضرين ، كل ما يهتز ، كل من يعيش ، ومن يكره ، كل من عاس باسم الحق والنظام والسلام وحياة فرنسا ، كل من يفضل الحق على الناس ، والمبدأ على كل شيء ٠ كل من هو مستعد لأن يضحى فى سبيل هـذه الأشياء بالجسم والمال والروح والفن والمجد والاسم والأهل والذاكرة وكل شيء فيما عدا الضمير ، كل من هو على استعداد لان يهب نفسه حليفا للشيطان لو استطاع أن يهاجم فى أسوأ أشكال الشيطان ، كل من ليس له غير حفيظة واحدة ، يدخرها ! ويجمعها ، ويكدسها ، ويختزنها ، مثلما يفعل البخلاء ، فلا يصرف شيئا من حفيظته حتى لدى اشنع الاهانات ، كل من لا يبالغ فى التعاظم والتعالى أمام العدو المشترك ٠ الى الامام جميعا ضد العدو وحده ، بقلب واحد ، وساعد واحد ، وصيحة واحدة ، وهدف واحد ، الآباء والأبناء ٠ هدف اليوم والامس ، الهدف المثالى الأبدى لفرنسا وللعالم ، الهدف المجيـــد أبدا ، المقدس أبدا ، ليوم ٢٢ من هذا الشهر العظيم ٠ شهر سبتمبر : الحرية والأخاء والمساواة ٠

فليكس ببات

لندن فى ٩ سبتمبر ١٨٦٩

١٨٧٠

لوكريس بورجيا

الى السيد رافائيل فليكس

سيدى

اننى سعيد بعودتى الى مسرحى الكبير الجميل ، وبعودتى اليه معك أب العضو المبجل فى هذه الاسرة البديعة ، أسرة الفنانين التى ينيرها مجد راستيل .

أرجوك أن تشكر باسمى وتهنىء مدام لوران التى كانت فى هذا المعرض الأول ندا لذكرى الآنسة جورج العظيمة ، أو ربما فاقتها . لقد بلغ اسماعى صدى انتصارها .

وقل للسيد ميلينج الذى أعرف موهبته القوية اننى اشكره لانه كان فاتنا ، وفاخرا ، ومرعبا .

وقل للسيد تاياد انى أصفق له لنجاحه الذى هو جدير به .

وقل للجميع أنى أبعث اليهم بهتاف الجمهور .

انك تتمتع يا سيدى بذكاء رائع ونادر . الشعب العظيم فى حاجة الى فن عظيم ، وفى مقدورك أن تحقق لمسرحك هذا المثل الأعلى .

فيكتور هوجو

غرق الباخرة نورماندى

استخلصنا هذه القصة المؤلمة لغرق الباخرة نورماندى من رسالة لفيكتور هوجو .

(الورابيل فى ٢٦ مارس ١٨٧٠)

اوتفيل هاوس فى ٢٢ مارس ١٨٧٠

.. كتب الى بعضهم يسألنى عن التأثير الذى أحدثته فى نفسى وفاة مونتالامبير .. وأجبت : لا شىء ، لا البكم . ولكن البكم ما أضنانى .

كان فى الباخرة نورماندى التى غرقت فى عرض البحر منذ أربعة أيام بحار فقير ومعه امرأته ، وهما من أهالى هذه الناحية ، من قرية سان سوفير . كانا عائدين من لندن التى ذهب اليها الزوج بسبب « خراج » فى ذراعه . وفجأة ، فى دجى الليل ، انشقت الباخرة نصفين . وغاصت فى اليم . ولم يبق سوى زورق واحد ممتلىء بالناس الذين كانوا على وشك قطع الحبل الذى يربطهم بالباخرة . وصاح الزوج « انتظرونا سننزل » وأجابه بعضهم من الزورق : « لم يعد هنا مكان الا لامرأة واحدة . فلتنزل زوجتك » .

فقال الزوج : « اذهبى يا زوجتى » .

وأجابت الزوجة : « لا ، لن أذهب . لا مكان لك . سنموت معا » .

وكانت « لا » هذه رائعة . هذه البطولة التى يعبر عنها باللهجة العامية تعصر الفؤاد . « لا » رقيقة مع بسمة رقيقة أمام القبر .

وألفت المرأة المسكينة بذراعيها حول رقبة زوجها ، ومات الاثنان .

وأبكى وأنا أكتب هذا الكلام . وأفكر فى زوج ابنتى العظيم . شارل فاكيرى (١) .

فيكتور هوجو

ونشرت الصحف الانجليزية الخطاب التالى الذى حرر فى موضوع كارثة السفينة نورماندى .

(بريد أوروبا)

الى محرر جريدة ستار

أوتفيل هاوس فى ٥ أبريل ١٨٧٠

سيدى

أرجو التفضل بادراج اسمى فى قائمة التبرعات لأسر البحارة الذين

---

(١) أخو الكاتب الفرنسى اوجست فاكيرى الذى كان من المعجبين بفيكتور هوجو . تزوج ليوبولدين هوجو ، ابنة الشاعر الكبير ، ومات معها غرقا فى نزهة بالسفينة فى فيلكييه عام ١٨٤٣ ــ المترجم .

ماتوا فى حادث غرق السفينة نورماندى . ذلك الحادث الذى سوف نخلد ذكراه بالمسلك البطولى الذى أبداه الكابتن هارفى .

ويهمنى ، بهذه المناسبة ، وأمام هذه الكوارث الأليمة أن أذكر الشركات الفتية كشركة « ساوث ويسترن » بأن الحياة الانسانية ثمينة وان رجال البحر يستحقون رعاية خاصة ، وأنه لو كانت النورماندى قد زودت أول كل شىء بحواجز صماء من شأنها حصر الماء ومنع تدفقه . وزودت ثانيا بأحزمة انقاذ فى متناول الفرقى ، وثالثا بأجهزة «سبلاس» التى تضىء البحر ، مهما كانت شدة ظلام الليل والعاصفة ، والتى تيسر الرؤية الواضحة خلال الكارثة . لو كانت هذه الشروط الثلاثة التى تتيح متانة السفينة ، وأمن الناس ، واضاءة البحر متوفرة فربما لم يكن أحد قد هلك فى حادث غرق النورماندى .

وتقبل يا سيدى خالص آيات المودة .

فيكتور هوجو

١٨٨٣

فى رأس الطبعة الأولى من كتاب « من المنفى » (١٨٧٥) الملحوظة الآتية :

فى هذا الكتاب ، كما فى كتاب « السنة الرهيبة » يلحظ القارىء (فى ثلاثة مواضع) سطورا منقوطة . وتكشف هذه السطور عن نوع الحرية الذى كنا نتمتع به . فثمة أشياء نشرت فى عهد الامبراطورية ، لا يمكن أن تطبع بعد هذا العهد . هذه السطور المنقوطة هى شارة الأحكام العرفية ، وسوف تمحى هذه الشارة من الكتب ، لا من التاريخ . وليحتفظ بها من يريد ذلك .

أما فيما يختص بهذا الكتاب . فان ايضاح هذا الشىء أمر لا أهمية له . ولكن دناءات الوقت الحاضر لابد أن يشار اليها ، احتراما للحرية التى لا يجوز أن يسقط الحق فيها بمضى المدة .

ف.هـ

باريس ، نوفمبر ١٨٧٥

ولا حاجة بنا الى القول بأن هذه السطور التي حذفت في عام ١٨٧٥ قد أعيد طبعها في الطبعة النهائية .

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٥٠٣٨

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١١١٩ ـ ٨